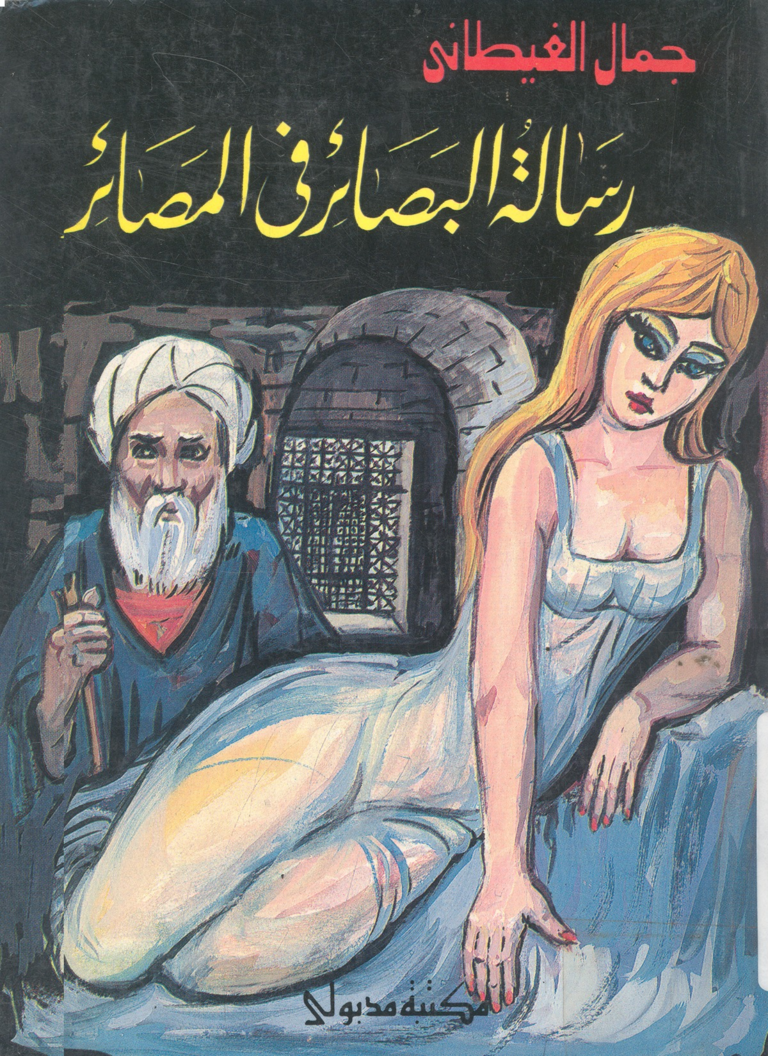

جمال الغيطانى
رسالة البصائر فى المصائر
مكتبة مدبولى

رسالة البصائر في المصائر

بقلم

جمال الغيطاني

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

الطبعة الأولى ١٩٨٩ روايات الهلال
،، الثانية ١٩٩١ مكتبة مدبولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وما تدري نفس ماذا تكسب غداً
وما تدري نفس بأي أرض تموت

صدق الله العظيم

ما شاء الله كان ..

يوما ما ، لحظة ما ، في موضع ما ، لاتعيه الآن ذاكرتي المجهدة ، المثقلة ، وقعت عيناى على هذه العبـــارة ، لافتة ؟ : ربما ، فى كتـــاب لا أدرى عنوانه الآن ؟ : ربما ، فى مدخل مسجد قديم ، أو على جدار لبيت عتيق ، أو حفر على مسند مقعد بال ؟

ربما ..

لكنني أرددها دائما ، وأخطهـــا على وريقـاتي عند خلوتي ، أزين كلماتها وأموج حروفها ، حقا .. ما شاء الله كان ، والا هل يمكن لنا تبديل ما جرى ، ما كان وان جاز التحرز للآتى ، وأخذ الحـوطة ، مع تحسب المفاجأة ، والمجهول ، وما لاندريه ، فسبحان من تنزه عن تأثير الزمان ، وتعالى من هو كل يوم فى شأن .

فيا أهل الوقت الذى لا نعرف من أمره شيئا ، يا أهل أزمنة لن نبلغها ، ستقصر عنها اعمارنا ، يا من ستسعون فى دهر خلا منا ، ومن آثارنا ، وما يمكن أن يشير الينا ، يا من ستسعون فى دنيا لن تتنفس هواءها ، لن نبصر مباهجها ، ولن نعرف ملذاتهـــا ، يا من لم تعرفوا ما عرفناه ، ولم تشهدوا ما عشناه ، ولم تعاينوا ما عايناه ، اعلموا أن ما مر بنا ثقيل ، وان ماعرفناه مضن ، وما قاســـيناه صـعب ، مر هذه السبعينيات من زماننا الكدر عقد انقلاب أحوال ، وأمور غريبة ، وبلايا ثقيلة ، وتحولات شملت جل القوم ، كذا ما تلاها ، وقد عاينت ذلك ، قاسيته ، تضاعف همى ، ناء وقتى بما عرفته .

يا من ستقع أبصاركم على تدوينى ، اعلموا أن انشغالى بالمصـــائر قديم ، موغل فى مكنونى ، عندما كنت صبيا ، غضا بعد ، لا أعى وقع مرور الازمنة ، ولا يطرقنى هاجس الموت ، أو الفوت ، كنت أتطلع الى أقرانى ، سائلا نفسى :

ـ أين سيكون كل منهم بعد عشر سنوات ، أو بعد عشرين ؟

وقتئذ كان العمر يبدو وكأنه ممتد أبدا ، والآتى بلا حد . والنظر شاخص الى الآتى ، الى المقبل ، أما وقد مررنا بما مررنا به ، وعرفنا ما عرفناه ، وتبدلت أمور ظننا لن تبيد أبدا ، وصار المتبقى ـ يقينا ـ

أقل مما مضى ، صرت أمعن النظر فيما جرى ، أكثر من التطلع الى ما سيجيء ٠

مرة حلقت راكبا طائرة صغيرة ، مروحية ، فوق جبال آسيا الصغرى ، جبال لم تطأها قدم ، وخيوط نحيلة من المياه ما هى الا بدايات أنهار متدفقة ، هادرة ، أطلت النظر الى مرتفعات كردستان المكسوة بالثلوج اثنى عشر شهرا ، خطر لى ، عندما كنت صغيرا ألعب في هذه الحارة القديمة من قاهرتنا القصية ، العتيقة ، هل تخيلت وقتئذ أننى بالغ هذه الفضاءات يوما ؟ ، أو غيرها من بقاع قصية وصلت اليها ، وجلت فيها ؟ لو أطلعنى ثقة ، على ما سيكون لما صدقت ، كانت حدود العالم عندى وقتئذ لا تتجاوز مائة ذراع ، والوصول الى الميدان القريب يبدو مغامرة غير مأمونة ، مجهولة العواقب ولكن ٠٠ ما شاء الله كان ٠

عندما أستعيد وجوها عرفتها في الحارة ، في الحي القديم ، في مدرستى الابتدائية ، الثانوية ، تتبعى الشعاب التى سلكت ، والطرق التى أدت ، أتعجب ، غير أننى انثنى قائلا ، لكل وجهة هو موليها ٠

لكن مع حلول السبعينيات التى قدر لى أن أمر بها ، أن أشهدها ، لاحت المنعطفات المفاجئة ، والمنحنيات الحادة ، والانقلابات العاكسة ، مما بدل وغير ، حتى البديهيات انكفأت ٠

هنا ٠٠ خطر لى أن أقيد ما أعرفه ، ما عاينته عن قرب ، أو ما ألمت به عن بعد ، أن أثبت شيئا من أخبار قوم دنوت منهم ، وأحوال بعض من سمعت حديث ثقاة عنهم ، أقدمت والله بدافع منى لم يطالبنى بذلك صحب أو اخوان ، لم أسع بغية كسب أو شهرة ، انما شرعت والقلب فيه ما فيه ، وعندى أمل وتوق الى تبدل الاحوال في عودة الامور الى أصولها ، واتصال المصاب بينابيعها ، والاشياء الى طبائعها ، يقوينى يقينى بتبدل الاحوال ، فما من شيء باق أبدا ، وكما تبدلت مصائر في الخضم ، وفنيت أعمار فى اللجة ، وانقضت أوقات قبل الاوان ، وهوت أغصان كان ممكنا أن تورق ، وأتلفت أرحام كان ممكنا أن تفيض على البشرية بمدد ، كما جرى ذلك ، يمكن مع الصيرورة اعتدال الاحوال ، حتى وان لم أشهد ذلك في وقتى ! آمل يا من لم تفدوا بعد الى عالمنا هذا أن تبلغكم صحفى ، واعلموا أننى قصصت طرفا من بعض ، فلبست الملم ، المحيط ، لم أتبع منهجا مسبقا ولم التزم أسلوبا معينا ، وربما رأى المتعجل ، تباعد الحلقات ، وتنائى الضفاف ، أقول عندئذ : أمعن البصر ، انما أردت الاخبار عن بعض

من عرفت ، ليس بينهم ملك أو رئيس ، أو صاحب ســـلطان • ممن تقلبت بهم الاحوال فجأة ، ربما بدا كل منهم قصيا عن الآخر ، ربمــا تقاطعت أحوال بعضهم ، أو تماست مصائرهم فى لمح خاطف ، مارق ، لكن هذا ليس بالاساس ، انما رمت الانباء عن جوهر وقت ، لن يصلكم منه الا عناوين مقتضبة ، وآثار خفية لا تبين لكنها فاعلة •

اعلموا انى آثرت الحيدة ، الا أتدخل فى العموم ، لا أجاهر الا اذا لزم التنويه ، وغمض القصد ، واستبهم الامر ، وانى لطامع فى العفــو عند كل تقصير يلوح ، أو عند أى موضع يكمن فيه سوء فطنة ، فلن يشفع لمن كان مثلى ، الا الاطلاع على أحوال نالت منى ، وقصت قدرا من عمرى ، ونبل نواياى ، حتى وان حادت عن قصدها الآمال ، وعذرى أن الانسان ، جواب ، وثاب ! ••

أبدأ بحكاية حارس الاثر

•• هو عاشور بن مهدي النعماني ، حارس قبة قلاوون وخفيرها ، ينادونه منذ القدم « ياعم عاشور » ، حتى أولئك الذين يبدون أكبر منه سنا ، هادئ ، راسخ الحركات ، مقتصد اللفظ ، وافر الشيبة ، يميل الى بدانة ، أسمر اللون ، غامقه ، بطيء الخطـــو ، خفي النظر ، يرتدى معطفا فوق جلباب صوفي في الشتاء ، ومعطفا من قمـــاش خفيف في الصيف ، على رأسه طاقية ، في الشتاء وخـلال الايام الباردة التى تهب فيها رياح مثيرة للاتربة ، والقشعريرة ، يلف شالا حول رقبته ، عندئذ تنأى نظراته ، وتبدو قادمة من بعيد •

اعتاد القوم حضوره الدائم ، نادرا مايبتعد عن القبة ، اذا مشى فالى بائع الشـــاى الواقف بجوار سبيل محمد على باشــــا المواجه لجـامع الناصر محمد ابن قلاوون ، الملاصق للقبة ، يقعد فوق الدكة الخشبية ، يرشف الشاى ، عيناه متجهتان دائما الى مدخل القبة ، حتى اذا لمح زائرا أجنبيا أو مفتشا من رجال مصـلحة الآثار ، أو غريبـــا أيا كان ، يدع ما بيده ، يتجه مسرعا •

حاضر ، موجود ، لايغيب عن المكـان ، يراه الساعون أول النهار ، أو القافلون قبل المغيب ، أطفال الحى اعتادوا رؤيته حتى شبوا وتفرقوا الى الجامعات ، أو المهن المختلفة ، بعضهم تزوج وانتقل الى أحياء بعيدة ، اذ يرجع أحدهم لزيارة أسرته ، أو يمر مرورا عابرا يقبل عليه متهـللا ، فلكم أثار حضوره ذكريات نائية ، واسـتدعى من الماضى المندثر صورا شتى ، وحنينا ضافيا عند من شبوا ، وابتعدوا ، أو اخذتهم السبل •

عرف بابتسامته ، وهدوئه وصوته الذى لا تتغير درجته ، وانتقال الالفة منه الى محدثه حتى لتطيب الوقفة معه ، غير أن ما اشـــتهر به ملازمته للمكان ، حتى ليرى عند الفجر قاعدا أمام البوابة المغلقة وحيدا تماما ، فى هذه المنطقة من شارع المعز ، والتى يسودها الظلام والوحشة بعد نزول الليل ، فما من بيوت مسكونة قريبة ، ما من محال تجارية ، يتجاور البيمارستان بمسجد المنصور وقبته ، ومسجد الناصر ، وجـامع برقوق ، هذه المسافة من الشارع وحدة متضامنة من زمن عتيق ، مندثر ،

تجاهد البلى ، وعاشور حارسها ، يراه الســـاعون الى صلاة الفجر فى مسجد سيد الشهداء ، مولانا الحسين ، يحيونه ولكنهم لا يتوقفون معه ، كأن خشية تدركهم ، تبدو وحدته مخيفة ، ولزومه المحل غريبــا ، حتى قيل انه يوءاخى جنية خفية ، انه يتقن سبع لغات ، وقيل أكثر ، مع انه يخط اسمه موقعا بصعوبة ، وهذا ليس غريبا هنا فى منطقة يقصــدها الاجانب من كل صوب ، خالطهم زمنــا ، بعضـــهم عابر ، يكتفى بطلة موجزة ، وآخرون يجيئون للمكث أوقاتا طـــويلة ، يبقى الواحد منهم ساعات امام ركن قصى داخل القبة ، منمنم ، مزخرف ، أو أمام مربع من الرخام الملون ، أو لوحة خط ، أو حشوة خشبية ، أو عمود ســامق ، يغيب أحدهم سنين ويرجع ، أول ما يقصد ، الســؤال عن عم عاشور ، يسارع الى لقائه ، لكم تلقى من خطابات أرسلت اليه من بقاع شتى ، كان ينتظر قدوم من يفهم اللغة حتى يقرأ له المكتوب ، انه يتكم بالألســنة الاجنبية ، لكنه لا يقرأ .

عم عاشور قديم الحضور والاقامة ، له بالناس صــحبة أكيدة ، ومحبة ، وعندهم له ود مقيم حتى وان لم تتصـــل الجسور المتينة ، فمع ما يصدر عنه من ود ، لم يكن من السهل مخالطته ، مع انه لم يصــد مخلوقا ، ولم يبد الجفوة ، ولم يصدر عنه اللفظ القبيح الا مرة واحدة ، وانى لمورد تفاصيلها بعد حين .

وعندما دخلت سنة ألف وتسعمائة وست وسبعين ، كان قد امضى عمرا باكمله وأتم الخدمة ، أنهى المدة ، وجب عليه أن يمضى مخليا مكانه لآخر يقوم بعمله ، الا أن رجال المصلحة القدامى ســعوا وتوســطوا ، وكتبوا لمن بيده الامر ، حتى نجحوا فى استصدار قرار بمد خدمته بعــد سن الستين ، فما من أحد يعرف القبة ومكنوناتها ويحافظ عليها مثله ، ثم انه شبه مقيم بها ، وما من مــكان آخر له ، منذ الاربعينيات رتب له المرحوم العلامة حسن عبد الوهاب ســـكنا فى بيت عتيق قريب ، من البيوت التى ضمتها مصلحة الآثار منذ الثلاثينيات عنــدما كانت تعرف بلجنة حفظ الآثار العربية ، بيت مواجه للقبة ، على شــمال السالك الى ميدان بيت القاضى ، يعرف بمنزل محب الدين ، آخر من امتــلكه قبل اعتباره أثرا عاما يجب المحافظة عليه ، جميل الواجهة ، رقيقها ، متعدد الغرف والقاعات ، لم يشـــغل منه الا حجرة واحدة ، الا أنه لم يهمل الباقى ، داوم على تنظيف الاركان القصية ، والمداخل ، وازالة أعشــاش العنكبوت ، وما تخلفه الطيور فوق المشربيات ، يكنســه مرة كل يوم ،

يمسح بلاط المبنى كله صباح كل جمعة ، تتصدر حجرته مصطبة حجرية فوقها مرتبة وأغطية ، اما ملابسه فمصفوفة فى قفة بالية عتيقة ، حال لون خوصها ، أنها القفة التي حملها أبوه عند نزوله مصر أول مرة ، رفض أن يدق مسامير في الجدار يعلق عليهـا جلابيبه ومعطفيه الشتوى والصيفى ، حتى لا يؤذى الاثر ، لتلك القفة عنده معزة ، انها من رائحة الوالد ، بل انها كل ماخلفه له ، لسبب ما لم يبح به قط ، ربما لجهله به ، أو بقصد الكتمان ، طفش الاب من بلدته النائية مصطحبا وحيده ، نزلا مدنا لم يسمعا عنها ، وخرجا من قرى فى عز الليـل ، واقتربا من بلاد صغيرة والغروب مكتمل ، وهجا منها قبل انبلاج الفجر ، حن عليهما أغراب ، وتجاهلهما ذوو قربى ، كان والده يخشى الآخـرين ، ينأى عن المجالسة ، يردد دائما ان الاقتصار عبادة ، لم يثق ولم يأمن الا لشخص واحد ، من عطف عليه ، وأمن له لقمة العيش ، من ألحقه بخدمة القبة والمسجد ، وداراه فيهما ، حسن أفندى عبد الوهاب ، الطيب ، المتواضع، المتبحر في علمه ، من يصغى اليه كبار العلماء ، أجـانب ومصريين فى رهبة واحترام ، عليه رحمة الله ، كان عند الوالد دراية بنحت الاحجار القديمة ، قيل انه كان يعلم الصبية الصغار في أقاصى الصعيد ، تعب لطول هجاجه ، وانتهى به تغربه الى حسن عبد الوهاب ، رجاه أن يلحقه بمكان قريب من مثوى الحسين الحبيب ، وعندما استقر فى قبة قلاوون رضى وهدأ ، بعد أن أمضى زمنا لا يحتويه موضع ، قضاه نقالا ، فى هجاج خفى الاسباب ، ومما ردده عم عاشور دائما أن والده لم يفته أداء فرض واحد في مسجد الحسين ، ومهما بلغ انهماكه واستغراقه فعند اقتراب موعد الصلاة يدع ما فى يده ، يتجه فورا الى الضريح ، فى الفجر يسلك الطرق الخاوية ، ميدان بيت القاضى ، شارع بيت المال ، اذ يلوح المسجد عند المنعطف أمام مدرسـة خان جعفـر ، يلبى ، يمد الخطى منشرح الصدر ، رضى البال ، لم يفارق ابنه عاشـور قط ، يده فى يده دائما ، حتى عند ذهابه لشراء طعام الافطار ، كان يخشى من شيء لم يفصح قط عنه ، لكنه لم يهدأ الا بقربه من ضريح الامام الشهيد ، هما فى أمن ممـا يتهددهما ما بقيا بقربه ، مرة واحدة كان يفارق فيها ابنه ، مرة لاغير ، اذ انه وهب جهده صباح كل جمعة لتنظيف ميضأة مسـجد الحسين ، ونفض الغبار عن العتبات المؤدية اليه كان يصحب ولده ، يتركه قاعدا ، بجوار الضريح ، يوصي عليه الشيخ الضرير ، حارس المكتبة القرآنية ثم يمضى لتأدية الخدمة .

لم يتخلف قط ، لم يرحل الى أى جهة أخرى ، حتى جرى ما جرى ذات نهار لم يكن على بال أو في خاطر ، لاينساه عم عاشور أبدا ، طلع الوالد الى المئذنة العتيقة ، كان عليه أن يثبت أحجارا جديدة بعد تسويتها وصقلها ، وفي عتمة غير غميقة مد يديه ، طالت يده حية كانت تلبد هناك ، صرخ :

ــ « آه يابوى » .

لم يحط منطقا بعدها ، لم يلحقه أحد ، لم يوقف سريان السم داخله أحد ، لم يلحقه ترياق ، ولا علاج ، وعندما سكن جسده متيبسا ، مزرقا، هامدا بعد طول تفرب ، وخشية ، بدأت وحدة عم عاشور ، واكتمل يتمه ، حار ، ولم يدر الى أين يولى ؟ وأين يقصد ، وأى باب يطرق ؟ لكن حسن أفندى عبد الوهاب أمن له بقاءه ، وعلى يديه استقر امره ، وجرى رزقه ، تعهده العالم الاثرى الطيب ــعليه رحمة اللهــ ورعاه ، أما عاشور فلزمه ، وتعلم منه ، وأخذ عنه ما يستعصى على الحصر ، استمر بالقبة ، أصبحت حدود دنياه ، وخلاصة معرفته ، يجول بها نهارا ، ويفتش أركانها ليلا ، ينقب عما يشوب نظافتها ، لايطيق عقب سيجارة ملقى ، حتى اذا توافد المغيب ، وغمر الشارع ضباب شفقى ، ولاح المارة كأنهم يسعون عبر أزمنة خفية ولا يقطعون مكانا ، حركتهم على حدود المادة المحسوسة ، تبدأ وحدته الليلية ، يغلق البوابة الضخمة المطعمة بالنحاس ، التى عبرت عصورا وحقبا ، يبقى بمفرده داخل هذا التكوين الهائل من المعمار ، يفترش الارض وراء البوابة مباشرة ، يأتنس بأصوات الطريق ، وقع خطى ، اقتراب مارة ثم ابتعادهم يميز بينها خطوات عسكرى الدورية ، خطى بطيئة ، أخرى حثيثة ، خطى مقدمة تعرف الى أين تسعى ، أخرى وجلة ، مترددة ، بعضها اعتادها ، أحيانا يتوقف البعض على مقربة ، يتبادلون حوارا ، اما محتدما اقتضى تمهلا ، فوقفه ، أو هامسا قبل مواصلة السير ، لا يخطر ببال العابرين أن وراء هذا الباب خلف حجب العتمة تلك ، من يصغى ، ويحذر ، ويتأهب ، ويأتنس بمن لا يعرف ، ولكم سمع ، ولكم أصغى مستوفزا ، متنبئا ، لا يبدل رقدته اذا ما ابتعد الحديث عن القبة والمسجد ، اتقن أصوات الطريق والمكان ، اقتضى الامر زمنا حتى يتعرف على همسات القبة ، وهسهسات الاركان القصية ، وطقطقات الاخشاب ، لم يدرك الا مصادر قلة منها ، كذا منابعها ، مساربها ، مساراتها ، وظل البعض مستعصيا عليه ، غير مبرر ، هذه الفتحات ، تلك الثقوب ، الكسور فى الزجاج المعشق ، مرور

الهواء هنا غيره هناك ، وصدى الصوت القادم من بعيــد لا يتشابه اذا ما تكرر ، للصيف أصوات ، وللشتاء أصـــداء ، للحر ضجيج وللبرد كمون وخواء ، وغرابة أصوات وأصـــداء لياليه ، أما ايقاع المطر فلا يتشابه ، الرخة غير الهطلة ، أما السيل فمغاير تماما ، أضر القطر بالمبنى ما كان خافتا ، رقيعا ، أما الزواحف والفئران والعرس والقطط فلكل منها مجمل وتفصيل ، ربما يرجع جمود مـلامح عم عاشـــور الى هذه الفترة المبكرة من عمره ، والتى كان ينفرد خلالها بالتكوين كله ، يتوحد به ، ليس بالمكان المبهم فقط ، انما بزمنه الخالى ، يلملم نفسه فى العتمة ويحوم مهوماً عند حواف العصور النائية ، كأن هجاجه الطويل انتقل الى الازمنة ، على مقربة منه يرقد السلطان منصـــور منشىء القبة ، وابنه الناصر ، وشقيقه خليل ، يعرف من حسن أفندى عبد الوهاب أن الناصر محمد كان به عرج ، فيوشك أن يلمح ذلك ، فى بقايا الرقدة الابدية ، أو فى الظلال التى تجوب الفراغ بعد اكتمال الليل ، حتى بعد انتقـاله الى بيت محب الدين الذى خصـصه له حسن عبد الوهاب رحمه الله لم ينأ عن القبة ، كان يقوم فى عميق الليالى ، يتطلع من نوافذ البيت الضيقة المغطاة بخشب الخرط الدقيق الى القبة ، الى هيئتهـا الليلية المهيبة ، الغامضة ، الى توحدها وانفصالها عن العتمة فى الوقت عينه ، يطيـــل النظر ثم ينثنى الى مرقده ، أو ينزل ليتجه الى قعدته أمام الباب ، وكان أمرا خفيا صدر اليه .

لم يكن يثق ، ولم يتخل عن صمته ، أو اقتصاده فى الكلام الا عند مواجهة من عطف عليهما ، من جـرى على يديه رزق والده ، ثم هو من بعده ، العالم ، العلامة ، حسن أفندى ، صـــاحب المؤلفات الجامعة ، والكتب النادرة ، بعضها نفد حتى ليعد اندر من المخطـوطات ، يدعو له فى خلوته الليلية ، وفى خضم مشغوليته .

عندما سأله عبده المزملاتى فى حمـام السلطان المجاور ، عما اذا كان يخشى العفاريت والجن ، جاوبه قائلا ان العفاريت الحقيقيين هم بنى آدم . ثم قال ان الجن لا يؤذى مؤمنـا ، وان مـولانا الحسين يحمى المنطقة ، وانه وصل ما انقطع برحيل والده ، فلم يتخلف عن المضى الى الضريح صباح كل جمعة لكنس جنباته ، وتنظيف الميضأة ، وأضاف من عنده تقديم الماء الى الظامئين من قصاد المولى ، الحبيب .

غير أن تاجرا للفحم يقع دكانه على مقربة ، وصـاحب متجر يبيع

أدوات المقاهي • أكدا أن عاشور يأتنس بالجن في المبنى ، وأنه يحب واحدة من الجن بعد أن تمثلت له بشرا سويا ، وانها تتجلى له بعد صلاة العشاء ، وتمضي الليل معه حتى ما قبـــل اذان الفجــر ، عند ظهورها تتبدل القبة المعتمة حدائق غناء ، أما الاعمدة الرخامية الهائلة فتنقلب أشجارا تصدح بينها الاطيار والعصافير ، وما لا تقدر مخيلة على تصوره ، أما الزوايا المهجورة ، والمنحنيات ، والفراغات ، فتتحول الى ممرات مفروشة بالسوسن ، وترتدى الجدران كســـوة من يشب وعقيق ، أما السقف فمن فيروز خالص ، هذه الجنية ترتد بكرا كل أسبوع ، وعليه أن يفتضها من جديد ، لذا يتهيأ بذهابه الى الحمام عصر الخميس ، ليزيح عن جســـده ما علق به ، حتى يلتقاها نقيا ، ليليق بعروس دائمة التجدد ، أكد تاجر أصـــله أعجمي متخصص في التنباك ، انه يكتنز عطايا من الذهب ، خبأها في مكان مستور •

يبدو أن ما أشيع عنه لقى من صدقه ، اذ جاءه موظف حكـومي نحيل يسكن ناحية الخرنفش ، رجاه التوسط عند أهل بيته من الجن حتى تعد له عملا يقـــوى به أمره على أداء واجباته تجاه امرأته ، أدركه وهن ، وأم البنين لا تطلب ، تستحي ، لكنه لا يقدر على مواجهتها ، كل ما لجأ اليه من وصفات ودهون ومعاجين لم يصـــلح عطبه ، كذا جاءته شابة جميلة ، ممتلئة قليلا ، طلبت التدخل من امرأته الجنيـة ليتبدل حظها المائل ، تزوجت مرتين ولم تعمر ، أخشى ما تخشـاه أن يتم طلاقها في المرة الثالثة ، مع أنها كاملة ، لا ينقصها شيء كامرأة تعرف واجباتها تماما ، والنساء يغرن منها •

جاءه آخر من حي القلعة ، رجاه أن يوسط جنيته لتوقف موت أولاده ، أن يمده بحجاب منها ، انجب ستة رحلوا كلهم ، أطولهم عمرا لم يتم العامين ، رجاه بحرارة ، بل انه انحنى ليقبل يده •

أصغى الى ما طلب منه ، قابلهم بصمت حائر ، النفي لا يجـدي ، يزيد اليقين ثباتا ، كذا الصمت ، يتطلع اليهم ساكن التعابير ، حتى ظن بعض من لجأوا اليه أن به مسا ، أو ان أمرا من الجن صدر اليه يحرم عليه المجاوبة •

يقعد صامتا ، متوحدا ، فوق حجر قديم ، عاقدا يديه أمام صدره انها هيئته التى اعتادها المارة ، وأهالي الناحية ، بعضهم يحييه بسرعة ، وآخرون يحيدون ليصافحوه ، جيرانه الاقربون نهاريون فقط ، أصحاب المتاجر القليلة الواقعة في جزء من الجهة المقابلة ، أو على جانبي الطريق المؤدى الى ميدان بيت القاضي ، أقرب منزل مسكون قرب مدخل حارة خرنفش •

أحيانا ينتقل الى الرصيف المقابل ، يرفع بصره الى الواجهات الشماء السامقة للقبة ، والمساجد المتجاورة ، يطيب له تأملها ومداومة النظر اليها ، أوقات يرصد الظلال ، يركز الذهن والنظر لادراك حركتها وتحولها ، تلك لحظات قال عنها وتحدث للمرحوم حسن أفندى عبد الوهاب ، لا يدرك فيها الزمن ، ولا ينتبه الى أقرب الناس ، حتى لو وقف على رأسه زاعقا ، أما اذا تعكرت خلوته بتلك الواجهات فهذا أمر فيه الكدر كله ·

كان عم عاشور قليل اللفظ ، مقتصد الكلمات ، يصغى طويلا ويتحدث قليلا ، الا عند شرحه لتفاصيل القبة ، يتدفق ، يدركه انفعال فيشد به محدثه ، أو يأخذ بذراعه ليسدد البصر هنا أو هناك ، وهذا لم يكن يبدأ الا اذا لمح اهتماما حقيقيا ورغبة أكيدة فى الفهم ، حتى قيل ان رؤية القبة بصحبة عم عاشور شىء ، والفرجة بدونه شىء آخر ، عالم انجليزى شهير ، تخصص فى العمارة الاسلامية ، هو العلامة كريزويل ، قال عنه : عاشور لسان الحجر ، لكل نقش عنده معنى ، مغزى ظاهر ، وآخر باطن ، فالخطوط لم تتقاطع مصادفة والدوائر لم تكتمل عبثا ، ينبه الى الصمت القديم ، والضوء الملون ، الى اتصال مركز القبة السامق بمنتصف مدفن السلطان وأولاده ، اعتاد الوقوف بمفرده فترات طويلة شاخصا الى الارتفاع السامق ، الى النوافذ المغطاة بالجص والزجاج الملون قرب المنتهى ، منها تنفذ حزم الضوء وتتقاطع عند توسط الشمس للسماء ، أما الفتحات الثمانى فيتسلل الضوء منها مائلا ، تتلاقى أطرافه عند خشب الضريح المرمرى ثم يتراجع منسحبا خفية ، لعم عاشور تفاسير شتى لحركة الضوء ، لامتزاج ألوان الطيف وتفرقها ، ينبه الزائرين الى أن الامر ليس مصادفة ، يؤكد أن القبة فى الصباح غيرها عند الظهر ، أما القبة ساعة الغروب فتكون مغايرة ، حتى اذا ما اكتمل الليل بدلت تبديلا ·

احترمه علماء المصلحة القدامى ، ألم يصحب حسن عبد الوهاب ، وكريزويل الانجليزى ، وفييت الفرنسى ، الا أن معظم هؤلاء مضوا ، اما بالتقاعد الحتمى ، أو السفر الى البلاد العربية · أو بالرحيل الابدى ، رحمة الله عليهم أجمعين ، جاء شبان حديثو الخبرة ، شاحبو التجربة ، لو تزوج لانجب من يتجاوزونهم عمرا ، يبدأون الشرح ، كأنهم يعيدون باللفظ ما قرأوه فى الكتب أو ملفات المصلحة ، يصغى معتصما بصمته ، لا يتدخل الا عند سماعه الخطأ الفادح ، يسر به ولا يبديه علانية حتى لا يحرج المتحدث اذا كان يصحب ضيفا غريبا ، بعضهم

يصغى ، يحرص على الاستيعاب ، وأغلبهم يبدى اللامبالاة ، بل الجفوة أمثال هؤلاء لا يخطو معهم خطوة ،انما يرقبهم من بعيد ، وبعد انصرافهم يسترد قعدته ، عند مدخل القبة شاخصا الى الواجهة الجصية ، أندلسية النمنمة ، ولتلك عنده منزلة خاصة وهوى ! .

في رقاده الليلي يستعيدها جزءا ، جزءا ، أحيانا يمسك قلما ، يرسم النقوش من الذاكرة فلا يخطىء ، أحيانا يطيــل الوقوف أمام الضريح المحاط بمقصورة من الخشب المخروط ، ينتهي الشاهد بعمامة رخامية مستطيلة ، تتوسطها ريشة مشرعة ، يصغى كأنه يحاول رصد دبيب العدم .

وقفاته وسكناته تلك ، رسخت عند البعض الى حد اليقين صلاته بالجن ، لكن لم ير أحد منه شذوذا ، أو تصرفات غير محمودة ، ويخرج من القبة الى بيت محب الدين عند الغروب ، وقد يوسع خطاه قاصدا مسجد الامام الحسين ، لا يلحظه أحد عند رواحه ومجيئه كالظل الذى يغطى الطريق ثم ينحسر ، غير مرئى فلا يدرك غيابه الا بعد تمامه ، يظهر أحيانا أمام القبة ، كأنه يولد من الظل ، لمظهره عتاقة الموقع يبدو من زمن مغاير مع أن الاوان واحد ، والوقت لازم ، لايذكر أحد أنه خاض مشاجرة أو اشتبك في عراك ، الا أن عبـــده المزملاتى ، وآخرين ، لا ينسون أبدا ما جرى منه في ذلك اليوم البعيد .

حدث أن جاء رجل يرتدى الملابس البلدية ، مســتطيل الوجه ، كث الحاجبين ، هذا ما تبقى منه عند عم عاشور خلال السنوات التالية سلم وقعد الى جواره ، غير مبال بالتراب ، قال انه سمع عن عاشور ، لكنه لم يكتف ، انما تابعه عن بعد ، وعن قرب ، حتى انه يعرف عنه أمورا شتى !

هنا ابتسم الرجل ، الا أن عم عاشور بدا غير منتبه ، غير مهتم ، قال الرجل انه سيدخل الى الموضوع مباشرة .

بدون لف أو دوران ، يعرض عليه مائة جنيــه ، ورقة واحدة ، سيدفعها اليه بمجرد سماعه لفظ القبول ، انه يثق به ، ما يطلبـــه باختصار ، حشوة من الرخام الملون ، مســاحتها خمسون سنتيمترا مربعا لا غير ، انها في الركن الشمالى ، موقعها معتم ، وجودها مساو لغيابها ، واكتشاف اختفائها صعب ، ومع ذلك ســيتم تركيب بديل لها ، الزخارف هي هي ، الرخام هو هو ، مستحيل اكتشاف التغيير كل المطلوب منه غض النظر عن دخول رجلين بعد الغروب ، عملهمـــا سيتم بسرعة ، وصمت ، في وقت وجيز ، انهما خبراء في فك الرخام

لن يشعر أحد ، لن يدرى انسان ، ها .. ما رأيك ؟ جرى ذلك في أواخر الاربعينيات ، ذات شتاء ، بدا وجه عم عاشور في الضوء الرمادي غامضا ، غير موح بما يدور داخله أثناء الاصغاء ، الا أنه ردد بعد انتهاء الرجل :

ـ مائة جنيه .. مائة جنيه ؟

أكد الرجل :

ـ نعم ، والمبلغ في جيبي الآن .

على مهل استدار عم عاشور ، بدت سمرته وكأنها قدت من ظلال القبة ، رفع يديه ، لم توح هيئته بما أقدم عليه بعد لحظات ، اذ أطبق براحتيه على عنق الرجل ، قام واقفا ليتمكن ، تبدلت معالمه ، تقلصت ، بدا قاسيا ، ذا حضور مفاجيء ، مغاير لما كان يبدو عليه دائما ، كأن آخر حل محله ، زعق مرددا :

ـ ياكفرة .. ياكفرة .

جحظت عينا الرجل ، تدلى لسانه ، وتباعدت ثناياه ، انفرط عقد ملامحه ، ولولا مرور ثلاثة من تجار الخيش بالخرنفش ، وبائع عصير السوبيا لاكتمل الموت ، أحاطوا بعاشور ، صاحوا به أن يخزى الشيطان ، أن يذكر الله ، بذلوا ما عندهم من جهد وقدرة ، حتى عندما توسلوا اليه ، لم يفلحوا ، ولكن عندما قال أحدهم :

ـ وحياة أبوك ياشيخ .

عندئذ التفت اليهم متعبا ، متخليا عن حنقه ، مشمئزا ، لم يدر أحد كيف اختفى الرجل الذى ولى هاربا وكأن أرضا انشقت وبلعته .

قال عم عاشور فيما بعد أن ما حيره ، كيف عرفوا أن ما يؤثر فيه هو ذكر والده ، التوسل بسيرته عنده ، مع انه لم يتحدث الى أحدهم ، لم يسع الى متاجرهم ، تردد .. هل يبلغ الشرطة ؟ ، لكنه لا يعرف الرجل ، غير انه أفضى بما جرى الى حسن أفندى عبد الوهاب أثنى عليه ، اوصاه باليقظة ، هذا يعنى أن القبة منظورة والعيون عليها ، لكنه نصحه بالتروى في المرات القادمة ، لو قتل الرجل لراح على نفسه ، انه لا يريد ابدا أن يراه في السجن .

أومأ برأسه مرات ، ما يقوله حسن أفندى لا يناقش .

غير انها ليست المرة الاولى التى يبلغ فيها هياجه المدى ، بعد سنوات عديدة من هذه الواقعة ، في نهاية الخمسينيات ، فوجيء المارة وأهالى الحى الذى تزايد زحامه ، وقامت فيه عمارة جديدة عند مدخل الخرنفش ، الوقت قرب حلول العصر ، ارتفع صوت هائل ، غاضب

من داخل الممر المؤدى الى القبة والمسـجد ، يصـاحبه صراخ امرأة ، فوجئوا بعم عاشور يدفع رجلا أجنبيا أمامه ، يمسك به بيده اليـسرى وقد لوى ذراعه خلف ظهره ورفعها حتى توشك أن تدنو من رقبته ، أما يده اليمنى فتنهال بالصفع على القفا الذى انحسر عنـه القميص ، أما ما أذهل القوم ، فرؤية الاجنبى بدون بنطلون ، نصفه الاسفل عار تماما ، حتى لاحظ البعض أن عضوه بدون ختان ، خلفهما تعدو امرأة تصرخ بلغة غير مفهومة ، بينما يداها تحاولان احكام قميصها المفكوك .

والحكاية انهما جاءا كغيرهما من الاجانب الذين يقصدون القبة للزيارة ، رافقهما داخلها ، وعندما أنهيـا جولتهمـا أبديا الرغبة فى الصعود الى المئذنة ، وافق على مضض ، صحبهما الى الفناء الخلفى الذى يبدأ منه السلم المؤدى الى سطح القبة ، ومن هناك تبدأ قاعدة المئذنة حيث الدرجات الضيقة الملتوية التى تصل الى الشرفة الاولى ، كان عم عاشور قد تقدم فى السن ، صارت حركته أبطأ ، وبدا الشـيب فى فوديه ومقدمة شعره ، طلوع هذه الدرجات كلها يكلفه من أمره تعبـا وكدا ، قال انه سينتظرهما عند بداية الدرج ، وشرح لهما الوصـول الى داخل المئـذنة ، ويبـدو أن هذا عين ما أراده الاجنبى ، اذ هز رأسه مرات شاكرا ، وأسرع يتقدم صاحبته بعد أن أخرج ورقة فئـة الخمسين قرشا دسها بسرعة فى يد عم عاشور ، اختفيا ، ولكـن بقى عنده ما يريب ، هذه اللهفة التى بدت عليه ، واظهاره النقود ، عم عاشور هادىء دائما ، وهدوؤه هذا يطال ردود فعله ، لكنه عندما اسـتعاد آخر نظرة رآها فى عينى المرأة توجهت بها الى الرجل ، غلى الدم فى عروقه ، صعد السلم وثبا ، وعندما وصـل سـطح القبة المشرف على أفق المدينة كان يلهث ، الا انه لم يعبأ ، قرب الشرفة الدائرية الاولى للمئذنة رآهما ، كان الرجل يتأهب منحنيـا ، بينما قعـدت المرأة بين ساقيه النحيلتين العاريتين وكأنها تتأهب لحلبه ! .

فى المئذنة يا أولاد الكلب .. فى المئذنة .. !

هذا ما ظل يردده طوال دفعه الرجل عبر الطـريق المؤدى الى ميدان بيت القاضى ، وما سمعه منه أصحاب وعمال دكاكين الموازين ، وعبده الحلاق ، وجنود نقطة المطافىء ، والعابرون الشتى ، لم يتوقف ولم يكف الا داخل القسم .

فيما عدا هاتين الواقعتين ، لم ير منفعلا ، ولم ينطق بسباب ، لم يخض مشاجرة ، لم ير الا ساعيا بين بيت محب الدين والقبة ، أو متجها الى ضريح الامام الشهيد ، ظهر الجمعة ، بعد الصلاة يتنـاول

غداءه من الطحـــال المقلى فى مطعم قديم يقع فى مواجهة فندق الكلوب المصرى ، لم ينقطع عن عادته الاسبوعية تلك الا مرة واحدة فى بداية الخمسينيات ، عندما امتنع عن الزاد أسبوعا كاملا اثر رحيل العـالم العلامة حسن أفندى عبد الوهاب ، أسبوع قضاه متواريا ، قاعدا وراء الباب الرئيسى للقبة ، ذاهلا لا يجيب على أحد ، لا يهتز منه طرف ، حتى عندما جاء عالم الآثار الانجليزى ، وقف أمامه ، لم يبد عليه انه لاحظه ، من عينيه تطل دمعات ، ويبدو أن العالم الاجنبى أدرك مقدار حزنه ، ربت على كتفه ، وابتعد ، خشى عبده المزملاتى عليه ، فرجاه أن يبـكى ، أن يلطم ، أن يصرخ ، ولكن استمرار الصـــمت مخيف ، فمن الحزن ما قتل ، بعض أبنـــاء المنطقة لم يدركوا أمره ، فسروا صمته ، وسعيه الهادىء ، وبقائه امام القبة جامدا ، صـــامتا ، حزينا بأن مسا أصابه من امرأته الجنية التى يخاويها ٠

فى تلك الفترة بدأ اهتمام أم خيرية به ، هى امرأة دمياطيبة ، بيضاء ، فارهة ، ممتلئة ، تقطن غرفة فى حارة الصالحية القريبة ، برقعها لا يخفى ملاحة وجهها ، خاصـــة عينيها المكحولتين المدثرتين بالانوثة ، أودعتهما كل ما تضج به من فورة ، وما تخفيه الثياب من فتنة ، ورغبة ، تقترب من الاربعين ، وحيدة ، فردانية مثله ، ترملت فجـــأة ، كان زوجها يبيع الكشرى أمام مدرسة خان جعفر للصـــبية ، شوهدت تقف معه ، تجيئه بأطباق ، وأحيانا براد الشاى ، تقعـد الى جواره أمام القبة ، لم يستمر ترددها عليه ، انقطعت فجأة ، يؤكد عبده المزملاتى أن الرجل زاهد فى النساء ، ربما بتأثير الجنية التى تزوجته يقول انه شاهد بنفسه ذكره ، يفوق التصور فى طوله ، ما يقـارب نصف المتر ، ومما يروى فى المنطقة ان امرأة أجنبيـــة جميلـــة جدا ، جاءت الى القبة بمفردها للفرجة ، صحبها ، فمنذ حادثة الاجنبى ورفيقته لا يدع أى انسان مهما كان يتجول بعيدا عنه ، ويبـــدو ان حالة من الشبق المتفجر اجتاحت المرأة داخل فراغ القبة الذى يفيض بالمـوت والعدم ، بدأت بامساك يده ، ثم دنت منه ، ومالت برأسها على صدره قالت بالعربية الركيكة ٠٠

ــ حبيبى !

الا انه دفعها ، وابتعد خارجا ٠

المؤكد انه لم تشاهد أى امرأة داخلة الى بيت محب الدين ، اذ يمضى فى مطالع النهارات الى القبة حاملا المفاتيح الضخمة ، كان بعض أصحاب الدكاكين يتابعونه صامتين ، تساءل بعضهم عن حقيقة عمره ،

آكد بعضهم انه محال الى التقاعد منذ زمن ، ولاسباب عديدة اعتبروه خارج اللوائح ، قدامى مفتشي المصلحة يتباركون به ، بعضهم يستمد معلومات معينة خاصة بآثار المنطقة ، عدد من الباحثين أصغوا اليه ، واستوعبوا ونقلوا عنه ٠

سنوات عديدة مضت على مجيء هذا الرجل الذى عرض عليه مائة جنيه في الزمن القديم ، أمور تجل عن الحصر تغيرت ، حتى القبة والمسجد ، اذ جرت ترميمات عديدة ، وأقيم حاجز حجرى يمنع تدفق مياه الامطار والمجارى الى الجدران ، أغلق المدخل المؤدى الى السطح والمئذنة ، ونشرت الصحف التحقيقات عن ارتفاع منسوب المياه الجوفية مما يهدد المبانى القديمة فى المنطقة ، أقلق هذا عم عاشور ، وصار يسأل المفتشين فى كل مرة يجيئون فيها ، وهل صحيح أن منسوب المياه اذا انخفض سيهدد أيضا سلامة البناء ، صار لا يكف عن الطواف، ينحنى مدققا النظر ، يضرب الحجر بقبضته كأنه يختبر أمرا ما ، غير أن ما لحظه البعض خاصة من القدامى ، الذين اعتادوا رؤيته منذ زمن بعيد ، تحوله ، بطء خطواته ، وارتفاع صوت تنفسه ، وتثاقل نطقه، وامتزاج سواد عينيه ببياضهما ، أصبح أيضا يتغاضى عن صحبة الزائرين ، بل انه لم يعد يفارق مكانه عند المدخل الا لحظة دخول رجل وامرأة الى القبة وانفرادهما ، أما معظم وقته فكان يقضيه شاخصا الى الواجهة الاندلسية ٠

سنوات عديدة تقع ما بين مجيء الرجل الغريب الذى عرض عليه مائة جنيه رشوة فى زمن كان فيه الجنيه جنيها بحق ، ومجيء هذا الشاب فى صباح باكر ، انه ممتلىء قليلا ، يرتدى قميصا وبنطلونا ، يدخن سيجارة ، قدم نفسه قائلا انه محمد حلاوة ، ابن حلاوة بائع الكهرمان ٠

« أعرف أبوك ، رحمه الله ، عدسه لا ينسى ، لم آكل مثله » ٠

بدا الشاب مسرورا مع أنهم حذروه منه ، أشار الى الرصيف المقابل حيث سبيل خسرو باشا ، قال :

— « كنت أقف الى جواره ، أغسل الاطباق فى الجردل ٠٠ »

تطلع عم عاشور الى حيث أشار ، لامس ذقنه بأطراف أصابعه، هازا رأسه ، ارتد الى صمته ، كأنه نسى وجود الشاب ، غير أن هذا تجاهل الشرود والانصراف عنه ، استمر يتحدث وكأن ما بينهما متصل، لم ينقطع ، قال انه يجيىء بلقمة حلوة ، رزق من السماء ، مكسب كبير لن يكلفه جهدا ٠



توقف لحظات ليرى رد الفعل ، ولما رأى صمت عم عاشور ، استمر قال ان زوار القبة من الاجانب كثيرون ، هؤلاء يحتاجون الى تغيير ما معهم من دولارات ، أو استرليني ، ما عليه الا أن يأخذ ما معهم من عملة ، ويقدم اليهم الجنيهات ، يعنى بيع وشراء ، وله نسبة يتسلمها منه مساء كل يوم ، طبعا ‥ ليس هناك مكان هادىء وبعيد عن العيون مثل داخل القبة .

كف الشاب ، تركزت نظراته على يدى عم عاشور ، كأنه يعد العدة ، ربما حذره أحد منهما ، الا أن اليدين بقيتا هامدتين ، استمر ، قال انه سيبدأ من الغد ، سيجيئه بخمسمائة جنيه ليبدأ العمل ، أما الاسعار فسيبلغه بها صباح وظهر كل يوم ، واذا حدث طارىء مفاجىء ارتفاع أو انخفاض ، سيسارع اليه السوق متقلبة ، قال انه قريب هنا فى خان الخليلى ، عند مدخل السوق من ناحية الصاغة ، واذا فوجىء بمبلغ كبير يمكنه فى دقيقة أن يأتى اليه ، المهم أن يعرف من الآن كيف يميز بين الورقة الصحيحة والزائفة ‥ خاصة فئة المائة .

متمهلا يستدير ، يتأهب الشاب ، للرجل تصرفات غريبة ، حذروه منها ، بقاؤه وقتا طويلا بمفرده داخل القبة التى ما هى الا مدفن هائل ، معاشرته الجن ، الا أن ملامحه بقيت هادئة ، ويداه مبسوطتان ، نائيتان وبقدر ما شعر الشاب براحة ، بقدر ما رغب فى الضحك ، عندما نطق عاشور متسائلا ‥

ـ « والبوليس ؟؟ » .

حاشيـــــة - ١ -

لماذا ؟

لماذا قبل عم عاشور أن يقترب على مهـل من الاجانب الذين كثر ترددهم على القبة فى السنوات الاخيرة ، ويقول همسا بالانجليزية :

ـ « تغير دولار ؟ »

حيرنى هذا ، خاصة أن الرجل أوشك على أن يوفى المدة ، بعـد عمر طويل آثر فيه الصرامة مما كان مبعث حـــكايات تبدو أحيانا غير واقعية ؟

هل كان فى حاجة ؟

أبدا ..

أقول هذا وأنا على ثقة ، سكنه لا يدفع مقابله قرشا ، ما يتقاضاه يكفى وزيادة ، هل أدركه ما جرى فى الواقع الاعم من متغيرات ، لـكن .. كيف وقد كان يبدو فى معزل عما يحيطه ، يصغى الى أفدح الانباء فلا يعلق ، ويسمع ترديد جيرانه لأجل الحوادث فلا يأبه ، لا يبدو عليه الاهتمام ، لماذا صار يقترب من الاجانب وفى ملامحه ما ينـم عن طلب الهبة ، وهذا ما لم يقبله قط من قبل . يغض الطرف عن دخول الذكور والاناث ، لا يتبعهم ، ولا يستثيره غيابهم بالداخل ، واذا تبعهم فلمسافة قصيرة عبر المدخل ، وليسألهم عما اذا كانوا راغبين فى تغيير العملة .

حيرنى هذا ، ولولا أنى اشهدت الرجل عن قرب لما صدقت ، فلم أذكر شيئا فقط على سبيل المبالغة ، بل ان كل ما قلته عن مشـــاهدة ، وما لم أحضره ولم أعاينه نقلته عن ثقات ، وربما حذفت بعضـــه طلبا للايجاز .

لكن ..

مالى أبتعد ، مالى أمعن فى حيرتى ، ألم أرقب بعينى ما جرى لذلك الطبيب ، ذلك انى سكنت زمنا فى بيت قريب من وسط المدينة ، أول شارع الجيش ، حيث تنتهى القاهرة القديمة ، وتبدأ مبـــانى القرن التاسع عشر المطلة على ميدان العتبة الخضراء ، وان كانت تلك ماضية الى زوال ، وكان أول ما اختفى منها مبنى دار الاوبرا الجميل ، الهامس القديم ، المكنون ، والذى احترق عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين ، التهمه حريق مدبر وبكاه من لا حصر لهم ، ومكانه الآن جراج متصـدد

الطوابق ، واني لمخبر ، محدث عن سائر هذه المباني في رسالة أفردها لموضوعي الزوال والبقاء ، فالمجال يضيق الآن ٠
كان سكني يتوارى في طريق ضيق متفرع من شارع الجيش ، كنت في الطابق الثالث ، أما هو فكان يشغل شقتين متواجهتين في الطابق الاول ، اتخذهما عيادة لاستقبال مرضاه ، لم نلتق الا مصادفة عند صعودي أو نزولي ، هو طويل القامة ، نحيل جدا ، وسمعت انه كان لاعبا ماهرا في فريق كرة السلة الجامعي ، ابن أسرة رقيقة الحال، شقي والده طويلا حتى أتم تعليمه وتخرج طبيبا ، افتتح هذه العيادة بعد عامين من انهاء دراسته ، وجعل قيمة الكشف نصف جنيه فقط ، وهذا أقل من أي طبيب في المنطقة ، قال أكثر من مرة أنه نشأ فقيرا ، ولولا كد والديه لما أمكنه اتمام تعليمه ، يعمل أبوه كاتبا عند أحد تجار حقائب السفر في الدرب الجديد المتفرع من سوق الموسكي ، لم يمض وقت طويل حتى اشتهر أمره في الموسكي ، والعتبة ، وباب الشعرية ، وصار المرضى يجيئون اليه من مناطق نائية ، لما عرف عنه من حسن مقابلة ، ولسان حلو ، وقدرة على وصف العلاج السديد ، وتقدير لاحوال الخلق ، حتى انه كان يعيد قيمة الكشف الى من يشعر بوهن قدرته ، ورقة حالته ، بل كان يقدم الدواء مجانا الى أمثال هؤلاء ، وكان يصر قائلا انها العينات المجانية التي ترسلها اليه شركات الادوية ، لم يعرف عنه أنه تأخر قط في تلبية أي حالة عاجلة ، طارئة ، ليلا أو نهارا هكذا أدركته ، وسمعت عنه ، حتى قال لي من أثق به أن ثمة فرصة أتيحت له لافتتاح عيادة بالدقي ، في عمارة حديثة ، شاهقة ، يمكن للواقف بشرفاتها أن يرى النيل ، لكنه أبى مفارقة المنطقة القديمة ، والناس الذين اعتاد عليهم كما قال ٠
متى بدأ اهتمامه بالاراضي الفضاء ، والعقارات ؟
الحق انني لا أدري على وجه التحديد ، لكن كل مالاحظته وقع بعد هدم هذا البيت ، اذ كان يقوم عقار قديم من طابقين ، تحته مصنع للحلوى الطحينية ، جاء عمال صعايدة يوما ورفعوا معاول الهدم ، حتى تمت تسويته بالارض خلال أسبوعين لاغير ، ثم أحيطت المساحة الفارغة بسور قصير من الطوب الاحمر ، وعلقت لافتة تقول ان الارض ملك لسيدة ، ذكرت اسمها ، وعنوانها بكوبري القبة ، لكن لم تتضمن اللافتة أي رغبة للبيع أو التصرف فيها ، بقيت الارض خالية ما يقرب من عام ، آوى اليها بعض المشردين ، وامرأة عجوز كومت في أحد الاركان عددا كبيرا من صناديق الكرتون الفارغة ، ولافتات من قماش كانت معلقة

خلال الانتخابات النيابية ، أما تجار الموز الذين يقفون بعرباتهم قرب سوق البضاعة المستوردة ، فاتخذوا من الركن المقابل ما يشبه المخزن للموز الاخضر ، وغطوه بمشمع قديم ، كما اعتاد صاحب المصبغة البلدية المجاورة القاء صناديق المصبغة الفارغة ، وبدأ بعض أبناء الشارع يلقون القمامة في الخرابة كما أطلق البعض على المساحة الخالية •

لكن قرب انتهاء العام الاول المنقضي على هدم البيت ، ظهر سمسار نوبي يسكن فندق البرلمان القديم بميدان العتبة منذ عدة سنوات ، ويجلس عند مدخله ، حيث يستقبل عملاءه ، أولئك الراغبين في البيع، أو الباحثين عن قطعة أرض ، أو مسكن للايجار ، ونظير أجر معين يدفعه لادارة الفندق علق لافتة صغيرة :

« سمسار أراضي وعقارات ، شقق للتمليك ، للايجار ، دكاكين وخلافه » •

شوهد النوبي في شارعنا الضيق ، كان يصحبه أحد أبناء السيدة مالكة الارض ، وفي اليوم التالي قيل ان الطبيب ، ابن الحي ، اتصل بالمرأة ، وعرض شراء الارض ، ثم شوهد في الايام التالية يقف الى جوار النوبي ، ويدوران في المساحة الفسيحة •

بدلت اللافتة بأخرى تحمل اسمه ، وتعلن عن انشاء برج السعادة ، مكاتب ، شقق فاخرة ، تشطيب فاخر ، واجهات الومنيوم ، حمامات سخن وبارد ، أرضيات مفروشة بالموكيت ، الاتصال بالطبيب مباشرة ، كتب رقم التليفون ، أما الوسطاء فيمتنعون •

أزيل الموز ، والقمامة ، والفوارغ ، أما المرأة العجوز فرحلت منذ مدة الى حيث لا يدري أحد ، ثم ظهرت آلات المقاولة ، أدوات حفر ، وماكينات صغيرة ، وآلة لشفط المياه الجوفية التي ظهرت بمجرد بدء الحفر خضراء قاتمة ، جاء رجل صعيدي ، كوم عبوات الاسمنت الخام على هيئة جدران ، وبسط ألواحا خشبية كسقف ، وعلق ملاءة من قماش لتحجب عيون المارة عن الداخل عنه وعن امرأته الشابة التي تحمل طفلا رضيعا ، لم تتأخر أعمال البناء طويلا ، انما بدأت فور شفط المياه الجوفية ، وتكسية الارض بمادة سوداء تمنع رشحها ، قامت بذلك شركة مختصة •

في هذه الفترة اعتدت رؤية الطبيب ، يقعد نهارا فوق مقعد بدون مسند ، يتابع ما يتم ، أو يصدر تعليمات لهذا أو ذاك ، وبين الحين يقوم ليمر هنا أو هناك ، ويمسك الدعائم الخشبية بيده ، كأنه يختبر-

متانتها ، ثم سمع صوته مرتفعا ، صاخبا لاول مرة ، وكان يزعق مهددا أحد العمال بسبب اهمال ما ، ثم أصبح عاديا رؤيته جالسا والى جواره النوبي ، وثالثهما أحد الراغبين في الاستئجار ، أو مقاول البياض ، أو الكهرباء ، أو متعهد أعمال السباكة ، ومما قيل أن الطبيب أسفر مبديا مهارة غير عادية ، فهو يشرف على كل كبيرة وصغيرة ، الخامات يذهب ليشتريها بنفسه ، وحساب المقاولين يناقشه آخر النهار ، مستعينا بآلة حاسبة صغيرة ، وكان اذ يجادلهم يرفع صوته ، ويلفظ جملا في صيغ استفهامية ، أو استنكارية ، ويناديهم بما اعتاد العمال أن ينادوا بعضهم البعض ، كان يقول :

ــ « افهمني ياحلاوة » .

أو

ــ « اسمع ياعسل .. »

وأحيانا كانت مناقشاته تحتد حتى ليسمع صوته في الطوابق العليا ، برغم ضجيج التليفزيونات ، والمقهى ، وأصوات السيارات والشارع القريب ، أما في الصباح فكان يقعد لاستقبال الراغبين ، القادمين بصحبة النوبي ، قعدته المفضلة صارت الى هذا الرجل ، النحيل ، الاسمر ، الذى لا يفارق معطفه صيفا أو شتاء ، وثق به ، وأعطاه سره ، وعندما جاءه التمورجي الذى يعمل معه منذ سنوات ، وأخبره برغبة أحد الاثرياء من بلدته في استئجار شقة ، طلب منه أن يتكلم في ذلك مع النوبي ، لم يشك التمورجي فقط منه ، انما كل من عمل في هذه العمارة التي قامت خلال أقل من عام واحد منذ دق أساساتها ، شكوا اصراره على مناقشة كل شيء بنفسه ومراجعته الفواتير بدلا من المرة عشر ، واشتراطه استخدام آلات معينة ، أصبح من المعتاد أن يقضي ساعات النهار كلها في الشارع ، وعندما بدأت أعمال البياض وتشطيب العمارة بدل ملابسه ، ارتدى الجلباب وطاقية بيضاء صغيرة مخرمة ، في نهاية اليوم عند اتجاهه الى العيادة يبدو مرهقا متعبا ، لم يعد يقضي أوقاتا طويلة في الفحص ، ضاعف من قيمة الكشف ، أصبح جنيها ، اعتذر للخلق بسبب ارتفاع الاسعار ، قال لبعض المقربين ان بناء العمارة كلفه الكثير ، وانه من الافضل للمرء شراء قطعة أرض وتركها مدة ، ثم بيعها ، الاسعار تتضاعف ، أما البناء فيقتضي جهدا ، ومتابعة ، اعتاد الناس مجيء النوبي ، ظهوره في العيادة المزدحمة ، اتجاهه الى غرفة الطبيب ، كان يدخل في أى وقت ، ويقضي ما شاء من وقت ، ثم ينصرف متمهلا ، غير مبال بضيق الذين طال

انتظارهم ، ومما تردد أن النوبى أتى بفرصة نادرة ، قطعة أرض بناحية العباسية ، على الطريق الرئيسى ، تباع لظروف استثنائية ،وان الطبيب اشتراها بالفعل ، وانه يتفاوض حول مساحة أخرى بمدينة نصر ، وان كلاما يجرى حول مخزن أخشاب كبير بشبرا ، بل أكد البعض انه اشترى مصنعا للحلوى الطحينية أوشك صاحبه على الافلاس بسبب دين ثقيل ، كل يوم صار يخرج بصحبة النوبى ، ويقال انه هو الذى أشار عليه بضرورة الحج الى الاراضى المقدسة ، حتى يناديه الخلق يا « حاج » وهذا ما صار بالفعل ، انقطع عن فحص المرضى ، لكنه لم يغلق العيادة ، اذ بدأ شاب يتردد عليها ، أحد الخريجين الجدد ، ظهر أثناء سفره لتأدية الفريضة ، ظن الناس انه يشغل الموقع الشاغر لفترة ، لكنه إستمر بعد عودته ، لم يعد صاحبنا يظهر فى العيادة الا نادرا ، واذا شوهد فآخر الليل ، يمضى محييا هذا أو ذاك ، ويناديه الجيران :

ــ « تفضل ياحاج .. »

فيلتفت بقوامه الذى امتلأ محييا ، ثم يمضى بخطاه التى صارت أبطأ ، أما أنفاسه فأصبحت تسمع خلال لفظه الكلمات ، يجلس تحت العمارة فوق دكة مستطيلة ، أحيانا يعلو صوته محتدا ، وقسمه بالايمان المغلظة ، ومرة كاد يشتبك بالايدى مع ثلاثة قيل انهم من كبار تجار الفاكهة بسوق روض الفرج ، ومرة أخرى سحب الطبنجة وصوبها تجاه اثنين من تجار خان الخليلى ، مما حدا بالنوبى أن يزعق :

ــ « اذكر الله ياحاج .. »

عاد هادئا ، واستؤنف الحديث فيما يشبه الهمس .

انقطع تماما عن العيادة ، تعاقب عليها شبان من الخريجين الجدد غير انه ردد دائما عزمه على الا يتركها أبدا ، انها أساس كل ما جاءه من خير ، وهذا ما كان عليه الحال عند انتقالى من مسكنى الى منطقة أخرى وفيما بعد رأيت صورته فى الجريدة يقص شريطا ايذانا بافتتاح مصنع للبسكويت المحلى بالشيكولاته ، وكان يرتدى جلبابا أبيض ، وطاقية بيضاء ، وتحيط وجهه لحية كثة ، والى جواره بعض من أصحاب النفوذ والجاه ، وكان الاعلان يحتل صفحة كاملة ، هذا ما عرفته عنه ، وآخر عهدى به ، فلم تقع عليه عيناى الا فى الاعلانات ، ولكننى أحطت علما بما جرى لشاب آخر ، والمت بتفاصيله ، وانى لقاصه عليكم ..

هذا ماجرى للشاب
الذى أصبح فندقيا

.. وهو الذى لو سئل أثناء دراسته فى الجـامعة عما اذا كان يرغب العمل فى الفندقة لابى واستنكر ، كان مولده عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، وعندما بدأ الهجـوم الثلاثى على مدينة بورسـعيد الخالدة ، أو الصامدة ، كما وصفت فى ذلك الزمان المندثر ، كان المتبقى على مجيئه الى الحياة الدنيا ثلاثة أسابيع ، تسـتعيد أمه تلك الايام ، غياب أبيه فى مكتبه ، وقضائه الليل بطـوله نيه ، وتلبية للظـرف الاستثنائى ، تذكر ولدها جنينا يتقلب فى رحمها ، سعادتها اذ تشعر بتمدده ، بتقلبه داخلها ، كأنه يتعجل خروجا قبل الاوان ، كانت تسند ظهرها الى الوسادة فى ليالى العتمة الاجبارية ، تسأل ، ولد هو أو بنت ؟ كيف سيكون ؟ ترسم الخطط ، وتصوغ المشـاريع ، وعندما وفد ، وأصغت الى صرخته الاولى ، كانت البلاد كلها فى تأجج واستنفار ، الايام تنبض ، وجميـل الاغـانى يتردد ، وسـائر مايهز الارواح ، ويدمج الخصوصيات فى العموميات .

كان طفلا ذكيا ، مليحا ، سـليم الخلقة ، فى وجهه قبـول ، عيناه واسعتان ، وشعره طويل ، ناعم ، غزير ، حرصت أن تقصه بانتظام حتى لا يشبه البنات ، ملامحه تصونها مجموعة صور صف بعضها على مقربة من فراش الوالدين ، كان الأب ميسور الحال بمقاييس الزمن القـديم ، لم تتأخر ترقياته عن موعدها ، كذا علاواته السـنوية ، الدرجات التى ارتقاها بانتظام أفضت به الى منصب وكيـل وزارة مسـاعد فى نفس السنة التى حصل فيها ابنه على الثانوية العامة ، كان الأب رجلا حشما ، مستقيما ، عرف عنه اخلاصه لوظيفته وصده الحازم لعروض بالرشوة ، أما قطعة الأرض التى ورثها عن الراحلة أمه فقد أتاح له ايجارها السنوى يسرا ضئيلا مكنه من قضاء أسبوعين كل صيف بصحبة اسرته فى رأس البر ، انه متواضع ، مؤد للواجبات ، يحضر الجنـائز ، ويجـامل فى أفراح صحبه ، وعنده طول بال على تفهيم الطـالب ، لطيف المزاج ، به

وسامة ، حلو الصورة ، قليل الغذاء جدا ، انتقــل بعض مما عنده الى ابنه بالأخص شعوره العميق بالمسئولية ، وضرورة انجـازها على أحسن صورة فى الاسابيع التى تسبق الامتحانات يشتد نحول الولد ، يطـول سهره ، وتطالبه الام بضرورة الاكل حتى يذهب يبسه ، وعندما اجتاز المرحلة الثانوية متفوقا ، هدأ فؤاد أمه ، واطمأن أبوه الى امكانية تحقق رغبته التى لم يبح بهـا قط ، اذ ود وتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه من رجال الخارجية ، يمثل بلاده فى الخارج ، فى لحظـــات خلوه بنفسه ، كثيرا ما ردد تلك العبارة ولم يطلع عليها أحدا ، « ابنى يمثل بلاده فى الخارج » ، لهذا عندما فاز بالقبـــول فى كلية الاقتصـــاد والعلوم السياسية ، ابتهج ، وسقى العـــاملين فى الادارة شرابا حلوا ، وبدا له ما ظنه يوما بعيدا وقد صار قريبا ، أربع سنوات ويتخرج ابنه ، يلتحق بالخارجية ، يبدأ السلم من أوله ، سكرتير ثالث ، فثان ، فأول ، فقنصل ثم وزير مفوض ٠٠ ثم سفير ، هل من المعقـــول أن يعيش حتى يرى صوره فى الصحف الاجنبية بعد تقديم أوراق اعتمـاده لرئيس دولة ما فى هذا العالم ، معقول ، ليس ذلك على من بيده الامور ببعيد ، ولكن ان شعر بدنو الأجل ، واقترابه من تخوم الأبد قبل تحقيق هذا ، سيوصى ولده بتذكره فى ذلك اليوم ، عند ارتدائه ملابس التشريفة ومضيه الى مقر الحكم ، قصر ملكى أو جمهورى ، ان يقرأ له الفاتحة ، وأن يتـذكر والده الذى كان يتمنى رؤية هذه اللحظة ولو عبر صـــورة ، فى اليوم الاول للدراسة الجـــامعية صـــحبه ، دعا له بعد أن افترقا ، وحن الى امرأته والى بثها الكلم الطيب ، فاشترى لها عطرا طيبا ، هى من أنجبت له هذا الابن الصالح الذى سيمثل بلاده يوما ٠

- جرى ذلك قبل عبور الجيش المصرى قناة السويس بسنة كاملة ، وقبل مجىء العزيز هنرى كيسنجر أول مرة الى القاهرة المعزية فى زيارة وصفت بأنها هامة وضرورية ٠ وقبل فك الاشـــتباكين الاول والثانى ، وقبل قدوم ريتشارد نيكسون فى زيارة قيل انها تاريخية ٠

وعندما دنت السنوات الجامعية وأوشكت ، كانت أمور عديدة قد تبدلت ، وظروف ظنها الكثيرون أنها ثوابت ، بدأت تستدير وتدبر ، درس الابن على أساتذة منهم أجلاء ، أتقن علوم الاقتصاد ، والسياسة ، خط صفحات تجل عن الحصر ، واســـتوعب ماقيل له ، وكان فى بذل الجهد غير ضنين ، استحق ثناء شيوخه فى العلم ، أثنوا عليه ورضـوا

وأشار أحدهم الى ماينتظره ، وأشاد آخر بسعة أفقه وتفتح مداركه ، وقوة أمله .

أثر تخرجه شغل به والده ، الام سيصير أمره ، خاصة أن الظرف معسر ، والواقع فيه جدوبة بادية ، وحدث في ليلة خريفية أن التقى في مقهى بناحية شارع عماد الدين بصاحب له ، مدة خدمته تماثل مدته ، ودرجته مساوية لدرجته ، الا انه يتميز عنه بعمله طوال مدته في المؤسسة الرئاسية ، وقد بدأ قبل الثورة في القصور الملكية ، وتدرج حتى أصبح وكيلا مساعدا للوزارة ، واختص عمله بأمور ربما تبدو غريبة ، اذ كان مسئولا مسئولية مباشرة عن أواني الطعام والشراب الخاصة بالقصر ، يشرف على اخراجها عند مد الولائم ، أو اقامة الموائد ، في المناسبات ، وللضيوف الاجانب ، وتلك مسئولية لا تسند الا لذى أمانة ، فجل هذه الاواني من الفضة ، وبعضها من الذهب الخالص ، ومنها ذو القيمة التاريخية التى لاتقدر بثمن ، كان يشرف على تخزينها وترتيبها ، واخراج المطلوب منها ، واعادته ، أما اختصاصه الثاني فيتعلق بالجنائز ، فعند وفاة عظيم أو كبير ، يتصل هو بالحانوتية ، كانوا كلهم يعرفونه ، ويخشونه ، ويلبون طلباته ، كذلك أصحاب محلات الفراشة ، ومن هنا خرجت كل الجنائز في مدة وظيفته مهيبة ، لائقة ، لاينقص ترتيباتها شيء ، ولا يمكن رصد أدنى عيب ، وثق الجميع به ، واشتهر عنه وذاع أن عضو مجلس قيادة الثورة زكريا محيي الدين ، أثناء توليه لفترة أمورا تنظيمية ، كان يردد دائما انه اذا رأى توقيعه على مذكرة ما ، فانه يؤشر فقط واثقا من سلامة المتبع ، وكان لهذا الرجل بنتان ، كلتاهما في الجامعة ، أنجبهما متأخرا ، ولانه لم يتبق أمامه الا عامان في الخدمة ، ولأن ظروف الحياة تضغطه ، ولأن ما سيتقاضاه من راتب تقاعدى لن يتأثر ، ولأن هذا الراتب لن يكفي نفقات البيت بعد خروجه من الخدمة ، أحال نفسه الى التقاعد ، وكان يوم تسليمه مكتبه وعهدته مشهودا ، اذ دمعت العيون تأسفا عليه ، مضى ليلتحق بشركة سياحية صاحبها واحد من معارفه ، وكان الراتب الجديد مغريا ، فتيسر حاله قليلا .

انه لا يلقى صاحبه هذا الا عند مجيئه الى ذلك المقهى الذى يرتاده ، اذ يضيق بالبقاء في البيت ، أو الحملقة الى جهاز التليفزيون ، وتكرار قراءة الصحف ، لكم دهش وارتاع عندما علم ان صاحبه أحال نفسه الى التقاعد ، لم يفكر في ذلك قط ، خيل اليه دائما انه لو ترك الوظيفة

بين من رأى من الرجال ، لكن ماينقصه عناية خاصة بهندامه . غير أن هذا ممكن ، سيصرف له مبلغا يستقطع منه فيما بعد ، ليشتري قمصانا وأربطة عنق وأحذية ، سيحدد له ألوانها وأوصافها ، وسيصرف له مبلغا آخر ليشتري به ملابس داخلية ملونة ، وتلك سـيختارها هو كما يرغب ، ولما لمح دهشته وعجبه ، قال : ان القمصان ستكون شفافة ، وستبرز ما تحتها ، ومما يستحب أن يكون ثمة تناسق بين ماهو يخفي وما يظهر ، عندئذ ضحك هذه الضحكة التي يصـاحبها خروج رذاذ من لعابه ، طلب منه أن يتخذ أوضاعا مختلفة أثناء وقوفه ، كان يقدم ساقا ويؤخر الاخرى ، ان يعقد يديه أمام صدره ، أن ينحنى قليلا أو يتراجع ، أبدى المدير رضا وراحة ، بنفس الضحكة توجه اليه قائلا : أرجو ألا يخطفك مخرجو السينما ، أنت تبدو كأنك قادم من هوليوود . بدا جادا فجـأة وطلب منه أن يصغى تمـاما الى كل حرف ، وأن ينتبه الى كل معنى ، يجب ألا يخضع أى أمر للصدفة ، طريقة مشيه ، انحناءاته ، لفتاته ، مخاطباته للقوم ، امساكه لسماعة التليفون ، عبور القاعات ، وقوفه بالممرات ، كذا ابتساماته وانحناءاته ، استقباله القادمين عند المدخل ، لكل مدخل مظهر وتصرف ، كل شيء بقدر ، بحساب ، المجاملة يظهرها في الوقت المناسب ، ولمن يستحق ، يجب أن يعرف قدر من تجب محاباته أولا ، وأن يبدى الجهـامة عند الضرورة ولكن في غير افراط ، وليعلم ان العميل على صح دائما ان أخطأ ، وليضع في ذهنه أن تعامله مع القادمين أو المقيمين عابر ، واتصاله بهم مؤقت ، ليعلم انه يجب ألا يطأ الفندق الا مبتسما مهما مر به لا يظهر كدرا أو ضيقا ، عليه أن يردد اذا طال الحوار بينه وبين أى نزيل انه حاصل على شهادة عليا في العلوم السياسية ، بعد انصرافه أدهشـه ترديد المدير المصرى لما ذكره المدير الاجنبى ، وكدر ارتياحه ضيق بذلك الرجل ، وكلما استعاد ضحكته أوشك على اضطراب ، دارى ما عنده ، ولم يبح بشيء من ذلك لوالده صباح يوم يوافق مرور عام كامل على ذهاب رئيس البـلاد الى ديار العدو سعيا للصلح ، ارتدى هندامه الاتم ، عقد ربطة عنقه حتى يكتمل المنظر ويستوفى القاعدة ، بدا بهيا ، يفيض شـبابا وحيوية ، طويلا ، متسقا في العموم ، حتى أن أمه دعت أن يقيه خالقه شر العيون وأولاد الحرام ، وأن ييسر أمره ، وان يوفق له أولاد الحـلال ، وان يبعد عنه كل أذى ، فهو لباب عمرها الاتم .

صحبه المدير المصرى الى المكان المحدد له ، الممر المؤدى الى المطعم

الرئيسي ، سيتحرك متمهلا بين المرآة القديمة التي تم شرائها من أحد القصور القديمة ، وتمثال عاري ، امرأة ترفع شعلة لا تضيء ، سيقضي وقته هنا في الفترات السابقة واللاحقة على مواعيد الغداء والعشاء اذ لا افطار في المطعم الرئيسي ، عليه أن يروح ويجيء على مهل ، حتى اذا بدا رواد يبادر مبتسما ، يبسط يده مرحبا ، يتقدم منحنيا ، مبديا الاحترام اللائق ، ثم يسأل عما اذا كان الحجز قد تم مسبقا ؟ فاذا جاء الرد ، نعم ، يتقدمهم حتى باب المطعم ، هنا تنتهي مهمته ، ويبدأ المشرف على المطعم عمله ، في يومه الاول هذا بدا خفيفا ، مستبشرا ، معظم من أنهوا دراستهم معه لم يبدأوا العمل بعد ، بعضهم هنأه ، ومنهم من حاول أن يخفي حسدا ، غير أن واحدا ، لا .. بل اثنين ، أبديا دهشة، ما علاقة هذا بما درسه وتعلمه ، خاصة أنه من المتعمقين ، المستوعبين جيدا لما درسوه ، لو انه صبر قليلا يمكنه أن يصبح معيدا ، من أعضاء هيئة التدريس ، ان ترتيبه يسمح بذلك ، ابدى عدم موافقة ، بل جاهر باستهزاء ، الانتظار ربما يطول أو يقصر ، كم سيتقاضى اذا أصبح معيدا ؟ غير انه عندما خلا بنفسه أدركته حيرة ، كأنه مقدم على سفر لا يعرف غايته ، لا يدرى نقطة الوصول ، أو المسافة التي سيقطعها ، كأنه كان يتأهب ليقطع طريقا بعينه ، وفجأة تتبدل المرئيات والموجودات فاذا بالدرب مغاير ، وما قصد اليه ينأى عنه ، لو أن الامر بيده كله لانتظر ، غير انه عاد ليقول لمحدثه ، انه سوف يجد الوقت الكافي كي يتم البحث العلمي ، وانه سيلتحق بالدراسات العليا خلال أول العام ، مهنته الجديدة تبدو مريحة ، عائدها مجز سيتيح له التفرغ بهدوء بال ، وطمأنينة زائدة ، في يومه الاول هذا حرص على التزام المسافة المحددة له ، لم يتجاوزها حتى بمقدمة حذائه ، بالضبط ما بين المرآة والتمثال ، الفراغ فيه رائحة المفروشات الجديدة ، وكساء الجدران ، وروائح أخرى منها ما يمت الى عطور شتى ، أو أطعمة مطهوة ، التزم الاوضاع التي نصحوه بها ، كان منتبها الى كل خطوة ، أو ايماءة ، حريصا على مقدار الانحناءة ، تأمل التمثال الرخامي في ثيابه وحركته ، دقق في تفاصيل جسد المرأة شبه العارى المتشح بغلالة رقيقة أبرز النحات البارع تفاصيل تموجاتها مع أن الحجر واحد ، حتى استدارة حلمتي النهدين بدتا جليتين كالعلامة ، انها المرة الاولى التي يتأمل فيها تمثالا عن قرب ، ولطول وحدته أوشك على مخاطبته همسا ، عند الثانية بدا رجل بدين تصحبه امرأة نحيلة ، سمراء ، غزيرة الشعر ، فسيحة النظرات ، ترتدى ثوبا أخضر يشي بعظمتي ترقوتها ، تقدم منهما ، أبطأ الخطى في منتصف المسافة عندما انتبه الى اسراعه قليلا ، مثبتا

النظر تجاه الرجل لا المرأة انحنى ، بالضبط كما قيل له ، وبدا له استفساره عما اذا كان البك قد حجز مقدما أمرا مضحكا ، المناضد كلها خالية ، لكن لابد من النطق بما أمر به حتى لو بدا الامر غير منطقى ، تقدمهما حتى مدخل المطعم الفسيح المسدلة عليه ستائر خفيفة لونها وردى ، وراءها تماما حاجز من الخشب الخرط ، عربى الطراز ، عاد الى الممر وبه أنس ، مصدره ذلك الحوار السريع ، القصير مع الرجل ، لن ينسى ملامحه أبدا ، كذلك المرأة ، انهما أول من تعامل معهما ، غير أن ركودا يعاوده ، ان وقتا طويلا ينقضى هنا ، الحيز ضيق ، خطواته احصاها مرات ، احدى عشرة لو أفسح ، وستة عشر لو ضيق ، عند بداية المساء جاء رجل يمسك بمفتاح غرفته ، مقيم اذن ، كان بمفرده ، وعندما تبعه لاحظ قفاه ، وصلعته ، وخيل اليه انه ينوء بهم ما ، جاء أيضا ثلاثة يرتدون ملابس شركة طيران أجنبية ، يتحدثون الالمانية ، لكن عند مخاطبته تكلموا بالانجليزية ، بعد منتصف الليل ولج البيت. الوالدان فى الانتظار ، لم يهجعا ، فى علامحهما بشر وقلق ، استفسروا عن الاحوال ، ولماذا التأخير ؟ كان متعبا وعنده توق الى النوم ، قال ان الامور تمضى ولا بأس ، أما التأخير فعادى ، ما من ساعات عمل محددة حتى الآن ، الفندق جديد ، مازال بعد فى مراحله الاولى ، وسوق المنافسة شديدة ، لذا لابد من التفانى ، وبذل أقصى المجهود ، هكذا قال المدير ، فى اليوم التالى قالت الام ان الولد كان مرهقا ، وشخيره يسمع خارج حجرته حتى أنها قلقت عليه فأطلت مرتين ، هذا ليس من عاداته ، قال الاب أن لكل عمل ظروفه ، ثم حاد بالحديث فقال انه يفرح عند خروجه ، ويتابعه من النافذة حتى يختفى عند الناصية ، وانه يدعو له ، هذه اللحظات عاش ينتظرها منذ عشرين سنة وأكثر ، اذ جاء اليوم الذى يدخل الى جيبه قرش نتاج مجهوده انه ما زال يذكر اليوم الاول الذى صحبه فيه الى المدرسة ، يراه كأنه بالامس ، بعد أن فارقه فى فناء المدرسة ، بعد أن أوصى عليه المدرسات ، نظر اليه من بعيد ، فرآه وحيدا ، صغيرا ، فحن ورق وأوشك على العودة اليه ، يومها سأل نفسه ، بعد كم من السنين يمكنه الاعتماد على نفسه ، وهل سيعيش حتى اليوم الذى يراه يخرج فيه الى عمله . انه يحمد الله انه رأى هذا اليوم ، ويحمد الله انه ألحقه بتلك المدرسة الاجنبية ، فاتقانه اللغة سبب هام لحصوله على تلك الوظيفة التى يتمناها الكثيرون ، صمت هنا ، لم يقل لامرأته انه تحمل مصاريف هذه المدرسة لكى يتقن ابنهما لغة أجنبية ويمكنه الالتحاق بالسلك السياسى .

حقا .. ما كان أجدره بتمثيل بلاده فى الخارج ، لكن من أين له

بالطريق الى الخارجية ؟ الايام صعبة ، والفرص محدودة . ثم انه سمع عن شباب بدأ دون ابنه بكثير في بعض الفنادق ومع الزمن ارتقوا وصاروا مديرين كبارا تنشر الصحف صورهم .

بعد أيام قليلة أرسل المدير المصرى فى طلبه ، أبدى ودا وأثنى عليه وضحك مرتين ، هذه الضحكة التى ينفر من سماعها ، قال ان الفندق ما زال فى البداية ، وان جهدا يبذل الآن فى اتجاهات عديدة ، الشركات السياحية ، وكالات السفر ، ليس فى مصر وحدها انما فى الخارج أيضا ، أيضا فى اتجاه أهل الفن ، ونجوم الرياضة ، ورجال الاعلام خاصة .

سأل عما اذا كان يعرف أحد العاملين بالاذاعة أو التليفزيون ، أو الصحف اذن .. لا تربطه علاقة ، هذا مؤسف ، أن تردد ممثل واحد هنا يمكن أن يفتح الباب أمام الآخرين ، أما اذا اختار أحد المخرجين الفندق وقعا لاحداث فيلم سينمائى ، أو حلقات تليفزيونية ، فهذا نجاح جدير بأن يسجل ، عليه أن يبحث فى معارفه ، فى زملائه بالكلية حتى لو دعا أحدهم الى العشاء هنا فسيتحمل الفندق المصاريف ، سكت لحظات ، ثم بدا كأنه يتخلى عن لهجته الرئاسية ليبث شكوى ، أو ليفضى بهم يثقله ، ان المدير الاجنبى يضغط عليه يطالبه بتنشيط المبيعات ، مع أن هذه ليست مسئوليته ، لكنه مضطر الى العمل فى كل الاتجاهات ، المدير الاجنبى يلمح دائما الى كسل المصريين ، وتقاعسهم، وفى كل حوار معه يذكر ملايين الدولارات التى انفقت ، وان العائد يجب أن يكون سريعا ، هل تدرى كم مليونا تم استثمارها هنا ؟ ،تطلع صامتا مبديا جهله بالامر ، قال المدير بتأن ، ستة عشر ، نصفها بالعملة المحلية ، طبعا أصحاب المال لا يريدون استرداد ما دفعوه فقط ، انما الربح أيضا ، طلب منه الا يهمل الامر ، أسفر فجأة عن ضحكته المصحوبة بالرذاذ ، قال ان الزحام سيعود عليهم جميعا بالخير ، ثم قال ان الحركة فى المطعم قليلة ، لهذا يطلب منه القيام بعمل قد يبدو غريبا

قام من جلسته ، دار حول مكتبه ، على مهل مشى حوله ، قال ان الظروف ربما اضطرته فى القيام بأعمال ربما تبدو له غريبة ، أهم شىء أن يلقى بنفسه فى خضم العمل ، أن يفكر فى الكسب ، الفرص بلا حد ، المهم الثانى أن ينسى ما تلقاه فى الجامعة ، هذا كله كلام كتب ما يجب أن يتذكره عنوان مؤهله لا غير ، العمل الذى سيخبره به رحب به المدير ، بل هنأه عليه ، قال بصراحة انه لم يتصور وجود من يفكر هكذا هنا الامر ببساطة انه سيجلس وقت الغداء والعشاء فى المطعم

الرئيسي ، بالضبط كأى مقيم ، سيتناول الوجبات مجانا ، كما ستقدم له كافة أصول الخدمة ، الغرض أن يبدو المطعم مزدحما ، خاصة عندما يوجد عدد قليل جدا ، ان المناضد الخالية توحى بعدم الثقة ، طبعا لن يتم اشغال المناضد كلها ، ستوضع لافتات هنا وهناك تشير الى حجزها مقدما .

خرج من مكتب المدير وعنده من الدهشة قدر غير يسير ، تزايد يقينه انه يؤدى دورا ما ، وانه يجب أن يستنفر شخصا آخرا ليخرج من بين ثناياه ويقوم عنه ، يشب ما بينه وبينه نفار ، هذا ما بدأ يدركه مع تكرار حركته ما بين التمثال الرخامى والمرآة القديمة ، مع كر أيامه مد خطاه تجاوز المسافة المحددة له خلسة بخطوة أو خطوتين ، لكنه سرعان ما يستدير مسرعا خوفا من المدير الاجنبى ، ظهوره مفاجىء ، من حيث لا يتوقع أحد ، بوجهه عبوس مقيم ، وفى طلته غضب مقيت . يخشونه كلهم ، ويتردد همسا أنه يبغض البلاد وأهلها ، انما جاء لارتفاع راتبه ، لا يخرج الا نادرا ، ولم يحاول الاتصال أو المزاورة ، لا صحب له ، مرة واحدة غادر الى المطار عند سفره الى قبرص لحضور اجتماع ممثلى الشركة فى الشرق ، فى الليل يتجرع خمرا ويأوى الى سكنه ، لا يجرؤ أحد على ازعاجه أو اللجوء اليه عند وقوع مشكل .

تلقى المهمة الجديدة كأنه يتلقى أمرا مفروغا منه ، ما يصدر هنا لا مجال لرده ، هذا ما وعاه جيدا ، ما عليه الا الامتثال والتنفيذ ، بل انه أبدى تحمسا وارتياحا ، فهذا يعنى ابتعاده عن الممر ، تلك المرآه . والتمثال الذى ضاق به ، ملامحه التى حفظها ، وحدق فى جزئياتها وتفاصيلها ، كان التغيير الوحيد ظهور القادمين الى المطعم وهم قلة . يتقدم الرجال مرحبا ، يتبع النساء ، وعندما ابتسمت احداهن انحنى ، كانت تصحب رجلا يمتلك توكيلا للسيارات ، ابتسامتها لم تكن عابرة قط ، لم تستغرق الا ثوان ، بل ربما أجزاء من الثانية ، غير أن ماتحفل به علق عنده ، فاستعادها مرارا ، وانتظرها لكنها لم تأت ، لم تلح مرة أخرى ،فأورثته حنينا ، ما دهش له جرأة بعضهن ، جسارة لفتاتهن وايماءاتهن ، يعرفن التوقيت الملائم لتسديد النظرة ، لتشييع الرسالة ، وهى جد موجزة ، جد ضامرة ، ما يجب الانتباه اليه بقاؤه متلقيا على الدوام ، غض البصر عن أى معنى يصل اليه ، له جذر أو متوهم ، لو انتبه أحد هؤلاء ربما لحقه أذى عظيم ، قد لا يتوقف عند فصله ، وخسران راتبه الذى تسلمه أول مرة وعده على مرأى من والده الذى بدا غير مصدق وأمه الداعية له أبدا بنأى الحساد عنه ، غير أن

يقينا استقر عنده انه يؤدى دورا لم يعد له ولم يتأهب ، بعد أن تحمس لعمله الجديد ، ضجر منه ، عليه البقـــاء حتى انصراف آخر الزبائن بصحبة اثنين من العاملين ، لا معرفة سابقة تربطه بهما ، وهـــذا مما عاناه ، تعاده وقتا الى من لا تربطه بهم حميمية أو وثيق صلة، واضطراره الكلام فى مواضيع شتى لا رابطة بينها ولا دافع عنده لخوضها ، مبرزا ابتسامته ، ماحيا من ملامحه كافة ما ينم عن نفور أو ضـــيق ، لم يكن قادرا على التمكن من الطعام وتذوقه حتى ، فالتعليمات تقضى بتنـاوله على مهل حتى لا يشغل المدة كلها ، ما بين اللقمة واللقمة مسافة زمنية حتى اذا ما بدأ المضغ وجب عليه أن يبدو نهما شرها ، تواقا الى المزيد، أن يشير بيده ، أن ينطق ما يشى باعجابه ، بأن الطهو متقن والاصناف رائعة ، عند قدومه الى الفندق يشعر انه غادر ذاته فى مكان ما وزمن ما ، وانه سيبدأ تأدية الدور ، والحذار الحذار أن يبين ، أو يتوقف ، لو كف سيلحقه ... ، الليلة جرى ما أثار انتباهه ، اذ التقى به المدير المصرى عند مكتب الاستقبال ، صافحه مبديا رضاءه ، أثنى عليه ، قال ان الزبائن فى تزايد ، والامور تمضى الى الافضل ، قال انه بمناسبة شم النسيم سيقيم حفل افطار فى الصباح الباكر حول حمام السباحة طبعا فيه البصل والليمون والملانة الخضراء ، أما الفسيخ والسردين فسيتقدم فى وجبة الغداء ، وهنا أطلق ضـــحكتين متتابعتين ، ومال الى الامام كأنه روى نكته أو فاه بنادرة ، قال انه تم دعوة عدد من نجـوم المجتمع وأهل الفن ، حفل سيكون له مردود كبير ، قال ان رئيســـا لتحرير صحيفة كبرى نزل اعتبارا من اليوم لمدة أسبوع ، هــذا حدث لا يستهان به الآن ، قال انه تم ادراج الفندق فى قوائم عدد من الشركات السياحية ، وان فوج سيبدأ اقامته الاســبوع القادم ، لكن ما يجب التركيز عليه هم السياح العرب و .. والاثرياء الجدد ، توقف المدير قليلا قليلا ، قال مبـــتسما : والثريات ! ، غمز بعينه ، بعد انصرافه استعاد ايقاع الكلمة ، ملامح المدير عند نطقه وعدم اتباعها بضـحكته المقيتة ، الثريات ؟ ماذا يعنى ؟ فى البداية أخذته خشية ، هل بدر منه مالا يليق ؟ هل شكاه أحد الرواد ؟ ، صحيح انه يحدق طويلا فى الملامح فى الوجوه ، خاصة بعد بقائه فترات طويلة فى المطعم ، بدلا من رؤيته الناس بسرعة فى الممر ، عرف النظر المتأنى ، والطواف بعيدا ، ثم الكر مرة أخرى بعينيه على وجه أعجبه ، أو ملامح جذبته ، خلسة كان يرقب ايماءات النساء ونظرات الرجال ، كيفية المضغ عند كلَ منهم ، أفواه مضمومة أثناء الاكل ، أخرى ثابتة وشفاه متحركة مهتزة ، ممدودة الى الامام ، وأفواه مزمومة ، ملمومة ، وأخرى يبدو مضغها كالتقبيـــل ،

وأوداج تنتفخ بالالسنة المدفوعة جانبا لاستخلاص بقايا الطعام من بين الاسنان وثنايا الفم ، عيون تتأوه عند تحلقيا حول الاطباق ، وأخرى تبدو مشوقة حانية ، في احدى الليالي أوشك على الضحك ، رجل آلثاني كان يمضغ بسرعة ينقل الطعام من جانب الى جانب ، واذ يزدرد الطعام يمد رأسه كله الى الامام ، يتقوس حاجباه ، وبعد اكتمال البلع يومىء مرتين ، لا يتشابه انسان بآخر ، خفية كان يتفرج ، وبسرعة يدقق ، حريصا دائما على جمود ملامحه ، في أمسية أدركه خوف ، اذ رصد انبعاث اشارات من منضدة قريبة ، الرجل يدير ظهره ، أما المرأة الحسناء فكانت تواجهه بملامحها ، لم تكف عن اتخاذ أوضاع بشفتيها ذات معنى ودلالات عدة ، أما عينيها فكانتا تتأودان ، تنكمشان وتتمطيان اتجاهه ، أشد ما يخشاه تلك الايماءات الخفية ، ماذا كان يقصد مدير الفندق ؟

هل يقصد .. بسرعة استبعد الخاطر ، لكن لم يستطع رده ، عاوده ليلا عند انصرافه متأخرا ، تقله عربة العاملين ، لا يتحدث الى أحد ، يولي وجهه شطر الطريق ، يتابع مروق المرئيات ، في هذه اللحظات يبدأ استرداد ما حجبه ، ماواراه من ذاته ، أحيانا اذ يتأكد أنه بمنأى عن العيون ، يحرك عضلات وجهه ، يغمض عينيه ، يفتحهما ، كأنه ينفض قناعا خفيا علق به ، في عتمة الليل ترددت المعاني التي لم يلمحها وقت نطق المدير ، وفي مواجهة ما أدركه بدا دهشا ، حائرا ، متعبا ، وعنده رغبة في الافضاء الى أبيه ، وبسط همه أمامه ، لكنه كتم ، حتى بعد ثلاثة أيام ، بعد تأكده مما خطر له ، التقى المدير به ، قال انه يتنبأ له بمستقبل باهر ، وكرر ما رواه من قبل عن بدئه الرحلة من أول السلم ، من أدناه ، ارتقاه درجة ، درجة حتى وصل ، أصبح مديرا ، وهذا منصب رفيع ، لا يمكن الوصول اليه في عالم الفندقة بسهولة ، فما البال اذا كانت الشركة أجنبية والتنافس بين جنسيات شتى .

توجه بالخطاب مباشرة اليه ، دافعا مقدمة أصبعه صوب صدره

« أما أنت ، أنت عندك من المؤهلات ما يمكنك من التقدم بسرعة لا أقصد طبعا ما حصلت عليه من الجامعة ، انس هذا بالذات ، المهم مؤهلاتك أنت ، طولك ، وسامتك » .

غمز بعينه .

« وسيكون لك معجبات يجئن الى الفندق خصيصا لرؤيتك ، المهم .. أن تقف في المكان المناسب حتى لا تحرمهن من رؤيتك ! » .

انصرف مسرعا ، لم يتم ما بدأه ، لكنه لمح وصرح ، لم يعد ثمة مجال للحيرة ، واضح ما يهدف اليه آوى الى فراشه منهمكا ، انتبه الى

انقطاعه عن قراءة صحف الصباح منذ فترة ، كم يوم ؟ لا يدرى بالضبط
لكن أيام دراسته تبدو نائية كأن سنين انقضت وليست شهورا
معدودات ، فما أبعد المشقة ، وأنأى المسافة يتصل به بعض من زملاء
دراسته ، أحدهم هنأه ، قال لابد أن وساطة قوية تمت ، آخر استفسر
عن المرتب والحوافز ، أخبره ثالث عن انتظاره التعيين فى الحكومة ،
البعض يبحث عن فرصة للسفر الى الخليج ، لكن يقال أن الفرص هناك
ضئيلة الآن والآلاف يستعدون للعودة ، أحدهم أقلع مهاجرا الى فيينا
قال انه سيبدأ من جديد ، وكان ما انقضى لم يكن ، سيبيع صحفا أو
يعمل خادما فى مطعم ، ولعله يوما يصبح مثل أولئك الذين يقرأ عنهم ،
وتتابع تحركاتهم ، ويضرب بهم المثل على النجاح ، صاحب قديم ميسور
أخبره انه سيتم دراسته فى باريس ، انه سيعد رسالة علمية هناك ،
قد يعود ولا يعود ، أمر فى علم الغيب ، أصغى اليه وعنده غيرة وأسى ،
هذا ما وده وتمناه أن يصبح معيدا ، أو دارسا فى الجامعة ، أن يسافر
الى بلد ما ، ان فى شرق أو فى غرب ليتم درسه وتحصيله ، لكنه يرقب
دبيب شرخ فى البنية ، وخللا فى ترتيب النظام ، تغير يجرى ، يشمل
كل ما حوله ، انه غير قادر على تحديد ملامحه بدقة ، يشعر به ولا
يعقله ، ينقله دبيبه ولا يدركه ، يثق من سريانه حوله .وفيه ولا يراه ،
كان يعد نفسه لامر ، واذا به مشمول بآخر لكم ود اتمام الدرس ،
يحقق ما تمناه والده ، أن يقدم أوراق اعتماده يوما الى رئيس دولة
أجنبية ممثلا بلاده ، لو انه سافر كصاحبه هذا ، لو التحق بجامعة
أوروبية ! ، لكن ظروف والده المحدقة لا تفى بالغرض ، عندما وضع
بين يديه راتبه كاملا دمع الرجل تأثرا ، قال انه تمنى التحاق ولده
بالسلك السياسى ، لكن ما يعزيه ضخامة المرتب ، أعاده الى ابنه داعيا
له بالتوفيق ، مرددا ، لا يدرى أحد أين يكمن الخير ؟ ، وعسى أن
تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، والخيرة فيما اختاره الله ، وما شابه ذلك
ومما أدرك معه الابن ان الراتب الكبير لم ينه ولم يجهز على أمنية والده
القديمة ، هو أيضا لم يكن مرتاحا وان أبدى غير ذلك حتى لا يسبب
ضيقا لوالديه ، حملق بعينيه المفتوحتين فى ظلام الغرفة ، وأدراك حاد
عنده أن الخطط حادت ، وان ما حصله فى سنوات طوال يتسرب على
مهل ، ليس المناهج ، والنظريات ، والعلوم ، والقضايا ، انما أيضا
الدأب والمثابرة والترتيب وما يمكن أن يحقق ذاته بذاته ، يعى تبدد
عناصر القضية الأصلية ، وهذا موجع ، مهما بدت المغريات الحسية ،
ثمة أمور مستحدثة تحل ، بدءا من طبيعة الوقفة ، والانحناءة ،
واصطناع البسمة فى غير موضعها ، وتوجيه الشكر لمن لا يستحقه ،

وتجاهل الاهانة ولو كانت ضارية ، واغلاق بعض خزائن انسانيته وتبديل محتوى طال الحفاظ عليه ، والتدرب على اقصاء نفوره من شخوص غرباء عنه ، أما ما يجهله ، ما يكمن في انتظارم ، فلا يعلم عنه شيئا ، مضبب ، مغيب عن ناظره ، وهذا كئيب .

للمرة الثالثة يتغير موقع عمله ، للمطعم الرئيسي رواده الآن ، والحجز مقدما صار ضرورة لا وهما ، سفارات بدأت تقيم حفلاتها ، وأفواج سياحية تعبر لمدة ليلتين أو ثلاثا ، وشركات طيران تأوى أطقم طائراتها بانتظام ، تجار كبار ،لهم أسماء راسخة في السوق يجيئون ، أحدهم يتردد يوميا ، لا يجيء بمفرده أبدا ، دائما في جمع وصحبة ، أحيانا يصحب فنانة معروفة ، أو لاعب كرة شهيرا ، المدير أحاطه باهتمامه ، وخصه برعايته ، لم يكن في حاجة الى زمن ليدرك نشاطات جديدة يقترب منها المدير ، يمارسها علنا ، فبمجرد وصول مجموعة من السائحين ، يجتمع بأحدهم ، يعرض عليه تغيير ما معهم من عملة ، يشرح مضار التغيير الرسمي ، يوضح الفرق بين السعر الرسمي والحر ، انه يقيم علاقات وثيقة مع عدد من تجار التحف في خان الخليلي ، أحيانا يصحب بعض الاجانب الذين يفيضون بثرائهم ، وفي الاغلب الاعم يرسل مجموعات السائحين مع من يثق به وله في كل جهة مقدار معلوم ، هذا بعض مما ألم به مصادفة ، أما ماخفي فلا يدريه بعد انه في المطعم الفسيح الآن ، حيث تقدم الوجبات السريعة ، مزدحم ، مفتوح طوال الساعات الاربع والعشرين ، في المساء يجيء شبان وفتيات لا يرى مثلهم في الشوارع ، يرتدون ثيابا تحاكى احدث ما نشرته المجلات الاجنبية ، بنطلونات واسعة من القطن ، وقمصان بدون أكمام ، وحلل كاكية ذات جيوب مختلفة الاحجام ، يأكلون الشطائر ، يجرعون علب البيرة المستوردة ، ينفقون في غير حرص ، يتنادون .. هاى ، أعمارهم تقارب عمره ، برغم ذلك ينوء في مواجهتهم بسنين لا تحصى لم يعشها فكأنه كهل بلغ من العمر عتيا ، لماذا ؟ ، يسأل نفسه كثيرا وهو قائم على خدمتهم ، يدون مايطلبونه ، ويبادل بعضهم الحوارات السريعة الخاطفة ، ربما لأنه لم يمر بما يمرون به ، من وفرة مال سهل ، وخلوهم ، ألم يكن النجاح آخر العام بمثابة الشاغل الاكبر وفي الايام الصيفية يقرأ ليزيد معلوماته وحصيلته ، أين راح هذا كله ؟ أحيانا يستعيد صوت أبيه عندما كان يلج غرفته فيراه مشغولا بكتاب أو مجلة فيدعو له ويثني عليه ، يبدو له هذا غريبا الآن ، وكأنه جرى لشخص

آخر ، أو في مكان وزمان لايمتـــان اليه بأدنى صـــلة ، تدهشه جرأ
الفتيات ، يبادلنه الضحكات ، احداهن صـافحته وضغطت يده بشراهـ
بادية ، غير أن الشبان المصاحبين لهن أشد انتبـــاها وغيرة من الرجال
الوقورين ، الممتلئين ، المصاحبين للنساء مرتديات ملابس السهرة مرتفعة
الثمن ، والتى تشى رقتها بالملابس الداخلية الشفافة مما يوجج خيالاته
التى لم ترو بعد ولم يشفَ غليلها ، هنا الزحام مسل ، والوقت ينقضي
بسرعة ، ما يرهقه ، اضطراره محاورة هؤلاء الشبان ، خاصـــــة عندما
يدخل بعضهم فى نقاشات عبثية ، وتبادل قفشات ، والتلفظ بجمل ذات
ايماءات وطبقا لما أوصى به المدير ، لابد من مجاوبتهم ومسـايرتهم ، الا
يتغلب على أحدهم لفظا ، ألا يبدى تعاليا ، ألا يرتدى سـاعة ثمينة ، أو
خاتما ذا قيمة ، فهو مغلوب دائما ، ولـكن فى غير ذلة ، أقل ذكاء حتى
وان فاق محاوره ، يجب أن يبدو طبيعيا طول الوقت ، يفيض نشاطا ،
لا يبالغ ، لا ينقص ، ان ســـاعات الوقوف طويلة ، لكن عليه اخفـاء
ارهاقه ، ألا يختلس جلوسا ولو دقيقتين ، المدير الاجنبى لا يتهاون ابدا ،
كذا المصرى ، الا أن تعبه توارى ، ومعـكراته خفت بعد ظهورها ، هكذا
فجأة انبثقت فى المكان ، بوغت بوميضها فاوشك ان يعشى ، بحضورها
الأنثوى الذى شع فطغى ، وامتد فغطى ، لم يكن بمفرده هو الذى تعلق
بصره بها ، انما كل من وجد هذه الليلة ، صالت بنظراتها هنا وهناك ،
ثم اخذت طريقها باتجـــاهه هو ، بدأت تعبر الصـــالة متمهلة ، تحيد
متثنية متأودة عند اعتراض منضدة لسريانها ، كأنها فى عرض مستمر
لا ينتهى ، عنقها المطواع وصـــدرها الأشـــم ، وطلائع فخذين آتمين ،
الجانب الآخر منهما ردفين مكتملين ، محفوفين بما لايزيد أو ينقص . أما
قوامها فمتأجج وثاب ، كأنها تعرف دربها صوبه ، ابتســـم ، ارتبك ،
انسحب من كافة الأصول والقواعد ، وعندما اســـتقرت أمامه ، عندما
انتهت اليه ، انحنى هربا من عينيها مغالبا خفق قلبه وخدر حواســه ،
شمله حضورها ، ودثره ، فأرجفه وهدهده معا ، فأرســل عنده مباسم
وبشارات ، واستنفر شوقا الى مجهول أتم لا يلوح منه قبس ، تقدمهـا
الى منضدة خالية ينتظم حولها مقاعد ثلاثة ، جلســـت فكأنها شبت ،
أسفرت فتحة الثوب الجانبية عن لحظة اتصال الساق بالفخذ ، ريان ،
ممتلىء ، باظ ، لعاب رغبته يسيل داخله يجـــاهد ليكتم ، مرة أخرى
ينحنى اتقاء لعينيها البديعتين النهاشتين ، عليه أن ينسحب ، أن يتراجع
صوب مكان وقوفه ، ان سـؤالنا عما ترغب أكله أو شربه ليس مهمته :

لكنه استفسر بصوت خافت ، وتراجع ليبلغ زميله رغبتها في زجاجة بيرة ، كيف جرى له ما جرى ؟ مع انه يرى كل ليلة ربما من تفوقها جمالا ، تفوقها . كيف .. ربما في الملامح ، لكن تلك حضورها مشبوب ، واشعاعاتها أزلية ، أبدية ، أما جسدها فمنفلت فار من حدود الثياب المتوارية منه ، موحية بعديم قدرتها على لمه ، لم يكف عن الطواف حولها والتسلل من بعيد بالنظر الى منطقة وجودها ، متسائلا عمن جئن ليجلسن معها ، احداهن سمراء ، نحيلة ، جعداء الشعر ، تدخن سيجارة في اثر الأخرى بدون توقف ، الأخرى طويلة في افراط ، اسبانية الملامح ، وربما المانية ، أو من احدى الدول الاسكندنافية ، أما هي فمن تكون ؟ كيف يمكنه أن يعرف بدون أن يلفت النظر ؟ اطمأن الى نزولها الفندق ، مفتاح الغرفة أمامها ، وعندما دنا ميعاد ذهابه بدت باقية . حذرا اقترب ، هل خصته بنظرة ؟ هل أومأت ؟ لا يقدر على نفي أو اثبات ، في هذه الليلة غادر الفندق على كره لأول مرة ، ود المكث فترة أطول ، في تلك الليلة أرق ، رأسه كوعاء ماء مغلي ، حتى رائحتها تميزت في الزحام ، علقت به ، وعندما أعياه التقلب ، وخشي طلوع النهار عليه مستيقظا ، أنهك باستدعاء خطوها وتجريدها ، وتمرير يديه على النافرين الصلبين وتقبيل جهاتها ، قبض ذكره بيده ، أراح نفسه بنفسه كما اعتاد منذ سنين حتى يهدىء حاله ويروق باله ، ويواتيه خدر النعاس ، كثيرا ما أنهى توتره باستدعاء جسد لفت انتباهه ، أو وضعا اتخذته احدى زميلاته عند جلوسها وانحسار الثوب عن بضاضة وفتوة ، أو تأثير ملاصقة عابرة دبرتها المصادفة بأنثى قدر لها أن تقف أمامه أو آنس صمتا منها ، أو اطالة التحديق الى صورة ممثلة شبه عارية ، في اليوم التالي غادر البيت قبل موعده ، قبل أمه بحماس ، وأوصاها أن تقبل أباه نيابة عنه ، بدا شرحا ، خفيفا ، راغبا في السعي ، هذا الضيق الذي اعتاده عند التوجه الى الفندق تبدد ، يود الاسراع ، خطاه أفسح ، حريص على حركاته ، فكأنها ترقبه خفية طوال سعيه ، سيبدأ موعد الغداء عند وصوله ، مع بدء نوبته ، سيمكنه الاطمئنان عما اذا كانت مقيمة بعد ؟ لا يدري ما يريده بالضبط ، لكن مجرد رؤيتها بعث عنده نهضة ، على مهل ، في حذر ، سيحاول أن يعرف عنها ، انه في توق الى رؤيتها ، هذا المدد الحيوي الذي يبعث أزيزا خفيا في أوصاله عند خطوها ، عبورها ، عند تثنيها ، بعد استقرارها قاعدة يستمر التشجيع الخفي المنبعث عن طلعها النضيد ، الاخاذ ، يؤجج مشاعر طال كتمانها .

وهنا لابد من اشارة عابرة الى خجل لازمه طويلا ، وخفقا : قلب فتى لم يضمنها قولا أو بوحا .

عندما رآها تهلل وأخفى ، تمايل داخله وقمع ظاهره حتى لا تشى ملامحه بخباياه ، فيما بعد لاحظ أن اتجاهه ناحيتها كان أسرع ، وخطوه أخف ، وابتسامته أرحب ، أما يده الممدودة فتفيض مودة ، وعندما أزاح المقعد قليلا الى الوراء لتتمكن من القعاد ، استنشق عبيرها بقوة ، وانشب نظراته عند قاعدة عنقها وبداية وادى ظهرها العارى المنبعث منه زغب ذهبى خفيف يتألق عبر الضوء ، اليوم لم تطل وحدتها ، جاء من يجهله ، من لا يعرفه ، من لم يره من قبل هنا ، مصرى ، ممتلىء ، حول معصمه سوار ذهبى ، تقدمه الى حيث تجلس ، ركز البصر على مصافحته لها ، هل يتعرف بها لاول مرة ، يبدو متحفظا كأنه لم يرها من قبل ، لم يطل جلوسهما ، اكتفيا بشرب العصير ، ثم بسقت قامتها متأهبة للانصراف بصحبته ، اقتفاهما حتى خرجا ، فأوحش داخله وتعجل الغد .

تقريبا ، فى الموعد نفسه جاءت ، فى التوقيت عينه يتوقع انبثاقها ، أحيانا بصحبة هذه السمراء الجعداء ، لكن مكثها معها لايطول ، تخطر مرات الى الهاتف ، تتحدث بهدوء ، تضحك ، مرة لاحظ أنها تشير بعصبية ، غير أن ما سرى اليه ، تلك النظرة التى خصته بها فى الليلة الـ : لظهورها ، تأكد له مافيها من خصوصية ، ابتهج الى حد التعب ، وعند انصرافها بصحبة مدير احدى الشركات السياحية رمته بطلة جانبية ، اوشك أن ينحنى متوددا ، غير انه لاحظ تجهم المدير فكف ، اذ يخلو المكان منها يود الانفراد بنفسه بسرعة ، وقبل نومه يلتهب باستعادتها ، باستحلاب حضورها بمخيلته ، أما تلك النظرة فاينعت عنده غرسا وسقت أحلاما مبهمة ، خلال الاسبوع الاول المنقضى على ظهورها لم يكن بقادر على تحديد مصدر كل تفصيله مما عرفه أو نما الى علمه ، أحاديثه مع بعض زملائه التى حرص على أن تبدو عابرة غير ذات غرض ، خاصة مع موظف الاستقبال الشاب الهادىء ، الذى يجاوره أحيانا فى عربة الفندق ، اضافة الى قول من هنا وقول من هناك ، الحوارات السريعة التى تجرى فى الممرات ، عند الانتقال من موضع الى آخر ، عرف أنها مقيمة الى مدى غير معلوم ، انها عاملة باحدى شركات السياحة الاوروبية ، وجودها مع زميلاتها ينشط الحركة ، انهن يقمن فى غرف معلومة ، لكنهن ينتقلن من حجرة الى أخرى ، يبدأ التعارف فى الملهى الليلى ، أو فى المطعم ، أو فى أى مكان آخر ، ثم يتولى المدير تدبير

الردفين ، وعتمة ما بين الفخذين الواعدة ، ينسدل على تهوض بنيانها ، واكتماله ، وفورانه المتدفق ، الضاج ، كتفاها العاريتان المستديرتان ، انحناءتهما تغري بالميل ، بلثمهما ، أما نهديها فلا مشـــد يسندهما ، حلمتان مشرعتان ، بدأ داخله مس وأزيز ، أما ركبتاه فسري عبرهما خدر وتسيب ، كاد ينتفض عندما فوجىء بها تمد يديهـا لتخلع جاكتته وتفك رباط عنقه ، نظراتها تلج عبر مسامه ، ود القعاد اذ أوشك اعياء لطيف ان يحطه ، وعندما شبت على أطراف قدميها لتتنـــاول المشجب اكتمل بزوغ جسدها ، اتضحت التقاسيم ، وانجلى البـــقور ، تعلق بالخط اللا مرئي الذى يحتد منتصف الظهر ثم يتقوس ، ينحني ليتحول الى استدارات عجيبة ، فكان ردفيها يشدان فخذيها ، مكتملين ، صلبين ، ملحقين بها ، متصلان ، منفصلان ، ولانها شبت ، فقد انخسف الرداء الحريرى الشفاف المطرز بخطـــوط طويلة مذهبة ، توارى بعضه في المفرق الذى يباعدهما ويقربهمـــا ، ويبرزهمـــا في الوقت عينه الذى يفصلهما فما أكمل التكوين وأبدعه ، فجأة استدارت ، أوقعته في كمين عينيها ، مما اربكه لحظات ، غير أن الازيز تحول الى صراخ أو عـويل متصل دفع اليه بجرأة لم يعهـــدها عنده ، كانت هي اللحظة بأتمهـا ، تختزل كل ما انقضى وتحجب عنه كافة مايتـــوقع مجيئـه أو حدوثه ، أشارت الى المقعد فأبى ، خطت نحوه فاشتد أمره ، حتى انتبه الى ماتسفر عنه ثيابه ، لكنه لم يبذل الجهد ليدارى ، حركتها المحدودة كأنها ركض داخله ، تأودها ينشب عنده ، تمد يدها بكأس شفاف ، تشير الى زجاجة ويسكى ، ليس مما يقدمه الفندق ..

ـ كأس ؟

يضطر الى ازدراد ريقه قبل أن يلفظ « لا » بصوت متحشرج .

ـ لاتشرب ؟

ـ لا ..

ـ مسلم ؟

قال انه لم يعتد الشرب في الظهيرة ، الحقيقة انه لم يذق الويسكى قط ، تقف معرفته عند البيرة التى جرع منهـا كوبا أو اثنين ، وأخفى ذلك عن والده الذى حذره دائما من الخمرة ، من الحشيش ، عن الاقراص المخدرة التى ظهرت وشاعت أخيرا وتنشر الصحف عنها ، من النساء والزنا ، كان يقول ان مشكلة ستقابله عند تمثيله بلاده في الخـارج ، تخلو الحفلات الدبلوماسية عن الخمر ، ألا يتطير السفراء والقناصل

وبأيديهم الكئوس ؟ لكنه يقول مستدركا ، انه يمكنه المجاملة بشرب كأس من الليمون أو عصير البرتقال ، هكذا يمثل تقاليد بلاده حقا ، تقول أنها تشرب في أي وقت ، تضع قطعا صغيرة من الثلج ، لا يرى الا تحرك جسدها ، وعندما وضعت ساقا فوق الاخرى نفر وركها المرتوى ، فأوشك على الهذيان ، ومع هذا كله حاش نفسه عن الاندفاع ، بقيت عنده خشية يقظة ، .ربما عد ذلك تهورا يقتضى العقوبة ، وفى لحظة وعى ان ما يأتي منه رد على فعلها هى ، وليس استجابة لاضطرامه وفوران حاله هو ، أزعجه ذلك ٠

تقول أنها عرفت اسمه الأول ، وعرفت دراسته للعلوم السياسية ، لكنها تجهل الى أى البلاد سافر ؟ يقول انه لم يسافر قط ، تبدى دهشة ، هى رحلت الى بلدان عديدة ، تسافر منذ سن مبكرة ، بلادها في شمال الدنيا ، باردة ، لاتسطع الشمس الا أياما قليلة فى الصيف ، كافة رسائلها الى أصدقائها تدور حول شمس مصر ، والمناخ الذى لا مثيل له ، لكن الزحام شديد ،.تسأله عن خططه للمستقبل ، يقول انه لا يدرى ، تسأله عما اذا كان راضيا فى عمله هذا ؟ يقول انه غير مستقر حتى الآن ، لكنه يتمنى أن يلتحق بالسلك الديبلوماسى ، تقول ، لكن المرتبات قليلة ، يضحك قائلا أنها تعرف أمورا كثيرة ، تقول انها لم تعرف شيئا بعد ، تصمت قليلا ، تشرد نظراتها ، يحار ، الام سيؤدى هذا الحديث ؟ يقفز الى وعيه تساؤل ، ماذا تريد منه ؟ هل يتخذ خطوة تجاهها ؟ لو أنهما بعيدان عن الفندق ، لو انه لم يأت بتعليمات المدير ، لبادر وأقبل ، ربما مايمر الآن به معتاد عندها ، لكن ٠٠ هل تقعد هكذا سافرة بجسدها كله ؟ بعد أقدامها على خلع جاكتته وفك رباط عنقه ؟ ان حضورها الانثوى يسبب له دوارا ، بل أن خاطرا يباغته ، هل يمكنه ارضاء هذا الموكب كله ؟ تقف حدود تجربته عند التقبيل المختلس وتمرير الكف فى أماكن هادئة على ضفتى النيل ، قبلة خاطفة ، ينتهى الامر بتشابك الاصابع ، وضغط الايدى ، وتأوه مكتوم ، يذكر صوت صاحبته الحذر ، آه ٠٠ انك تؤلمنى ! ، تسأل : هل تعرف كل من يتردد على الفندق ؟ يقول انه يعرف بعضهم ، انه مستجد فى العمل هنا ، تقول كأنها تحدث شخصا ثالثا غائبا ، انها تكره حياة الفنادق ، تلتفت اليه فجأة ٠٠

ــ « تعال » ٠٠

ينتفض عابرا المسافة القصيرة التى تفصلهما ، يرتمى بكليته

صوب جاذبية فلكها ، اذ حط عند مشارفها تمدد أعياؤه ، وثقل تنفسه حتى خرج منه مايشبه الشخير ، ولما كف ، شرع في شبيق شره ، بدأ كأنه لن يكف ، يجرع عبقها ، عطرها الداخلي ، تركض دقات قلبه ، يود لو ذوى في اسارها ، مررت أصابعها خلال شعره ..

ـ برىء .. برىء ..

تفك أزراره ، تجرده ، اذ يهم ، تشير اليه أن يكف ، أنها تفضل القيام بذلك ، للحظة يخجل من عريه ، مايلقاه غزير ، متعدد ، لا يدرى باى الأمور يبدأ ، يود لو يأتيهـــا من كافة جهاتها ، يدنو من أفقهـا ، يقارب تضاريسها ضحكاتها قصيرة ، سريعة ، حانية ، يحـــوم حـول مركزها ، كأنه يخشى أن يبدأ فينتهى ، وعندما اجتـــاز تخومها انخلع غير مصدق وجرى بعضه في بعضه ، يدفس أنفه فى أبطهـا ، تحنو ، تمرر اناملها فوق ظهره ، يبدأ أمره في السريان من جديد ، كأنها وعت ما هو عليه فامتصت زخمه الأول ، أما الآن وقد اكتمـل اســتوائها ، فتبدو كمارج من نار ، ينبوع لهب ، تتصـــلب ، ترتخى ، تتقلب فى هجوعها ، وتمشى فى ثباتها ، يســـلم قيـاده ، تطرحه ، تدغدغه ، لم يقدر على منع أصوات قصيرة من الصدور ، تبدو كأنها تستحثه على اتيان المزيد ، يدرك أن هذا مما يستثير كوامنها الخبيئة ويقربهـا من ذراها فيلبى ..

كم الساعة الآن ؟ لا يدرى ، لكنه يوقن أن ما انقضى لمـا يؤرخ به ، تقبله ، تمسه مسا هينا ، تسوى شــعره ، تعدل ياقته ، لم يعتد ذلك من أنثى ، انه قادر على النظر الى عينيها غير وجل ، أنها راضية ، لكن المهم ، متى وأين اللقاء التالى ؟ تقول برقة وغموض ..

ـ بعد .. بعد ..

ينصرف من الحجرة ، انشطرت حياته الى قسمين ، تشعبت رحلته الى مرحلتين ، انه مضـــمخ برائحتهـــا ، غاص بوجودها داخله ، يود الانصراف ، الخلو الى نفسه ، استعادة ماجرى ، تمثل ما وقع ، قولهـا أنها تحب صدقه ، وبكارته ، انه وسيم ، يتخدر اذ يستعيد اشعاعاتها عند القرب ، يمضى على مهل ، ينزل الدرج بطيئا ، مجبر على العودة الى المطعم ، يعبر الصالة ، يوشك أن يتعثر ، اذ يفاجأ بالمدير فى مواجهته تماما عند المنحنى المؤدى الى المطعم ..

« ها .. رفعت رأسنا ؟ » ..

كأنه عالم بكل التفاصيل ، يصافحه ، يضـــغط يده ، يقول انه

كتب مذكرة لصرف مكافأة خاصة له ، يضيق ، غير انه لا يفصح ، يحار الا انه لايبدى ، لماذا يكافئونه ؟ يخدش ذلك خصوصية ما جرى ، لماذا يتعاملون معه وكأنه أدى وظيفة ، لكن يبدو انه لم يمض اليها الا باذن وتصريح ، ان خاطره يغيم ، غير أن ما مر به طغى فلم يقدر الا على استعادته ، فى هذا المساء ازدحم المطعم ، وعلا صخب ، ولم يتوقف طويلا عند اهتمام خاص أبدته ابنة تاجر أدوات صحية شهير بدأت التردد منذ أيام مع عدد من صاحباتها ، تنفق بسخاء ، جاوبها بما تمليه قواعد الخدمة لاغير ، عنده قلق ، لكنه يفيض حيوية ، وكلما استعاد لحظة يسرى تنميل خفيف لطيف عبر ظهره ، عندما لاحت عند المدخل كانت بصحبة سويدية شقراء ، فارعة ، عريضة الكتفين ، ذكورية الهيكل والارداف ، لم تصل الا أول أمس ، تجول بعينيهما فى القاعة ، كأنها لم تلمحه ، لم تره ، أهذه عادتها فى الليالى المنقضية ، هل تتجاهله حتى لا توحى بما كان ؟ لكن المدير يبدو ملما ، جامعا ، من واجباته التقدم ، الابتسام ، الانحناء ، الاشارة بيده ، الى المنضدة الخالية أو المحجوزة ، بعد أن تم جلوسها أومأت ، هل تأخر فى الابتعاد عنها ؟ هل تردد قليلا ؟ لا يدرى ، لكنه ود لو تلقى اشارة تخصه ، عندما ارتد الى موقعه عند المدخل اجتهد فى استعادة ملامحها ، هل أبدت ابتسامة خفية ؟ ربما ، لا ٠٠ انه مخطىء ، كان خطوها أمامه مختلفا ، يستعيد ما كان بينهما منذ ساعة زمن واحدة ، من يتصور كيف مضى الامر بين هذه الجالسة المتألقة ، وبينه هو الذى يستقبل القادمين بلطف ، لم تلتفت قط الى جهته ، ود لو يبقى ، لو يمكث ، لو يجلس الى منضدة مجاورة ، أو يقف فى مواجهتها ، فى اليوم الثالث قرر ان ينهى هذا الصمت المحير ، أن يقدم على ما يعد مخالفة ، ابتسم لها ، استفسر عن صحتها غامسا عينيه فى عينيها ، التفتت اليه كأنها بوغتت بهذا التبسط ، الا أنها فى اليوم السابع المنقضى على اندماجهما قابلته بعينين تفيضان ترحابا ومودة قالت بالعربية « انت كويس » ، خف ، وشف وتبدد كمده المتراكم ، الا انه عندما لمح اقتراب الرجل الممتلىء ، ذى السوار الذهبى حول معصمه لفه غم ، وعند اضطجاعه أرق ، تقلب موغلا فى خططه الليلية ، قرر الصعود اليها ، طرق الباب ، دخوله ، استفساره عن أسباب تجاهله لها ، تقبيله يدها ، لكنه عند بدء نوبته فى المطعم ، لم يجرؤ على تجاوز المدخل ، فى هذا اليوم غابت ، لم تظهر فى اليوم التالى ، وفى الرابع ضج ، لم يستطع المقاومة ، تقدم من زميله موظف

الاستقبال ، قال أن صاحبا له يسأل عن مهنـدس داينمركي ، متخصص في الطباعة ، ينزل في الغـرفة رقم مائة وسـبعة وسبعين ، بعد تقليب بطاقات الاقامة ، قال زميله : الحجرة لا ينزل بها شخص بهذا الاسم ، عندئذ بذل جهدا ليحافظ على حيادية ملامحه ، من يشغلها اذن ؟ •

عند عودته الى المطعم تزاوجت عنده الراحة بالضيق ، راحة لانها لا تزال مقيمة ، وضيق لغيابهـا ، تتابعت الايام مقفرة من طلاتهـا ، أوحشت روحه ، قل زاده ، وتغير لونه حتى لاحظ أبوه فاستفسر عمـا به ، غير ان حاله أوغل في انعكاس ، وأمره أصبح في خلف ، تباعد عن الأقربين ، شح لفظه ، وطال شروده ، أوشك وكسه على التمـام عندما علم أنها تجيء في الليل المتأخر بعد انصرافه ، وانها تغيب أياما وتظهر بصحبة جديدة ، وأن معارفها يعدون الآن بالمئـات ، وأن رجالا كبارا تنشر أخبارهم في الصـحف يجيئـون اليها ويسـعون ، وينتظرون ظهورها ، وبعضهم يصحبها الى خارج •.

الحركة في المطعم صارت مقيتة ، ملامحه يظللها غمام ، وبالتأكيد فانه لم يلحظ في البداية اهتمام هذه السـيدة الامريكية به ، لم تكن بصحبة أحد ، وحيدة ، متأنقة ، تجلس الى منضدة صغيرة ، وبين الحين والآخر تدون بعض الملاحظـات في دفتر صـغير ، أو تنظـر الى مرآة صغيرة ، بيضاوية ، مزخرفة الحواف ، تعدل أطراف شعرها ، أو تهـز رأسها راضية ، تمضغ على مهل ، بتأن ، وعند بدئها الاكل تسبح عينيها في شرود عظيم ، المطعم مزدحم باستمرار ، نسبة الاشغال في الفنـدق لا بأس بها ، في تزايد ، أما السياح العرب فوصـلوا ، يجيء بعضهم بصحبة نساء محجبات وأخريات منهن سافرات ، وأطفال ، يبدى المدير عناية بهم ، يقف مع بعضهم ، يتبادل الود ، أو يحادثهم مقطب الجبين ، وعندما أرسل في طلبه ذات ليلة اشتد فيها الزحام ، توالت عليه خواطر شتى وبوارق ، قابله جادا ، طلب منه مباشرة الصعود الى رقم أربعمائة وأربعة عشر ، ثم قال انه في المرة السابقة لم يسأله عما جرى ، وكان المفروض أن يجيء من نفسه ليقص عليه أدق التفاصيل ، لكنه في هذه المرة لابد أن يطلعه على كل شيء ، أصغى الى اللهجة الحازمة ، المدير في عجلة ، لايقترح انما يأمر ، اتجه الى المصعد ، هل بدلت غرفتها ؟ ربما ، اقامتها طالت ، ان حيوية تسرى وأن لم يفارقه شؤم ، لن يقربهـا حتى يستفسر عن نفورها ، عن تجاهله ، سيطلب رؤيتها خارج الفندق ، يود ألا يكون لقاؤهما من خلال المدير اللزج ، الفضـولى ، عكارة مترسبة

صعب تلاشيها ، غير ان دمه نشط في عروقه عندما طرق الباب ، وبدت له رؤى بهيجة ، فليعش ما سيمر به ، الا أنه أوشك على التراجع خطوتين عند فتح الباب ، من هذه ؟ للحظات لم يستطع التعرف عليها ، الملامح لتلك السيدة ، لكن شعرها مسدل ، تبتسم الامريكية العجوز ، تدعوه الى الدخول ، رائحة عطر نفاذ ، مختلف لكنه سيظل مرتبطا بهذه اللحظات الاولى ، غرفة أوسع ، تطل على الليل والخلاء اللانهائى ، ثلاث حقائب ضخمة متراصة ، متجاورة ، أحداها معدنية الشكل ، كأنها صنعت من الالمونيوم ، سلة فاكهة فوق المنضدة ، أصابع الموز مغلفة بورق شفاف ، كذا عنقود العنب قاتم اللون ، تبسط يدها مرحبة ، يقعد في نفس الموضع الذي لزمه عند دخوله الغرفة رقم مائة سبعة وسبعين ، لكن ما أبعد الشقة ، صوتها خشن ، فيه بحة ، نفس السؤال ، والاجابة بالنفي ، لا يشرب ، تقف أمام المرآة ، تنثني متجهة الى منضدة مزدحمة بالاطباق ، كيف لم يلحظها ؟ سمك مدخن ، شرائح جبن ، لحم بارد ، سلاطات ، تقول انها ستعد له عشاء خفيفا ، ستأكل معه ، يومىء موافقا ، تناوله الطعام ، سيؤخر اللحظة التي يتوقعها ، تفتح زجاجة مياه معدنية ، تصب ملء كوبين ، تسأله : هل يفضل الضوء هكذا ؟ يهز رأسه ، تتطلع حولها ، تبدو متدفقة النشاط ، فى صوتها ، في حضورها حيوية كامنة ، يستدعي الى ذهنه الكليل التثنى ، التمهل ، التأود ، انسدال الثوب الدال المدل ، نمش يغطي وجه محدثته ، كيف لم يره ؟ لولا هذا الصدر المتهدل والركبتان البارزتان لما بانت علامات تقدم العمر ، ليست طويلة ، لكنها عندما استقرت فى مواجهته أبقت رأسها مرفوعا مما أبرز نحول رقبتها وانسيابيتها وشبها الى أعلى باستمرار ، كأنها واقفة أبدا ، تقول انها جاءت الى مصر مرتين ، وتنوى العودة في العام المقبل ، لكنها المرة الاولى التى تجيء وحيدة ، بمفردها ، مات زوجها العام الماضي ، ابنها يعيش في سيدني ، وابنتها في أوسلو ، أما هي فتسكن فى كاليفورنيا ، لكنها اعتادت قضاء الشتاء في جنوب أسبانيا ، تمتلك بيتا هناك ، قريبا من الطراز العربى ، تقوم الى حقيبة يد سوداء صغيرة ، مقبضها ذهبى ، تتناول بطاقة خضراء اللون ، قرأ عنوانها فى كاليفورنيا ورقم الهاتف ، على الوجه الآخر عنوانها في اسبانيا ، قالت انها زارت بلدانا عديدة في العالم ، كان زوجها يصحبها دائما ، عمله اقتضى تنقله بين بلدان شتى ، لم يتركها بمفردها قط ، خاصة بعد استقلال ابنهما بأمره ، ورحيل ابنتها للاقامة مع زوجها

النرويجي ، انها لاتفضل البقاء مددا طويلة في أمريكا ، زارت الاتحاد السوفييتي قبل شهور ثلاثة ، أول بلد تراه بمفردها ، زوجها لم يصحب اليه ، قالت انها تمنت لو صحبها في لينينجراد ، مدينة جميلة ، مليئة بالجسور ، والنواصي البديعة ، أما أعمدة الاضاءة هناك فمتحف متفرق قائم بذاته ، كذا القصور العتيقة المطلة على نهر النيفا من خلال خضرة كثيفة ، تغمض عينيها ، معبرة عن اعجابها ، تبدو ملامحها ناطقة ، جذابة ، لاتفنى الانوثة مع تقدم العمر ، هكذا فكر وقدر ، يبدل جلسته . انه مصنغ ، أقل توترا وان كان حائرا ، متى البداية وكيف ، هي أو هو ؟ حتى الآن لم يلتقط اشارة أو ايماءة ، يخشى الاقدام ، ربما أتى مايغضبها ، او ما لم تتأهب لقبوله ، حتى لو قويت عنده الرغبة فلن يخرجها الى حيز التصرف والتعبير ، عند الاخرى انتفض الدم في عروقه بمجرد دخوله ، أما هذه العجوز التي تفيض حيوية وأسى على زوجها الغارب ، فانها لم تبد علامة حتى الآن ، ولم تقدم الا على حديث طويل ، عندما رآها هنا كاد يولي ، تقزز من مجرد تخيله الى جوارها ، غير أنه الآن .. ولم يمض من الوقت الا مقدار يسير يتطلع اليها راغبا ، بعثت عنده نشاطا وانهت خمودا ، هل يبدأ تحسس طريقه حذرا ، لاشك أنها أعمق خبرة ، وتجربة بحيث تؤجل الامر حتى لا تبدو رغبتها مباشرة ، فجة ، غير أن مايعكسه ضيقا ، ادراكه التام انه مقيد ، وانه .. انه يقوم بمهمة ، وانه قد يلقى الجزاء أو اللوم الذى ربما وصل الى حد العقاب ، تنهى صمته بسؤاله عن جهة مولده ، يقول انه ولد فى القاهرة ، وعاش بها ، تقول ، لابد انه يعرف المدينة جيدا ، تطلب منه أن يحدثها عن أقسامها ، عن أحيائها القديمة خاصة ، يتهيأ ، لكنها تشير بيدها ، ترجو منه الانتظار قليلا ، تعود ممسكة بدفتر جيب صغير ، يتذكر جلستها أقصى المطعم ، تدوينها بعض السطور فى هذا الدفتر ، تتطلع اليه بملامح فيها الانتظار لما سيقول ، تدون ، بين الحين والحين تستفسر عن كلمة ، عن اسم شارع ، تطلب منه أن يمليه عليها حرفا ، حرفا ، تهز رأسها هزات سريعة ، لم تكن خبرته بالمدينة عميقة ، حدثها عن منطقة سكنه ، ميدان السكاكيني ، القصر القديم ، الظاهر ، مسجد الظاهر بيبرس المهجور ، عن الاشجار القديمة ، والاجانب الذين كانوا يفضلون سكنى المنطقة ثم هجروها ، استعاد بعضا من ذكريات والده عن الترام الذى كان يصل الى الاهرامات ، استوقفته باشارة من يدها ؛ سألته عن دراسته ، تمهل عند قوله انه درس العلوم السياسية ، أبدت

دهشة ، اذن عمله في الفندق اضافي الى جانب عمله الاساسي ، نفى ، قال انه متفرغ تماما ، دونت بعض الملاحظات ، استغرقت وقتا أطول ، قالت ، لابد انه نسي ماتعلمه ، في بساطة أوما مجيبا ، لاول مرة يعترف نطقا وقولا ، ولمن ؟ لهذه المرأة التي لا يعرفها ، المكلف بالجلوس اليها ، التي يلتقي بها أول مرة ، وربمـــا آخر مرة ، خفف عن نفســه ثقلا ، ستمضي ولن تلح عليه بالاستفسار ، كيف نسي مادرسه ، كيف ينظر الى سنوات دراسته الطويلة ؟ يطرق ساهما ، نطق بما آل اليه حاله ، يبدو انها لاحظت وجومه ، تساءلت ، هل أثقلت عليه ؟ ابتسم مجاملا ، أبدا ، أبدا ، تقوم الى سلة الفاكهة ، تتناول أصبعا من الموز ، تقشره ، تقدمه اليه ، يتساءل ، أيكون ذلك مقدمة لاقترابها منه ؟ صحيح انهـا عجوز ، لكنها تفيض نشاطا وحيوية ، حتى أنه شـعر بتعب غريب في مواجهتها ، أدركه مس من كهولة لا تزال نائية عنه ، تعود الى مقعدها ، دفترها لايفارقها ، ترفع حاجبيها ، تبدو مستغرقة فيما يجهله ، يلوح تعجب ودهشة بين ثنايا ملامحها ، من أي الامور ؟ لا يدري ، تتشاغل بالنظر حولها ، هل حانت المغادرة ؟ فليجرب ، يقف ، تومىء شاكرة ، ابتسامة محايدة ، تطلب منه الانتظـــار ، تمد اليه مظروفا عليه شعار الفندق ، يحار ، تهز رأسها بما يعني انه من الضروري أن يأخذه ، عند الباب أمسكت ذراعه ، شبت قليلا ، قبلت وجنتيه ، قالت انه لطيف ، مع السلامة .

في الممر فتح المظروف ، ورقة مالية واحدة فئة الخمسين دولارا ، ابتسم مدير الفندق ، قال انه يحب الامانة ، هذا ما تم الاتفـاق عليه فعلا ، لكنه لم يخبره مقدما حتى يستوثق ذمته ، قال : ان أهم مميزات الفندقي الناجح الامانة.الامانة بالتحديد .. ســاعدته على ارتقاء السلم من أوله ، حتى وصوله الى المرتبة التي يحتلها الآن ، هل يعـلم انه بدأ عاملا في نظافة الغرف ؟ كم من أشياء ثمينة عثر عليها في الحجرات وقام بتسليمها ، بعضها مما خف حمله وارتفع ثمنه ، كان يمكنه اخفاؤها ، لكنها الامانة ثم الامانة ، ان نصيبه خمسة وعشرون دولارا سوف تسلم اليه في نهاية الشهر اضافة الى ماسيستجد انه وسيم ، مكتمل الشكل وفرصه بلا حدود ، ضحك ، الضحكة ذاتها ، قال انه ليس بغـافل عن نظرات الحسان اليه ، كل نظرة اعجاب به تبلغه ، يحاط بها علما ، مرة أخرى هذه الضحكة ، لكم يمقتها ..

عندئذ نطق ، تساءل ، لكن .. لماذا هذه الدولارات ؟ قال المدير :

أخشى أن ترتد غبيا ، لانك أصغيت ، لانك استمعت الى وحدتهـا ، واذا طلبتك مرة أخرى ستدفع من جديد ، لو تطور الامر مع شـــطارتك ، سيكون الحساب مختلفا ، مفهوم ؟.ان وجهه جامد الآن ، يقــول ، هل تعرف الممر الذي بدأت فيه عملك ؟ ستقف مرة أخرى عند باب المطعم ، بجوار التمثال الرخامي ، قابل الداخلين بابتســامة وانحناءة ، أحذر مصافحتهم ،لاتتحرك معهم ، لاتتبعهم ، مفهوم ؟ أومأ مجيبا ، يقول المدير انه عمل مؤقت تمليه ضرورة معينة ، لن يفصح عنها الآن .

في هذه الليلة رأى عددا أكبر يتجهون الى المطعم ، يختلفــون عن رواد المطعم السريع ، الرجال يرتدون الملابس الكاملة ، وأربطة العنق ، أما النساء فيضوين في بريق متلألىء ، الفخامة بادية ، والثراء فائض ، الا انه حن الى المطعم الآخر ، حيث الحيوية متــدفقة ، والفرصة متاحة لتبادل جملة أو جمل ، انه ينحني ، يبتسم ، ولكن معظمهم لايبدو عليهم انهم يلحظون وجوده حتى ، كأنه قطعة صماء متممة لهذه القطع الصماء المتناثرة في الممر ، تمثال رخامي ، مرآة ثمينة ، رأس تمثال محنط بعد تمام صيده وحزه منذ زمن ، غير انه عندما انحنى مبتسما لذلك الشيخ العربي النحيل الملتحف بعباءة سوداء مطرزة حوافها بالقصب ، ويغطي رأسه بقماش من مربعات حمراء وبيضاء جاوبه ، قال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، يتبعــه ثلاثة على مســافة لا تزيد أو تنقص ، عباءاتهم بنية اللون ، رمقوه بنظرات صماء ، بعد انتهاء العشاء فوجىء بتوقفه أمامه ، يمد يده ، لم يتح له فرصة للانحناء طبقـا للتعليمات ، احاط يده بكف نحيلة ، معروقة ، باردة ،لاحظ لحيته المثلثة ، وعينيه شبه المكحولتين ، المرافقون الثلاثة يحتفظون بنفس المسافة ، يبتسمون ، يشجعونه بالنظر ، اتسعت عينا اوسطهما كأنه ينبهه الى الحظــوة التي نالها ، تساءل الشيخ : تعمل هنا ؟ أومأ ، نعم ، ردد الرجل ، ماشاء الله ، ماشاء الله ..

ضرب المدير المكتب بقبضة يده غاضبا ، الى متى سيعلمه أصول الشغل ؟ رجل كهذا كان يجب التودد اليه ، مخاطبته بياطويل العمر ، طال عمرك ، معاليك ، هل يعرف ماذا تعني رتبة شيخ ؟

عندما رآه في اليوم التالي قادما نزل به ضـــيق ، ضـغط يده ، سأله عما اذا كان يقف هنا كل ليلة ؟

« نعم ياطويل العمر » ..

« الله ، الله ، ومهذب أيضا ..

ثم اتبع قوله بلهجة مصرية دارجة ..

« ايه الحلاوة دي ؟ » ..

ازداد اقترابا منه ، مال نحوه حتى أوشك أنفه أن يلامس جبهته ، بدأ يسمعه شعرا ..

تفاح خدى شقير فيه

مسكي لون زها وأزهر

قد بان منه النوى فأضحى

زهري لون بخد مسعر

ماتزال راحته محيطة بيده ، قبل أن ينصرف هز رأسه ..

« الله جميل يحب الجمال » ..

لم يدر كيف يكون الرد ، عند استماعه الى الشعر دار بنظراته ، لم يدر أين يوجهها ، أو كيف ، ان ضيقا ثقيــلا تملكـه وجثم عليه ، خاصة عندما بدأ يتلو هذا الشــعر ، ضيق ممتزج بـكراهية وخوف وقشعريرة تبعث عنده تساؤلا ، ماذا يراد به ، ماذا ينتظـره ؟ كل شيء جلي أمامه ، غير أنه لم يدر كيف يدفع عنه هذا الخطر اللزج السقيم ، لام نفسه لأن رد فعله لم يبد منذ اللحظة الأولى ، لكن مقتضيات العمل ، ظروفه ..

في المكتب بدا المدير قاســيا ، غتيتا ، ينوى الأذى ، تســاءل مستنكرا ، كيف يمكن رد هدية معاليه ؟

توقف لحظة ، قال ..

مغفل .. هل تعرف ثمن هذه الساعة ؟

أطال النظر اليه ..

أربعة آلاف جنيه ، يعنى ستضع حول معصمك سيارة صغيرة ..

جاوب المدير بنظر كظيم ، تساءل ، ولماذا يهديه الساعة ؟ انه لا يعرف اسمه حتى ، يضحك المدير ، ضحكة يصغى اليها لاول مرة ، مصحوبة بما يشبه الشخير ، عيناه صوب السقف اذ يقول ، وهل من الضروري أن يعرف اسمك ؟ ، ترتد ملامحه خشنة ، يتجه نحوه متمهلا، كلمة واحدة تتردد داخله تلخص ملامح المدير الذى دنا منه ، « فاجر » يخرج صوته بطيئا ، خافتا ، فيه قسوة ، اســمع ياولد ، هل تذكر مجيئك عندى أول مرة ؟ ، ألم أقل لك ان شرطنا هو الطاعة التــامة ، هو قبول أى عمل يوكل اليك ؟ ؟ ، يوشك أن يبدى اعتراضه ، غير أن المدير لوح بيده وكأنه ينهى الحوار ، خلاص .. هذا شغل ، شــغل سيظل أمره بيني وبينك ..

هنا وصل الى نقطة لا يمكنه مقابلتها بالصمت ، أو تجاهل المعنى الكامن السافر ، يقول ، هل من العمل أن يتقبل مثل هذه الهدية التى لا يمكنه ردها ؟ هل من الشغل أن يقرص الشيخ خده ويبدى الرضا ؟ هل من العمل أن يغمز له بعينه ، هل يقبل على نفسه مثل هذا ؟

يقهقه المدير ، يتراجع متمايلا حتى يستند الى المكتب ، انه يحملق في المدير ، ان ما يواجهه يتجاوز وجود هذا الرجل الفتيت ، ان خيوطا خفية تحلق به ، تدنو من مسامه ، تهدده بالنفـــاذ الى أبعد أغواره ، توشك أن تبدل سنينه كلها وما سيجىء من زمنه ! ، يخيـل اليه أن المدير الاجنبى يقف وراء هذا الباب ، يصغى ، ينتظر النتيجة ، وآخرين يجهلهم ، لم يلتق بهم قط ولن يراهم أبدا ، بعضهم هنا وآخرون منهم هناك ، ان ضيقه يتحول الى غضب ، ومرثية لنفسه ، أهذا ما ينتظره ؟ ينهى المدير ــ فاجر ــ قهقهة ، ليبدأ هجوما ساخرا ، متصــلا ، مشيرا اليه باصبعه أحيانا ، الولد شريف ، الولد عفيف ، اسـم الله عليه هل تريد أن توقف حال الفندق ؟ من اين يجىء مرتبك الذى لا يتقاضاه وزير ؟ .. وتكاليف الوجبات التى تطفحها بدون مقابل ، انت لاتدرى مصلحتك ، لا تدرى مصلحة الفندق ، ستة عشر مليونا انفقها أصحاب هذا المبنى ، ويوميا يتصلون به ، يضغطون عليه ، بل كل ساعة ، يجب عليه أن يضحى ، اذا لم يكن من أجل الفنـــدق فمن أجل البلد ، ان اغضاب معاليه ربما يسىء الى العلاقات ، ثم .. لماذا يخاف ؟ هل سيأخذ منه مالا يريد أن يعطيه غصبا ؟ أبدا ، ثم لماذا يفترض ما يفترض ، ربما يكتفى معاليه بالمحاورة والملاطفة ، ها .. ومن يدرى ، ربما يفاجأ عند طلوعه اليه بالرجل مرتديا قميصا نسائيا ، برغم غضـبه وضـيقه منه سيقص عليه حكاية طريفة ، حدث ان وصل الى ليمان طرة شاب صغير يفوقك جمالا ، اشقر ، أنت شعرك اسود ، خشى عليه الضـابط من عتاة المساجين فوفر له اقامة منفردة وأوصى الحرس بحمايته ، ومع مرور الايام أهمل أمره وصار يروح ويجىء فى السـجن ، وأمر أحد الضباط بضمه الى حجرة بالطابق الثانى كان يقيم فيها فتوة العنبر كله ، رجل فى حجم معالى الشيخ ثلاث مرات ، قاتل ، هل تعرف ماذا جرى ؟ فوجىء الضباط والجنود ان هذا الشاب الصغير الرقيق هو الرجل ، والفتوة الذى يهابه الكل فى موقع الانثى منه .. فلمـــاذا يخشى ؟ لماذا يخاف ؟ ثم ان هذا غباء ما بعده غباء ، سيقطع على نفسه طريق الترقى والثراء ، ليسأله هو الذى بدأ السلم من أوله .

لا يتوقف ، يبدو كأنه أعد الحديث من قبل ، متصل ، متدفق ، يتزايد يقينه انه سقط فى فخ ، وأن عليه أن ينجو ، الهرب حتمى ،

الفرار واجب ، والا ضاع الى الابد ، ولسبب ما يتذكر وجه أبيه الطيب يود لو يراه الآن ، لو يلوذ به ، أن يأوى الى ركنه السديد ، هناك فى جلستهما المسائية التى تبدو نائية ، بعيدة ، حيث لا يمكن لمثل هذا الفاجر أن يصل ، أن يطل ، ألا يلفظ ما يقوله الآن ، لكم تبدو أمنية أبيه قصية ، كأنها قيلت فى زمن يخص غيره ، لا يمت اليه ، أن يمثل بلاده في الخارج ، يقول الفاجر ان تصرفه سوف يسيىء الى العلاقات، ان مرثية تسرى عبره ، مرثية لا تؤدى به الى انكسار ، انما تفجر حنقا وغضبا ..

اعتبرنى مستقيلا ..

يضحك ، إنها الضحكة المختصرة ، الرذاذ المتنـــاثر ، للحظـة تبدو ملامحه طبيعية ..

اسمع .. ألم آمرك بالصعود الى غرفة هذه البنت .. وطلعت ؟

يرقبه صامتا ..

ألم أبعث بك الى هذه العجوز ؟

ماذا يعنى ؟ انه يبسط يديه كأن الامر مفروغ منه ..

طلوعك عندهما يماثل تماما ذهابك الى معاليه .. كله شغل ..

يود انهاء هذا بسرعة ، الخروج الى الطريق ، التوارى ، تجنب المرور أمام الفندق ، بالقرب من المبنى نفسه ..

هل تظن انك ستنجو منا ؟ انت تفسد ما نبنيه ، ستدفع الثمن من عمرك ..

الهواء البارد يلفه ، يمشى على قدميه ، المنطقة نائية ، الضـاحية بعيدة ، يمد الخطى ، كأنه يخشى اللحاق به ، كأن بعضهم يترصده ، ليس مهما ما ينتظره ، همه الوصول الى البيت ، رؤية والديه ، اللوذ بصمت الغرف ، اصغى أبوه ولم يدقق كثيرا لمعرفة التفاصيل ، ربما أضمر النية فيما بعد ، أما الآن فبدا راغبا فى تهدئة ابنه ، حتى انه ربت كتفه محاولا تخفيف ما بدا عليه من كرب ومشقة ، أما الأم فأبدت ارتياحها ، وقالت انها لم ترض عن هذه الوظيفة حتى لو ساوت ثقلها ذهبا ، هل تكون نتيجة التعب وسهر الليالى وقوفه فى مطعم ؟ ، فلتغر هذه الوظيفة اذا كانت قد سببت له ما تراه بعينها وما تشعره بقلبها. طلب منه الاب أن يقوم ليرتاح ، انه عارف بأحوال ابنه ، قربه منذ أن كان صبيا ، صحبه الى سائر الجهات ، طيلة عمره لم يرفع يده ليعاقبه أو ليزجره ، يعرف ابنه حمولا ، صبورا ، على البلايا ، ولابد أن مكروها صعبا نزل به ، لابد انه ينوء بما لا يقدر على حمله ، على عدم البوح به لن يلح الآن ، يثق انه ربما سيخرج من غرفته عصرا أو عشية ، ليفضى

اليه ، لينبئه بما جرى ، وما جرى جسيم ، هكـــذا تنبىء ملامحه ، قسماته المعتمة ، فأى أمر وقع ؟ .

استقبل الرجل القبلة ، صلى ركعتين ، رفع يديه بالدعاء ، قبل أن يخلو الى أم ولده قال ، عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وربمـا أراد الله أن يمثل بلاده فى الخارج ، قال ذلك ثم مضى الى باب الغرفة مال مصغيا ، الولد نائم فيما يبدو ، والأم لم تخف قلقها ، بعد الغروب مضت على مهـــل ، نادته نداء خفيا ، لم يجـب ، لم تنصرف الا بعـد اطمئنانها على تردد أنفاسه ؟ ، فى الليل خيل اليها ، بل أوشكت على اليقين من انه مستيقظ أرق ، لكنه لم يجب عندما نادته ، أغفت بعـد الواحدة صباحا ، غير أن الطرق المفاجىء عند الفجر باغتهم أجمعين ، هذا لم يقع من قبل ، أى زائر هذا ؟ يقف الولد عند باب غرفته مجعدا منكوش الشعر ، تتطلع أمه اليه ، حسها الخفى ينبئها انه المقصـود ، ترجوه بعينيها أن يخبرها ، أن يبوح ، يفضى اليهــا ، وعندما اقتحم الضابط ذو السترة السوداء والنجوم الذهبية الصالة ، أومأ الى الجنود الثلاثة أن ينتشروا فى البيت ، أن ينقبوا ، أن يفتشوا ، أن يقلبوا ما لم يطلع عليه غريب من قبل ، تتطلع الأم الى ابنها الواجم . المستغرب ، لم تلفظ الا كلمة واحدة بدت كالاستغاثة ، كالمرثية ..

ـ « ياخرابى .. »

الاب يبدو ما يجرى أمامه غريبا ، كأنه يسمع بوقوعه ولا يراه ، كل ما فاه به انه نطق باسمه كاملا مقرونا بوظيفته ، غير أن الضابط جاوبه مشيرا الى ولده ..

ـ « انصحه بالاعتراف .. ربما خفف ذلك من العقوبة .. »

ثم انثنى ملتفتا اليه ، غير عابىء بجزع الاب ، وتهدم الأم ، وروع الابن ..

ـ بصماتك تملأ الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين .. هناك شبهود. أيضا .. »



وقت ضائع

.. ما خبرنه ، ما جربته ، أن التغير لايدرك لحظة وقوعه ، انما يبدو وتتضح معالمه بعد تمامه ، الجوهر الذى عشته يوما وظننته باقيا أبدا ، مفروغا منه ، لا يمكن مجادلته أو نقصه ، أشهدته منقلبا ، تبدل واتخذ وجهة لم تخطر على بال ، ولم يتنبأ بها أحد ، ما جرى فى زمنى المحدود كان شاملا ، مباغتا ، أورث من هم مثلى كهولة قبل الاوان وهم ما زالوا بعد فى اربعينيات العمر ، ولأضرب مثلا وان بدا فى صيغة تساؤل :

ـ ما الذى درج عليه أقرانى منذ نشأتهم ؟

أليس تحصيل العلم ؟ ، النجاح فيه ، والتفوق فى مضماره ، فى زمنى كانت قيمة الانسان بما يحصله من علم ومعرفة ، كان هذا كافيا لضمان حياة انسانية ، بلا ضيم ، أو عوز ، ما كان عليه الجيال فى وقتى الاول ، لكن ما وقع من تبدل أتى معه بما لم يدر بخلد ، اذ صارت القيمة الانسانية تقاس بما لدى المرء من مال جمعه واكتنزه ، ليس مهما كيف آتى به ، ولا بأى وسيلة ، هذا جوهر الوقت الذى أدركنى ، وحفزنى الى كتابة هذه الرسالة ، حتى اذا ما تبدل الامر يوما ، وصار ما اكتوينا به نسيا منسيا ، لقى من يأتى بعدنا لمحا مما كان وباد ، فالتغير يلحق كل شىء ، ما من معنى أو حدث مطلق ، فكل أمر نسبى ، محكوم بالوقت وقصد المنفعة ..

من تصور يوما أن التغير سيلحق جوهر ما بذلت أرواح من أجله ؟ من ؟ ..

من شطح به الخيال وقت اضطرام الحرب ؟ ليرى من هتك الارض ودهس بجنازير دباباته الاطفال الصغار ، ساعيا آمنا ، يجوس الديار أما الذين بذلوا أعمارهم أثناء حربه ، فقد آتى حين من الدهر ، منع فيه ذكرهم ، حرصا على الوئام الذى بدأ ، والصكوك التى وقعت .. من ؟

انى منبىء عن حرب لم أقرأ عنها ، لم أسمع باحداثها ، لم يروها لى مخلوق ، انما شهدت لهيبها وخضت غمارها ، وكدت أقضى فيها ، لو انى بدلت يوما مكان وقوفى ، لو آن عربة ركبتها أبطأت قليلا ، لو

ارتفعت رأسي مقدار شبر ، لو انني حدت يميناً بدلا من اتجاهي يسارا لو لزمت هنا ولم الزم هناك ، لما صرت الى تلك اللحظـات التى أخط فيها رسالتي تلك ..

حدث ذات يوم ديسمبرى عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين أن اتجهت الى موقع خارج السويس ، خطر لى أن أعرج على مقهى وسط المدينة ، مقهى أبو رواش ، الواقع أمام محطة السـكك الحديدية التى توقفت القطارات عن الوصول اليها أو الرحيل منها ، فوق الرصـيف قعدنا ، أنا وزميلى ضابط الشئون المعنوية ، شاب من دمنهور ، برتبة نقيب ، خفيض الصوت ، أحببت المقهى ، انه الوحيد الذى بقى مفتوحا زمن الحرب ، يقوم على خدمة الناس فيه عم خليل ، من يصـدق انه تجاوز الثمانين ، دائم الطواف ، والحركة ، لم يـكن له أقارب فى أى جهة ؟ اتخذ من المقهى مستقرا ومقاما ، بعد الشاى ، يشعل الجمرات، يقدم المشروبات ، والنرجيلات ، يحرص على بقاء المقهى نظيفـا ، لذا لا يقعد ، لا يكف عن كنس الارض ورشها وتنظيف الموائد ، وتحـذير الرواد من البصق .

فى هذه الايام لم يكن الناس فى حاجة الى انقضاء أوقات طويلة ليتعرفوا الى بعضهم البعض ما تبقى من الاعمار قاب قوسين أو أدنى ، الموت فى كل خطوة ، عند أى حركة ، مقترن بالانفـاس ذاتها ، جاء جندى من قوة المطافىء المرابطة ، قعد على مقربة ، دعوناه الى كوب من الشاى ، دنا فجلس ، صرنا ثلاثة ، متجاورين ، لا يواجه أى منا الآخر واذا تحدث أحدنا مال الى الامام قليلا ، حكى عن اقامته هنا ، واقامة امرأته وأولاده هناك ، عن رحلته الشهرية اليهم ، عن العبء الملقى على امرأته ..

كان الله فى عونها !

صمت لحظات ، لم انتبه الى ميل رأسه ، فيما بعد قال زميـلى أنه ظنه بدء اغفاءة ، غير ان ميله البطىء استمر ، حتى تكوم أمامنـا ، كان مظهره ثقيلا ، هامدا ، هذا الغموض البغيض الذى لن تعتبه قومة كان لابد من مضى بعض دقائق حتى يكتشـف عم خليـل تلك النقطة النحيلة ، الضامرة كرأس الدبوس ، تبعتها نقاط على فترات متقاربة ثم سال خيط ، فى المستشفى قال الطبيب انها شظية ضـئيلة جدا مندفعة من مكان ما ، ماذا لو انى جلست مكانه ؟

الغريب ان هذا التساؤل أقض عم خليل الذى لم يكن يجـاورنا وقت نفاذ الشظية ، لكنه اعتاد الحديث الى جندى المطافىء هذا ، كانا يتحدثان دائما وقت العصارى ، يصغى عم خليل اليه ، يهز رأسه أو

يمصمص بشفتيه أسفا أو تعجبا ، ولا يدرى أحد ممن يراهما مضمون الحديث فيما تلا ذلك من أيام قال الناس ان عم خليل العجوز أوشك على الجنون ، كان يبدأ الحديث الى أى انسان قائلا :

ـ تصور لو انى قعدت مكانه ؟

فى البداية كانوا يصغون اليه ، يستفسرون ، لكن مع كر الايام صاروا يستمعون اليه ضاحكين ، وقد يسخر احدهم منه فيبادره ..

ـ ماذا يحدث لو انك جلست مكانه ؟

تلك شظية أدق من رأس الدبوس نفذت الى موضـــع مؤثر . سلكت سبيلا لم نطلع عليه ، ولم ندر به ، فأخرست عمـرا ناطقـا ، وأنهت حياة شاء الترتيب الخفى أن نرى حدها على مـرأى ، من أين أتت ؟ أى قوة دافعة ؟ لم نسمع انفجارا قريبا ، لم ندر المصـــدر ، فكيف ؟ هذا من المكنونات التى لن نطلع عليها ، لكن ما تردد عنـدى عين ما أقض عم خليل ، ماذا لو قعدت مكانه وقد كنت قريبا دانيـا ، متأهبا ، ماذا لو انه لم يأت ؟ أى مسار كانت تسلكه الشـــظية ؟ ، أحيانا وبرغم انقضاء الاعوام الطوال ، أردد .. ماذا جـرى لامرأته ، لعياله ؟ أى مستقر ؟

شغلنى هذا ، كما شغلنى ما جرى ظهر ذلك اليوم ، عندما كنت أقصد مدينة القنطرة ، على الطريق الممتد بين الاسماعيلية والقنطرة ، السيارة تمضى فى خط متعرج ، الضفة الاخرى ، مواقع العدو مرتفعة، مطلة ، نيران الاسلحة الخفيفة تطال وتغطى الطريق ، صـوت المحرك يغطى أى ضجيج خارجى محتمل ، تمر الغرود الرملية ، المنحنيـات ، فجأة .. لمحت جنديا يهرع ، كينونته الاولى تحاول التوارى عن خطر محدق ، محاولة غريزية يرتد عبرها الى زمنه البدائى ، اذ يحـــاول الوجود الانسانى الوصول الى مخبأ ليحتمى ، ليبقى ، فى اللحظـــة نفسها لم أر ولم أدرك هذه المعانى كلها ، كان ثلاثاء ، الواحدة والربع عندما أمرت السائق أن يقف ، وعندما حادت العربة واستقرت خارج الطريق المرصوف ، صحت به أن يجرى ، أن ينبطح ، كنت أفعـــل ما أصيح به ، من الاعالى يتدفق هدير الطائرات ، يصهر الصـــمت ، معدنى ، يثير الغثيان ، يجرح ، يشقق السماء الصافية جدا ، عرفت الطائرات من الصوت ، سكاى هوك ، كانت حديثة جدا وقتئذ ، رأيت ملامح السائق ، كأنى أعرفه أول مرة ، ترقب ، خوف ،. رحيل محتمل استفسارات وتصاعد وتيرة ، أصابعه مغروسة فى الرمل ، فوق الارض بدت العربة بأبوابها التى بقيت مفتوحة لها مظهر ذعر بشرى ، تتعامد الشمس فوق معدن الطائرتين ، تبرقان كنصل الموس ، واحـــدة اثر

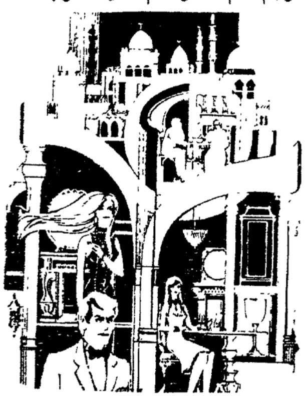
الاخرى ، هجوم وتغطية ، انفجارات القذائف المضادة لا تطالهما ، كانتا بعيدتين عن مرمى مدفعيتنا ، عندما طغى الانفجار تناثرت الرمال حولنا، في لحظة بدت الملامح التي تواجهني وكأنها فقدت الصـلة ببعضها ، عيناه في ناحية ، ذقنه تدلت ، أما شفتاه فانفرجتا متباعدتين ، ابتعد الهدير ثم اقترب ، استدارتا تجاه الشرق ، كان الانفجار على بعد ثلاثين مترا تقريبا ، أسرعت ، خفيفا ، مبتهجا ، منفيا من الوقت • عنـدى بهجة غامضة ، وفورة حيوية ، اذن • نجوت !

تأملت آثار القنبلة الثقيلة ، زنة خمسمائة رطل ، كأن سكينا هائلة قشطت ضفة الترعة المنحدرة حتى سطح الماء ، يلمع الطين الاسود المشطوف، على مسافات تناثرت كتل متفاوتة الحجم ، على بعد عشرين مترا ترقد جثث ثلاث ، بينهم خبير روسي ، شـملتهم الدائرة المؤثرة غطاهم مدى القتل ••

حتى مساء هذا اليوم لم أكف عن الحديث ، الانباء بما يجرى لكل من التقى به ، قبل هجوعي دهمني تساؤل :

فيما تلا ذلك كنت غير هياب ، ما أعيشه منذ وقوع هذا الانفجار أو ما شابه ذلك من مواقف ، وقت مضاف ، زائد ، اذ كان المفـروض أن أولى وجهة العدم منذ زمن بعيد •

ما جرى كثير ، لو فصلت لاطلت ، لكنني أقصر ، فما قصـدت الا التمهيد لثلاثة أترجم لهم ، عرفتهم زمن الحرب ، وتابعتهم بعد تغير الاحوال •



ماجرى للمحارب
الذى تقاعد

.. ما بين نهار وآخر خرج من الخدمة !

تغير وضعه بالكلية بعد ظهور اسمه فى كشوف الضباط ، فى النشرة الدورية التى تصدر آخر أيام السنة ، على الرغم من توقعه ذلك فانه بوغت ، فالامر يتم فجأة ، وربما لان صاحبا له لم ينبئه ، لم يلمح له ، تقاعده يعنى انتقاله من وضع اعتاده ، الى مجهول لا يعرف أبعاده من سير معلوم الى سعى مجهول ، من أرض يعرف مواقع الخطى فيها ، الى تضاريس تفاجئه كل لحظة ، مفارقة عشرين عاما من الانضباط العسكرى ليس أمرا هينا ، لهذا بدا أول يوم خارج الخدمة غريبا ، لا يمكنه ارتداء زيه أو المضى الى الجهات ، يطرق الشوارع فى أوقات لم يعتد المشى فيها ، انه يدنو من السادسة والاربعين ، يرتد الى نقطة يجب أن يبدأ عندها من جديد ، لكن الشباب يأفل ، وفى رقبته عائلة، أما معاشه المقرر فلن يفى ولن يكفى ، الادهى ذلك الفـــراغ ، تذهب البنتان الى المدرسة ، تمضى امرأته الى عملها ، ويبقى فى البيت ! هذا ما لا يطيقه وما لا يقره أمام ذاته .

وتعمل امرأته فى احدى الشركات ، ابنته الاولى تقترب من نهاية المدرسة الاعدادية ، الصغرى فى الثالثة الابتدائية ، شوطهما مازال بعيدا ، يقولون ان ذروة العطاء تبـدأ من الاربعين الى الخمسين ، عنده دراية واتقان لعلم الهندسة ، له خبرة بما يسمى بفن الاتصالات ، كان من المعدودين فى مجاله هذا ، شـــهد حرب الســويس وكان حديث التخرج ، يافعا بعد ، اخضر العمر ، ان عاش ما عاش لا ينسى انسحابه من بورسعيد وعبوره بحيرة المنزلة بصحبة الجند فى قوارب الصيادين فيما تلا ذلك من سنين رأى فظائع شتى ، الا انه لن ينسى أبدا احتراق الصباح الباكر فى المدينة ، اللهب المندلع من البيوت ، محيط بها ، ممسك سائر الجهات ، لهب برتقالى أحيانا ، داكن الحمرة حينا آخر ، اسود قاتم اذ يغزر الدخان ، عاش فيما بعد حروبا ثلاثة ، الحرب فى اليمن ، كاد يقتل فى صرواح ، والحرب التى جرت على ضفتى القنـاة

بعد أن وقعت الواقعة عام الف وتسعمائة وسبعة وستين ، وأخيرا .. حرب أكتوبر ، وطوال خدمته كان مشكور السيرة ، مقداما ، قلبه جامد على المخاطر ، سمعته بين جنوده طيبة ، كذا عند الضـباط الاقل منه رتبة ، ومما تردد عنه بين قادته ، موقف عاشه في خضم آخر ما جرى من حروب ، عندما انقطع الاتصـال بين قيادة لواء مدرع وسـائر الوحدات ، وقام بجهد فائق ، استثنائي ، في تأمين قنوات وسـبل اتصال بديلة ، ومما اشتهر به أيضا واستحق عليه نوط الشـجاعة قدرته على افساد التشويش المعادى على وسائل الاتصـالات البديلة ، فكان ذلك مما سجل له ، وكوفيء عليه ، ونقله آخرون عنه ، فنـال الثناء والوسام بحق ، أصبح هذا كله بعيدا ، ماضيا مندثرا ، بعد انقضاء المدة ومروق الفترة حكى ما جرى لامرأته ، عن أصعب لحظات عمره قاطبة ، عندما انقطع الاتصال ، وبرغم قربها منه ، وادراكها لما يسره وما يكدره ، فان قسماتها لم تعكس اهتماما ، كأن ما يقصه عليها أمر عادي ، عندئذ كف ولم يكرر الرواية ، سكت أيضـا عن كثير ، فليس كل ما يمر به الانسان يمكن توصيله وشرحه للاخـرين ، حتى الاقربين ، خاصة اذا كان الظرف مخالف للمألوف .

انقضى هذا كله ، كأنه يخص غيره ، وأحيانا يكتشف أن غميمة نسيان حجبت عن وعيه ما ظن انه لن يمحى أبدا .

كان بين زملائه وبينه صحبة أكيدة ومحبة ، كان من قلة معدودة خلت سيرهم من المكدرات ، أو المخالفات ، باختصار دال نقول انه كان في التمام ! ، لذا كثر عليه الاسف من زملاء خدمته ورفاق سلاحه زمن الحرب ، وأوشك بعضهم أن يذرفوا تأثرا بحضرته ، قال أحدهم وكان ريفيا متينا ، يا أصيل يابن الاصلاء ، الا انه أظهر الود الجميل عند التوديع ومفارقة المقر بعد أن أتم تسليم عهدته ، وعندما خطا بعيدا قال بصوت مختنق تأثرا : آن للمحارب القديم أن يسـتريح ، يكفيه أنه خلف ورائه رجالا هم بحق أعز من عرف ، فيهم من يفوقه علما ، كما أن ملامح منه وعناصر أودعها فيهم ، بقى متماسكا ، غير مفصح عن كثير ، الا انه عند مواجهته أول أيام تقاعده تهدهد داخله ، هانت عليه قعـدته في أوان خروجه اليـومي الى عمله ، عزت عا[illegible] القديمة ، غص حلقه ، وطرى دمعة ، والغصة لا تواتي من هو على كبر الا اذا اشتد الامر ، وعظم الخطب ، وقل المساعد ، هو الآن برتبـة عميد ، غير انه لم يمارس مهامها ، ولم يتحمل لحظة واحدة تبعاتها ، واذا ذكر الرتبة فلابد من اضافة لفظ « متقاعد » ، خلال الايام التالية

ترسخ شعوره انه كمن سحب بساط من تحت قدميه ، أو تلاشى جدار كان يتكىء عليه ، بعض من يعرفهم بدوا مسرورين ، فرحين ، اذ تعنى الاحالة الى التقاعد تمكنهم البدء في الاعمال الحرة ، حيث آفاق الكسب بلا حد ، وامكانية المغامرة متاحة ، أصغى اليهم بدهشة ، كأنه بعيد . بل سأل نفسه ، ماذا يجرى للخلق ؟ انهاء عمر بأكمله ، وتعوده العطاء بشكل خاص ، توظيف ما يعرفه ، وتحصيل مالا يعرفه ، أمر يستحق عليه التهنئة ؟ ،لم يكلف بمهمة الا وانجزها ، بهذا حق ، يقدر ماينتظره أيام أجازته ليقضى الوقت الاطول بصحبة طفلتيه ، بقدر اشتياقه الى عمله أثناء العطل ، كان محبا لما يقوم به ، مكثرا من مخاطبة الهيئات العلمية ، والمؤسسات المنتجة للاجهزة الجديدة ، ما يتم التوصل اليه ، لم يخطر بباله مفارقة تخصصه هذا ، برغم توقعه الاحالة على التقاعد عند الارتقاء من رتبة الى أخرى كما جرت العادة منذ سنوات لم يتخيل مفارقته للسترة الكاكية ، والعمل فى مشروع خاص ، لم يتصور نفسه واقفا في السوق يدير توكيلا لسلعة أجنبية ، أو مندوبا لدى احدى الشركات ، ردد أقارب امرأته على مسمعه ان من كان فى مثل خبرته يمكنه أن يكسب ذهبا بسهولة ، واذ تلمح امرأته من بعيد يسألها :

ــ هل ينقص شىء ؟

تجيب على استحياء ..

ــ لا .

يقول مدركا انها لم تنطق كل ما عندها ..

ــ أليست مستورة ؟

تومىء ، الحمد لله ، عندئذ يقول :

ــ والبنات .. أليس تعليمهما فى مدارس اللغات مرضيا ؟

تتساءل ..

ــ لكن المستقبل ؟

يلوح بيده :

ــ ياستى ، المستقبل بيد مالك الملك ..

غير أن قلقا سرى اليه خلال العامين الاخيرين ، أسعار الحاجات في ارتفاع ، كثيرا ما يصغى دهشا ، مفاجئا بأسعار طفرت وكانت حتى الامس القريب فى المتناول ، اضطر الى التغاضي عن بعض مما تلمح اليه امرأته على فترات متباعدة ، من ضرورة تبييض البيت ، اذ بهت الطلاء وتقشر فى مواضع عدة ، لو استعاضوا عنه بورق الحائط لكان ذلك أفضل ، يستفسر ، كم التكاليف ؟ ، لا تخبره مباشرة ، انما تقول .

اسال في السوق ، اذ يمضي يومان أو أكثر تستفسر وتتقصى عما تم ، يضطر الى التزول والسعى ، يفاجأ بالتكاليف ، يطلب ارجاء الامر ، تسكت على غير رضاء .

في الايام التالية لبدء تقاعده ، وان صح المعنى ودق ، في الايام التي خلت مما ارتبط به عمرا ، لاحظ راحة في عينيها وبهجة ، صحيح المعاش أقل من الراتب ، لكنه يأتيه بداية كل شهر بلا جهد ، بلا مقابل انه يملك وقته كله ، يمكنه الالتحاق بعمل مشابه لما حصل عليه بعض صحبه أو زملائه ، احوالهم في رواج الآن ، منهم من لديه بدلا من العربة الفاخرة اثنتان ، ومن يرحل هنا أو هناك ولا يستقر الا اياما معدودات في مصر ، قالت امرأته انها تخشى زيارة احداهن حتى لا تبادلها الزيارة لا تقدر على ابداء مقابل لكل ما عاينته أو رأته ، ثم تتطلع اليه متسائلة في صمتها عما سيفعله في الايام القادمة ؟ انه يدركها ، يفض رسائلها لكنه غير مجاوب ، يضمر حزنا وانكسارا ، انتهاء هذا العمر كله لا يبعث أبدا فرحا أو راحة ، أليس المولى الغارب شباب بأتمه ، سنين كده ، وأيام اندماجه ، ولحظـــات خطر كان ممكنا أن يفنى ويتبدد عبرها ، أطياف مجد عاشها تبدو كالوهم الآن ، كذا فرص لتحصيل علم جديد ولت ، تبددت ، في الايام الاولى لتقاعده ، اعتاد الصــحو في الموعد ذاته ، ثم الخروج ، الى اين ؟ ، لا يهم ، استعاد متأسيا اياما بعيدة كان الاستيقاظ المبكر في المعسكرات النائية يجعلهم حالمين بأيام عطلة شحيحة مقبلة يمكنهم النوم صباحا كما يرغبون ، لا ينتظمـــون في طابور الصباح والبرد صرصر ، حتى اذا دنت هذه الايام ونزلت وحلت بدت أيام الكد الاولى زاهية ، عزيزة المنـــال ، فما أغرب ، وما أعجب ذلك !

ما يثقله لا يقدر على الافضاء به الى الاقربين منه ، صباح كل يوم يخرج في ميعاده ، لكنه لا يرتدى السترة وغطاء الرأس . حيث السيارة في انتظاره لتنقله الى الوحدة ، انه يخرج متباطئا ، يتابع المسرعين فيود لو أن حاله كحالهم ، بدأ يوجد اهتمامات عديدة ليشغل نفسه ، ليكون لمشيه هدف ، كان يمضى الى وسط المدينة للفرجة على ثيـــاب جديدة لابنتيه ، أو لشراء بعض لوازم الدراسة لهما من أقلام رصاص جيدة ، وكراسات ، وما شابه ذلك ، أمور كان يقضيها عرضا أثناء خدمته ، أو يوصى بعض صحبه بها ، صارت الآن أهدافا يخطط لها ، يقطـع بهـا وقته ، أما اللجوء الى المقهى وقضاء الاوقات به فأمر لم يعتـده بعـد ، يضيق به ، لم يرتبط بمقهى من قبل ، اذ كان في صراع دائم لامتـلاك وقته ، حتى ان امرأته نبهتـــه مرات الى حاجة ابنتيه للقعـــاد معه ،

والانفراد به ، فيرجىء ذلك الى أيام العطلات ، انه يقطع الشوارع الآن من بداياتها الى نهاياتها ثم ينثني ، يمر بما سبق أن مر به ، ويرى ما رآه من قبل ، يدخل مكتبه ، يقلب كتبا ، يعاين صحفا ومجلات أجنبية ، ينصرف وعنده خجل لانه لم يشتر ، يعـود الى البيت في مواقيته القديمة ، وأحيانا يرجع مبكرا فيلقى نفسه وحيدا ، يأوى الى صمت البيت ، يتدثر به ، يستعيد انصراف الضبـاط والجنود من الوحدة ،امتداد الصحراء بعد السور ، ما يثيره عند مرأى كشك خشبي بعيد ،مهجور ، وحيد تماما ، كان جزءا من منشآت أقامها يوما الانجليز يضيق اذا تأخرت امرأته عن موعدها ، يقف في الشرفة منتظرا نزول البنتين من عربة المدرسة ٠

صار أمره في شكاية ، وحاله الى انسحاب ، آوى الى صمت يطول ، وشرود ، غير أن ذلك لم يطل ، لم يقدر على تصور نفسه عاطلا هكذا ، بطالا ، كان غير مقتنع بعد ، أن نظامه زال ، وان أياما جديدة أتت ،وان تكيفا يجب أن يتم ، لم ينف فكرة العمل عن مشروعه للعيش لكن أى عمل ؟ تلك هي القضية ، انه مهندس وعنده الخبرة والقدرة ، لكن كيف النفاذ الى السبل وامساك المسالك والدروب ؟ ، عندما بدأ الامر يصبح من شواغله ، وذات ليلة أثناء جلوسه في الشرفة منفردا ، مصغيا الى حركة الطريق ، أتته امرأته ، وقفت عند مدخل الشرفة بعد اطمئنانها الى اكتمال نوم الطفلتين ، آخر مجهود تتمه بعد نهار شاق موزع بين عملها ، وعودتها ، وقضاء الحاجيات من ترتيب طعـام ، ومراجعة دروس ، دائما تقول انها لو ركنت فقط الى المدرسة لما تقدمت احداهما خطوة ، مجهودها في البيت هو الاساس ، آن أن يؤدى نصيبه الآن ، أن يخفف عنها بعضا مما تقوم به ، أضمر النية ولم يقدم على الفعل ، فما الايام الماضية الا تمهيد لما سيكون فيما بعد ، يشبهها باللحظات التي تسبق ملامسة عجلات الطائرات للممر الارضى ، يردد بينه وبين نفسه ، انه لم يتم نزوله بعد ٠

تقول زوجته برقة :

ـ أقعد ؟

يقول : يا سلام ، ومنذ متى تحتاجين اذنا ؟

تدنو ، أيقن انها تخفى أمرا ، انه عليم بملامحها ، بتصرفاتها ، هذه السنين قربتهما ، دنت بكل منهما الى الآخر ، استقرت فوق المقعد المستدير بدون مسند ، تميل الى الامام ، تدس يديها مبسوطتين ، متلاصقتين بين ركبتيها :

ـ شوف يا سيدى :

يتأهب للاصغاء ، تقول ان خالها إتصل وطلب منهـا أن تخبره بحاجتهم اليه كمدير لشركة مقاولات ، انه يتمنى قبوله ، فالمنصـب كريم ، والراتب مغر ، وبرغم الحـاحه عليهـا ، فانهـا طلبت منه الفرصة ، أنها أدرى الناس به ، تعرف انه لن يقبل على أول فرصة الا اذا وافقته وطابت له ، الحق انه فوجىء ، لم يقدر أن الامر سيتم بهذه السرعة ، وبالطبع لم يكن في حاجة الى ثاقب فهم ، وتصاعة ادراك .. ليفهم ان المبادرة أتت من جانبها ، وهي الساعية الى خالها ،هذا الرجل الذى سطع نجمه وعلا قدره خلال الســنوات الاخيرة ، انه متعـدد العلاقات ، كثير الاسفار ، يظهر اسمه من حين الى حين فى الصحف ، ان علاقتهم به ليست حميمــة ، تقتصر على زيارته في أيام الاعيــاد والمواسم ، لكنها تتصل باسرته وتداوم ، لولا خالها هذا لما قبلت ابنته الصغرى في المدرسة ، كانت أصغر من الحد المقرر بأسـبوع واحد ، يعني هذا ضرورة انتظارها عاما آخر ، نزل به ضيق وأسى ، البنيـة ذكية ، تفيض حيوية ونشاطا ، ترى أختها الكبرى تجلس الى كراساتها فتأتى بواحدة بيضاء الصفحات ، تمسك قلما وتخط أشكالا ودوائر، تقول انها تذاكر دروسها ، وفى الصباح تغادر الفراش مبكرة ،تساعد شقيقتها فى ترتيب حقيبتها ، وعند انصرافها تربت كتفيـا ويدها ، تودعها حتى بداية درجات السلم ، تتـابعها وعلى وجههـا ما يوحي بتمنيها ، لو كانت معها ، لو تصحبها ، لو تمضى معها الى المدرسـة ، ترجع كابية الملامح ، ينقبض متألما ، سبعة أيام سيضيع مقابلها عام كامل ، الا انه قال لامرأته ، هذا ما يقضى به النظام ، غير انهـا أبدت جزعا ، قالت ان هناك استثناءات ، من حق الناظرة استثناء نسبة من شرط العمر ، قالت : أنت ضابط وحاربت أربع حروب ، من حقك ، اذهب اليها ، ألحت عليه وأطالت وأثقلت حتى امتثل ، خشى أن يرث ذنبا ، أن يجىء يوم يقول فيه ، كان ممكنا أن أفعل وتقاعست ،ارتدى الزى الرسمي كاملا ، ومضى الى طلب مقابلة الناظرة ، كان فى مكتب السكرتيرة آخرون ، كان أحدهم يبدو واثقا ، يرتدى قميصـا أسود ، وبنطلونا اسود ، يتلفت حوله ، يتعجل المقابلة ، يحيط معصمه بسوار من ذهب ويلوح بسلسلة مفاتيح تحمل علامة عربات المرسيدس ابتسمت السكرتيرة بعد خروج سيدة شقراء تبدو عليها الراحة ، وندرة الهم العام ، قالت مرحبة ان الهانم فى انتظاره ، ردد الرجل انه فى عجلة وانه مسافر بعد ساعتين فقط ، وعندما اقتربت منه السكرتيرةوقالت بحيادية : تفضل ، لم يكن ذو السوار الذهبى قد خرج بعد ، هذا يعنى

انه سيقابلها في حضوره ، ضايقه ذلك ، دخل حاملا غطاء الرأس ، ذا النسر الاشم والسنبلتين بين يديه ، رآه مستغرقا في المقعد الوثير ، متمكنا ، لا مباليا ، يتطلع اليه ، لا يحيد ببصره عنه ، بل ٠٠ يتفحصه بوقاحة ، تضع الناظرة أمامها زجاجة عطر باريسية ، انها هادئة جدا ، ناعمة الصوت ، لا يلوح من تعابيرها انفعال محدد ، لا تذكر اسما الا مقرونا بلقب يك ، قالت باختصار حاد ، تحت أمرك ياسيادة العقيد ، تزداد حدة نظرات الرجل ذي السوار الذهبي، في نظراته تحد غامض مشوب بازدراء مفتعل ، ايقن انه سيكون موضع تعليق بينهما بعد خروجه ، قال باختصار انه جاء ليستفسر عن فرصة الاستثناءات المتاحة أمام أبناء القوات المسلحة الذين خاضوا العمليات ، وأصيبوا ، ويحملون الانواط والاوسمة ، كأنه يوحي أنه يستفسر عن وضع عام ، وليس عن حالة تخصه هو ، غير انها قالت ، آه ٠٠ عشان الكتكوتة ؟ ٠

لم تتح له الاستمرار ، قالت ان هذا ألغي منذ عامين ، وانها تود خاصة ان الكتكوتة ينقص عمرها اسبوعا لاغير ، لكنها تخضع لرقابة صارمة من الوزير شخصيا ٠

والله كان بودي !

لم يدر ماذا يمكن قوله ؟ خاصة انها حادت عنه لتسأل ذا السوار عما اذا كان سيغيب ، قال بسرعة ، لا أبدا ، شوية في روما ، وشوية في باريس ٠٠ تراجع الى الباب ، حيا السكرتيرة ومضى خجلا يلوم نفسه ، نادم على مجيئه ، مشفق على طفلته ، ضغط أسنانه عندما استعاد ابنته وحيويتها ، لا تكف عن الحركة ، والحديث عن المدرسة وحملها حقيبة شقيقتها ، قالت امرأته باختصار انها ستطلب من خالها التدخل ، لم يبد موافقة ، لم يبد اعتراضا ، غير أن ما جرى في الاسبوع التالي فاجأه ، رن جرس الهاتف ، الناظرة نفسها ، استفسرت عن صحته ، عن أحوال المدام ، عن ٠٠ الكتكوتة الصغيرة ، ثم قالت انه يمكنه الحضور بها غدا العاشرة صباحا ، يمكنه دفع المصاريف وتسلم الكتب في نفس اليوم ، اصغى دهشا ، أجاب باختصار ، طلب من امرأته أن تمضي هي الى المدرسة ، لايطيق رؤية هذه المرأة ، قالت أنها تشاركه مشاعره ورأيه ، ولكن لسنوات مقبلة سيضطران الى التعامل معها البنتان عندها ومن الافضل مسايستها ، ثم ٠٠ ما الذي يربطنا بها ؟٠

غير انه أصر ، ورجاها أن تحصل على أجازة من عملها ، أن تنوب عنه ، قال انه سيصحب البنية صباح بعد غد ، وانه سيتعرف بالمدرسين ، لكنه لا يرغب في رؤية هذه المرأة ٠٠

اذن .. للخال نفوذ ، ويد تطول وتنفذ ، فى صـــباح أحد أيام الاسبوع الاول من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، اجتاز الباب الزجاجى الذى يفتح تلقائيا بمجرد الاقتراب منه ، أحد هــذه المبانى التى ظهرت فى المدينة أخيرا ، صماء ، معدنية ، زجاجية ، تحوى أسرارا عديدة ، الى يمين الداخل مكتب استعلامات للمبنى كلــه ، أما حراس الامن الخصوصيون فيقفون قرب المصاعد ، يحيطون خصورهم بأحزمة جلدية تتدلى منها المسدسات ، والطلقات النحاسية ، قرأ الاسم على اللافتة المستطيلة التى تحمل أسماء الشركات والبنوك والهيئات الاستشارية والمكاتب المتخصصة التى تتخذ من المبنى مقرا لها .

« مقبلكو .. » مجموعة شركات للانشاءات والمقاولات .

الصمت ، الحركة المحسوبة ، مساحات الالوان المسطحة الملونة وأضواء مجهولة المصدر ، مكتب السكرتيرة فسيح ، مقاعد وثيرة ، فى أركانه الاربعة أصص لنبات الظل ، عندما وقف أمامها خيل اليه انه محاصر بشكل ما ، وأنه مراقب ، وان الرجل ذا القميص الاســـود والسوار الذهبى الذى قابله فى مكتب الناظرة قابع فى مكان ما هنا ، السكرتيرة نحيلة ، طويلة ، برغم حرصها على أن تبـــدو حركاتهـــا وتصرفاتها دقيقة ، محســـوبة ، فانها حضورها كان فجا بدرجة ما ، لم يستطع تحديدها بالضبط ، عندها مبالغة فى اقتصـــاد حركاتها ، وايماءاتها ، وترتيب التفاتاتها ، ونظراتها المفاجئة التى توجهها هنـــا أو هناك ، وميل رأسها عند الاصغاء .

انه غريب هنا ، للمكان طابع غامض ، كأن الفراغ من معـــدن خفى ، الباب المؤدى الى المكتب جزء من الجدار يصعب تبينه ، عندما اجتاز الباب فوجىء به يقف على مسافة خطوة ، فى انتظـاره ، أبدى الود والترحيب للتو ، انه ربعة ، يتدلى رباط عنقه الازرق على قميص ناصع البياض ، أما الجاكتة فمعلقة الى مشجب يلى طاولة اجتمـاعات فى أقصى الغرفة الفسيحة التى يمكنه أن يعدو فيها ، أجعد الشـعر ، يحتفظ بابتسامة هادئة لا تفارقه ، يبســـط يده داعيا الى الجلوس ، يمد صندوقا مفتوحا يبرز لفائف السيجار الكوبى ، غير انه يعتذر ، يعدل وضعه ، يواجهه بملامح وقسمات تجاوز عمـــرها الخامســـة والاربعين ، تقلبت عبرها ظروف شتى من رحيل الى صحارى البـــلاد ، وحروب متتالية ، وأمسيات هى الآن متداخلة ، تبقى من بعضها مجرد لمحات بوارق ، ومضات ، واختفت أخرى ، اذن .. هذا مقتبل ، اسمه فى اللافتات المعلقة الى جدران المبانى التى لم تكتمل بعد ، « مقبلكو »

في هذه اللحظة أدرك انه لم ير صورته قط ، تنشر الصحف الاعلانات عن شركاته ، لكن ملامحه لم تظهر ، لم يرها ، انه أصغر مما توقع ، ربما في الخامسة والثلاثين ، لم يتردد اسم مؤسسته الا منذ وقت قصير ، ربما لا يتجاوز العامين ، قيل انه جمع ثروة بعد عمله سنوات في بلد نفطي ، يتردد انه وثيق الصلة بأكبر مقاولي البلد ، تردد هذا كله عندما وقعت عيناه عليه أول مرة ، بل سأل نفسه ، أين كان منذ عشر سنوات ؟ ولم يدر لماذا حدد المدة بسنوات عشر ؟ ، قال انه مسرور جدا لان رجلا مثله سيتعاون معه ، لهجته محايدة ، هادئة ، لفظ ثلاث أو أربع كلمات بالانجليزية بعد تردد وحيرة في البحث عن الالفاظ العربية ، يوحي باتقانه الانجليزية أكثر ، جاءت السكرتيرة بصينية عليها كأسان من عصير التفاح المستورد ، لم يفته رواحها ومجيئها منطلقة ، أثناء جلوسهما دخلت مرتين ، اتجهت مباشرة الى المنضدة المجاورة للمكتب ، تناولت أوراقا ، في المرة الثانية بدت وكأنها تتأكد من شيء ما ، قال مقتبل « باشا » ــ هكذا يذكرون اسمه ــ انه بامكانه تسلم العمل من اليوم ، الاجراءات بسيطة جدا ، قال انه أصدر تعليماته ، لو صادفته آى صعوبات يرجوه الاتصال به ، اذا لم يجده ستقوم ميس بكل شيء ٠

اسمها ميس اذن ، عندما حياها أثناء انصرافه لوحت له كأنه على وشك أن يستقل طائرة يقلع بها ، وفي الطريق الى الادارة لمح في صورة يحيطها اطار فضي لمقتبل « باشا » وهو يتسلم شهادة ما في مناسبة ما من شخصية كبيرة ، وعندما تسلم قرار التعيين فوجيء بالمرتب ، انه أكثر مما أخبر به خال امرأته ، القرار صادر بخمسمائة جنيه بينما ألمح الخال الى ثلاثمائة ، ليس خمسمائة فقط ، انما الى جانب ذلك المكافآت والحوافز ٠

انصرف الى الشارع دهشا ، فرحا ، مترددا ٠

أما الدهشة فلأنه لم يتوقع المرتب ، لو انه استمر بالخدمة ، لو وصل الى رتبة اللواء ، فلم يكن ليحصل على ما يوازى ذلك ، أما الفرحة فلأن الراتب الجديد سيمكنه من تكوين مدخر ملائم لطفلتيه يقيهما شر العوز حتى حين اذا ما جرى له مكروه ، واذا ما غيبه القدر عنهما ، قبل أن يتما شوطهما ، هذا أشد ما يرهبه ، لديه الآن مكافأة نهاية الخدمة التي صرفها منذ زمن قريب ، وما سيمكنه ادخاره في الشهور الآتية ، سيقدر أيضا على مواجهة أمور طال اهمالها ، وغض البصر عنها ، منها تغيير العربة التي أصبحت عتيقة وتكلفه مالا متزايدا ، أما اذا استقر

لحال واستمرت الامور مواتية فربما أصبح ممكنا سفره مع امرأته وطفلتيه في أجازة لمدة أسبوع أو اسبوعين ، يريهن ولو قبسا هينا من دنيا الفنيحة. أما تردده فمرده ومرجعه هواجس شتى وظنون .

أولها ، طبيعة العمل الذى سيقوم به ، أى جهد سيقدمه مقابل هذا المبلغ الضخم ؟ أى قوم سيتعامل معهم ؟ ، انه منذ الآن مدير لاحدى شركات « مقبلكو » ، في الايام الاولى خفت هواجسه وتوارت قليلا ، ان مكتبه مؤثث بعناية ، ومقعده دائرى ، ولديه خط تليفون مباشر تصل بمكتب مقتبل ، ليس بمكتبه هو شخصيا ، ولكن بلميس لسكرتيرة لاحظ ..أنها متنفذه في كل شيء ، كلمتها مسموعة ، وعندما مر ونهى ، كما انها صاحبة عقد وحل ، لها اتباع وعندما يتصل بها ! تجيبه مباشرة ، انما فتاة أخرى ، ناعمة الصوت ، تبادر فتقول بالانجليزية « هنا مكتب الآنسة لميس .. نعم » ، حار ، أمثل هذه منه توصف بالسكرتيرة ؟ في نهاية الاسبوع الاول أيقن أن جهازا بأكمله يصرف شئونها ، وأن لها اليد الطولى ، يعاملها الجميع باحترام وخشية ، ما الحكاية اذن ؟ ، ربما بدافع من الرغبة في الاقتراب منها ربما لانه كان يود الاتصال فعلا ، طلب منها أن يتحدث الى المهندس مقتبل .

قالت بتهكم بين ، تقصد مقتبل باشا ؟ قال بتحد ، لم يعد هناك باشوات منذ زمن طويل ، لم تحتد ، غير أنها أتت صوتا مغناجا ، ساخرا ، قالت : « دا انت سيد الباشوات » . بعد أن وضع سماعة الهاتف أصغى الى نفسه ، يدرك أهمية هذا الحوار الأول ، فطبقا للبداية ستحدد المسارات يعرف أيضا أن الهاتف مرشح جيد للصوت الانساني ، يكشف كل ملامحه ، ويكشف أدق سماته ، ومايشعر به ، ما وصده من فجاجة حضورها عند رؤيتها أول مرة .. وثق منه بعد حديثه اليها ، غير أن ماشغل به ، وبدأ يحوم حوله ، الرغبة في معرفة حقيقة موقعها ، أهي احدى قريباته ؟ أم انها على علاقة به تتجاوز العمل ولوازمه ؟ لم يستطع التوصل الى حدود مميزة ، أو علامات فارقة ، أضمر النية على التقصي والوقوف على كنة الامر ، غير أن ما حيره أكثر وقوى عنده البلبلة .. تلك الشركة التى تولى أمورها ، في البداية أقبل على عمله لجديد مبديا الهمة ، متأهبا لاظهار المقدرة ، مستعدا لتقديم ما يوازى الراتب الضخم ، حتى لا ينفق على بيته وعياله الا مالا حلالا ، هكذا يكون راضيا ، لم ينس أيضا ما لمح اليه مقتبل في لقائهما الوحيد حتى الآن ، ان كل جهد بارز أو استثنائى سيقابله حافز مرض تماما ، غير أنه في

نهاية الاسبوع الاول تزايدت حيرته ، بل اضطرب أمره ، خاصة بعد أن فرغ من قراءة عقد تأسيس الشركة ، والملفات الخاصة بمجالات نشاطها وأوجه عملها ، وجد تساؤلا يلح عليه ، محوره ، أى نشاط تقوم به هذه الشركة ؟ هذه المنشأة التى بدأ يتولى مسئولية ادارتها وتصريف شئونها وتنمية أعمالها ومواردها ، ودفعها فى اتجاه الريح ، والنأى عن أسباب الخسارة ، وعوامل التلف ، طبقا لما دون فى العقود التأسيسية فانه مسئول عن شركة للمقاولات والتجارة ، لكن .. أى مقاولات ؟ لم يجد أعمال تشييد أو بناء أو هدم ، فقط مجرد عمليات استيراد لمواد لا رابط بينها أو علاقة ، فمن أحجار رخامية الى ألواح معدنية ، الى أسياخ حديدية ، الى أجهزة الكترونية ، ومواد غذائية ، تلك صفقة ضخمة للشحومات الغذائية ، لاحظ مكوثها فى المخازن التابعة ستة شهور متصلة ، ثم تصريفها وبيعها فجأة فى يوم واحد ، ماذا يعنى هذا ؟ لم ينته من قراءة الملفات والوثائق المتاحة الا وقد عظمت حيرته ، اذ لم يلق مايبصره ، وما يدله على سبل شتى تخيل وجودها ، وألقى على عاتقه مسئولية طرقها ، والخوض فيها بهمة وتفان ، وقبل نظره الملفات والدفاتر الحسابية ، ارسل فى طلب من ينوب عنه اذا غاب ، ومن يدير أمور العمل اذا أخذه شغل ، جاء الرجل متهللا ، باسما ، مكثرا من تقليد ايماءات ونظرات اشتهر بها ممثل كوميدى ممن علا نجمهم ولمع خلال المرحلة ، قال ان الجميع يستبشرون بقدومه خيرا وبركة ، كان يضحك فجأة ضحكة قصيرة ، مضغوطة ، ينهيها بغتة ، لم يرتح اليه ، بل نفر منه ، غير انه كتم ما به من تساؤلات ، وحاش أمورا شتى لم ينطقها ، بدأ بالاستفسار عن أحجار الرخام ، فقال الرجل أن الشركة لاقت منافسة لا يمكن مجاراتها ، تساءل ، ممن ؟ عندئذ أطرق بنظراته الى الأرض ، ثم تطلع اليه شأن من يعرف أمورا جمة لكنه لا يود الافضاء بها ، غير انه قال بعد هزة من رأسه تنتمى الى هذا الممثل الكوميدى ثمة أشياء وخطوات واتفاقيات ربما تبدو عادية لكنها تعد من أدق الاسرار غير المستحب الخوض فيها حتى بين كبار العاملين ، هذا ما عودهم عليه مقتبل باشا ، لكنه الآن من أهل البيت ، ولا يجوز اخفاء شىء عنه .

بدا أثناء نطقه الكلمات الاخيرة وكأنه يجامل ، أكثر مما يقدر حقيقة مفروغا منها ، ثم واصل حديثه ..

قال ان المنافسة أتت من سيد المقاولين فى مصر ، لم يكن الرخام

مجال عمله ، لكنه سارع الى تأسيس شركة كبرى وعقد اتفاقيات ، ولكن مقتبل باشا ابن سوق ، يفهم ويتصرف ، توصل الى اتفاق ورضى بالعمل من الباطن فى مجال الرخام ، طبعا هو سيد العارفين بالمصلحة ، أوامره لا تناقش وخططه لا يعرفها أحد ، هو الكل فى الكل ، والمال ماله ، والدار داره ، واذا شاء استغنى عن الجميع فى غمضة عين ·· انه واصل !

لم يغب عنه انه المقصود ، المعنى ، بكل كلمة فاه بها الرجل ، بعد انصرافه لام نفسه ، كان بامكانه الرد القاسى فى مواضع عدة ، لكنه آثر أن يكون مصغيا ، وان يؤجل ردود الافعال ، ما استوقفه شخصية الرجل نفسه حضوره الثقيل ، الفاظ تطرق سمعه أول مرة ، وتعبيرات لم يألفها ، وايماءات غالبة على المعنى الظاهر ، وايحاءات متضمنة ، استعاد سنوات طويلة كان يشرح الامور الكبيرة بالكلمات القليلة ، بأسى تذكر حميمية الصلات بينه وبين ضباطه وجنوده ، بينه وبين قادته ، خاصة زمن الحرب ، وضوح القصد ونصاعة الهدف ونبل الجهد ، هذه الليلة عندما كان قابعا فى خندق اتصالات قريب من قناة السويس ، كان مسئولا عن تلقى الاشارات والرسائل من دورية قتالية عبرت إلى ما وراء الخطوط ، أشد ماخشيه حدوث عطل تنقطع به الاتصالات ، أو تشويش معاد لا يمكنه ابطاله ، برغم بعد المسافة الفاصلة ، برغم عدم معرفته لافراد الدورية ، فانه أيقن أن عمره يتصل بأعمارهم ، وان شهيق أو زفير كل منهم له صدى فى صدره ، استعاد قلقه الليلى عليهم ، واقترابه منهم على بعد ، وراحته عند تلقيه نبأ عودتهم ، وابلاغه التمام ، وانصرافه متأثرا بما كان منه مع انه لم يرهم ، ولم يلتق بهم لا عند عبورهم ولا عند رجوعهم ، من يمكنه أن يدرك موروثه هذا ؟ ·

مقتبل باشا ؟ ليس التى يتعقد لغزها ، أو هذا الرجل الذى لا يدرى عن ماضيه الحقيقى شيئا ، اين ما كان عما هو كائن بالفعل ؟ النقلة حادة ، والتغير وعر ، فكأنه نزل ديارا يجهل ما احتوته ، انه يؤدى دورا ولا يمارس عملا ، مضطر هنا ان يكون غير ما هو عليه ، يضفى ظلالا على ملامحه ، ويلفظ الغريب عن قاموسه ، يظهر عالما يضمر ، ويبطن خلاف ما يلوح منه ، عبر خدمته الطويلة لم يخض قتالا مباشرا ، لم يواجه العدو عن قرب ، لم يشتبك بالسلاح الابيض ، لم يلتحم ، لم يكمن ثم يباغت ، ومع ذلك فان تعامله عمرا مع أجهزة الاتصال العادية

والدقيقة ، وتوقعه للاشارات المتداخلة ، والنبضات الغامضة ، وظهور صوت معاد فجأة ، وتتبعه المضني لمواضع الخلل ، والانقطاع ، أكسبه هذا قدرة على التوقع ، والتقصي والنفاذ الى غياهب لا تدرك بالنظر الحسي ، يوقن ان هذه اللافتات تخفي أمورا غير مدونة بالورق ، انه يقف على حافة عالم غريب عنه ، خلاف ما خبر ، وغير ما عهد ، لاتستقيم فيه الأمور كما كانت عنده ، في ميراث خدمته العسكرية الطويلة ، كانت الحدود ناصعة ، صارمة ، فاصلة ، هنا الصواب وهناك الخطأ وما بينهما منطقة حرام ، أما النتائج فلا تحتمل التأويل ، الامر فى النهاية متعلق بأرواح يمكن أن تزهق ، وخسائر جسيمة يمكن أن تقع ، لكل خطوة حساب معلوم ، وتقدير ، ونتيجة ، لكم كان ساذجا عند مروره بتلك المنشآت من بعيد ، يظن أن لكل شيء ترتيبا ، العمل لابد له من نتيجة ، وللمضاربة عواقب ، أما ربح وأما خسارة ، يلتئم هذا كله فيما تعارف عليه القوم انه بنية النظام ٠

لكن في طوره الجديد هذا يقف والخطى ماتزال بعد فى بدايتها على ماخضه خضا ، وما يتناقض مع محصلة زمانه كله المولى ، الممتد فى ايامه الخاصة المعاشة ، لمدة اسبوعين لم يوقع قرارا ، لم يصدر أمرا ، تعلل بالرغبة في التعمق والدراسة ، واستكشاف حقيقة الوضعية ، ان ما تجمع عنده خلال هذين الاسبوعين لكثير ، كتم ما تردد عنده ، وأصغى ، واستقصى حتى أدرك بعضا وليس الكل ، فى لحظات أوشك أن يظهر النفار ، عندما أصغى الى ضحكة الرجل المقتضبة القصيرة ، وهو يحدثه شارحا ظروف صفقة السمن ، أكد ان التجربة نجحت ، وان الصفقة الثانية آتية لاريب فيها ، قال ان تغيير تواريخ الصلاحية لم يلفت النظر ، ضحك ضحكته التائهة ، قال هذه مواد انتهت فى بلادها ، غير مسموح يتداولها هناك ، ومقتبل باشا يحصل بشطارة على كميات كان يمكن أن تلقى فى البحر ، لكن القوم عندنا يهضمون الحديد ، ما من شكوى وردت ، وما من حالة تسمم جرت ، المخزن بالمطرية ، رسميا معروف انه مخزن للخشب ، مستودع هائل ، ضخم عند أطراف المدينة ، هناك يتم طبع تواريخ الصلاحية الجديدة تلصق البطاقات على العلب المعدنية . السوق تبلع كل شيء ٠

ابتسم الرجل ، قال انه من الطبيعي ان يقوم بزيارة المخزن ، انه تابع له ، كما انه سيرى هناك كيف يتحول التراب الى ذهب ! لم يعد الرجل متحفظا معه ، بل انه صار يحكى له بسهولة ، يقص تفاصيل

ما يجري ، ويبدي اعجابه بمقتبل باشا الذى لا يتحرك الآن الا وحوله ستة من الحرس الخاص ، كأنه من الزعماء المرموقين ، لم يكن الرجل هو المصدر الوحيد لوقوفه على ما يجري ، تفاصـــيل عديدة تشـــكل فى مجموعها كنه الوضع ، من الصعب ان يرجع كل منها الى مصدر محدد ، مما أدهشه ان أدق التفاصيل يجرى تداولهـا كأمور مفروغ منها ، في الشركة ، وفى الشركات الاخرى لا يذكر اسم مقتبل مجردا ، بل لا يذكر اطلاقا فى العموم ، انما يشار اليه بالباشا ، اما لميس فيجهل الكثيرون اسمها ، يعرفونها بالهانم ، لاحظ أن كثيرا من العقود المبرمة في بلدان نائية وقعتها لميس ، عقد فى مانيلا ، آخر فى لاهاى ، ورابع فى اثينا ، افلام تصوير ، أنواع من الجبن ، والصـــلصة ، قطع غيار سيارات ، مصابيح كهربائية ، اصباغ كيماوية ، مبيدات حشرية ، وآلات للجراحة الطبية ، وعندما اتضح له أن ميزانية الشركة التى تولى ادارتهـا تحقق خسارة سنوية متتابعة ، كان عند حد لايتلقى فيه المفاجأة الاولى ، عزم وأضمر النية على وضع تقرير مفصـــل ، مركز عن الشركة ، عن تنوع نشاطها وعدم تخصـــصه ، ولـــكن الاهم من ذلك كله ، تركيزه على الخسارة الجسيمة التي تحققها الشركة بانتظام منذ تأسيسها ، أوشك على الانتهاء من هذا كله ، لكنه متردد الآن بعد أن ألم بجـوانب الامر ، وأحيط من مصادر شتى بجوهر الاصـــل والفرع ، ما الجدوى مما قام به ، وهل سيصغى مقتبل اليه ؟ انه الآن حذر ، لو بدأ الصـدام فربما دبروا له أمرا ، خاصة بعد تأكده من وجود ثلاثة بين العـاملين معه فى الشركة قضوا مددا متفاوتة في الليمان نتيجة ارتكابهم جرائم شتى لم يقف عليها بالضبط ، وصل الى حد آثر عنـــده ان يكتم ، ألا يلح وألا يفصح ، ما أدركه فظيع ، وما استوثق منه مروع ، ولكن الى صـمت وطول تأمل ، وميل الى انفراد ، وعلى الرغم من انه اعتاد الا يخفى امرا عن امرأته ، فانه لم يبح لها بحرف مما وقف عليه ، وتكشف له ، بل حاول تجنبها ، وعدم الخوض في حوارات مطولة ، يخشى أن تدرك من أمره شيئا ، ضاق بذلك لانه اعتاد ألا يخفى عنها أمرا ، لذا كان يعـود متأخرا ، مجهدا ، متعبا ، علل ذلك بضرورة بذل الجهد المضـــاعف ، خاصة أن الامر مازال فى بدايته ، تتقبل راضية ، توصيه أن يحـــاول العودة في اليوم التالى مبكرا ليرى البنتين قبل نومهما ، يسألانها عنه ، ولماذا يتأخر ، فتعدهما بوقت أطول يخصصه لهما عندما يفرغ ، فتقول الكبرى ، ان أيام الجيش أحسن ! .

لم يفته همة امرأته في ترتيب أمور البيت ، تعد العـــدة لطلاء الجدران ، وتلمح الى ضرورة تغيير بعض الاثاث ، يود لو انه أفضى اليها بما يتوء به ، لكنه رأى فيه ازعاجا لها وتشـتيتا ، فكر في مصـــارحة خالها ، لكنه استبعد ذلك ، العلاقة بين الخال ومقتبل وثيقة ، ألم يلمح مقتبل نفسه في لقائهما الوحيد الى صلته به ، بل قال ان للخال فضـلا عليه وأيادي لن ينساها ، فأي خير يكون مع مثل هذا ؟ انه يقضي أوقاتا بمفرده بعد انصرافه من الشركة ، خيل اليه ان ثمة من يراقبه ، كف عن المضي الى المقهى الذي عرفه أيام تقـــاعده ، آوى الى ركن قصي في نادي المحاربين القدماء ، بعد صلاته المغرب توجه الى هاتف من الطراز القديم فوق منضدة مرتفعة القـــــوائم ، دس عشرة قروش معدنية في العلبة الصغيرة المجاورة ، أدار رقما ، ممـــا عرف عنه انه يحفظ الارقام التي يتعامل معها ، لايحتاج الى تدوينها ، حتى ان بعض صحبه من الضباط تندروا بذلك ، اذا ادار رقم الهاتف مرة واحدة فانه ليس بحـــاجة الى تسجيل الرقم ، ومع ذلك اضطر الى التمهل لحظات لانتزاع الارقام من تلافيف ذاكرته ، لم يكن قد اتصل بصـــاحبه هذا الا مرتين ومنذ عدة سنوات ، وكان ذلك في الاعياد للتهنئة ، ثم انقطعت الصلة خاصة عندما أحيل الرجل الى التقاعد قبله بعـام أو أكثر ، في هذا الغروب ، مع بدء نزول الليل أيقن انه بحاجة الى رؤية هذا الرجـل ، هو بالذات ، عرفه أثناء خدمته في القطاع الجنوبي من جبهة القنـــاة ، كان وقتئذ برتبة عقيد ، مسئولا عن مخابرات القتال ، أنه من الصعيد ، بلدته قريبة من مسقط رأسه ، سمعته حسنة ، صاحب جلد ، ويقال ان اسمه معروف جيدا على الناحية الاخرى من صفوف العدو ، وانه نظم عمليـات قتالية أثار بها الرعب بين أفراده ، هذا مقطوع به ، مؤكد ، يذكر لمعة عينيه ، وحدة ذكائهما ، يستعيد بعضا مما روى عن جرأته الغريبة ، حدث ان توجه ليلا الى موقع قاعدة صاروخية فور علمه بقصفها ، مضى والنيران في أوجها ، وطائرات العدو ترمي مشاعلا تقلب ظلمة الليل ، تصهرها ، وعند اقترابه من حد معين صاح به بعض الجند محذرين الا يتجاوز حدا معينا ، ثمة قنابل لم تنفجر بعد ، أشار أحدهم الى قنبلة ضخمة سوداء ، قاتمة ، في حجم الزير ، ذات ألف رطل ، قال قائل منهم أنها لم تنفجر بعد ، حثهم على التقدم لازالة ماتهدم ، ما انهار ، رأى وجلهم وترددهم ، تساءل مشيرا الى قنبلة الالف رطل ، ألم تنفجر بعد ؟ قيل ، لا ، تقدم بهدوء ، قعد فوقها ، أشعل سيجارة ، وبدأ ينفث دخانها ، وعندما لاحظ

دهشتهم برقت عيناه : ماذا تنتظـرون ؟ هل ننتظر حتى يموت من هم بحاجة الينا تحت الانقاض ؟ عندئذ اقبلوا يتنافسون ، أبرز ما في وجهه عينان نفاذتان ، لنظراتهما •

انه يقعد في مواجهته ، هنا في هذا الركن القصي من النـادى ، قال انه لا يجيء هنا الا نادرا ، اعتـاد التردد على مقهى افرنجى هادىء قريب من البيت ، اما معظم وقته فيقضـيه فى البيت ، يقرأ ، منذ عام بعد تقاعده مباشرة ، قرر أن يخوض التجارة ، كان لديه مبلغ من المال وضعه في مشروع لتجارة السيارات ، شـارك بعض أقاربه ، غير انه فشل ، أيقن انه ليس من أهل ذلك ، السوق صعب ، وخباياه وعرة ، خاصة سوق هذه الايام العجيبة ، صمت لحظات ثم تساءل : وانت •• ماذا فعلت الدنيا بك ؟ بوغت ، اذ كان يفكر فى مدخل يفضى من خلاله بما ينوء به ، لابد أن الرجل أدرك بخبرته وفراسته انه ما سعى اليه الا ليخبره أو يطلعه على أمر ذى شأن ، قال انه والله فى ورطة ، أخبر عن ظروفه ، عن عمله الجديد هذا ، غير أن المشكلة تكمن فى هذا العمـل ذاته ، صاحبه الشاب الذى تشهر الاعلانات اسمه ، وتبرزه اللافتات ، والصحف والمجلات ، الذى لا ينقضى أسبوع الا ويلتقى بكبير مسئول ، صاحب التبرعات الشتى ، من لا يظهر أمام عدســـات التليفزيون الا والمسبحة فى يده والورع على ملامحه ، هذا الشاب ما هو الا تاجر كبير ومهرب خطير لاشد أنواع المخدرات ، وبعضها دخل البلاد أول مرة على يديه ••

هنا لمع فى عينى ضابط المخـــابرات القديم انتباه حاد ، ويقظة زائدة ، بينما انتهى شرود لازمه منذ بدء الجلسة ، تســاءل ، وكيف عرفت هذا كله ؟ ••

قال انه بدأ بملاحظة ، وتقصى أخبار مديرة مكتبه ، أو بمعنى أدق مديرة أعماله ، أو بوضوح أكثر صاحبة النفوذ كله عليه ، منذ رؤيتهـا أول مرة لم يفته حضورها القـوى وأثرها عليه ، ونفوذها ، ومكانتها ، حتى أن الاتصال بها أو مقابلتها يحتـاجان الى ترتيب حتى من كبار العاملين فى شتى الفروع ، شغله أمرها ، خاصـة بعد اكتشافه وهمية الشركة التى اسندوا اليه ادارتها ، بحرص بدأ يسـتقصى ويستفسر ، وبعد انقضاء وقت قصير ، أدرك ان الاصـــول معروفة ، والتفاصـيل شائعة ، المهم انها لاتعلن ، كل يدرى ، حتى كبار المهندسين المشرفين أو المنفذين لمشروعات البناء ، والتى ما أريد بها الا تغطية جوهر النشاط

وحقيقته ، أذهله ما أدرك ، فمقتبل هذا لم يكن له شأن يذكر الى ما بعد الحرب بسنة ، وفي ايام القتال نفسها والزمن السابق عليها لم يسمع به أحد ، لم تكن هناك لافتة ترفع اسمه ، أو نشاط معروف له ، ما من نفوذ او ثروة ، فانظر الى أى حد تغيرت الأمور .

ضحك ضابط مخابرات القتال القديم ؟ قال : وانظر الى أمورنا نحن ! ..

قال ان ما عرفه شائع ، شائع ، وهذا ما ادهشه . اذ ظن ان الترتيب محكم ، والنظام قابض ، قال ان سر نفوذ ليس هذه يكمن فى انها أول سعده من بدأ ثراؤه على يديها ، الممسكة حتى الآن بسره ، أنها ليست جميلة جدا ، غير انها ذات طلعة ، وعندها جرأة ، متسقة ، فارهة ، لها حضور ، عندما تعرف اليها مقتبل كانت تخدم عند احدى الأسر العتيقة ، تدبر امور البيت القائم قرب الاهرام ، تحيطه حديقة فسيحة ، لا يعيش فيه الا رب البيت وامرأته ، محامي عجوز ، ابنتهما مهاجرة فى أمريكا ، ابنهما يدرس فى فرنسا ، ورثت ليس ـ وهذا اسم مكتسب حديث ـ الخدمة عن والدها الذى عمل طوال عمره خادما لهذه العائلة ، الى أن وافاه أجله ، وحتى لا تضل البنت أو تضيع بددا ، آواها الرجل عنده ، تدبر أمورهما تشرف على امرأة فلاحة تجىء لتنظيف البيت ، ورجل نوبى يجىء لطهى الطعام ، تعرفت الى مقتبل وقت عمله بائعا فى متجر للتحف بخان الخليلى يقال انه أحبها وأحبته ، ويقال انه لقى فى ملامحها ما كان يبحث عنه وقتئذ ، اذ توحى باصالة نسب ، وانتماء الى جذور ثرية ، فكأنها ابنة باشا قديم صادرت الثورة أملاكه ، ردد هذا على مسمعها وصرح به فانتشت لذلك وسرت . كانت تتقن أيضا اللغة الفرنسية ، اذ درست فى مدرسة تتبع ارسالية تبشيرية كاثوليكية كانت تقدم العون لبعض الاسر الفقيرة ، وقد يكون المحامي العجوز لعب دورا فى الحاقها بالمدرسة ما من أمر مؤكد بخصوص ذلك ، المهم ان مقتبل عرف طريقه اليها ، وحشا رأسها بيقين انها جديرة بثراء لاحد له ، وجاه ، ونفوذ ، وان مظهرها فيه جمال وهيبة ، توثق أمرهما حتى تمت أول عملية على يديها وكانت البداية ..

تساءل ضابط مخابرات القتال القديم :

ـ كيف تم ذلك ؟

عندئذ اقترب بمقعده ، واجتهد ألا ينسى تفصيله ، أو تفلت منه شاردة ، قال انها تركت الخدمة فى بيت العجوز ، بدا لها السفر مغريا ، أن ترحل هنا وهناك ، وترى الدنيا ، كان هذا أحد أحلامها

القديمة ، بل انها لم تنظر الى وضعها كخادمة أو مدبرة بيت كما أحبت دائما أن تصف نفسها الا كوضع مؤقت ، وان حيـــاتها ستتخذ سبلا مختلفة طال الوقت أو قصر ، وجدت فيما اقترحه عليها مقتبل الفرصة أما الضمانات التي تحدث عنها فهدأت بالها وطمأنت خواطرها ، سافرت الى باريس ، وعندما ودعها في المطار بدت زاهية ، وكأنيـــا اعتـادت السفر منذ القدم ، متسقة الحركات ، دقيقة الايمـــاءات ، شحيحة في الفاظها ، في باريس قضت أياما ، ومنها طارت الى آسـيا ، الى منطقة يقال انها تقع بين الهند وباكســتان ، أو بين أفغانستان وباكستان ، لا يدرى على وجه الدقة ، هناك تسلمت ما مقداره كيـلو جرام واحد ، أقل حجما من كيلو سكر ، هل تدرى كم قيمة هذا ؟ مائة ألف دولار ، أما بيعه فيحقق ربحا قدره ستمائة ألف في الحد الادنى . المهم .. انها اتقنت اخفاءه في حقيبتها ، وعادت مرة أخرى الى باريس ، ومنها طارت الى القاهرة ، حقائبها مكدسة بأزياء الشتاء الجديدة ، هذا ماصرحت به عندما استفسر مفتش الجمرك مبتسما مهذبا عما اذا كانت تحمل شيئا يستحق أن تدفع عنه ؟ حيـــاها مادا يده الى الطريق الخـروج ، خطت راسخة ، تدفع عربة الحقائب ، وتحمـل حقيبة يدها وعروس جميلة ، كتب فوق صندوقها الشفاف انها تغني وترقص وتمشي وتبول !

تلك كانت البداية ، والمؤكد أنها لصاحب متجر العاديات ، الا أن العملية التالية كانت خالصة لهما ، عرف مقتبـــل طـريقه الى الرأس الكبير ، تعامل معه مباشرة ، وحتى الآن يخضع له ، يستظل به ، ولا يعصى له أمرا ، سافرت مرات متباعدة حتى لا تثير شكا أو ريبة ، غير أنه من الثابت انها بعد السنة الأولى لم تـكن بمفردها ، ويبدو انها هي التي اجتهدت حتى اقنعت بعضهن ، حرصت على اختيـارهن ممن لهن ملامح الوقار والجمال ، لم يعرف عنهن الامور المريبة ، أو السـوابق الغريبة ، بعضهن جامعيات ، ويبدو أنها تملك قدرا هائلا من السيطرة عليهن ، تجهل كل منهن الاخرى ، اتسع مجال نشاطها ، وعظم شأنها ، وقوى أمرها ، حتى لتكاد تكون صاحبة الشأن ، أما عن كنه علاقتهـــا بمقتبـــل فامر في بعض جوانبه مبهم ، من المؤكد أن مابينهما وثيق ، وطيد ، لكن الثابت انها سهلت له ودبرت تعرفه بهـذه الممثلة الجميلة المشهورة ، اذ يقال انه مما يقوى رجال الاعمال في السوق ويثبت أمره أن تكون له علاقة بمشهورة أو ثرية بحيث يذيع أمرهمـــا ، وتتنـاقل الالسنة تفاصيل مابينهما ، وأوصاف الهدايا المغدقة عليها ، ورحلاتهما

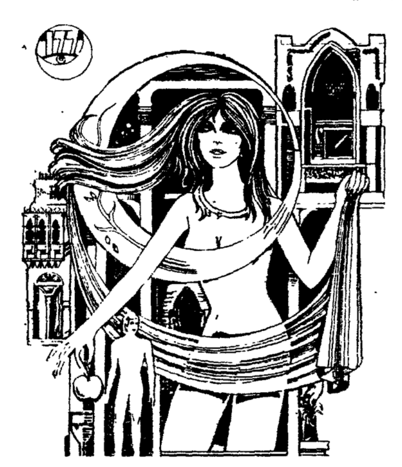
السرية ، كفلا خلواتهما ، وما شابه ذلك ، أما عن الشركات التى أشهرها وتتبعه فمنها مايعمل فعلا ، ومنها الغطاء المموه ، احداها متخصصة فى استيراد الادوات الصحية ، ولكن نشاطها الحقيقى تهريب انواع أقل قيمة من المخدرات ، بل ثمة اشارات الى تهـريب امور اخرى ، الذهب والماس ، وحتى قطع الحلوى ، ما يحيره ان جميع هذه الشركات تحقق خسائر على الورق ، خلال الايام الماضية أنهى مراجعة الاوراق والملفات ، ودرس الأوضاع فلم يجد الا الخسارة ، لكنه يثق ان ثمة اوراقا أخرى غير متاحة له ، سجلات ما ، ربما أظهروها له بعد أن يســتوثقوا من أمره ، انه في وضع غريب ، عجيب ، إنه مسئول عن شركة لا يدرى كنه نشاطها ، يجهل ميزانيتها الحقيقية ، اما العاملون فكل منهم له وجه معلن وآخر خفى ، يثق ان ما يدور حوله في الظــاهر يخالف ما يجرى فى الباطن فماذا يفعل ؟

يقول المحارب القديم باختصار دال موجز :

ـ « انج بنفسك قبل التورط ، استقل .. »

اطرق مهموما ، كدرا ، قال :

ـ « استقلت ! » ..



لماذا نظر المحارب الذى تقاعد
الى الصغيرات أثناء لعبهن

•• تنقضي الأوقات أسرع مما جرى به تقـديرها ، عنـد خلوته يستعيد ما كان فتغمره دهشة لوجيز المدة التى بدت أحيانا دهرا ممتدا ، عندئذ يسري فيه حنين وتعبره هدهدة أسـيانة ، معان غالية ولت ، وأحداث دنت خلالها الذات من جوهرها اندثرت ، اذ ينتقل الى التفكير فيما تبقى تغيم رؤاه الى حين ، ماتبقى أقل ممـا انقضى ، هذا حتمى ، مقطوع به ، مع ايمانه الأتم أن لكل أجل كتـابا ، لن يمتـد به العمر خمسين أخرى مثل التى انقضت ، يثق من ذلك مع عدم وصوله الى حد الكفر بما قضى به ، يؤمن ان الموت في الخطى السـاعية ، في الأنفاس المتعاقبة •

لو انقضى وقته دون مفاجآت ليست في الحسبان ، كأن تصدمه عربة ، أو تصعقه كهرباء ، أو يسقط فوق ثقـل ما أثناء خطـوه في الطريق ، فانه بالقطع موف الأجل في العشرين القادمة ، هذا اذا تجاوز الستين ، صحيح أن والده تجاوزها بثلاث ، وجده دنا من السـبعين ، لكنهما من سلالة زمن قديم ، أما هو ، فما أشق تراثه ، واثقل ميراثه ، يبدو الآن قريبا ، بعيدا ، بعد أن فرغ منه ، بعـد أن أرغم على تركه فتحددت نهاية لما بذل من أجله العمر المنقضى ، لكم سعى أحيانا ليقـدم عمره طواعية ، في ذرا معايشته للخطر لم يطـرقه هاجس الموت كتلك الأيام التى يمتلك فيها وقته •

فكر احيانا في تدوين اللحظات التى دنا فيها من انحناءة المصير ، عندما شارك في الثورة ، كان ضابطا برتبة ملازم ، لم يمض على تخرجه الا سنة وبضعة شهور ، هذه الليلة ، هذا المنزل في كوبرى القبة ، قربه الحميمى من صحبه ، الشعور بالمشاركة ، التوحد ، المصحف المفتوح على سورة يس ، الأيدى المبسوطة ، ترديد القسم •

ليلة الثورة عندما اقتربت اللحظة ، استنفاره الجند ، وقوفه في عمق الليل ، صوته المرتفع اذ يقـول ان الجيش ماض لتطهير البلد من

الفساد ، من الاقطاع ، من الظـــلم ، انه ماض ، فمن شاء الخروج معه ليتقدم خطوة الى الامام ..

ثوان مرت ، ثم بدأ الخطوة ، لم يتخلف احد ، فيمـا عدا جنديا تقدم خطوتين ، صار في مواجهته تمـــاما ، عنده مايرغب الهمس به. انتحى به ، قال الجندى انه سيخرج ولكن هناك احتمال الموت ، اليس كذلك ؟

اجابه مومئا :

قال انه يرغب في لقاء ربه طاهرا ، اصـــله احتلم أثناء النوم ، يرجو السماح له بالاستحمام ، لن يستغرق الا دقيقتين ..

أذن له ، أما جاويش السرية ، من بيده مفتاح الســــلاحليك ، فقال له انه صاحب عيال ، وانه يرجو اعفائه ، المفتـــاح هاهو ، فاذا حالفهم الحظ رجاهم النظر اليه بعين الرحمـــة ، واذا خابت الامـور ، فسيقول انه كان يغط في نوم عميق ، وان المفتاح سرق منه ، قال :

ـ ربنا معكم ..

أين هذا الجاويش الآن ؟ حي أم ميت ؟ أين الجندي الذي احتلم ؟ لم يرهما فيما تلا ذلك من أيام وليال ، أين اللحظات الفاصـلة المحملة بملامح يدنو بعضها وعبثا يحاول تقريب العـــديد منها ، أين ؟ لم يعن بتدوين ما مر ، لم يكن لديه الوقت ، مرة فكر في تســـجيل اللحظات التي اقترب فيها من الموت ، حرب عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، وحرب اليمن ، وحرب الاستنزاف ، ثم حرب ثلاثة وسبعين ، لكل لحظة تفردها وغرابتها ، يوما سيدون ما مر به ، ينوى ، لكنه لا يقدر ، يحكي أحيانا عن ضابط صاعقة ، واحد من المعدودين ، عرفه محاربا ، شجاعا ، لايهاب ، يضج حضوره اذا ظهر في موضـــع ما بالمجـــادلة ، والتهيؤ للمنازلة ، حارب في جبال اليمن ، عبر ســـيناء مشيا ، ظامئا ، نازل العدو وراء الخطـوط أكثر من أربعين مرة ، كاد أن يقع في الأسر غير مرة ، لكم مرق بين الشظايا بين اللحظة والنحظة ، ثم يترك القاهرة في اجازة ، وأثناء مشيه فوق الرصيف حادت عربة عن طريقها ، خلل ما ، دفعها ناحيته ، فلم يحط منطقا ، أي عقل يستوعب هذا ؟ أي مصادفة تستعصى على التفسير ؟ أحيانا ، منذ تقاعده يرى ان وقته الحالي زائد عن الحد ، يردد ، انه أنجز المهمة على خير وجه ، خسائره طفيفة ، غير انه لم يقصد .. لم يتهاون ، ولم يتنـــازل ، الامر عنـــده مرضي ، لكن الوضع نسبي ، فاذا قيس بالظروف ، وتمـــكن الأحداث من الوقت ،

فالخطب فادح ، والامر طام ، وهذا مما يخرج عن حده ، مالا قبل له به ، لاقدرة له على تغييره .

انه الآن بمفرده .

طوال عمره لم يؤد ما كلف به الا وهو في جمع ورفقة ، فسبحان من يغير الاحوال ، ويبدل الظروف تبديلا ! ..

انه في الخمسين الآن ، تجاوزها بشهور ، البنات الثلاث تزوجن . الأولى أنجبت فصار جدا ، والثانية في طريقها الى أن تصبح أما ، أما الثالثة فأمرها مقلق ، مقض ، أما الابن فمغترب الآن ، بعيد ، بعيد ، حتى رسائله شحيحة ، لكنه يلتمس له العذر ، ابنه مازال في البداية . يحاول أن يبني حياته في بلد بعيد ، غريب فيه عن الأهل ، عن اللسان . عن الصحب الذين عرفهم هنا ، بمجرد تخرجه عزم وصمم على السفر . فوجيء ، بوغت ، أعد العدة لكي يبقى قربه ، انه الوحيد الذى جاء بعد شقيقاته الثلاث ، له معزة ، وعليه حرص ، ومنذ السنين الأولى رباه على الصحبة ، والبعد عن الجفوة ، يهفو دائما الى فترته ما بين التاسعة والثانية عشرة من العمر ، اذ يصحبه الى زيارة الأقارب ، الى النادى ، كان يقعد صامتا بين الرجال ، لا يستوعب مايقولون ، غير انه لايتململ ، لا يبدى ضجرا ، حتى اذا ما غلبه النعاس ، قال :

ـ ياالله يابدرى !

يتساءل القوم بدهشة :

ـ يناديك باسمك ؟

فيقول وبه مس من خيلاء :

ـ انه صاحب وابن .

لكنه بعيد جدا الآن ، يستعيد ما كان فينفطر بؤبؤ القلب منه ، ويشرف الدمع على تخوم عينيه ، هو من شهد أهوال الحروب ، وعلى مقربة منه استشهد أعزة ، سجى بعضهم بيديه وفات آخرين ، لم تطفر منه دمعة الا أن هذه الأيام البعيدة ، الغائمة ، تهدهد ما كان منه وترقرق ما تبقى ، ألم تغيم المرئيات عندما ودعه ؟ ألم تتميع الموجودات ؟ وعند عودته من المطار بدا الكون موحشا ، والبلد قفرا ، الفراغ قد من وحدة أما وقته فبارد ، لم يرجع الى البيت في موعده ، قبع وحيدا في مكتبه رابط منفردا بعد أن أذن للضباط والجند بالانصراف ، علق بصره بقمم شجيرات عتيقة ولم يعد ، حاول تصور مراحل رحلة ابنه ، حركة الطائرة في نقطة ما من الفراغ ، نقطة متغيرة ، متبدلة حتى أوان

الوصول ، من ينظر اليه ، من يتطلع ، من يبادله الحديث عرضاً ، من يدري ان لهذا الفتى أبا كان محاربا ، صلدا ، لم تدمه الجروح ،وأوقات الحصار ، والانسحاب مضطرا ، ما آلمه ذلك الرحيل ، هذا الغيـاب ، صرف كل من يعمل معه ، اعتاد مواجهة الآخرين بملامح لا تفصـح عما بداخله ، يقصي أي أثر قد يتسلل الى وجهه ، أتاح الخلوة حتى لا يراه أحد ، طرق باب البيت بعد العاشرة ليلا ، الليلة الاولى لاغتراب الابن ، لقي امرأته منتظرة ، ساهدة ، مكلومة ، باد جواها ، اسئلتها قصيرة .

كيف بدا في لحظات ما قبل دخول الطائرة ؟

الم ينس شيئا ؟

هل صعد معه ؟

ماذا قال ؟

أجابها مورداً أدق التفاصيل ، مرددا من حين الى حين :

أتقلقين على الرجل ؟ ابنك الآن رجل .

تقول حاسرة عن آلامها :

انه ضني ؟

تصمت مرغمة ، مصغية ، تردد ..

هذه حال الدنيا ! .

في تلك الليلة ، في الايام التالية حاد كل منهما عن ايلام الآخر ، الا انه كان بعد نومها يقوم الى البقايا ، يقلب الكراســات العتيقة ، تأمل خط ابنه عندما كان يجاهد ليحكم القبضة على القلم ، عضـــلات يده أضـــعف من ذلك ، الخط أمامه ، باق ، دال على وقت ، غير أن الوقت ذاته ولى ، صار عدما ، فأين ؟ نظر طويلا الى أول شهادة نجاح حرص على الاحتفاظ بها ، الانتقال من الصف الاول الى الثانى ، عندما تسلمها فرح فرحا جما وصانها فى اطار جميـــل ، فيما بعد لم يبدد كراساته ، أو كراسات شقيقاته ، وشـــهادات الانتقال من مرحلة الى أخرى ، الارتقاء من زمن الى زمن ، بعد تسلمه الشهادة الاولى ســـافر الى اليمن ، ارتقى جبـــالا وعرة ، وارتدى الزى الوطني ، أكل الارز بقبضة يده ، اتقن لهجات بعض القبـــائل ، اقتضى عمله كضـــابط للمخابرات رحيلا دائما عبر الشعب والقرى واجتياز الوديان ، عند كل فرصة يكتب الى أسرته ، يخط رسالة الى ولده ، يطلب من أمه أن تقرأه له ، يذكر أيام اليمن فيلوح جانب من الرحلة الشاقة ، انه أحد الذين أمضوا خدمتهم كلها فى التشكيلات المقاتلة ، الميدانية ، نائيا عن المدن فى الاطراف القصية ، بقى عنده حنين دائم الى البيت ، وها هو يشهد

الايام التي يحن فيها الى زمن الترقب ، والرصد الليلى ، ومواجهة الخلاء أياما يضيق فيها ببقائه الطويل فى البيت ، لم تكن اجازاته الا أياما شحيحة تنقضي بسرعة ، دائما حرص على مغادرة البيت والابناء نيام ، كان حمل امرأته ثقيلا ، غير أنها لم تقصر لم تكل ، كان عليه أن يقمع حنينه ، وميله ، حتى لقى نفسه فجأة ــ وان توقع الامر ــ محالا الى التقاعد ٠

أول أيامه فى البيت ، أول يوم يفتقد فيه الوجهة ، ويغيب عنه القصد ، انتبه الى وجوده مع امرأته لاغير ، كأنها أيام اقترانهما الاولى قبل قدوم البنين ، غير أن الوضع تبدل ، تغير ، فما كان مأمولا ، بعيدا انقلب موليا ، لذا بدا البيت الذى تاق عمرا الى قضاء الاوقات فيه خاويا ، اغتراب الولد ، ومضت كل بنت الى حياتها ، فثقلت حيويته ، وخبت نضارته ، أما انتهاء الخدمة فميع أرضا طال وقوفه فوقها ، أو خطوه ، أو اتكاؤه أرضا طالما رواها بأيامه ، سحبت من تحته بغتة ٠ فنزل عليه خواء ٠

أتم المهمة ، والدنيا لا تدوم لاحد ، ولا تبقى على حال ، الا يحق له أن يرضى ويهدأ ؟ ، خمسون ولت ، لم يلحقه سوء يكدر صفو الخدمة ، مع انه لم يكن هيابا ، أو مترددا عند الحسم ، أو مؤثرا للسلامة اذا لاح خطر ، لم يختم فى مواجهة من هم أعتى ، وله فى ذلك مواقف شائعة ٠

كان سدادا ، منقادا دائما الى ما يراه صوابا ، ذا رأى وتدبير فى كل ما أوكل اليه ، كان فى الحضور مهيبا ، صاحب جسارة وتتفد ، حى النظرات واضح معالم الوجه ، آمر الصوت بطبعه ، اذا رآه من يجهل مهمته لا يخطر له الا أن يكون مقاتلا ، أو رأسا فى مجاله ، ومع صرامته البادية ، فانه سليم الباطن ، قليل الشر ، كثير المروءة متناصر للضعيف ، لذا احبه جنده وهابه قادته ٠

أتم الخدمة ، انهى المهمة ، غير انه لم يستوعب بعد معنى التمام، لم يدرك حقيقة الفوت ، وكنه انقضاء العادات الا مع تباعد مألوفاته ، ونأى مكوناته ، انه دهش ٠

احقا ولى هذا كله بدون رجعة ؟

أحقا حدث ؟

كان الامر يخص غريبا عنه ، أيام التقاعد الاولى شككه ، فى سنين بعيدة ، كان ينام متأخرا وعند الفجر يصحو ، اعتاد رؤية بدايات النهارات دائما فى الخلاء ، فى الصحارى ، حيث ترابط الوحدات ، فى

لحظات استيقاظه الاولى يطوف به مرأى فراش دافىء . وتوشك أن تغلبه رغبة فى النوم دقائق أخرى ، أو الاغفاء آمنا ، بعيدا عن القصف المدفعى ، عن الهلاك المحوم فى الفضاء ، ها هى أيام الفراغ ، حيث لا مواعيد تضطره الى تحديد ساعات النوم ، ولا ضرورة للاستيقاظ المبكر ، ولا صحو مفاجىء نتيجة هجوم غير متوقع مع ذلك فان ساعات رقاده الآن أقل ، يتساءل قبل نومه عما سيفعله غدا ، يقلق فجرا ، أحيانا تتميع الموجودات ، تتداخل ، يظن انه تأخر ، انه أوغل فى النوم وان دقائق متبقية فقط ليرتدى الزى العسكرى ، طوال خدمته حرص الا يوقظه أحد ، دائما آخر من ينام وأول من يستيقظ ، يعى فجأة انه متقاعد ، ان يومه فارغ من أى التزام ، ان باستطاعته النوم ، أن يغفو بدون ازعاج ، يغمض عينيه ، فلينم ، ألم تبدو لحظات كهذه بعيدة المنال ؟ ليسترح ، الوقت طوعه ، غير انه لا يزداد الا يقظة ، يتأجج صحوه مع بذل المحاولة للنوم ، يصعب مضجعه فيقوم ، يروح فكره الى ولده ، أهو مستيقظ الآن ، أم يغط فى نوم عميق ؟ .

بهدوء يخرج قاصدا الغرفة التى شغلها ولده ، المطلة على الطريق يلصق جبهته بالزجاج ، يرقب الحركة فى الشارع ، بعد تكرار وقوفه أصبح يعرف الآن ، من سيخرج من البيت المقابل ؟ فى السادسة الا ربعا ، من سيظهر فى السادسة ؟ العربة التى تجىء فى السادسة والنصف ، تنتظر حتى الثامنة أحيانا ، سائقها الاسمر يغفو أحيانا أثناء انتظاره ، متى يستيقظ اذن ليجيىء هنا مبكرا ؟ لابد انه ينزل عند الفجر ، يذهب الى جراج المؤسسة ثم يجىء لينتظر البك الذى لا يظهر الا عند الثامنة ، لماذا يقف هذه المدة ؟ ، فى الامر قسوة ، ربما رغبة فى التظاهر حتى يرى الجيران العربة وسائقها .

يشفق على تلاميذ صغار يمشون فى السادسة والنصف ، يقفون عند الناصية ، فى انتظار عربة المدرسة ، تنحنى أجسادهم النحيلة اتقاء لهبات الهواء البارد ، يقضم بعضهم شطائر ، بينما يحتفظون بحقائبهم بين سيقانهم ملامسة الارض .

ما أسرع مرور الايام ، ولت كطيف ، بعد أن ضج البيت زمنا بأصوات الابناء فى مثل هذه الساعة خلا وخوا حتى من الصدى ، كان يتابع خروجهم الى المدرسة راضيا ، اذ يمضون تقول امرأته : ياه .. ما زال المشوار طويلا ، متى أستريح ويستريحون ؟ ، الآن أتمت مهمتها مثله ، غير انها لم تسترح ، يأخذها الحنين .

يتابع النظر ، فى السابعة ينزل مدير محطة الكهرباء من المبنى

المواجه ، تجيء عربة نقل صغيرة ، يركب الى جوار السائق ، انه منحن يتلفت حوله كثيرا ، سافر عامين الى السعودية ، ما بين السابعة والثامنة تتدفق الحركة ، موظفة ترتدى فستانا طويلا ، وحجابا ، تنزل على عجل تحمل طفلة صغيرة ، يبدو انها تمضى بها الى دار الحضانة ، يشفق على الصغيرة ، الدنيا برد ، امرأة نحيلة ، تظهر فجأة ، سريعة الخطى ، تتوقف عند الناصية كأنها تكتشف نسيان شيء هام لايمكنها المضى بدونه ، كأنها على وشك التعثر فجأة ، في نفس الوضع تقريبا تفتح حقيبة يدها ، تقلب محتوياتها دون أن تبرزها ، تغلقها ، تستأنف السير ، يبتسم ، يتذكر زميلا من ضباط الاحتياط ، يفتح مظاريف الخطابات بعد أن يلصقها ، يعود مرات ليتأكد من اغلاق مكتبه ، عند الثامنة الا عشر دقائق تبدو فتاة تحتضن كتبا ، أحيانا تحمل معطفا أبيض على يدها ، كلية الطب ، أو الهندسة ، بعدها تجيء امرأة ترتدى جلبابا أسود ، تغطى رأسها بطرحة ، متقدمة في العمر الا انها نشيطة تتدفق حيوية ، يحيد بعينيه بعيدا ، في مثل هذا الوقت كان عمله يبلغ ذروته .

زمن الحرب ، يتصل اليوم باليوم حتى توشك الفوارق أن تنمحى لكم أمضى ساعات يرصد ، يرقب تحركات العدو في الناحية الاخرى ، لزيادة طلعات الطيران مغزى ، ظهور نوع معين من العربات له مغزى ، لكثرة ما جمع من تفاصيل عن القطاع المواجه كان يعيش أوقاتهم وهو بعيد عنهم ، مواعيد تغيير النوبات ، الزمن الذى يستغرقه الجندى للصعود الى كشك الملاحظة ، مواقيت تناول الوجبات ، تشكيل دوريات الاستطلاع ، مرات تردد قائد القطاع على المواقع الامامية ، أما مواقع أكداس الذخيرة ، ومخازن المؤونة ، ومداخل ومخارج التقاط القوية فكان يعرفها ويرقب أى تغيير أو تبديل يلحقها ، أحيانا يحلم بها لانشغاله وطول تركيزه ، وعندما وصلت الى يديه صورة قائد القطاع المواجه علقها في مكتبه ، صار يزيح عنها الستار كلما انفرد ، يتأمل ملامحه ، يستعيد الاساليب التى تصرف بها خلال الاشتباكات الماضية، عصبى ؟ هادىء ؟ سهل الاستفزاز ؟ حريص ؟ متهور ؟ لكل صفة ، لكل تفصيلة أهمية قصوى ، مهما بدت ضآلتها .

لطول معايشته كان يدرك بالحس ما لم يتح ذهنه بالمعلومات ، يستشعر دنو الخطر ، والاوقات التى يلوح فيها التمرد ... البدايات الغامضة ، اللامرئية ، حدث أثناء انتقاله مشيا في خندقه من موقع الى آخر قرب مدينة القنطرة المهجورة وقتئذ أن ارتمى فجأة

منبطحا ، جزء من لحظة ودوى انفجار على بعد أمتار ، ما الذى دفعه الى الارتماء فجأة ، الى جذب مرافقه ؟ فيما بعد حيره هذا ، لكنه لم يقدر على رصد نذر أو مقدمات ، انه يفارق النافذة ، ما يقرب من ساعتين يرقب خلالهما حركة الطريق .

ظلال البيت وموجوداته غامقة مع انتقاله من التحديق فى الضوء الى الداخل ، لمقاعد المائدة حضور صامت ، غريب ، كان يتعجل أيام أجازاته للجلوس هنا ، يتصدرها ، حوله البنات وشقيقهن ، أما امرأته فلا تقعد الا لتقوم ، تحضر ما يحتاجه كل منهم ، من رغيف أو ملح أو ملعقة ، مع تنافس البنات على الخدمة وقضاء حاجات البيت ، لكم أحب تلك اللمة ، هذه الجلسة المكنونة ..

المقاعد خالية الآن ، المرأة حركتها بطيئة ، هدوء ثقيل يؤطر ملامحها، لولا مجيء هذه الشغالة فى الشهور الاخيرة لما استطاعت أن تدبر أمور البيت قال ضاحكا لاحد أعزائه المقربين : نساؤنا نال منهم العمر ، ونحن نتقاعد فى ذروة عافيتنا ، قال صاحبه : تزوج شابة صغيرة . قال : هل سنأخذ من الدنيا أكثر من حقنا ؟ ، ثم قال ، انه كمن يبدأ من جديد ، لكنها بداية ما بعد الخمسين ، بعد أن شب الابناء ومضى كل منهم الى حياته ، يحوش نفسه عن زيارة بناته ، يود الاصغاء إليهن اثناء طوافه بالشوارع للمشى كما يقول ، ولكى يقطع الوقت أيضا ، يدنو من بيت أكبرهن ، قريب ، يشرع ، يود رؤية حفيده ، غير انه ينثنى قبل الناصية ، لا يود مفاجأتها هكذا ، ربما يضيق زوجها ، يوم الجمعة يلتئم الشمل عنده ، يجئن مع أزواجهن ، هذا ما طلبه منهن ، الا يتخلفن عن غداء يوم الجمعة الا لضرورة ، انه فرصة اللقاء المتبقية عندما كن فى البيت نأى عنهن بالضرورة ، فى المعسكرات ، فى مواقع القتال المتقدمة ، هكذا قضت الواجبات ، لكم مضت عليه أيام شداد ، مجرد تصوره لقاء الابناء كأن ذلك سيتم فى خلق جديد ، أيام توالى غارات الطيران ، وضعف القدرة على المواجهة ، وعندما صار فى الوقت فسحة ، كن شببن ومضين ، أما الولد فاغترب !

لقاء وحيد ، مرة فى الاسبوع ، لاحظ آخر مرة أن الابنة الصغرى ضلت طريقها الى صوان الكتب ، نسيت مواقع الاشياء فى البيت ، مع انها لم تفارقه الا منذ عام وعدة أسابيع ، بعد خروجه تتصل الأم بهن. تطمئن خاصة على الحفيد ، أهو مستيقظ ، أم ما زال نائما ؟ هل أكل جيدا ؟ هل خف الرشح ؟

حقا انهى الخدمة ، اتم المهمة ، لكن ، ايمتلك وقته فعلا ، أم

يمضي به الى حيث لا يدري ؟ ، لماذا يشعر أنه ضـــل ؟ ان الجهـــات اختلطت عليه ؟ أما هدفه فمرق منه ، وسا عند زمن غريب ، مرة في اليمن صحا بعد نوم عميق ، للحظات تعلق بصره بسقف المكان ، لم يدر شرقه من غربه ، بعد وقت أمضاه متمددا بدأ يعي ان هذا ملجأ في الجبل ، وان المدخل ضـــيق ، المرقد صـــعب ، وانه في حرب ، في اليمن ، وان دياره نائية ، أيامه الآن تشبه لحظة الفقد هذه ·

في اليمن شغل بأمره انه جنوبي المولد ، أول هـواء استنشقه في احدى النجوع « نجع الهلة » بسوهاج ، كان والده شيخا ، مهيبا ، مسموع الكلمة ، وافر الحرمة ، له القول الفصل عند المنازعات ، عرف بعشقه للتواريخ ، وما جرى بين العائلات والقبائل في الزمن القديم ، كذا تتبع الانساب ، والفروع ، والاصول ، أخذ ذلك عنه ، وأغرم به ، غير انه لم يسلك طريقة أبيه لاختلاف الظروف ، واتباعه طريقا مغايرا ، ذلك ان والده كان عالما بأحوال العائلات ملما بناس الناحية ، اذا ذكر اسم أمامه يقص ما جرى لصاحبه ، ويحكي عن الاقارب ، من أقام ،ومن رحل ، من ذهب ولم يرجع ، من اغترب ، من رجع بعد غيبة موسرا ، من قفل عائدا فلم يعرفه أهله الاقربون ، ممن عاش ومن باد ، كان أول سؤال لمحدثه ، من أي بلد أنت ؟ ، حتى اذا ما أصغى الى الاجابة يذكر بعض الاسماء مستفسرا مما يدهش محدثه ، ويثير عجبه ، أخـذ عن والده السؤال ، أول ما يبادر به الجنود الجدد ، لكن اني له معـرفة والده ، وغزير احاطته ، مما حكاه والده في الزمن القديم ان أصـول القبيلة التي انحدروا منها في اليمن ، وعند اقامته زمنا ، متنقـلا في ربوع البلد ، مستطلعا ، مدققا ، اثناء تجواله استقصى حتى أمكنه بعد جهد جهيد أن يستوثق مكانها ، عمل مجهودا كبيرا حتى دنا من مضاربها بات ما يفصله عن جذر أصله ، عن أساس قبيلته ممر جبلي خطر ، كان أفرادها على غير وفاق ، يجاهرون بالعداء ، أوقعوا الرجال في مكائد شتى ، أبدى استعدادا للمضي اليهم ، للمفاوضة ، تلقى الموافقة فأعد للامر ودبر ما يلزمه ، حتى وصل الى حد معين ، كان عليـه أن يركب بغلة ، أن يمضي عبر شعاب الجبل صعدا ، غير مؤمن الا بوعد شفهي وصله عبر رسول لا يستوثق أمره تماما ، الا أن فضوله كان عظيما ، فمن تلك الوديان والشعاب والمدقات انطلق قومه في الزمن السحيق، كيف ، لماذا تحركت عندهم دوافع الرحيل ؟ كيف تأهبوا له ، كيف فارقوا مرابعهم تلك ؟ على أي صـــورة مضت الليلة الاولى على درب الاغتراب ؟ لماذا رحل من رحل ؟ لماذا بقي من بقي ؟ في أي عمر كان جده

البعيد عندما ودع ما ودع ؟ ربما تبقى هنا من يمت اليه بصلة قربى، عند وصوله سيطيل النظر الى الملامح ، الى الشبه الخفي ، لعل وعسى !

لم يتبق بينه وبين مضاربهم الا مرحلتان من الطريق ، خلف وراءه أربع مراحل ، كان في بداية النهار ، والوصول مقدر له عند العصر ، بعد عبور المضيق يبلغ أرضهم ، الا أن أمرا بالعودة صدر ، أمر لا يقبل المجادلة صارم ، غامض ، كاشارات اللاسلكي التى احتوته لم يكن بوسعه الا أن يلبي ، انثنى ، وبدلا من استقبالهم بوجهه أدبر وبدلا من وصوله أقلع ، عند كل منحنى التفت ، كأنه واحد من قومه النائين عند رحيلهم في الزمن القديم ، ومثلهم علل النفس بعودة قريبة ، أو فرصة تالية ، غير أن هذه الفرصة لم تأت قط ، ذلك انه فارق اليمن كلها بعد أسبوع واحد من محاولة اقترابه ، نزل القاهرة لمدة ثمان وأربعين ساعة ومنها رحل الى نخل بوسط سيناء ، لم يزر بيته حتى ، جرى ذلك قبل بدء حرب يونيو بأيام ستة لا غير ، كثيرا ما استعاد تقدم خطاه عبر الجبل ، خاصة في ليالى رقاده قرب قناة السويس ، حيث يمكنه الاصغاء الى تلاطم الموجات المتتابعة .

حكى بعضا مما جرى لامرأته ، كانت تصغى في البداية متقدة الانتباه ، مسرورة ، لم تعتد منه طوال خدمته أن يحكي عن عمله ، عن ظروفه ، وها هو بعد تقاعده يفيض ، غير أنه بدأ يلحظ شرودها وان تظاهرت بالاصغاء ، لكن تيه نظراتها لم يكن بمنأى عنه ، كف ، عاد الى صمته .

في يوم جمعة ، وبعد الغداء قعد صامتا ، في البيت البنات وأزواجهن ، ترى ، أين ولده الآن ؟ ، هذا ما ردده دائما ، ابنه الذى كان يخشى خروجه بمفرده الى الطريق ، يسعى الآن في ديار غربة ، التفت ، خارج النافذة يبدو نهار رمادى ، يترقرق ، لا يقدر على احتمال اللحظة ، بعد لحظات اعتذر ، تعلل بارتباط ضرورى ، ربما المرة الاولى منذ سنوات بعيدة ، منذ ما قبل دخوله الكلية الحربية ، يمضى بلا قصد بدون وجهة ، يمشى للمشى ، يحيره هذا ، ما لم يتكيف معه بعد .

عند خروجه من البيت يبدو سريع الخطى ، متعجلا ، يضفى على ملامحه جدية واحيانا عبوسا ، فكأنه ينوى قضاء حاجة لا تحتمل التأخير ، حتى اذا بعد عن الشارع مقدارا ، يخف اندفاعه ، ويبطىء خطوه ، يتوقف أمام واجهات المحلات ، يدقق النظر في لافتات الاطباء الاعلانات ، المباني التى ظهرت فجأة ، متى قامت ؟

كأنه يدرك المدينة لاول مرة ، لم يعبر طرقاتها الا في العربة

العسكرية ، مناطق بأكملها لم يطرقها ، وأحياء جديدة لم يقصدها ، وشوارع لا يدري الى أين تؤدي ، اكتشاف الطرق مشيا جد مختلف عن المرور راكبا ، غير أن المشي بدون قصد باعث للكمد ، محير ، لماذا لا يزور المتاحف ؟ لم يدخل المتحف المصري الا مرة واحدة منذ ستة وثلاثين عاما في رحلة مدرسية ، كيف لم يصحب الابناء اليه ، الى المتحف الاسلامي ، الى الزراعي ، الى القبطي ؟ .

يمكنه الآن زيارة أي متحف ، قضاء أي وقت ، لكنه بمفرده ، الابن بعيد ، والبنات منغمسات ، أما امرأته فتشكو ألم ساقيها ، تعتذر بثقل حركتها ، بان عليها تقدم العمر ، تبدو راغبة في الخلوة ، في الانفراد ، لا تتكلم الا اذا حاورها ، لا تنطق الا اذا ناداها .

عجيب ! أهذه طبيعتها وغابت عنه لقضائه الاوقات في الخدمة ؟ معظم عشرتهما اتصلت اسبابها في أيام الاجازات ، لم ير من معالمها الا ما تسمح به الايام القليلة .

حرصت ألا تكدره ، ألا يعود الى عمله مهموما ، مثقلا بمشاكل البيت ، شالت عنه مشاكل الكبير والصغير .

يتوقف أثناء مشيه ، يحن الى رؤيتها ، للعودة الى البيت في هذه اللحظة ، كأنه يكتشف ذلك لاول مرة ، أعطى زمنه بأكمله للجيش منذ أول يوم عبر فيه باب التخرج في الكلية الحربية ، طرح الحياة المدنية وراءه ، تباهى دائما بسنوات خدمته التي قضاها كلها في التشكيلات الميدانية ، زها بالترقية الاستثنائية التي حصل عليها نتيجة البلاء الحسن ، والقدوة الجيدة .

هو .. كان قدوة ، ولكنهم بغتة أخرجوه عنوة من وقته ، من انتظامه ، أقصوه قسرا في ذروة انغماسه ، حادوا به غصبا ، أرغموه أن يصبح مكيثا في عنفوانه ولم يهن بعد .

لم يكن حبيسا للمكاتب قط ، كان دائما طوافا ، حواما ، وعند زواجه لم يتبدل أمره ، لم تشعره امرأته بالهموم ، زعت اغصانه ، سقت طرحه ، حتى اذا فاض عن الحاجة ، وفرغ الى وقته كاملا ، سعى الى الثمر ، فاذا به نضج ، مفارقا الاصول ، متفرعا الى دروب شتى .

أحيانا يتوقف أثناء طوافه بالمدينة ، تطرقه هواجس تبدو ضئيلة لكنها تستنفر داخله الشجن ، يتعجب ، كيف لم ينتبه الى مغزى الامر عند حدوثه ، كيف لم يلتفت في اللحظة الآنية ، حتى ليتوقف فجأة أثناء مشيه ، أو يهم اذا كان قاعدا ، أو يطوف بحدقتيه أسى مكتمل ، لا يلوح الا في حدقتين خبرتا الاهوال العظام .

كم مرة دنا من الموت ؟ ، ألم يظل مسدسه في متناول يده زمنا، عند انتقاله ، عند هجوعه ، اذا نام وضعه تحت وسادته ، ألم يخطط يوما لاسر ضابط مخابرات العدو في القطاع الجنوبي ، وضــع كل احتمال بما في ذلك أسره ، لودنا المحظور كان متأهبا لاخراس نفســه الى الابد ، يضمر ما عنده من أسرار تتعلق بها حيوات القوم •

ليست المواقف التي تهدد فيها عمره تلك التي تلح عليه ، انما لحظات صغيرة بما احتوته كانت ضائعة من مناطق الذاكرة المضيئة •

قبل عبور القوات ، في قرية الشط ، كان في موقع مراقبة متقدم على مقربة قطعة أرض ينحنى فلاح من الناحية على زروعاتها ، كان رجلا تجاوز الخمسين ، ومن حركته خمن انه ينزع بعض الحشائش الضارة عندما دوى أول انفجار انتفض واقفا ، تلفت حوله بحدة ، بعد الانفجار الثاني ، راح ، جاء ، راح جاء ، كأنه مشدود الى خيط خفي يجــذبه يمينا ويسارا ، ثم جرى الى الحفرة الدائرية في نهاية الغيط ، يلح عليه الموقف ، رواح الرجل ومجيئه اللاارادى ، ثم اندفاعه ••

غير أن لحظة أخرى مثقلة بالدم سرعان ما تدركه ، يأخذه روع عند استعادتها لم يعرفه في انيتها •

كان يقود سيارته في خط متعرج ، كانت مدينة الاســماعيلية تتعرض لقصف مدفعي كثيف ، اضطر الى التوقف أمام بيت واجهتــه خشبية ، عند الناصية لمحه ، كان يرتدى جلبــابا ، يركب دراجــة ، يقودها بأقصى ما لديه من طاقة ، هكذا تنبيء حركة ساقيه ، انحناءته • فجأة

شظية لم يرها ، لم يدر حجمها ، أو مصدرها ، سبقها انفجـار قريب ، انبثق الدم غزيرا عند قاعدة الرأس ، بدا مظهر الجســد غريبا وقد طارت منه الهامة ، لكن ما جعله يحملق ، اســتمرار الساقين في حركتهما ، امساك اليدين بالدراجة ، دوام الانحنــاءة ، الاندفاع الى الامام ، انخفاض ساق وارتفاع أخرى كم دام ؟ ثواني ، جزء من ثانية ؟ الغريب انه لم يرو الواقعة لزملائه ، لم يفض بها قط الا بعد تقاعدهم ، ولزميل خدم معه في اليمن واحيل منذ وقت طويل الى التقاعد ، لكنه اذ يستعيدها تدرك اطرافه برودة ، مع وعيه الاتم بالاسباب المنطقيات لكنه الفرق بين أن يرى ، وان يسمع ••

تنتفض الرؤى القديمة ، واللحظات المارقة . حتى الاحســاس بالذنب •• مرة أبلغ عن هروب جندى من أحد مواقع مدفعية الهـاون الثقيل ، خرج في أجازة ولم يعد الى وحدته عند انتهائها ، تم اخطار

قسم البحث عن الهاربين ، والشرطة العسكرية ، والشرطة المدنيـة ، والجهات المعتاد ابلاغها عند وقوع مثل هذه الحالات .

مضى أكثر من عام ..

طبعا نسى الامر ، فهناك آخرون يختصون بأمور لا يحاط بهـا علما ، لكنه علم من قائد التشكيل ما عجب له ، مع أن حيز الدهشة فى الحروب ضيق ، ضئيل ، لقد عثروا على الجنـدى ، كيف ؟ ، تقـع وحدة الهاون على مسافة من الطريق المرصوف ، عندما بدأ أجازته كان لابد أن يمسى مسافة عبر مدق ترابى ، كان الوقت ليلا عندما حامت طائرات العدو ، سقطت قنبلة زنة ألف رطل ، كان فى المـدى المؤثر للانفجار ، قلبت القنبلة الهائلة الرمال ، انهالت فوقه ، طمرته ، اختفى تماما ، لم يعثر له على أثر ، ولم تكن هناك علامة دالة ، بعد أكثر من عام جاءت الجرارات لاقامة مصـــطبة رملية ، أثناء الحفر عثروا على البقايا ، استدلوا على الهوية من السلسلة المعدنية التى تحيط بالرقبة وتحمل رقما ، نقلوا الرفات ، وأصبح الهارب شهيدا ..

لكم أشفق على أسرته ، على الجندى نفســـه ، يدركه ذنب بعد انقضاء الاوقات ، لكن كيف كان سيعرف ؟ كيف ؟ -

يلح قديمه عليه ، غير انه يحوشه عن الآخـرين ، ما جـرى تراث يخصه ، وان ما شهده لن يدركه الا هو ، لا يريد الوصول الى لحظات يصغى فيها أزواج بناته اليه تهذبا ، مع أن زوج الصغرى ضـــابط تخرج منذ أربعة أعوام ، لكنه لا يقدر على وقف هـــذا التدفق ، كأنه يكتشف بعضا مما مر به أول مرة ، لذلك تطول فترات صمته ، أحيانا كان يلتقى ببعض ممن يعرف ، يسألونه عما يفعل ؟

يقول ان عنده مشاريع للتجارة ..

اذا ألح محدثه يجيبه ..

ـ تصدير واستيراد ..

مجال فسيح ، مطاط ، كما أن معظم الضباط المتقاعدين اتجهوا الى هذا النشاط ، لماذا التصدير ؟ لماذا الاستيراد ؟

لا يدرى ..

غير أن ثمة عرضا حقيقيا تم ، اذ جاء رجل يمت اليه بقـرابة ، لقيه فى مقهى فسيح ، عتيق ، بشـارع الالفى ، ثم دعاه الى الغـــذاء بنادى الضباط ، يشفق على امرأته من دعوة صـــاحب أو قريب حتى لا يكلفها جهدا لم تعد تحتمل القيام به ، كان الرجل تاجرا كبيرا فى المحافظة النائية ، عنده واسع دراية ويد طولى فى السوق ، عرض عليه أن يضع يده فى يده ، أن يتكاتفا ويتوكلا على الكريم ، أن يدخل معه

فى مشروع لتجارة العربات ، عنده مخزن مغلق الآن ، موقعه قرب ميدان المحطة ، اذا اتفقا سيرتبه ، ويعلق فيه صورا لطرز العربات الحديثة ، فقط ٠٠ هذا ما يلزم البداية ، طبعا سيجيئهم من يعرض بغرض البيع ، ولهما العمولة ، كما انه يعرف بعض كبار التجار فى أسيوط ، هم قائمون على توكيلات شركات كبرى ، سيأخذ منهم عربات للعرض كأمانة ٠٠ الامل كبير ، وفى الباب متسع ٠

أصغى الى الرجل ، النادى حولهما شبه خال ، فراغ المكان موحى بتداعيات الوحدة ، ثمة بوق نحاسى ملقى قرب المسرح ، بوق صدىء؟ ربما ، لمن ؟ لا يدرى ، منضدتان فقط مشغولتان ، متباعدتان ، الى الاقرب قعدت امرأة تخطت الاربعين ، هذا مؤكد ، ثلاث فتيات ،احداهن ناهضة ، والاخريتان صغيرتان ، ضامرتان ، وصبى فى الحادية أو الثانية عشر ، يتناولون طعامهم فى صمت ، أين أبوهم ؟ غائب ؟ حاضر ؟ أم راحل الى الابد ؟ اذا كان شهيدا فمن هو ٠ هل سمع عنه ؟ ربما يعرفه ، ربما خدم معه ٠

المنضدة الاخرى يجلس اليها عجوز جدا ، يمضغ متمهلا ، واضح من بروز شفتيه وارتخائها ان فمه خلو من الاسنان ، ربما كان ضابطا فى العصر الملكى ، بعد عشر سنوات أو خمس عشرة اذا امتد به الاجل سيطعن هكذا ، من يدرى ؟ ٠

« آه ما رأيك ؟ » ٠

يبدو انه شرد طويلا ٠

لم يشرع فى التجارة ، ولم تخطر بباله يوما ، كثيرا ما سمع فى السنوات الاخيرة عن زملائه الذين تعجلوا انهاء خدمتهم ، وتقاعدوا راغبين ، ثم شرعوا ، منهم من نجح وجمع ثروة ، ومنهم من خاب ،التقى بهؤلاء وهؤلاء ، أصغى الى أحوالهم ، الى تقلب الظروف بهم ، لكنه لم يتصور نفسه شريكا فى تجارة ٠٠ لكن ، ماله يجد نفسه مترددا ، حائرا ، زمن القتال كان يتخذ أصعب القرارات فى الفترة الوجيزة ، زمن احتدام الاشتباك ، حيث تتعلق المصائر بقرار ، احيانا لم يكن الوقت يسمح بترف التردد ، لم يقدر الا على المفاضلة واتخاذ الانسب مع مراعاة القدرات المتاحة ، ما يحيط الظرف ، لماذا يحار الآن ؟ يطيل النظر الى الرجل المتقدم فى العمر ، صارم القسمات ، موجز العبارة ٠

لماذا لا يجرب ؟

لكن من أين له الامكانية ؟

ما من عقار ، أو رصيد مناسب فى البنك عنده ، ورث بيتا فى القرية لكنه لم يقم به الا أيام نزوله القليلة ، قدمه الى شقيقته قبل

وقاتها ، كانت أحوالها صعبة ، والآن تقيم به ابنتها ، كان والده مهيبا مشكور السيرة من القريب والبعيد ، مسموع الكلمة ، يعمل برأيه عند المنازعات وان لم يكن أغنى القوم ، لم يحز ثروة أو أطيانا ، لم يلتق يوما بأحد أبناء البلدة أو الذين عرفوه الا ورفع يديه الى السماء ترحما على الرجل الذى لن يجىء مثله ، القادر على فض المنازعات ، والزام كل انسان حده ، غريب أمره الآن ، بعد كل ما خبره وعرفه فى الحياة الدنيا ، يود لو أن والده كان برفقته الآن ليسدى اليه نصحا ، يستعيده الآن ، بنظراته الهادئة ، المسددة ، قامته النحيلة ، ما قوله ، كيف سينظر ، كيف سيجيب لو أصغى الى هذا الرجل ؟ مال الى الامام قليلا ..

كيف سيشارك ، ما المطلوب منه بالضبط ؟

يحرك الرجل عصاه التى يحيط قمتها براحتيه ، يضحك ، انها بداية الثقة ، والبوح بما يضمره ، فى مقدمة فمه موضع سنتين فارغتين هل لحظهما ؟ لم يجزم ، يضيق ، كيف فاته ذلك ، يقول الرجل ملامسا صدره براحة يده :

ـ « أنا بمالى ، وأنت بعرقك .. »

تبدو هيئته كتاجر جلية ، تاجر يساوم يحاور ، يبيع ويشترى يتخفى ثم يسفر فى اللحظة المواتية .

« عرقى ، وماذا يساوى ؟ » .

يتراجع ، يرفع حاجبيه ، كأنه يقول ، يعنى ألا تفهمنى ؟ ، يميل الى الامام مقتربا ..

« عرقك غالى يا سيادة اللواء ، يساوى الكثير ، الكثير قوى .. »

« بصرنى ياحاج .. »

« أنت لواء ، ولواء من الابطال ، وعندك معارف وأحباب فى أيديهم كل شىء ، قبل الافتتاح سنعلن وننشر فيعرف القريب والبعيد

« لكن يا حاج أنا طول عمرى فى الجبل ، فى الصحراء .. »

يبتسم الحاج ، وان بدا حذر مشوب بقلق عنده ..

« طول عمرك ضابط مخابرات ، اتظن اننى لا أعرف .. »

« مخابرات على اسرائيل ياحاج .. »

يضحك ..

« وماله ، ما هم فى البلد زى النمل .. »

يتراجع بهامته قليلا ، كأنه يسمع لاول مرة ، قال ما قاله وكأنه أمر مفروغ منه ، غير قابل للمجادلة ، مستقر منذ أمد ، يطيل النظر

الى الرجل ، انه وقور ، لشيبته حضور ، كانوا يسمون حرب المخابرات صراع العقول ، بعد نجاح مهمة خطط لها ينتظر ، كيف سيكون الرد ؟ كيف سيتصرف من يقبع في الجانب الاخر ؟ ، بون شاسع يفصله عن الحاج الآتي من أعماق الصعيد بحثا عن غطاء لا عن شريك ، سعيا وراء واجهة ، لا يدري ان الجالس أمامه أصبح صدئا ، من مخلفات زمن غبر وحروب تبدو الآن نائية جدا بكل ما حفلت ، فكأنهـا جـرت في بلد آخر ، وفي عصر بعيد يجهد المؤرخون أنفسهم ليعرفوا بعضا من ملامحه كيف يتصرف ؟ يسخر أم يقسو ؟ لا ينطق ، بل يطرق ، يسرى حـزن خفي نواته ، الى صـــلبه ، أليس الرجل منطقيــا مع نفســـه ، مع الواقع ؟ ، يريده مستخدما عنده ، يبغى شراء هـذا التراث كله ، انه تاجر قديم ، ابن سوق ، ولابد أن ما يجرى حوله من تقلبات جعلته يتلمس ما تصور انه غطاء يمكن الاحتماء به عبر الســـبل المعوجة ، لا يشبه التجار الجدد ، ما سمعه من العقيد المتقاعد بدا له غريبا ، بل مقلقا ، جاءه محتميـــا به ولكن من جهة مغـــايرة ، حكى له عن هذا الشاب الذى تنشر الصحف يوميا عن نشاط شركاته ، لكنه لم يتصور قط عندما التحق عاملا عنده أن نشـــاطه الحقيقى محوره أشد أنواع المخدرات فتكا بالبنية البشرية ، وان الامر كله بيد عاهرة لها الشأن كله ، بدا كأنه يلوذ به ، هو متقاعد مثله ، غير ان ظنا واهيا عنـــده ، ربما أبقى عمله كضابط مخابرات قديم ، على صلات يمكن من خلالها تقويم المعوج ، تنبيه أصحاب الشأن الى نشـــاطات المؤسسة ، الى خطورتها ، لم يبدر سليم النية ، طيب السريرة ، ان هذا النفوذ اندثر، فالوضع كله أعوج ، وما كان ثانويا صار رئيسيا ، وما كان محـــرما صار القياس ، لم يخف أمره ، وحتى يجتث أى أمل واه عنده قال :

« استقل .. »

بوغت عندما أتاه الجواب ، قال العقيد مهندس متقاعد :

— « استقلت فعلا .. »

قام واقفا ، كأنه على وشك تأدية تحية ما ، أثنى وأشاد ، هذا دليل على أن اللصوص الجدد لن يمكنهم قهر الشرفاء ، المهم هو الثبات عدم الخضوع لأى ابتزاز ، لأى محاولات ترغيب أو ترهيب .

في لقاء تال ، قال العقيد مهندس المتقاعد انه في دهشة .

لماذا ؟

لانه ظنهم أقوياء ، عندهم قدرة وشـــدة تنفذ ، لكن ما يجرى منهم بعد استقالته يحيره ، انهم يبذلون المحاولة تلو المحاولة ، اتصلوا

به مباشرة ، غير انه حاد وراوغ ، عندئذ سعوا الى الاقارب ، خاصة خال امرأته ، جاء بنفسه الى البيت مع انه نادرا ما يزورهم لشدة انشغاله وتعاظم مسئولياته ، حدث الخال عن ثقة مقتبل « باشا » به والآفاق التى سيطرقها ، طلب منه أن يوسع من أفقه ، أن ينسى ماترسب عنده من هنا أو هناك ، الزمن انقلب ، كل يسعى الى مصلحته الى تحسين أحواله ، فى زيارته الثانية قال الخال انه لن يمكث طويلا ، انما يطلب منه التفكير فى البنتين ، الرحلة الطويلة التى تنتظرهما ، متطلباتهما أثناء الدراسة وعند الزواج ، الن يجىء يوم يشرع فى تجهيز كل منهما ، ليس هذا ببعيد ، حتى بعد زواجهما سيكون عليه مساعدتهما ، هل يرغب السفر الى بلد نفطى ، حيث يصبح هو فى ناحية وهم فى ناحية ، يرجع فى الاجازات كالغريب ، ويا عالم ماذا سيجرى لهم فى غيبته ، دخله من هذه الشركة يعادل ما يمكن أن يحصل عليه من عمله متغربا ، لماذا لا يفكر بمنطق الواقع ؟

قال ان خال امرأته أوجز ونصح ، غير انه عند الانصراف لمح بوعد خفى ، لم يغب عنه ، أدركه ، بدا وكأنه يحذره من مقتبل ورجاله وما يمكنهم الحاقه به ، لم يخف انه ينذر ولا يشفق .

قال العقيد مهندس المتقاعد ، معلقا بعد أن فرغ من نبأ ما جرى له ، برغم هذا كله شعر انه قوى ، أما الحاحهم عليه فعن ضعف ، قال له انه محق ، فعلا .. انهم يخشونه ، نعم .. لهم نفوذ ، الا انهم يرتعدون خوفا اذا ما حاد أحدهم أو شذ .

قاطعه ، لكنه لم يكن منهم .

رفع يده ، قال بهدوء : أيا كان الامر ، فقد دخلت الدائرة ولو بقدر ، وعند خروجك أصبحت خطرا عليهم ، يجهلون نواياك ، لا يعرفون على أى أمور وقفت ، لذا يسعون اليك .

رجاه أن يتصل به ، أن يجىء اليه ، أن يطرق بابه فى أى وقت ، شد الرجل على يديه . لسبب خفى قلق عليه ، ربما لاضطرابه البادىء لتهدل كتفيه ، ربما لانه يود ، يتمنى منه الثبات .

بعد أربعة أيام اتصل به ، قال انه لا يدرى كيف عرفوا الطريق الى أمه ، فوجىء بها تطالبه باتباع العقل ، بالتفكير فى ابنتيه ، فى المستقبل الصعب ، فى الظروف ، ما كان يكفى الامس لا يصلح لليوم ، ولن يوازى قشرة بصلة غدا ، هل يظن نفسه وصيا ، أو مصلحا للكون ؟ .

قال انه يظن تدخل امرأته ، لم تكلمه مباشرة ، انما دفعت أمه ..

أصغى الى صوته عبر الهاتف ، ترسخ قلقه ، أدرك الاهتزازة الخفية في صوته ، في نبراته مراجعة دائمة ، لم يتخذ بعد قراره النهائي مع انه في خضم اللجة ، كان العميد الشهيد الرفاعي يقول لرجاله ، عند الخطر يجب اتخاذ قرار ، من المهم أن يكون صوابا ، سليما ، ولكن الاهم ضرورة الحسم ، قرار يتبعه الكل ، أما التردد فهلاك مبين ٠

الرجل لم يقر أمره بعد ، صحيح انه جاهر ، واعلن واستقال ، لكن الضغوط التي لا تبين ، أشد وطأة من الجلية ، الواضحة ، لايدرى ما يمكن أن يفعله من أجله ، فقط ٠٠ المؤازرة ، ولكن ٠٠ هل تجدى في هذا العصر ؟ انه منقطع عنه منذ فترة ٠٠ ويخشى السؤال عنه فيأتيه مالا يحب سماعه ، بعد إنصراف الحاج بقي في الحديقة ، مشمولا بالوحدة ، حاول رده برقة ، الا أن الرجل لم يخف ضيقه ٠٠

« على أى حال فكر ورد على ، لكن ٠٠ ليس بعد أسبوع ٠٠ »

هنا أوضح حاسما :

ـ « يا حاج ، لا أسبوع ولا أسبوعين ٠٠ انت لن تنفعني ، وأنا لن أنفعك ٠٠ »

لا يدرى كم بقى ساكنا بطالا ، يخطو زمنه بطيئا ، أرسى هذا عنده ثقلا وكدرا ، يمضي الى الطرقات ، ما أبغض المشي بلا هدف ، ما أصعب تمام القدرة ، امتلاك جل الوقت ، مع افتقاد ما يجب عمله ، قال لنفسه انه بعد هذا العمر كله اكتشف جهله بالمدينة ، علل مشيه برغبة التعرف اليها ، حاول الابتعاد عن منطقة الوسط المطروقة ، شارع طلعت حرب ، ٢٦ يوليو ، قصر النيل ، تبدو المنطقة بؤرة تدفق لانهائي، يمضي شرقا حيث بقايا حديقة الازبكيه ، والاشجار العتيقة المتبقية ، جزر الخضرة النحيلة ، عند ميدان العتبة ينتابه يقين انه ينتقل الى زمن متبق من قديم غرب وأفل ، يتمهل مرغما ، زحام ، تيه يغمر الملامح ، باعة قادمون من الجنوب يواجهون المدينة بافتعال الشطارة ، تتوالى الطرقات الخلفية ، الضيقة ، ما من ملامح معمارية ، العتاقة فقط سمة مشتركة ، محسوسة ، غير منظورة ، سوق بأكمله تخصص في بيع ماكينات الخياطة القديمة ، أجزائها ، ولوازمها ، بالقرب سوق للاغلاق اقفال المكاتب ، البيوت ، الابواب الفخمة ، البوابات الصغيرة ، تأمل طويلا متجرا يعرض خزائن حديدية ضخمة ، قديمة الطراز ، حاول أن يتخيل ما احتوته ، ما ستضمه ، حيره مقهى يعلق اعلانات مضى عليها عشرات السنين ، أنواع مختلفة من السجائر ، وزجاجات الويسكى ، يبدو شارع كلوت بك رماديا ، هرما ، مختلط الملامح والواجهات

يعبره القادمون الى المدينة حديثا ، الفنادق البالية ، والارصفة المتآكلة والورش الصغيرة ، منطقة وهم وانتظار ، وربما ضياع وفقد ، يدفع بنفسه عبر الطرقات المتعرجة ، يحاول أن يرى ، راغبا فى التواصل ، متأهبا لرصد التفاصيل .

عندما خرج من شارع باب البحر ، رسا فى ميدان باب الشعرية آوى الى مقهى فسيح ، أنس به ، رشف شايا ثقيلا ، الا انه لم يواصل تدخين التزجيلة ، لم يعتادها ، جاءه الرجل المتقدم فى العمر ، سأله عما اذا كان فى حاجة الى تمباك أهدأ ، كله موجود ، هز رأسه شاكرا ، أبدى الرجل عناية وأظهر له ودا ، ربما لانه غريب عن المقهى ، وعندما أخرج حافظته الجلدية قال الرجل ، خل يابك .

قام ساعيا الى ميدان الظاهر ، الى المسجد القديم المهمل ، الى ميدان السكاكينى ، تفحص زخارف القصر العتيق ، الرمادى ، المثقل بالغبار ، واصل الى ميدان الجيش ، فى اليوم التالى انثنى الى شارع الحسينية ، مال الى ضجيجه الحميمى ، لم يستطع رؤيته الا عابرا ، فما من معارف له هنا ، اذا آوى الى مقهى من هذه المقاهى الصغيرة فستقلقه النظرات ، انطواؤها على الريبة ، على الشكوك ، هذا واقع قائم حوله ، فى متناوله ، لكنه بعيد عنه بالحضور والتكوين ، فى أيام متتابعة قصد امتداد الطريق ، عبر سور القاهرة القديم ، ارتقى درجاته الحجرية ، قرأ ما كتبه جند الفرنساوية ، ورأى ما تبقى من كتابة هيروغليفية على الاحجار المنتزعة من مقارها الاولى ، المعابد ، الاهرامات قصور مندثرة ، لاشىء يبقى ، وما من أمر يثبت على حال ، حتى الجماد الذى استعان به القدماء لقهر العدم .

فى تجواله رأى قصورا عتيقة وقد أصبحت مدارس ، أو ادارات حكومية ، هل ظن أصحابها يوما انها ستؤول الى ما آلت اليه ، ما من بناء بقى على حاله ، حتى الاهرام ، لها قدر معلوم ، ويوم آت ، فلماذا تتقطع روحه حسرات على زمن عاشه وانقضى ؟ ربما لان المتاح أمام القدر البشرى زمن واحد ، والوقت عزيز ، تسديده صعب .

عندما جاز مدخل جامع الاقمر أخذ بتواريه ، وانكماشه ، مدى ما ينطق به رخامه من حزن ، وعندما توسط قبة قلاوون تضاءل أمام رهبة المكان وسموقه ، وما يحتويه من جهد انسانى لمغالبة الابدية ، كيف تأخر عن رؤيته هذه الاعوام كلها ، لام نفسه ، لماذا لم يصحب ابنه وبناته لزيارة هذا النصب ، والله هذا تقصير .

تمتزج مشاعر شتى داخله كما تتداخل الاضواء الملونة التى تنفذ بقدر عبر الزجاج الملون المعشق بالجص ، ولده هناك ، سافر ،

اغترب ، لم ير هذا كله ، أى تقصير ؟ لو انه بصحبته ، لافضى اليه بخواطره ، بما يجول عنده ، على مهل خطا تجاه المحراب .
فوجىء ..
ثمة آخرون فى العتمة ، أجنبي وأجنبية ، كانا متضـــامين ، متعانقين ، تلفهما رغبة مغلية ، كأن ماء باردا غمره ، أو قبضـة صدمته لم يدر كيف يتصرف ، الا انه أسرع ، لفظ نعوتا قاسية ، هنا ، أليس للمكان حرمته ؟ ، كان الحارس عجوزا ، لوجهه تيه ، وغيـــاب .. صاح فيه ..
ــ « ما يجرى بالداخل عيب .. »
رفع الرجل عينين قديمتين ، كأنه لا يراه ، صاح مرة أخرى ..
ــ هل رأيت ما يجرى فى داخل القبة ؟
قام الرجل متمهلا حتى واجهه تماما ، فوجىء به يقول ..
ــ « وهل رأيت ما يجرى خارج القبة ؟ » .
عاد الى صمته ، قال أحد المارة وكان يتابع مع آخرين توقفوا .
ــ « سبحان الله ، منذ أن جرى له ما جرى ولا يعنيه شىء .. »
قال آخر :
ــ « تصور .. عمره كله لا يطيق ملامسة أحد لجدران القبة »
قال ثالث ..
ــ « ماذا جرى لك يا عم عاشور .. سبحان مغير الاحوال .. »
أوغل فى الطريق مبتعدا ، غاضـــبا ، بعد الخطو استعاد هدوء المكان الرخيم والعناق فانبعثت داخله استثارة حتى انه خجل لما مر به ماذا أيتمنى مثل ذلك ؟ عيب !!
دفع بنفسه عبر حوارى الجمالية ، أصر ألا يستفسر عن مخارج الازقة ، والحوارى المؤدية ، وصل الى الدراسة ، عبر الى طريق صلاح سالم السريع ، معسكرات الامن المركزى ، ثكنات الجيش ، جاءها يوما يذكر فراغات ما بين المبانى ، ساحات الوقوف ، المكاتب فى الغـرف الخشبية ، الحرص على المظهر النظيف ، يهدأ عنفوان المدينة ويخف اضطرامها هنا ، يهن صخبها حتى يتلاشى عند المقابر .
أليست مقابر الشهداء قريبة ؟
الى الامام مباشرة ، ثم الانثناء يمينا ، أمامه ، عندما جاءها من قبل كان راكبا ، لم يدقق ملامح الطريق ، كان راحلا بفكره الى أحد ضباطه ، شيعه حتى الرقاد الاخير ، صحب الجثمان من لســان بور توفيق الى المستشفى ، الى المثوى النهائى ، نزل احدى هذه الحفر .. وسلمه ،

بيديه خلع حذاءه ، سـجاه ، رغم تعايشه مع الموت فان تأثرا طاله . وغما ، قرأ فاتحة الكتاب ، وسورة يس ، مكث غير بعيد عن الشواهد الرخامية ، يحمل كل منها اسما ورتبة وتاريخين ، الاول للبداية ، والثاني للنهاية .

أوصى الخفير بشراء قلل فخارية ، سبع ، لصفها فى الطريق ، واضافة عطر الزهر الى الماء ، رجاه مداومة العناية ، والاتصال به كلما تطلب الامر نفقة ، أى قرش سينفقه سيلقى مقابله قرشين .

عندما خطا خارجا لقى رائحة بعثت عنده حضور الصحراء الممتدة ، الموحشة كأن ما يحيطه رمال بلا حد ، مع أن الارض من حجارة والعتبات رخامية ، بدا المكان خاليا ، يفيض بالصمت الابدى ، تذكر قولا بعيدا لم يدر من قائله ، لا يذكر متى سمعه ، أو قرأه : « جيران لكن لا يتزاورون » .

سعى الى القلعة ، الجدران شيدت لتحجب ، لتمنع ، مصمته ، مشرفه ، مهيمنـة ، كأنه خرج من زمنه المعهود ، من وقته ، أدرك انه مفتقد لمعارفه ، ناء عمن أحب ، عندما صحب ابنه فى صغره عامله كصاحب ، يردد قول والده اذا كبر ابنك خاويه ، وها هو فى الكبر ذاته ، غير ان ولده بعيد ، بعيد عندما اجتاز بوابة المتحف الحربى لم ينتبه اليه جنديا الحراسة ، انتبه الى انه رفع يده بحكم العادة القديمة التى لم تعد من حقه ، عندما كان يرد التحية العسكرية .

أبرز بطاقة المحارب المتقاعد فقام الباشجاويش محييا ، ليست تحية مشدودة ، محددة ، انما تأدبا منه ومراعاة ، ابتسم له ، قال ان العميد زهدى انتقل من المتحف ولا يعرف الى أين ؟

أدركته خمدة ، لانه لن يلتقى بصاحب خدم معه ، ولان معلوماته بدأت تبلى ، أصبح خارج البنية ، بعيدا عن النظام !

اعتاد اذا لقى نفسه قريبا أن يعرج على المقابر ، يستوثق سلامة الاوانى الفخارية ، وامتلاءها بالماء المعطر ، يتودد الى الحارس مقدد الوجه ، تسأله امرأته بعد عودته ..

ــ أين كنت ؟

كيف أمضيت الوقت ؟

يقول انه كان بصحبة بعض رجال الاعمال ، انه يدرس مشروعا تجاريا ، وربما شارك فيه !

تصمت ، دائمـا يحدثها عن مشاريع يدرسها ، لا يفصح عن كنهها ، يبتسم داخله ، ربما تظن ان مسا أدركه ، انه مال فى هذه السن الى امرأة أخرى ، ألا يحدث ذلك ممن تقدم بهم العمر ، أو تضعضعت

بهم الصحة ، فما البال وعنفوانه مازال مكتملا ٠

عندما سأله زوج ابنته عما يشـــغله ، قال انه يدرس مشروع كبيرا عرضه عليه صاحب له ، استفسر زوج الابنة ، قال انه يمت الى السياحة ، ثم عرج بالحديث مستفسرا عن بعض الضباط الكبار الذين يعمل معهم زوج ابنته ، كم دام تجواله فى المدينة ؟

لا يمكنه التحديد ، غير ان الشوارع بعد حين باتت مســتعصية عليه ، فما طرقه مرة ومرتين لا يجد دافعا او حماســا للسعى اليه مرة أخرى ، باستثناء أماكن محـــدودة يهفو اليهـــا ، ويشرع فى المضى فتعوقه صعوبة الانتقال من زحام وزهق ٠

ان خللا يسعى الى كونه ؟

يأرق ليلا ، يقضى أوقاتا فى الفــراش متقد الذهن ، راحلا مابين ايام الحرب وحيث يعيش ابنه ، يصحو مبكرا مهما طال سهره ، الا ان تغيرا سرى ، لم يعد ينصرف فى موعده القــديم ، لم يكن بعد تقــاعده يطيق البقاء فى البيت ، عند اقتراب الساعة التى كان يخرج فيهــا ، يمضى الى الجراج ، يبدو قلقا ، متعجلا اخراج السيارة ، ينطلق بنفس السرعة ، لـــكن ٠٠ الى لاشىء ، عند خروجه من منطقــة البيت يدركه فراغ ، الى أى جهة ، ماذا يفعل ؟ جاب الطرقات الرئيســية ، أوغل فى الجانبية ، شهد المتاحف التى كان ينبغى له زيارتهــا منذ زمن ، آوى الى مقاه لايعرف فيها أحدا ، ولا ينتظر مجىء احد ٠

وماذا بعد ؟

ان ثقلا بدأ يحط داخله ، رصد اقترابه عندما بدأ يتأخر قليلا عن الخروج فى موعده الصباحى ، مع توالى الأيام تمــدد الوقت ، حتى جاء نهار شرع فى الذهاب الى الحسين ، أحب متابعة حركة الميدان ، عاودته الرغبة فى الذهاب ، الا انه تكاسل ، تقاعس ، أمضى اليوم فى البيت ، حاول الابتعـــاد عن حركة امرأته ، التوارى بعيــدا حتى لا يعطلها أو يضايقها ، ذات صبح عرض عليها المساعدة ، غير انها ضــحكت ٠٠ لم تعتد هذا منه ، اذ يمضى لاعداد كوب شــــاى تلحق به ، تطلب منه ان يستريح ، لم يكن له موضع فى حركة البيت اليـــومية ، انسحب الى الشرفة الداخلية ، فسيحة ، فراغاتهــــا محاطة بزجاج ملون ، يمكنه رؤية ما بخارجها ويستعصى على الناظر اليه مشاهدته ، يشب متــــابعا حركة الطريق ، مايستجد فى الشرفات ، من ظهور امرأة تنشر الغسيل ، أو شاب يرتدى قميصا ، يتلفت متطلعا الى لاشىء ، أو رجل يظهر فجأة ،

ينظر بجدية ثم ينثني داخلا ، يصغي الى المذياع الصغير :تقوى ، هدية ابنته اليه ، يدير المؤشر ، لايستقر عند محطة بعينها ، الا اذا أصغى الى نشرة أخبار باللغة العربية ، أو الانجليزية يتوالى الصفير الغامض ، الاشارات المتقطعة ، والموسيقى الشاحبة لبعد المسافات ، تعاوده اللحظات المنقضية ، طوابير التدريب ، الليالى الباردة ، الترقب ، الفرح بالاجازات ، قلق البعاد ، يستعيد مقدمات هجوم تم أو اقتحاما شارك فيه ، أو تربصا جويا ، يسأل نفسه ، هنا يعاد صوته ، ينتقل من داخله الى خارجه •

ـ « أحقا جرى ذلك ؟؟ » •

يعجب مع انه يلوم نفسه ، لماذا ؟ لماذا الدهشة ؟ لماذا الروع ؟ ألم ير تبدل النصب ، البناء المشيد على بقايا البناء القديم ، تبدل الامر دوما ، مايظنه اللب الانساني خالدا مخلدا سيبهت يوما ثم يتلاشى ، ماتظنه مقيما سيرحل يوما ، وما تعتقد في بقائه سيفنى ، حتى البطولات ، والأمجاد والرسائل المنزلية ، لو قرأ ذلك منذ أعوام لما اقتنع ولما صدق ، لو انه أصغى اليها من حميم لولى مبتعدا وشكك •

ما أوعر أن يعيش ذلك !

لكم تبدلت المعانى ، واختلف مضمون القضايا ، وتبادلت الجهات مواقعها ، غير انه لم يهن بعد ، صحيح أن وحدة قاسية تطويه ، قذف به في زمن مفترض ، مباغت ، يمت الى آخرين ولا يدركه ، فما أوعر الغربة ! تبدو الصحف وكأنها تصدر فى بلد هاجر اليه ، بعض مايقرأه كان يثير عجبه واستنكاره بداية ، لكن تكرارها أورثه تعبا وضنى ، أحيانا تستفزه سطور ما فيشرع فى صياغة رد ، أو توضيح ، أو تعليق ، غير انه لايقدم ، لايكمل ، ماذا بقى ؟ حتى ما بدا يوما فى منزلة الرفعة والتقديس لم يعد بمنأى عن المس ، العقيد المتقاعد لم يتصل به ولا يسعى اليه ، فى آخر اتصال بدا مرتبكا ، محرجا ، قال انه يتعرض لضغوط شتى ، ثم غاب عنه ، لم يود احراجه •

أصعب الأوقات فى البيت ، صمت مابعد الغداء ، اقتراب العصر ثم حلوله المتلد الاصفر ، فيه توغل امرأته الى أبعد نقطة داخل ذاتها ، تبدو مستسلمة لثقل غامض غير مرئى ، ارهاق الزمن المنقضى •• ربما ، ينوء بساعات العصر ، حتى اذا دنا الأصيل تشتد وطأة الظلال داخل البيت ، اقتراب المغيب يستنفره ، يستفز المحارب الذى كان ، فى أيام القتال يسمون هذه اللحظات ، آخر ضوء ، يكتمل التأهب فى كافة

المواقع ، يتم دفع الكمائن الى المواضع المحـــددة ، المحتمل تقرب العدو منها ، يشتد الرصد ، يقوى التأهب ..

يرتدى ملابســـه ، فى بدء الفتـــرة اقترح على امرأته المضى الى النـــادى ، آثرت البقـــاء ، قالت انها ســـترى تمثيلية السابعة فى التليفزيون ، قالت :

ــ اخرج لتفرج عن نفسك .

يعرف انها ستتصل بالبنات ، ستطمئن على حفيدها ، هل تناول الرضعة ؟ هل كانت شهيته جيدة اليوم ؟ يخرج الى الطريق وعليه كمدة ، لو ادركه المرض يوما سيرغم على الرقاد والاســـتسلام للحظات آخر ضوء ، يتمنى الا يقابلها ، الا تلحق به مضطجعا أبدا ، الا تجيء النهاية متمهلة ، معذبة ، يتمنى أن يقضى فجأة ، بغتة ، ان يخطف خطفا ، الا يقعده العجز أبدا .

اذ يرى حمرة الشفق يهفو الى ولده ، فى أى أرض يسعى الآن ؟ على أى المرئيات تقع عيناه ؟

فى تلك الأيام عرف الطـــريق الى المقهى ، بعد أفول آخـــر ضوء يستقر مشرفا على الميدان ، مقهى أفرنجى يخلو من النرجيلات ، يحيطه سور منخفض ، صفت عليه أصص ورود ، فى الصالة الداخلية المغطاة مطعم ، زبائنه من أبناء المنطقة ، يوما بعد يوم لاحظ أن الوجوه لا تتغير ، بل ان البعض يجيء فى توقيت يومى متقـــارب ان لم يكن هو ذاته ، احدهم عجوز يجلس وحيـــدا على مقربة منه ، يرتدى حلة كاملة فى عز الليالى الحارة ، ورباط عنق بهت لونه ، كان وكيلا لاحدى الوزارات ، يعيش بمفـــرده ، لو ان امرأته جرى لهـــا مكروه ، لو .. لاقدر الله ، سيجيء مثله ، مضموما ، ضامر الحضور ، يتناول العشـــاء هنا مثله ، لايقرب الاطباق بعد أن توضع أمامه ، يبدو وكأنه غير منتبه ، ثم يمـــد يده بينما يولى النظر بعيدا ، يزحزح الطبـــق الرئيسى قليـــلا ، يرفع الملعقة متمهلا ، فى اتجاه مصدر الضوء ، يمســـحها بمنديل ورقى ، على مهل يبدأ المضغ ، ان شفتيه تمتدان الى الامام ، متلاصقتان ، تتحركان بسرعة ، وعند البلع يتراجع بعنقه الى الخلف ، كان شيئا يؤلم حلقه ، يتوقف ، يعـــود مرة أخرى ، بين لحظة وأخرى يرفع الفوطة البيضـــاء ماسحا شفتيه ، من حركتهما أدرك انه ذو طاقم أسنان صناعى ، يجيء مرتين ، الأولى للغداء والثانية للعشـــاء ، لم يفكر من قبـــل فى ملاحظة الآكلين الشاربين على مقربة منه .

في الجبهة بذل جهدا قصيا حتى يلم بمواعيد تناول الوجبات في مواقع العدو ، أولى ذلك اهتماما ، بل رصد وراقب الوقت الذي يستغرقه التناول ، لكم استطلع ، وجمع الدقائق العسرة ، لكم رصد وحلل ، واستنتج ، ومزق ماجمع ، لكم أصغى الى حوارات متبادلة بين ضباط المواقع ، لكم أجهد نفسه ، لكنه لم يرقب عامدا من هم على مقربة ، لم يخدش حياتهم بفضوله ، منذ سنوات قبض على عميل خطير كان يسكن مباشرة فوق شقة واحد من زملائه ، ضابط ممن خدموا طويلا في المخابرات ..

قال له أحدهم مداعبا ..

ـ كيف لم ينتبه ، كيف لم يلحظ ؟

أجابه قائلا انه لم ينس ماتعلمه في بداية الخدمة ، ألا يرصد جارا أو صاحب ، ينثني ليلوم نفسه .

لماذا يتابع رجل عجوز يأكل طعامه وحيدا ، أليس في الامر قسوة ؟ لكنه لايريد به شرا ، ان أمرا خفيا لا يمكنه تعيينه أو تحديده يواصل الدنو منه ، يوشك أن يطبق عليه ، وماتعلقه بالآخرين الا محاولة للنفاذ ، لتوسيع الرقعة المتاحة ، حتى وان اقتصرت الصلة على النظر من ناحية ، مع انتفاء المجاوبة أو توقعها .

مع بداية احدى الامسيات جاء شاب ، طويل ، عريض الكتفين ، ينحني الى الامام ، عندما جيء اليه بطبق الخضار ، وطبق الارز ، اتسعت حدقتاه ، يصب المرق فوق الارز ، يرفع الملعقة الى فمه ، يمضغ بسرعة بينما تتحرك رأسه ، بين الحين والحين يدفع بلسانه الى ركن فمه فيبدو بروز مقبب ، يتحفز ..

حاد ببصره عنه ، يبدو منفرا ، يعاود النظر خلسة ، يرفع شفتيه العليا ، تلامس انفه ، يضيق ، يود لوقام ، لو ضربه ، لو وجه لكمة اليه ، وعندما رآه يرفع الطبق ليصب آخر قطرة مرق فوق حبات الارز ، اشفق فجأة عليه ، يبدو جائعا ، انه عابر ، ترى .. الى أين يقصد ؟ ما وجهته ؟ لام نفسه بسبب تلك الكراهية غير المبررة ، لماذا وهو لايعرف حتى اسمه ؟

لسبب ما استعاد ملامح ابنه صغيرا ، كان لا يأكل الا واقفا بينما تضج أمه ، تشكو شحوب شهيته ، تخشى الضمور ، ألا يشب ، ألا ينمو ، تطالب الطبيب بدواء ، الآن .. كبر الولد وراح يسعى في العالم بعيدا ، غريبا ، يراه طفلا يحبو ، أو صبيا يلهو ، صور بعيدة ظن

اندثارها ، تلوح وتبرز من بين ثنـــايا الذاكرة المثقلـــة ، يعجب ٠٠ يستعيد لحظة نائية جدا ، صحب ابنه الى الاسكندرية ، كان الولد في الخامسة أو السادسة ٠٠ ربما ، لايذكر على وجه الدقة ، بل ان سبب ذهابهما الى الاسكندرية غاب عنه تماما ، اندثر ، غير انه يرى مشيهما فوق الرصيف المؤدى الى أحد الشوارع الجـــانبية ، كان يمسك بيد ابنه ، يسبقه قليلا ، لم ينتبه الى العمود المعدني الذى ينتهي بمصباح الاضاءة ، يبدو ان الولد كان ينظر خلفه ، كانت الصدمة شديدة حتى انه صرخ جزعا ، انحنى عليه ، بدا الألم عميقا ، غائرا ، خلال اللحظات الاولى ، أوشك البكاء أن ينفجر ، لكنه فوجىء بولده يكظم المه ، لم يشأ ازعاجه ، لم يرغب فى تكديره ، لم يرم تعكير صفوه ، أو التنكيد عليه في الرحلة التي بدا خلالها ســـعيدا جدا لقربه هذه المدة من والده ، لانفراده به ، كان ذلك قبل ان تأخذه الدنيا ، الغـــريب انه على امتداد ســـنوات تالية ، في مصر ، فى اليمن ، فى بعض المهـــام التى خرج لتنفيذها ، استعاد اللحظة ، وفي كل مرة كان يبذل الجهد لينجو منها ، ليواريها اعماق ذاكرته ، كان تردد الألم داخله ، استرجاعه ، أقسى من وقوعه لحظتها على ابنه ، ماظن اندثاره يلوح ناصعا ، كلما بعد العهـــد نصعت التفاصيل ٠

أنس بخلوته ، بوحدته في هذا المقهى ، ولانه يتردد في أوقات معلومة لذا صارت ملامحه معروفة لرواده ، يحيونه ، يومئـــون ، يرد التحية بأحسن منها ، الا انه يتحاشى دنو احدهم من حواف عالمه ، كأنه يكتشف الاستغراق والخلوة الى الذات ، لم يهدأ ، لم يســـتكن طوال عمره ، ولت مراحل محورها القتـــال ، دراسته ، الاعداد له ، نقل الخبرات القديمة ، التأهب له ، خوضه ، دفع الكيان الانســـانى الى حافة الوجود وبدايات العدم ، الجرأة ، الرجولة ، التقارب الانســـانى الحميم ، تشظى الصمت ، وتبدد الكينـــونات ، في أيام المقهى الاولى ضايقه تمهل الوقت ، لم يشغله الا متابعة حركة الطريق ، ومتـــابعة رواد المقهى خفية ، غير ان ضيقه خف بعد اعتياده تدخين النرجيلة ، حضورها الصامت يؤنسه ، ينفث الدخان متمهلا ، أحيانا يتأمل المياه داخل الوعاء الزجاجي وفقفقاته عند سحبه الانفاس ، وتوهج الجمرات فوق التمباك ، ربما ثمة حضور لا يدرك بالحس الانســـانى لهـــذه الاشياء ، من يدرى ٠٠ ربما تحتوى وعيا غامضا يمكنها التخاطب فيما بينها ، أن تسمع وترى ، بدأت أوقاته تطول في المقهى ، اذ يلتقى فى

الطريق بأحد معارفه ، يسأله عن أحواله يقول انه مشغول بدراسة مشروع استثماري ، وعندما تستفسر امرأته عما يشغله ، يقول انه يدرس مشروعا جديدا ؛ تصدير واستيراد !

أحيانا يشرع عند الصباح الباكر في كتابة خطاب طويل الى ولده المغترب يخبره عن أشياء شتى ، يذكره بأمور ولت ، وفي النهاية يؤكد لولده انه يعفيه من الرد ، يعرف انه مشغول ، لا يريد تعطيله ، انما هو شعور قوي لمخاطبته ، ومع ذلك فاذا سمح وقته فليرسل اليه بطاقة مصورة ، مجرد أثر منه وطيف من رائحته .

أحيانا كان يلتقي مثل هذه البطاقة ، بدون مظروف ، سطورها مباحة ، لا خصوصية لها ، انه دائم التنقل والترحال ، واذا أرسل خطابا يبدأه بقوله ، آسف لانني أكتب بسرعة فبعد قليل سأسافر الى .. أثناء توحده بوقته يردد ، ما أسرع انقضاء المدة ! .

يأسو ، يترقرق حتى ليدنو من ضفاف البكاء ، في البداية كان يخشى أن يلحظه أحد ، بعد فترة لم يعد يعبأ ، اذ يستعيد حوارا ضامرا موجزا ، جرى بينه وبين أحد المقاتلين في لحظة حرجة ، ربما يتوقف عند عبارة قيلت عرضا ، ولم تلفت انتباهه وقت نطقها ،يرددها بصوت مسموع ، يقشعر اذ يستعيد لحظة نائية ، كان يكتب ، اقتربت منه ابنته ، انها أم الآن ، وقتئذ كانت في السابعة ، اقتربت منه أثناء كتابته خطاب ، لا يذكر لمن ؟ ، عندما التفت أوشك سن القلم أن يلامس عينها اليسرى ، بعد هذه السنوات الطوال يجزع ، يغمض عينيه هربا من المخيلة والاحتمالات القديمة ، ماذا لو .. تماما كما يجري داخله عند استعادته لحظة اصطدام الولد بالعمود ، لم يبل ألمه ، لم يخف روعه ، مع أن عمرا بأكمله ذهب ، لكنه دائما يحاول الهروب من وعورة المخيلة ، لكم رق لهذا الضابط الذي لقيه مصادفة أثناء مشيه بعد الغروب متجها الى المقهى ، صافحه ، وعندما استفسر عن أخباره بكى ، فقد ابنه الوحيد ، لم ينجب غيره ، أنزلقت قدمه ، اصطدمت بحافة الحمام ، لم ينطق ، أخبره الرجل عن ذكاء ولده ، وتفوقه في المدرسة ، وهذا النور الساطع المفاجيء الذي بدد عتمة القبر عند نزولهم لتمديد جثمان الصغير ، القبر كله أشرقت فيه شمس خفية ، صاح الحانوتي ، الله أكبر ! ، لا يحدث هذا الا مع من اختارهم الخالق عز وجل احباء له ، فليهدأ ، فليطمئن باله ، لكن الفراق مر ، كيف ينسى .. كيف ؟

لم يدر أي كلمات ينطق ليهون ، ليهدىء ! ، يردد بينه وبين

نفسه ، لو جرى لى ما جرى له لجننت •

زاره الاب المكلوم مرتين ، اذ يخبر عن ولده وما كان منه يتدفق محدثا ، ثم يصمت فجأة ، عندئذ يؤثر الا يزعجه ، الا يخض سكينته ، انقطع أكثر من شهرين ، ثم جاءه ذات عشية ، بدا مقلا فى حديثه ، نحيلا ، حزنه مقيم ، ظن ان الزمن عمل عمله ، الا يلد كل شىء صغيرا ثم يكبر ؟ عدا الحزن ، فانه يولد كبيرا ثم يتضاءل ، ألا ان حال صاحبه مغاير ، الم مستقر ما بين الجلد والعصب ، ما بين العظم والحس دامى العينين ، قام بعد صمت ، راح ، طالت غيبته ، انقطع عنه ، أدار قرص الهاتف مرات ، ولم يأته الا الرنين الاصم ••

ان حزنا ثقيلا يهمى عليه ، الاسباب مغايرة لكنها جمة ، ان وهنا يتسلل الى خباياه ، انه يعى ما يجرى ، يحاول صده ، دفعه ، يعرف أن أشد المخاطر وأوعرها ما يبدأ من الداخل ، يحذر أن يجرى له ما لقيه هذا الضابط الذى مشى فى جنازته منذ يومين ، رحمه الله ، كان من أكفأ ضباط المدفعية ، فوجىء ، بوغت بخروجه من الخدمة ، خلا الرجل نفسه ، كتم ، لم يحتمل ، فكان ما بين تقاعده ورحيله الابدى عشرة أيام لا غير ، فكأن مهمته لم تنته فى الجيش فقط ، ولكن فى الحياة الدنيا ، يخشى الانقطاع ، مع بدء تقاعده قال ان حياة جديدة تبدأ ، استنفر ما عنده ، حاول الاندفاع بنفس الطاقة ، الا انه كان كقطار شح مؤنه ، ويحاول قائده دفعه الى مرحلة غير مقدرة ، غير أن السرعة تقل شيئا فشيئا لنفاد الزاد ، وفساد التكوين •

قابل عديدين ممن زاملوه ، وخدموا معه هنا أو هناك ، من سبقوه الى التقاعد ، أو ممن لحقوا به ، منهم من بدأ عملا مغايرا ونجح بمقاييس الفترة ، ومنهم من يحاول التعلق بعمل ما فالاحوال ردية ، ومنهم من ترك تراثه وهاجر الى بلد آخر ، وحضور مغاير ، أما هو •• فمن قد لم تتكيف ، ليس عن عجز ، فالقدرة عنده ، وتوقد الذهن موفور وحدة البصيرة مكتملة ، غير انه يصعب عليه الشطط عما هو عليه أن يبدد تراثه ، أيمضى ليعمل عند مقتبل هذا أو غيره ؟ ، انه ابن اللجة التى خبرها ، وعرف أنواءها ، ومقصد رياحها ، وجاهد فيها طويلا حتى لو أخرج منها ، وأقصى عنها ، لكم رثى لصاحبه الذى جاءه موزعا ممزقا ، بين ما يجب أن يكونه ، وبين ما هو عليه فعلا ، احيانا يشعر براحة ، يعتبر ان زواجه فضلا ومنة ، أنجب مبكرا ، كبر الابناء مضى كل الى حياته ، تحدثه امرأته عن مشاكل تعترض احدى بناتها ، لا يصغى ، لا يستقصى ، يطلب منها أن تدعها تدبر أمرها ، فبعد

انقضاء الفترة لن يوجد هو أو هي ، غير ان اغتراب ولده نال منه وتمكن ، احيانا يقتحمه خاطر معذب ، لن يره مرة أخرى ، حتى لو لقيه لو جمعهما الوقت مرة أخرى ، فالابن الذى سيراه غير الذى رباه ، وعرفه ، أى أمور فقد ، وأى خصال اكتسب ؟ ربما بدلته الغربة تبديلا ان ساعات طوالا تمضى عليه في المقهى ، اكتسب عادة ، هو الذى عاش دائما فى الاوضاع الاستثنائية بعيدا عن العادات اليومية ، كان واقعه يتغير فى ديمومة لاتكف أبدا ، انه يعرف أمورا عديدة عن روادها الدائمين ، بعضهم يسعى اليه ، لم يعد يتجنبهم ، غير انه يصغى فى معظم الاحيان ، كثيرا ما يشرد ، فما يستعيده ، الآن أكثر مما يعيشه ٠

انه يقرأ صفحات الوفيات بتدقيق ، اعتاد ارسال برقيات العزاء أو يمضى لتشييع هذا الراحل أو ذاك ، فى السرادقات يلتقى ببعض ممن زاملوه ، أو يرى وزراء قدامى ، أو عضو من مجلس قيادة الثورة القديم ، أما ذروة انفراده فعند ذهاب امرأته لزيارة احدى البنات نهارا ، كان يجول في البيت ، يعيد ترتيب بعض الاشياء ، يتطلع من الشرفة ، يرقب حركة الظل فوق واجهات البيوت ٠

يقترب من باب الشقة ، يتطلع عبر العين السحرية الضيقة الى السلم ، يمضى وقتا قبل ان يرى شخصا فى طريقه الى الصعود ، أو النزول ، أو خارجا من المصعد ، كان خلو الممر والباب المواجه الموصد يثير عنده صورا شتى لاراضى نائية مبسوطة ، بلا حد ، لكنها مدثرة بالظلال ٠

فى تلك الظهيرة رأى من خلال العين الزجاجية طفلة صغيرة ، واقفة على الدرج ، تشب على أطراف أصابعها ، تضغط الجرس ، تمضى لحظات ، يفتح الباب ، يرى ثلاث بنات ، يعرف أكبرهن ، ربما فى الثالثة عشرة ، يصل اليه صوت الطفلة الصغيرة ٠٠

ــ ممكن ألعب معكم ؟

يخرجن اليها ، الكبيرة تطلب منهن الوقوف فى الممر ، شقيقاتها فى جهة ، والصغيرة فى مواجهتهن ، تقول انها ستبدأ الدوران ، عليهن البدء معها ، من تسقط ستخرج من اللعبة ، الطفلة الصغيرة تقفز فرحا ، يبدأن ، يدرن فى اتجاه واحد ، الكبيرة تفرد ذراعيها ،أصغرهن تلامس خصرها بأطراف أصابعها ، يفاجأ بالطفولة الكامنة فى أكبرهن يلتقى بها فى المصعد ، صامتة خجلى ، لكنه يراها الآن أغزر طفولة ممن

يصغرنها ، يستمر دوارهن ، لا يتوقفن ، الكبرى تترنح ، لكنها نواصل الوسطى تسقط .

أخرجي ..

تكرر الكبيرة ..

أحذرن الوقوف ، من ستقف ، ستقع ..

ترد الشقيقة الوسطى

لو وقفت سأقع ..

ابنة الجيران ، أصغرهن عمرا مستمرة ، دورانها عادىء . تتساءل ..

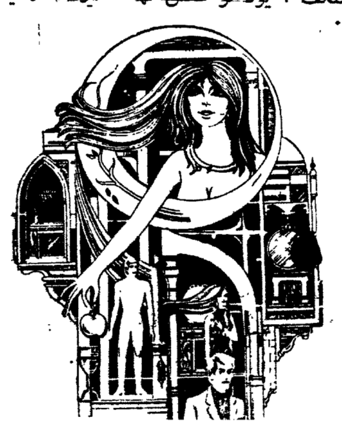
فستاني بيطير ؟

لا اجابة ، الكبيرة تشير الى شقيقتها

انت اتكأت على الحائط .. اخرجي ..

تنتقل الى الامام ، الى الوراء ، ترفع يديها ، تغطى عينيها ، اذ تقترب من السلم يود فتح الباب ، أن ينبهها الى ما ينتظرها من خطورة ، لو سقطت فوق الدرج ، يستعيد الحزن المقيم في عينى ضابط سلاح الجو ، أين راح ؟ الى أين سعى ؟ لا يدرى ..

أكبرهن تميل مستندة الى الجدار ، تنزل ببطء لتقعد بجوار شقيقتها الوسطى ، تغيب عن مدى رؤيته عن الفتحة المستديرة الضيقة فى حجم القرش ، لم تبق الا ابنة الجيران ، أصغرهن ، لم تتوقف ، لم يبد التعب عليها ، بل انها تزيد سرعة دورانها أحيانا ثم تتمهل حتى يخيل اليه انها ستكف ، يود لو صفق لها ، غير انه لا يأتى أى حركة حتى لا يشعرن ..



وهــــذا نبـــأ
الطــوبجـــــى

.. منذ تخرجه فى الكلية الحربية ، عام الف وتسعمائة واثنين وخمسين ، لم يفارق سلاح المدفعية ، انه ابن ناس طيبين ، لم يكن ابوه ميسورا الى حد الثراء ، ولا معسرا الى حد الاملاق ، كان مستورا ، مقتصدا .

ورث عن والده العديد من الصفات ، أهمها الرضا بالمقدور ، والحرص على البعد عن اولاد الحرام ، والاحتفاظ بمسافة بينه وبين الاخرين ، لا تدنيه منهم الى درجة التبسط المخل ، ولا تقصيه عن الخلق حتى حد الوحشة والانقطاع .

اذا ذكره من عرفه ، او استعاد ملامحه من خدم معه ، او جاوره ، فلا يعى منه الا وجها بشوشا ، لا تغيب عنه ظلال ابتسامة بدا حتى عند الظروف الصعبة ، امضى سنوات عمره فى مراكز التدريب ، يضع الخطط ، ويشرف على تنفيذها ، يشهد المناورات العسكرية الموسمية ، ينضم احيانا الى لجنة المحكمين .

كان مسموع الكلمة ، لرأيه احترام وموقع حسن ، مضت سنواته على سداد وامر جميل ، وعندما أتم السادسة والعشرين ، تكلم والداه معه فى أمر زواجه ، حان الوقت ليتم نصف دينه ، لاقى مقترحه قبولا عنده ، لم تمض أسابيع الا كان يمضى بصحبة والديه لخطبة ابنة موظف قديم عمل زمنا مفتشا للرى ، صاحب الوالد ، ذو استقامة وسيرة حسنة .

فى الاسبوع الاول سألته عما اذا كان يجب عليها البقاء فى البيت او الاستمرار فى الوظيفة ، قال لها أن الامر متروك لها ، علقت منه فى الاسبوع الاول ، بعد تمام مدة حملها انجبت طفلة جميلة فرح بها أبوها فرحا جما ، وفى الاعوام التالية انجبت ابنتين اخريين ، قالت انها ودت دائما أن تأتى له بولد ، ابتسم ملوحا بيده : ياشيخه .. البنات أحن على الاب .

بعد انجاب الابنة الثالثة ، نصح الطبيب المداوى بالكف ، صحة الأم لن تحتمل ، فتدبرا أمرهما ، واحتاطا .

حياتهم لم يشبها كدر ، لم يعكر صفوها طارىء سوء ، انما

مضت فى هدوء ، يمضى اجازاته وأوقات فراغه بصحبة البنات ، يقلب كراساتهن ، يسترجع دروسهن ، اذا رجع مبكرا يمضى منتظرا أصفرهن بعد انتهاء يومها الدراسى ، لم يقبل بديلا أيام العطلات يبعده عن امراته واطفاله ، عقب كل صلاة كان يرفع يديه بالدعاء ، متمتما بشفتيه ، ثم حدث بعد هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ، أن اقتضى عمله التردد مرات على جبهة القناة ، كان له الراى المسموع فيما يختص بتوزيع بطاريات المدفعية ، فى هذه الايام لاحظ ارهاق امرأته البادى ، كان عملها فى المنطقة التعليمية يقتضى منها الاستيقاظ مبكرا حتى تعد البنات لمدارسهن ، وتتأكد من تناول الافطار ، ثم تهرول لتلحق بكشف التوقيع قبل رفعه ، فى هذه السنة اقترح عليها أن تتقدم بأجازة طويلة بدون مرتب ، أن تريح نفسها من هذا الجهد المضاعف ، قالت بعد تردد ان صحتها لا تسندها الآن ، لكن الاحوال تزداد صعوبة ، والبنات فى حاجة الى مصاريف ، الشوط ما زال أمامهن بعيدا ، والعين يجب الا تتوه عن المستقبل .

قال لها : يا ستى مستورة والحمد لله ، المهم انت !.

بالفعل سوت أحوالها ، تقاعدت . كانت أحيانا تشكو بعض الاوجاع ، لكنها تكتم خشية ازعاجه ، خاصة أن ما يبذله تضاعف ، وبان عليه التعب ، كان لا يخبرها بسفره الى الجبهة الا لحظة خروجه وأحيانا لا يفصح .

يقول انه ماض الى مهمة ، سيغيب اياما ، لم يكن يرتدى فى تلك الايام الا السترة الكاكى ، لا يفرغ من مأمورية الا ليبدأ أخرى ، يمضى الى أقصى النقاط المتقدمة ، يدنو من مياه القناة ، يقف فى مراصد الاستطلاع ، هادئا ، ثابتا ، مستغرقا ، لطيف الملامح ، يحذره بعض الجند ، قد تطاله نيران القناصة ، الا انه يهز رأسه ، لا يفارق وجهه التعبير الهادىء ، حتى عند بدء القصف ، أو الغارات الجوية ، لا تتبدل اساريره ابدا .

يردد دائما لصحبه ، لزملائه ، لامرأته احيانا ، انه لا يتمنى الا حضور الحرب الفاصلة ، أخشى ما يخشاه أن تقع هذه الحرب بعد خروجه من الخدمة ، لسنوات ست لم يكف عن الحركة ، عن بذل المجهود .

امضى اياما صعبة فى الشتاء ، وشديدة القيظ صيفا فى مناطق نائية من الصحراء الغربية ، والجبال الشرقية ، بقاع لم تدون على

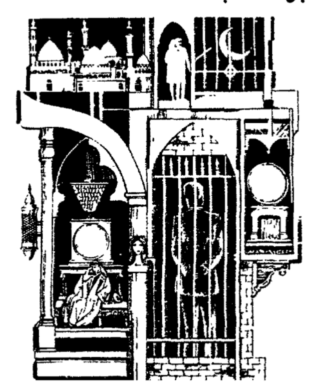
الخرائط ، لم تطأها اقدام بشر من قبل ، حتى عناة الادلة .
شهد المناورات الكبرى ، والمحدودة ، والتدريبات ، اختبر زوايا الاطلاق ، وعاين موضع انفجار الدانات ، سود أوراقا لا حصر لها ، قاس المسافات ، أسهم فى تصميم خطط ، بعضها رئيسى ، والآخر ثانوى ، واسهم فى تهيئة مسرح العمليات لتشكيلات شتى ، شارك فى بحوث ومناقشات لاختيار أنواع القصف المناسب لتدمير المواقع المواجهة ، لطالما غالب اعياءه ، وجاهد حتى لا يلوح تعبه ، أو تبدو عليه علامات ضيق بمحدثه ، كان خفيض الصوت دائما ، ميالا الى الصمت ، شحيح الكلمات ، لكنه اذا تبنى وجهة نظر ، أو دافع عن رأيه ، فانه يتدفق ، الا انه يلزم ذات الوتيرة ، كثيرا ما توقف بعد انتهاء اجتماع او مناقشة ، أو مناظرة ، وبدا شارد النظرة بعيدها ، كان يفكر فى هذه المعركة التى طال الاعداد لها ، لا يكف ، لكنه يخشى أن تبدأ بعد خروجه .
الا أن مخاوفه لم تتحقق ، فى ظهر السبت ، سادس اكتوبر ، الف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ، طابت نفسه ، وانتابته مشاعر شتى ، كان موقعه قريبا من غرفة العمليات الرئيسية ، الا انه سعى الى الخروج فى مهمة عبر خلالها قناة السويس ، أمضى ليلة فى مقر القيادة الميدانى للفرقة الثانية ، وعندما قفل راجعا أخفى عمن يصحبه مدى تأثره ، كان يردد دائما أن اقصى ما يتمناه المحارب خوض المعركة قبل غروب العمر ، وقد شهد ما سعى من اجله دائما ، ما أعد له دوما ، ما بذل له الثبات والخدمة .
فى الايام التالية لوقف اطلاق النار ، كان مسئولا بشكل ما عن بعض الجوانب المتعلقة بالقوات المحاصرة فى الشرق ، برغم دقة الموقف ، وحرج الحالة ، لم يفارقه ثباته ، حتى وأن ابدى ملاحظة أثناء اجتماع أو مناقشة من الممكن تلمس قلق منها ، فانه يتبعها بابتسامة اعتادها من عمل معهم . الا أن خدمته لم تدم طويلا بعد انتهاء الحرب ، وتوقيع الاتفاقيات ، كان داخله يقين خفى ، غير مستند الى معلومات دقيقة ، أو استقراءات ، أو تحليلات ، أن ما كان لن يكون ، وأن ما سيكون ليس ما كان ، أن رياحا جديدة تهب ، وأن تغييرا سيقع ، التيار شديد ، يحيد بعيدا ، بعد سنة من انتهاء الحرب ، وعندما حان موعد ترقيته ، رقى فعلا الى رتبة لواء ، لكن صحب ذلك احالته الى التقاعد ، مثل هذا يجىء مفاجئا ، مباغتا ، وان كان متوقعا فى نفس الوقت .

بدا هادئا لحظة تلقيه النبأ العظيم ، لكن داخله تصدع ، وبقى فؤاده غير مطاوع ، رجع الى البيت ، البنات ينتظرنه ، لا يتناولن طعامهن الا اذا جاء ، أما اذا طرأ أمر مفاجىء يضطره الى الغيبة ، فانه يتصل بهن ، يخبرهن ، بعد الغداء انتقل الى غرفة الجلوس ، هذا ما جرت به العادة ، كبرى البنات اصرت على اعداد الشاى ، أصغى اليهن ، الى امراته ، مبتسما ، ملامحه هادئة ، لكن فيما بعد قالت امراته انه كان يتطلع اليهن وكأنه فى الجانب الآخر ، تطلع طويلا الى البنات ، ثلاثتهن يقعدن فوق الاريكة ، فى مواجهته ، متضامات ، متقاربات ، هل كان يحاول النفاذ عبر الحجب ؟ ربما ، قرأت امراته فى أوراقه تساؤلا قلقا ، أين ستكون كل منهن بعد عشر ، بعد عشرين سنة ؟ الاعوام القادمة تبدو كطريق لا تلوح معالمه للسارى ، أهذا ما جال بخاطره فى تلك اللحظات ؟. ما من اجابة ، فلن يحيط احدا بذلك علما .

تابع حوارهن ، بهجتهن ، حتى هذه اللحظات لم يخبرهن ، لم يشأ التكدير عليهن ، ربما ظنن سوءا .

قال انه سينام قليلا ، تتقدمه امراته الى غرفة النوم ، تبدو راضية ، خاصة بعد الاوقات التى يلتئم فيها الشمل ، انه يرتب ثيابه ، يزيح الملابس المدنية داخل الصوان ، يفصل بيده ما بين الملابس العسكرية والمدنية ، تطول وقفته ، لا يحيد بنظره عن العلامات ، يبدأ تساؤل امراته خافتا كرجع الصدى الذى يزداد وضوحا ..

ـ مالك .. جرت حاجة ؟.



خاتمـة - ٢ -

كلما لقيت صاحبي الذى تجاوز الخمسين ، قال لى :

ـ لا التقى بزملائى القدامى الآن الا فى الجنازات ..

عرفته زمن الحرب ، ضابطا بقوات الصاعقة ، قادرا ، عنده كفاية ، وفيض وطنى ، علم الكثيرين ، خاصة فنون القتال خلف الخطوط ، ولسنوات طويلة لم يكف ، ولم يهدأ ، واشتهرت عنه امور ، فمن ذلك عبوره الى الشاطىء الشرقى لخليج السويس أول أيام الحرب ، وبقاؤه بعد انتهاء مهمته الاصلية ، قال لى ، انه اخترع لنفسه مهمة ، وقطع طريق الامدادات القادم من الجنوب باتجاه مواقع الجيش الثالث ، حارب سبعة أيام ، بالحد الادنى من الزاد ، قبل أن يجرح ، وينسحب الى الغرب ، قابلته فى منتصف السبعينيات بعد احالته الى التقاعد بشهر واحد ، رأيته متحمسا ، متفجرا بالتدفق الحى ، أخبرنى عن مشروعات عديدة ينوى أن يجربها ، قال انه ينوى خوض لجة السوق ، لكننى عندما لقيته بعد عام تقريبا ، ودعوته الى مقهاى ناحية باب اللوق ، أخبرنى أن السوق غير سليم ، وأن معظم الشركات الجديدة تعمل فى التهريب ، تهريب كل شىء ، لم يبقَ أمامه الا مشروع انشاء ورشة لاصلاح طلمبات الديزل ، وراح يفصل لى ما نوى عمله ، ثم غاب عنى ، ولما مر عامان أو أكثر ولم اسمع عنه خبرا ، ولم تبلغنى منه اشارة ، سعيت استقصى اثره ، فعلمت ممن له به صلة انه جمع سائر أحواله ، وفض ما تبقى ، وسافر ، وأن آخر خطاب وصل منه الى أهله ، ينبىء فيه أنه اصبح مدربا للغطس فى أحد النوادى بجنوب فرنسا ، فاتنى القول ، انه تدرب فترة فى سلاح البحرية على أعمال الضفادع البشرية ، فخطر لى عندما سمعت النبأ ، انه ربما كان يدرب الآن بعضا ممن حاربهم يوما ، او من على صلة بهم فسبحان مغير الاحوال ومدبر الامور .

فيما تلى ذلك ، مررت بظروف ليس هذا مجال تفصيلها ، فالأمر ذاتى ، دفين ، فآثرت الانقطاع والتوحد ، خاصة عمن عرفتهم زمن خوض الحرب ، غير أن أحدهم شغلنى أياما ليست بالقليلة .

ذلك اننى فوجئت فى نهاية الثلث الاول من الليل بصوت يأتينى عبر الهاتف ، بعيد ، قصى ، قادم من أغوار الازمة ، استعيده حتى الآن نارى فيه من يستنجد بغير صراخ ، من يسعى الى المساعدة بدون عويل ، قال انه يطلبنى ، لا يريد اكثر من خمس دقائق ، انه يعتذر لتعطيلى ، يعرف أن وقتى ثمين .

قلت له أن وقتى متاح ، وانتى أقدر على المجيء اليه للتو ، لكننا اتفقنا على اللقاء فى اليوم التالى ، انتحينا ركنا فى المقهى غير بعيد ، صعب على أمره ، فلم تقع عينى عليه من قبل الا وهو فى هيئة الامارة ، والقدرة ، وما رأيته منه الوهن ، والحيرة ... عرفته عند عملى فى الجبهة ، وكان برتبة مقدم ، له كلمة ، ومنه أقدام ، وأمره ثابت .

قال لى أن أحدهم غرر به ، اضاعه ..

كيف ؟.

قال انه دعى الى حفل استقبال بمناسبة تقاعد ضابط كبير ممن تتلمذ على أيديهم ، ليته ما لبى ، ليته ما ذهب .

المهم ، ماذا حدث ؟.

قال انه التقى فى هذا الحفل بأكبر مقاولى البناء ، طبعا هو فى غنى عن التعريف ، معروف بثرائه ، ونفوذه المالى ، والسياسى ، تعرف به ، وقال انه سمع عنه ، وقرأ فى الصحف ما قام به من أعمال ، خاصة خلف خطوط العدو ، انه يدعوه للعمل معه فى احدى شركاته ، ان وظيفة كبيرة تنتظره ، وراتبا مغريا ، آن الاوان كى يجمع له قرشين ، قدم اليه بطاقته ، ورقم تليفونه الخاص جدا الذى لا يوجد الا لدى كبار المسئولين رجاء الا يطلع عليه مخلوق ، ليته لم يقف معه ، ليته لم يقترب منه ، بل ليته لم يذهب الى هذا الحفل المشئوم .

المهم ، ماذا جرى ؟.

طبعا عاد الى البيت ، يستعيد هيئة الرجل ، جديته ، بنظرة يفحص ما وصل اليه ، حتى هذه الفترة لم يكون حاجة تقى ولديه الشرور غير المتوقعة ما لديه المرتب لا غير ، لا أملاك ، لا أراض ، لا عائدات من أى مصدر آخر ، من حقه أن يسلك وجهة مغايرة ، يضمن دخلا معقولا يمكنه من الادخار ، لم يشرح له الرجل طبيعة عمله الجديد ، لكنه كان واضحا عندما قال له آن الاوان حل لكى يجمع له قرشين ، ليته لم يصغ ، ليته لم يتبعها .

قال انه سعى ، وسعى ، حتى احيل الى التقاعد بناء على طلبه ، ودع عمرا من الخدمة المتصلة ، وانه عندما مشى فى الطريق بعد ان خلع سترته وفترته كان حائرا ، وكأنه افتقد وجهة اعتاد ان يقصدها مع مطلع كل شمس فلما حيل بينه وبينها ، أوشك ان يضل عن آماله الجسام ، لولا .. لولا الطاقة الجديدة التى فتحها له الرجل ، ولكن المصيبة سرعان ما لاحت .

قال انه قصد باب الرجل فلقيه موصدا ، فى البداية لم يصدق ، ولكن عندما قابل سكرتير رئيس مجلس ادارة أكبر الشركات التي تحمل اسمه ، عندما أصغى الى ما قاله اتسعت هوة تحته ، قال له الرجل أن المقابلة ضرب من المستحيل ، صحيح أن هذه الشركة ـ وغيرها ـ تحمل اسمه ، لكنه لا يتردد على أى منها ، ثمة من ينوب عنه فى ادارتها ، انه على مقربة باستمرار من القيادة السياسية ، واللحظة من وقته لها ثمن ، عندئذ ابرز رقم الهاتف الخاص ، تأملها السكرتير ، قال :

ـ « نمرة صحيحة ، لكنها تغيرت ، ارقام هواتفه تتغير كل ستة شهور .. »

طلع من مقر الشركة لا يكاد يبصر ما أمامه ، لا يدرى كيف عرف أن للرجل بيتا فى الجيزة ، وبيتا فى الاسماعيلية ، وبيتا فى الاسكندرية ، واستراحة فى أسوان ، وأخرى فى الواحات ، عبثا حاول أن يقنع موظفى المكتب الرئيسى للبرق ، لكنهم ابوا ، فالرجل من الشخصيات التى لابد من تصريح خاص لارسال برقية اليه ، وعندما قبل موظف عجوز فى مكتب الموسكى الفرعى ، تمنى لو عانقه، لكن البرقيات شيعت ولم يبد أى صدى ، سعى الى الصحف لينشر اعلانا يطلب فيه مقابلة الرجل ، ولكن الصحف جميعها أبت ، عند حد معين أدرك استحالة اللقاء ، خاصة عندما أكد له السكرتير انه تم ابلاغ سيادته باسمه ، برغبته فى مقابلته ، وكانت اجابته انه لا يعرفه !.

ماذا يفعل ، ماذا يفعل وفى رقبته اسرة ، وراتبه التقاعدى محدود ؟.

اصغيت حائرا ، كنت الومه بينى وبين نفسى ، غير انى ابقيت ما عندى حبيس صدرى ، فلم اظهره على أساريرى ولو من بعيد ، فوجئت به يطلب مساعدتى ، اننى صحفى ، وعندى اتصالات ، وما يطلبه مجرد عمل ، او السفر الى أى بلد عربى .

لم أقل له اننى أمر فى ظروف لن تمكننى من مساعدته . ولم اشأ ان أبقى ذرة امل عنده عالقة بجبهتى ، انصرف منحنيا ، ولم اسمع صوته ، ولم اقابله ، غير ان عبارته الاخيرة بقيت زمنا ترن فى سمعى.
ـ « خرب بيتى .. الله يخرب بيته » .
فيما بعد استقصيت احواله ، فعرفت انه عمل مدة شهور باحدى شركات الامن الخاصة التى بدأ ظهورها حديثا ، وانه استقال وسافر ، كثيرون ممن عرفتهم سافروا الى بلاد شتى ، وبعض من عرفت لم يدر بمخيلته يوما انه سيركب الطائرة ليرحل الى بلد غريب ، او يخرج حتى من القاهرة ، لكنها الظروف ، والاوقات التى اتت بكل غريب ، عجيب ، ولكن الاغرب ان تأخذنى الدهشة ، انسى دائما ما خبرته ، انه لا شىء يبقى على حاله ..



وفيما يلى نبأ الخطاط
الذى راح أمره فى الغربة

.. فى مفتتح العقد السابع كان له من العمر اثنا عشر عاما . اذ نمى الى علمي – وهذا مؤكد – انه ولد عام الف وتسعمائة وثمانية وخمسين ميلادية ، فى اسرة احوالها معسرة ، تسكن حجرة واحدة من الخشب المطلي بالجص فى بيت عتيق يقع عند ناصية زقاق يمكن للواقف فيه أن يرى مسجد ابن طولون . كان ذكيا لماحا ، سريع الاجابة فيما يوجه اليه من أسئلة طوال سنوات دراسته ، متقد الفؤاد بأحلام شتى ، بعض معلميه تنبأوا له بمستقبل حسن فيما لو ثابر . واتم الشوط ، وتزود بالعدة .

لكن كما قيل . تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن ، وكما قيل ايضا، العين بصيرة واليد قصيرة . ذلك ان الاب كان نجارا ، فقيرا ، ارزقيا ، لا عمل دائم له ، ولا مورد ثابت يتقوتون منه ، يوم هنا ، وآخر هناك ، وثلاثة او اربعة يقضيها بطالا ، مع انه مهر فى حرفته ، وبرع فى حفر الاشكال المورقة على الخشب ، الا أن الحظ خالف ، والبخت مال . والزمن لم يساعد ، امر واحد شغل به ، وتعلق ، وسعى جاهدا الى تحقيقه ، بل لنقل انه عقد العزم عليه ، الا وهو تعليم ولده هذا حتى التتمة ، كذا اخوته الاربعة ، الحق أن ابنه هذا كان تواقا الى العلم ، اثار اعجاب اساتذته ، كثر ثناؤهم عليه ، كما ذكر اسمه فى لوحة التفوق مرات ، ومما اثار اهتمامهم ، تميزه عن اقرانه بجمال خطه ، وبراعته فى تنسيق الحروف وحفظ النسب ، بعضهم اوكل اليه رسم لوحات عليها عبارات مثل ، « وبشر الصابرين » و « ادخلوها بسلام آمنين » و « الصبر مفتاح الفرج » ، الى غير ذلك مما يعلق فى الغرف ، وفى الحفلات الموسمية ، كانت كراساته منمقة ، مرتبة ، نظيفة ، خلوا من الاخطاء ، وعندما كان يصحب والده الى المسجد المهيب الفسيح القريب ، اعتاد تأمل الحروف المورقة وتشابك الحروف ، تلاقيها وتفرقها ، تماسها وابتعادها ، يود لو نقش مثلها ، على ورق ، على جص ، وكثيرا ما استعاد فى خلوته بنفسه هذه الاشكال ، وعند تخيلها كان يميل ببعض الحروف ، فيغير من أوضاعها ، وزواياها ، وعند تجاوزه الثالثة عشرة أعجب به مدرس عجوز من معلمى الزمن

القديم ، اسمه سعد الله ، كان يدنو من سن التقاعد ، نحيــل جدا ، عويناته سميكة ، وكانت يده اليمنى لا تفارق منشة مقبضها عاجي ، حتى عند أمساكه الطباشير وخطه الدروس ، كان طويل الصمت ، بطيء الخطوة ، ثقيل النظرة ، طيب القلب ، أهداه كتابا ضخما لم ير مثله عن الخط العربي ، قلب صــفحاته ، تأنى في تأمل لوحاته ، نقل منها ، وعرف الرقعة والنسخ ، والكوفى ، والبسط ، والثلث ، والحجازى ، الى غير ذلك ، بعد أدائه امتحان شهادة الاعدادية ، لم يكن فى حاجة الى انتظار النتيجة كى يقرر أمرا ، ذات ليلة أفضى الى والده بما نواه ، بما عزم أمره عليه ، فالظروف صعبة ، والرزق شحيح ، والزاد قليل ، والشجار بين أمه وابيه متكرر ، وكثير ، افواه الاشقاء فى حاجة الى قوت ، حز فى نفسه رؤيتهم حفــاة فى الحارة ، أو متعلقة أبصارهم بنهاية الطريق فى انتظار عودة الاب بقليل من الطعام ، تتخاطفه الايدى الممتدة عادة الى طبق واحد ، مما يضــطر والده الى نهرهم ، آمرا كلا منهم مراعـاة البقيـة ، عزم على البحث عن عمل يأتيه بما تيسر ليساعد الاب الذى يتقدم فى العمر ، وبان على ملامحه العجز ومرارة الاحوال ، أطرق الرجــل مغموما ، كمدا ، حجب عن نطقه رغبته فى اتمام ابنه للشوط ، حصوله على شهادة تمكنه من وظيفة تؤمنه ، وتحوشه عن ســؤال اللئيم ، تجنبه المشاق التى عرفها ، تنأى به عن ذل الحاجة ، كان الابن أدرك افكار ابيه اذ شفت ملامحه المجهدة عما عنده ، فافضى اليــه بعزمه ونيته على استكمال علمه ، سيلتحق بمدرسة ليلية ، سأل .. ودلوه على مدرسة خاصة ناحية الفجالة ، الامر ميسور والعزم صادق ، فى هذه المدرسة موظفون صغار يطمحون الى الحصول على الثانوية بمجموع مناسب واجتياز عتبات الجامعة أملا فى تبديل الاحوال ، ليس فى الامر عيب ، فالظروف حاكمة ، اقترب الاب من ولده ، بدا كالجمل الحمول اذ يحط بما ينوء به من ثقل بعد طول رحيل ، بان فى عينيه ضعف واعياء قديم ، طلب منه أن يقسم ، فتح المصحف على سورة يس ، قربه ، عندئذ هدأ بال الاب ، واستفسر عن العمل الذى سيلتحق به الابن ؟ قال انه سيبحث عما يناسب مايتقنه ، الخط طبعا ، قال الاب : هذا عمل كريم ، مضى الى سعد الله أفندى ، معلمه القديم ، أبدى الرجل ترحيبا ومجاوبة ، قال : انت ياولدى هدية لمن ستعمل معه ، طلب مهلة يومين ، بعد انقضـائهما اصطحبه الى أحد معارفه ، مدير لاحدى شركات المطاحن ، زوده ببطاقة الى تاجــر

بالموسكى ، ابدى ودا ، وتحدث عبر الهاتف الى شخص ما ، طلب منه الذهاب الى هذا العنوان صباح اليوم التالى ، لم يكن المقر نائيا ، دكان عتيق ، زاخر بعبير الزمن المولى ، عند نهاية شارع محمد على قرب ميدان العتبة ، تعلو مدخله لوحة باهتة : «ورشة الزنكوغراف» ، وجملة أخرى يبدو انها أحدث ، « فنان الخط العربى » ، قال صاحب الدكان أن زمن الخط الجميل ينقضى ، الحروف الجاهزة تكتسح السوق شيئا فشيئا ، وكثيرون يطبعون بطاقاتهم الان بالمطابع التى تصف الحروف صفا ، قال له : انت صغير ، والعمر أمامك مديد . ومهنتنا الى زوال ، لماذا تتعلق بها ؟

قال أنه يريد أن يأكل عيشا حتى ينهى دراسته الثانوية ويلتحق باحدى الكليات ، ولأنه يعشق الخط ويتقنه فهذا انسب الاحوال الموائمة ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، ابدى الرجل رضاءه ، لانه يريد تخفيف الحمل الثقيل عن ابيه ، كما أعجب بمهارته خاصة فى كتابة الثلث والحجازى والمنسوب ، والحسن والفائق ، وقدرته على فهم اسرار الحروف ودلالاتها ، قال الرجل انه لا يعمل الا فى الحلال ، كتابة اللافتات ، عناوين الكتب ، والاختام الشرعية ، لو انه عمل فى الحرام لجنى ثروة وصار فى بحبوحة ، فلما استفسر منه عما يعنيه بالحرام ، قال ان صناعة الاختام جزء من مهنتنا ، بل انها الاكثر رواجا ، يحدث أن يجيىء احدهم ، يطلب اعداد خاتم حكومى ، والمقابل طبعا مقدار غير قليل من المال ، غير انه يأبى ، لا يرفض فقط انما ينهر ويطرد ، حدث منذ عشرين عاما أن جاءه رجل تبدو عليه علامات اليسر والنعمة ، طلب اعداد ختم عليه علامة النسر ، اعتذر ، فأخرج الرجل من جيبه عشر ورقات ، كل واحدة بمائة جنيه ، الألف فى ذلك الوقت تساوى مائة الف الآن ، اخرج المبلغ بسهولة ، كأنه يتناول عشرة قروش ، هززت رأسى ، عندئذ تغير واكفهر ، هدد وتوعد، لكننى قلت له ، أوسع ما فى خيلك اركبه ، لا يمكن أن تعمل لى حاجة لأن شكلك واقع فى الخطأ من شعر رأسك الى أصابع قدميك ، انذرنى باغلاق الدكان لكنه مضى ، ولم يعد الى ناحيتى ، الغريب انه مقدم على الخطأ ويهددنى بالنفوذ والسلطان ، فيما بعد علمت أنه مضى الى زميل لبى له طلبه ، سامحه الله ، مات منذ سنتين .. ماذا أخذ معه ؟.

اعتاد الحديث المتدفق المتصل ، يبدو أنه لن يكف أبدا ، يذكر ادق التفاصيل فجاة ، بدون مقدمات يصمت ، يكف ، يبدا صرحة

طويلة ، ينقطع عما يحيطه ، يصير الى عزلة محكمة ، ربما ينهيها بقوله :

ـ « ياما شفت .. انتم لم تعرفوا شيئا ، اما نحن فعشنا .. »

يحكي له عن شارع محمد على هذا ، عن توالى الاقواس الحجرية وتعاقبها بانتظام ، عن نظافته ، عربة الرش تجيىء يوميا مرتين بعد كنسه ، مرة اول النهار ومرة آخره ، لم يكن مزدحما كما يراه الآن ، كان الضوء شفافا لا تكسوه غبرة ، يقف فى أيام الشتاء بعد نزول المطر ، فيرى الطريق ممتدا من ميدان العتبة وحتى القلعة ، مستقيما ، واضح القصد ، والام يؤدى ؟ ، الهواء شفاف حتى ليمكن رؤية الاصوات السارية ، عربات قليلة ، ومارة لا تعلو وجوههم الهموم ، وعيون النساء المكحولة الواسعة ، تلخص وجودهن المختبىء كله تحت الملاءة اللف ، والبرقع واليشمك اللذين يغطيان الوجه عدا العينين ، يتوقف لحظة لينفث آهة حسرى على ما ولى وانقضى ، نزول الليل ، آه من قدوم الليل ، اشتعال المصابيح والكلوبات ، وخروج صبية العوالم ، وتوقفهم عند مداخل الحارات يضعون أمامهم صناديق الآلات الموسيقية الضخمة ، متعددة الاشكال ، ينتظرون نزول المطربات والراقصات والعازفين ، تجيىء السيارات ، يعلو ضجيج الاصوات ، كم من جميلات تطلعن الى الطريق وهن يرتدين الفساتين المحلاة بالترتر والقصب ، ملابس السهرة ، يقضين الساعات اللائى يقمن خلالها بأحياء الافراح والحفلات ، هنا فى المدينة أو الاطراف أو السفر الى بلدان وقرى بعيدة ، للشارع نجومه ، منهم من يعظم الطلب عليهم ، ومنهم من يقل ، بعض الراقصات اللواتي عشن فيه عشقهن علية القوم ، باشوات أمامهن وسعوا من أجل طلة أو نظرة ، لذهابهم ومجيئهم بصحبة عازفي الآلات الموسيقية شذى واصداء ، هنا كان الفن ، وكانت الصحافة .

هل سمعت عن جريدة المؤيد ؟.

يمصمص شفتيه أسفا قبل أن تأتيه الاجابة ، مساكين شباب هذه الايام ، ماذا تعلموا اذن فى المدارس ؟ ، يصمت ثم يستفسر ، ألم تسمع عن الشيخ على يوسف ؟ يتقدم مباشرة تجاهه ، يمسك بذراعه ، يخرج به الى نهر الشارع ، يشير الى مبنى عتيق مقابل : هنا كان مكتبه ، هنا مقر جريدة المؤيد ، كانت أكبر وأوسع شهرة من الاهرام ولكن الزمان قلب !.

يقول ان والده رحمه الله كان يرسم عناوينها ، ويصنيغ أختامها ،

ابى الشيخ على يوسف - عليه الرحمة كلها - ان يتعامل مع الارمن ، الاجانب ، وخص والده ، أول مصرى عمل فى الصنعة بكل ما يلزم الجريدة .

يشير الى ناحية باب الخلق .

- هناك كانت مجلة اللطائف ، مقابلها مجلة اليوم ، على مقربة جريدة السياسة ، الناحية الاخرى مجلة المطرقة .

يتطلع ناحية دار الكتب .

يا سلام .. ياما قعدت فى المقهى هناك ، واستمعت الى حافظ ابراهيم ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وتوفيق دياب ، ممن لا مثيل لهم ولا شبه فى هذا الزمن القفر .

يتوقف لحظة ، ثم يتساءل :

هل شاهدت مصارعة الديوك ؟ طبعا لا .. ولن تعرفها ، هناك ، بجوار دار الكتب كان اغنياء الاتراك يداعبون أطراف شواربهم الكثة وهم يتفرجون على مصارعة الديوك ، بينما تشتعل حمية الرهان ، راح هذا كله ، ذهب ولن يعود .. انظر الى الزحام ، أنظر الى فقر الترام ، وبؤس العمار ...

كان يفيض متحدثا عن تغير الضوء فى ساعات النهار المختلفة ، وعن امتداده عبر الايام الشتوية صوب القلعة ، حيث تختتمه مآذن مسجد محمد على ، عن روائح غامضة ، محببة الى نفسه ، لا يمكنه تفسيرها أو نسبتها الى مصدر بعينه ربما رائحة ظلال البيوت المتداخلة ، المتعانقة ، أو البوابات العتيقة التى لم يلامسها ضوء الشمس ، ربما رائحة انتظار الأحبة والعياق عند النواصى ، وتطلع نظراتهم الى النوافذ المستطيلة ، المسدل عليها الستر ، أو ابخرة أطعمة صفت أطباقها وتنتظر الطاعمين ، أو أصداء عبير انثوى ، ربما هذا كله ، لا يقدر على التحديد ، على التعيين ، لكن الرائحة تلك بقيت عنده تثير ما تثير ، الآن وهنت ، رقت ، صحيح أنه قادر على رصدها ، لم تمح تماما ، غير أنها لم تعد تلك التى عرفها وهفا اليها ، انه يزداد انحناء ، انه يأسو ، يبدو أشد بعدا ، كأنه أقلع من الحيز المولى ..

انه يجلس أمام الدكان ، يتابع المارة ، مضيقا عينيه من حين الى آخر ، يشرب الشاى الغامق ، لم يعد يقف أمام لوحة منذ فترة ، أو ينحنى ليخط حرفا ، اسند العمل كله اليه ، يقوم أحيانا ليلقى نظرة فيبدى ثناء او ملاحظة ، ثم يعود الى المقعد المستدير راحلا بنظره

الكليل عبر الطريق ، عمره موزع عند المداخل العتيقة ، وتحت البواكي العتيقة ، وعند نواصي الازقة التي يرتفع بعضها عن مستوى الطريق ، يلتفت فجأة ليتحدث عن والده ، يقول ان الخواجات الارمن هم الذين أدخلوا هذه الصناعة ، ظلت كارهم الخالص ، لا يقترب منه أولاد البلد ، يتوقف ليخبط صدره مرات ثلاث ، والـدى أول من فتح البـاب ، أول مصرى يعمـل فى الـزنكوغراف ، لم السـوق من الخواجات ، وتبعه كثيرون ، ولولاه لظلت الصنعة فى ايدى الخواجات.

واذ يستعيد والده يلوح فى عينيه حنين ، أحيـانا يحط على مقعده ممسكا كوب الشاى ، لا يحيد بنظره ، قد تمضى ساعات ، لا يتحرك ، وربما سأله فجأة ، هل سمعت عن المؤيد ؟ ، أحيانا يطلب منه أن يترك ما فى يده ، ما يشغله ، يشد مقعدا صغيراً بدون مسند ، يقول مبتسما ، متجننا :

ــ يا بنى هون على نفسك ، لا تتعب نظرك ..

ثم يفيض فى الحديث ، يضحك ، وفجأة يأوى الى صمت شديد ، يبدو انه نسى وجوده الى جواره ، اشد ما يزعجه زحام الطريق ، خاصة اذا توقف المرور وارتفعت أبواق السيارات ورنت أجراس الترام وعلا صهيل من هنا أو نهيق من هناك ، يلوذ برمادية الفراغ ، بعتاقة المكان ، يتمتم مكلوما :

ــ لم يكن الامر هكذا ، ابدا ، ابدا ..

فى عصر شتوى ، غامق ، يوحى بالكنة والتوق الى ماض مبهم ، بدا منحنيا ، ملموما ، كأنه تضاءل فجأة وانطوى ، ثمة رياح باردة تثير أتربة ، سعل مرة ، مرتين ، ثم مرات متقطعة ، متباعدة ، سعال غريب ، أصداؤه متسلخة ، اشتد ثم خفت ، كصدى يذوب مبتعدا فى وادى سحيق ، ترك اللافتة التى يخط فوقها اسم المرشح ، هذه بداية الموسم ، يروح الحال عند بدء المنافسة واحتدامها ، لافتات عديدة مطلوبة ، يضيق بالسرعة فى عمله هذا ، لكن للضرورة أحـكام ، هذا موسم لا يتكرر الا كل اربع سنوات مرة ، الا اذا أكرمهم الله بحل المجلس ، واجراء انتخابات جديدة ، أحيانا يبتسم ساخرا اذ يخط لافتتين ، الاولى لمرشح والثانية لمنافسه ، غير أن الابتسـامة راحت عندما بدأ يصل الى سمعه هذا السعال الغريب ، وأشـد ما يخيف ، ما كان غير مألوف .

ــ مالك .. ما بك ..

لا يصمت المسة يده ، انه ثقيل ، هذا الثقل التام ، ارتبك ،

اضـــطرب ، انها المرة الاولى التى يواجه فيهـا النهـاية الحتمية ، مرة واحدة أثناء ركوبه الترام ، صرخت امرأة ، اقبل اضطراب ، وعندما تمكن من النفاذ عبر الاجساد الفضولية المتكاكئة ، رأى جثمانا متمددا ، بنطلونا بنيا وحذاء ، قميصا مقطوعة احد ازراره ، قالوا انه سقط فجأة ، السـكتة ، غير انه لم ير وجه المجهول ، ها هو الآن يقف مواجها الرجل الطيب ، الرجل القديم ، الذى كان !. انه مستسلم لنوم غامض ، خلو من الاحلام ، ملامحه تبدلت بعض الشيء ، أطبق بعضها على بعض ، وفى ثناياها ضمر الحنين الى ما كان وما انزوى ، فقل متثنيا الى ما ولى ، تم ..

هرع الى الجيران ، الى المقهى ، الى دكان الآلات الموسيقية ، بكاه كأنه يشيع أباه ، ما يقرب من عامين لم يسمع منه كلمة فظة ، لم يزجره ، لم يقل له اف ، لم يثقل عليه ، بكى اذ استعاد عبارته عندما منحه العيدية .

ـ « والله يا بنى انت زى ابنى .. كأنى خلفت على كبر .. »

تحلق القوم حوله ، قالوا له ما يقال فى مثل هذا الموقف ، من تأكيد لقضاء الله ، وتذكيره بحتمية الموت ، وان كل من عليهـــا فان ، راحل ، مودع ، والرجل مضى فى هدوء ، لم يرقد ، لم يمرض ، لم يصبح عبئا على غيره ، أنه من المكرمين ، رحل فى لمحة ..

لم يفارقه حتى مواراته الثرى ، عاد الى المحل لا يدرى ما يفعل ، كان الرجل وحيدا ، عاش بمفرده ، لم يسمعه يتحدث عن قريب أو صاحب حميم ، انه يقف على حدود مرحلة مجهولة من الطريق ، لا يدرى ماذا سيأتى به الغد ؟ كيف ستمضى الامور ؟ ، وحتى يدبر حاله استقصى من الجيران عن ديون الراحل ، ما من دين الا حساب مقهى التجارة المجاور ، أربعة جنيهات وسبعون قرشا ، قلب الاوراق التى عثر عليها فى الدرج المقفل ، عله يجد كمبيالة ما ، أو ايصالا يستحق السداد ، لم يعثر الا على ثلاثة أختام بالية ، أحدها باسم حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى ، فى الايام التالية اتم كافة ما اتفق على اتمامه من لافتات انتخابية ، نصحه والده باستشـارة أهل العلم بما سيكون عليه الدكان ، غير ان الامر لم يطل كثيرا ، صباح الخميس المتمم مرور خمسة عشر يوما على تمام أجله ، ظهر رجل تجاوز الخمسين ، بدا قاسيا ، ينوى الاذى ، قال انه من اقارب المرحوم ، ابدى الاثباتات الشرعية واظهر الحجج القانونية ، تساءل :

بأى حق يقف ويدير المحل ؟ ، من الممكن اللجوء الى الشرطة لوضع الامور فى نصابها ، لكنه يبدى النصيحة لوجه الله خالصة ، ان يمضى الى حاله ، ان يشوف رزقه بعيدا ، واكراما للمرحوم لن يطـالبه بما ربحه فى الايام المنقضية ، فارق الدكان بقلب موجع ، وخاطر كسير ، مرددا :

ـ يا عامل الخير .. يا عامل الشر !!.

لم يبد له الشارع أطول مما بدا له ذلك اليوم ، وعندما دنا من ميدان العتبة ، ولاحت سماء نائية ، وغمامات متناثرة ، عمه خواء ، فارق عمله الذى أحبه ، الرجل الطيب خلت منه الدنيا ، حتى عدته لم يأخذها ، فرشه واقلامه ، مضى متمهلا فى الطريق الخلفى لمبنى المطافىء ، آوى الى مقهى مزدحم ، رواده سمر الوجوه ، نوبيون ، زحام ، ضجيج ، غير أن وحدته لم تتبدد ، تضاعفت ، منذ هـذه اللحظات بدأ انحطاط امره ، وعكس حاله ، ودنوه من بيد تؤدى الى مجهول لا يعرفه ، فى الايام التالية طرق أبوابا شتى ، أحد معارف والده عرض عليه الوقوف بمطعم ناحية السيدة زينب ، عمل بسيط لا يقتضى مهارة ، مجرد حشو الارغفة بالفول او الطعمية ، لكنه ابى ، خشى أن يأخذه بعيدا عما اتقنه ، قال له الراحل الكريم ان الخطاط لابد أن يمرن أصابعه باستمرار ، والا أصبح الامر صعبا ، كان قد ادخر بضعة جنيهات ، اشترى ورقا سميكا ، وورقا مذهبا ، وآخر ملونا ، فوق سطح البيت بدأ يقعدفى الشمس ، على مقربة منه دواجن تلتقط من الحب ما تيسر ، أصوات الطريق تبدو بعيدة كأنها تأتيه من واقع آخر ، بداية يحدد الحروف الغليظة بالقلم الرصاص ، ثم يقص الورق المذهب ، يلصقه ، حتى اذا فرغ ينظر مرتاحا ، راضيا ، أية قرآنية كريمة ، اذ يتم اثنتين او ثلاثا ، يطوف على المتاجر بما اتمه ، على المقاهى ، غير أن البيع صعب ، لم يدرك أحد ممن يعرض عليهم الفروق بين خطوطه واللوحات الاخرى الجاهزة ، بل أبدى بعضهم استخفافا ، بعد أخذ ورد يسمع تكرار العبارة ذاتها « الله يسهل لك » ، كأنه يبغى صدقة ، كأنه يطلب منة ، حتى اذا ما تم بيع لوحة يجد ربحه ضئيلا ، أثناء تجواله لقى رزقا ، اذ مر بورشة قرب القلعة تصنع عربات اليد ، اتفق مع صاحبها على تزيين عربتين ، الاولى لبيع الفاكهة والاخرى عالية كالهودج ، خط ادعية ، وآيات آتية ، ورسم زهورا ، ودوائر متداخلة ، أبدى المعلم اعجابه ، وتمنى لو أن الحال كالزمن القديم ، كان العمـل لا يتوقف ، فى كل

اسبوع عربة او عربتين على الاقل ، اما الآن فالاحوال عسرة ، قل الطلب على العربات الجديدة ، ولولا اصلاحهم قديمها لأغلقت الورشة منذ زمن ، لم يتوقف عن قطع شوارع القاهرة وحواريها حاملا لوحاته ، مر بشارع محمد على ، من الرصيف المقابل وقف غير مصدق ، سرعان ما بدا ينز حسرة ، تبددت ملامح الدكان تماما ، فكأنه لم يفتح يوما لخط الكلمات أو رسم اللوحات ، تعلوه لوحة « مينى ماركت » ، أما فى ذات الموضع الذى كان يخلو فيه الرجل الطيب فراى ثلاجة بيضاء ، على جوانبها ملصقات شتى ، حيث وقف وانحنى واندمج تقف امراة شابة ، من هى ، من تكون ؟ خطر له عبور الطريق ، ان يعرض عليها لوحة ، لكنه أقصى الخاطر ولم يبادر ، من هؤلاء الذين قدموا من المجهول ليرثوا ، ليبدلوا ما انقضى ، أى درجة قرابة تربطهم بالراحل ؟ لم يسمع منه عنهم ، يتحرك خطوات مبتعدا ، يلتفت مرة أخرى ، كأنه لم يمض أياما كوامل هنا ، كأنه لم يقض سنة وعدة شهور يصحبه الطيب ، الامير ، ابن الزمن العتيق ، لكم حنا عليه واثنى به ، كأنه لم يكن ، وكأنه هو لم يعمل هنا ولم يصغ ولم يتعرف على جهاد الاب لانتزاع الصنعة من ايدى الارمن ، ما يراه عند الجانب الآخر لا صلة تربطه به ، لاَ أثر للعلاقة ، اتئد فى مشيه ، انه يتعرف على ذلك المعنى المبهم الغامض ، يدركه لاول مرة ، انه انقضاء ما انقضى، تمام مرحلة لن تتكرر ابدا ، لن يستعيدها ابدا ، أطبق عليه أسى ، وناء وجد .. تعجب من اللف فى الطرقات فآوى الى مقهى بباب اللوق، جاءه صاحب المقهى ، كان قد اشترى منه لوحة علقها فى مواجهة النصبة ، قال له ان ما يقوم به تضييع للجهد ، للطاقة ، سيدله على تاجر يبيع هذه اللوحات وغيرها ، انه من رواد المقهى ، يجيىء فى السابعة صباحا ، يدخن النرجيلة ، ويشرب النعناع المغلى ، انه رجل صالح ، يؤدى الفروض فى أوقاتها ، يحج كل سنة مرة ، قال له : تعال يا بنى غدا فى الحادية عشرة ليلا ، انه آخر زبون يقوم من هنا ، تعال قابله واتفق معه وأرح نفسك من الهم !.

فى النهار التالى لم يفارق البيت ، رسم لوحتين اضافهما الى ماعنده ، قبل الموعد بوقت كاف سعى ، هاهو الحاج يدخن النرجيلة، أنفاسه سريعة ، قصيرة ، لا يتيح للدخان فرصة المكوث فى صدره ، يمسك سلسلة ذهبية ، تأمل اللوحات بلا مبالاة ، كان يشير بيده أشارات حادة ، مقتضبة ، فيحار ، ايطلب منه ان يمضى بعيدا وكأنه

بهشه هشا ، أو يريد رؤية اللوحة التالية ، ملامح وجهه تؤكد انه مستمر فى رؤية اللوحات ، عند رؤيته المستطيلة ذات الخلفية الزرقاء، اشار اليه أن يتراجع ، تأملها قليلا ثم اشار بيده ..

ـ كفى !.

باختصار ممض ، مباشر ، موجع :.

ـ شوف يا بنى ، كل هذا لا ينفعنى ..

المعلم صاحب المقهى الواقف خلف الحاج يغمز بعينه ، يعض شفتيه ، ما يعنى ، اصبر ، لا تتعجل ، خفف ذلك من ضنكه ، بعد لحظات قال الحاج ، انت ستجيىء عندى الى الدكان ، سأعطيك الخام كله وأخبرك بما أريد ، تروح بيتك ، تنفذه ، ثم ترجع الى ، تأخذ عرقك واكثر ، المهم .. لا تغشنى .

صاحب المقهى يسارع متدخلا ..

ـ « ضمانته على .. »

يقطع الطريق الى البيت مرتاحا ، لن يضطر الى التجوال المضنى ، والوقوف هنا وهناك ، ومعاناة اذ يعرض عنه الآخرون ، ولا يعيرون ما يحمله طلة حتى ، لن يقاسى الخوف من شرطة المرافق التى تطارد الباعة الجائلين .

بدأ عمله بهمة ونشاط عظيمين ، املاه الحاج العبارات المطلوب خطها وتجميلها ، والاسماء التى يبغى اصحابها كتابتها على الواح نحاسية ، أو خشبية ، أمده بما يلزمه ، يقع الدكان خلف المقر الرئيسى للبنك المركزى ، على مقربة من المقهى محل صغير ، ضيق ، مزدحم بالاطارات القديمة والحديثة ، انه مجرد مقر للحاج الذى يعمل فى مجالات عديدة ، تركيب زجاج العمارات وبيع السيارات القديمة ، والعملة ، وأوجه اخرى شتى ، جاء الى المقهى فى الميعاد المحدد ، لم يصل الحاج بعد ، ابدى المعلم اعجابه ، ردد : اللهم صل على النبى . وصل الحاج ، وتأمل صامتا ، لم يفصح وجهه عن علامة ، ابدى بعض آللاحظات ، وصف المحل القريب ، طلب منه أن يمضى الى هناك ، سيجد صبيا اسمه عاشور ، سيسلمه اللوحات ويرجع ، ومنذ الآن سيكون التسليم هناك ، عندما عاد الى المقهى لم يجد الحاج ، أثقل صدره بغم ، رتب اموره ، نوى شراء فطائر وحلوى من ميدان السيدة زينب لأشقائه ، قال صاحب المقهى انه اضطر الى الانصراف بعد مكالمة هامة ، ثم قال : لا تقلق ، أجرتك ستقبضها

مساء كل خميس مع الدولاب ، ابدى دهشة ، اى دولاب ؟ ، ضحك
قال ان كل من يعمل مع الحاج اسمه الدولاب ، يعنى دولاب العمل ،
تساءل قلقا ، آملا : الم يترك لى شيئا ، قال المعلم ، طبعا .. طبعا ،
مضى الى المنضدة المرتفعة ، تناول ورقة بيضاء ، عليها بخط ركيك :
مطلوب عشر لوحات « الصبر مفتاح الفرج » ، المقاس العادى .
عليه أن يمر صباح الغد بالمحل ليأخذ المونة ، يقول المعلم بعد
لحظات :
ــ « انت فى ضيقة ؟ » .
ينفى ، ابدا ، ابدا .
يدس فى يده خمسة جنيهات
« فك عن نفسك يا رجل ، ويوم الخميس الفرج ان شاء
الكريم .. »
يقول المعلم مبتسما ، مودعا ، مطمئنا ، فما أرق ملامحه وقتئذ .
ــ « لا تنس المرور على الدكان صباحا . »
مساء الخميس جاء ، اشار المعلم الى سبعة اشخاص ، هل
يفضل الجلوس مع الدولاب أو بمفرده ؟ ، انه لا يعرف أيا منهم ،
ينزوى فى ركن قصى متابعا الداخلين والخارجين ، الصامتين ،
المتحاورين ، فى ساعة متأخرة وقبل اغلاق المقهى بنصف ساعة وصل
الحاج ، ممتلئا بالصمت ، ظاهر الجد ، رمى سلاما عاما لم يخص
به شخصا بعينه ، قعد بمفرده ، بعد أن طلب كوبا من القرفة اضافة
الى النرجيلة المعتادة التى تستقر أمامه بمجرد وصوله ، بدأ يستدعى
الدولاب ، يحاور ، يجادل ، يضرب حافة المنضدة بأصبعه ، وربما
يرتفع صوته ، لم يحن دوره الا فى النهاية ، لم يحص النقود ، مدها
الحاج اليه مضمومة ، ملمومة ، كأمر مفروغ منه ، لا يقبل نقاشا
ولا يحتمل جدلا ، عاد الى مقعده ، لم ينصرف مباشرة كأفراد الدولاب
الآخرين ، رغب فى كوب من الشاى ، وعندما اعاد الجنيهات الخمسة
الى المعلم دعا له بطول العمر ، فابدى الرجل تأثرا ورقة ، ربت
كتفه ..
ــ ربنا يفتحها فى وشك .
فارق المقهى وعنده رضى وفضول ، لم يكن يعرف مقدار
مكافأته ، توقف تحت مصباح ناء ، المبلغ اقل مما قدر وتوقع ، يكفى
حاجته بالكاد ، لا يقابل أبدا مقدار ما يبذله من جهد وعناء ، هل
يجادل الحاج فى الامر ؟ ، هل يفاتح معلم المقهى ؟ ، يبدو له هذا كله
عبثا ، لا جدوى منه ، لو أن الظروف ساعدته ، لو تمكن من افتتاح

محل صغير ، ليس فى وسط المدينة ، فى اى منطقة بالمدينة لكن .
دكان كهذا يقتضي مبلغا هائلا لابد ان يدفعه فى البداية .. من أين له به؟
لو امكنه ان يعمل ويوزع بنفسه ، لكن من له بالدروب ؟ من يدله
على بدايات السكك ؟ ، كان يلف المدينة شارعا شارعا ودربا دربا
ويعود فى الاغلب الأعم بما خرج يحمله من بيته ، انه فى ضيق ، أما
ما حزن من أجله ، وما رثى لذاته بسببه ، فتوارى مشروعه لاتمام
تعليمه ، كان والده يرقبه منكبا على اللوحات ، يدعو له ، وينبهه
الى ضرورة نزوله الطريق ليمشي ، ليفرد جســـمه قليلا ، ليخرج الى
الضوء ، ليريح عينيه ، ليسرى عن نفسه ، مرة او مرتين فاتحه فى
موضوع دراسته ، ماذا عن تلك المدرسة الخاصة ؟ ، قال ان الأمر
سيتم ، لكن بعد استقرار الاحوال قليلا ، يريد أن يتبين راسه من
رجليه ، غير أن داخله كان مشغولا بالرغبة فى امتلاك محل ، افتتاح
دكان ، وليس طموح انهاء مراحل دراسته ، أن يكون مقره بيده هو ،
يخط ما يحب ، ويرسم ما يرغب ، ما يفضله هو ، لا ما يريده غيره ،
يبدع ما يهوى ، لا ما يطلبه السوق ، أن اقتراب يوم الخميس يثير
عنده مشاعر متنافرة ، بقدر ما ينتظر استلام ما يستحقه ، بقدر
ما هـذا الانتظار الطويل المتعمـد ، ان أكتاف الرجال لتنـوء ،
وان رقابهم لتميل عبر انتظار كسير كهذا ، مرة اتصل المعلم قبل
الموعد المحدد لاغلاق المقهى بدقائق ، أخبر باضطراره الى تأجيل الموعد
حتى غد ، انصرف الدولاب ، استفسر منه معلم المقهى عما اذا كان
يحتاج مقدارا من المال ؟ ، شكره وأعرض عن طلب مليم واحد مع
أنه كان فى حاجة ، انصرف مثقلا وعنده غبن وهم ، فى هذه الليلة
تردد داخله ما لم يدر حتى راوده اول مرة ، اتضح عنده ما لم يتصور
انه شارع فيه يوما ، وفى الايام التالية بدأ يعد العدة ، لم يخبر أباه ،
لم يخبر أمه ، أو أحد أصحابه ، حتى لو اراد أن يفضى الى قريب
أو حميم ، فالى من يسر ؟ والى من يحكى ؟ ، زملاء المدرسة مضوا
فى مراحل تعليمهم ، ما كان يجمعه بهم ولى ، فى المنطقة التى يقطنها
لم يقم علاقة حميمة ، ان عمله يلتهم الجانب الاكبر من وقته ،
وعندما يثقله الضيق ، وتحدق به الوحدة يمضى الى مقهى قريب فيه
جهاز للتليفزيون ، يمكث مقدارا من الوقت ، وفى الاعم يكون شاردا
عما يتتابع أمامه من مشاهد ، أرضه قلقة ، وجسوره منقطعة ، والاتى
عنده غامض ، ضبابى ، امره مشوش حتى ليغض البصر عند لقائه

بخديجة ابنة جارته اذ تلتقى به أثناء خروجه من البيت أو عند عودته ، خديجة سوداء العينين ، طويلة الشعر ، حصلت على دبلوم تجارة ، تعمل مؤقتا بائعة فى متجر للملابس الداخلية بالموسكى ، تنتظر الالتحاق بوظيفة فى بنك او دائرة حكومية ، أو احدى هذه الشركات الحديثة التى تمنح أجورا سخية ، انه يولى الوجه ، يشيح ويتجاهل ، ماذا بوسعه أن يقدمه ؟ على اى شىء يقيم الوعود ؟ حتى ملابسه لا تستر اذا رغب فى الخروج بصحبتها ، المشى بحذاء النيل ، أو الايواء الى ركن فى حديقة شاحبة ليبثها ويفضى ، اذ تلح عليه فورات الجسـد ونشيش الرغبة ، يعالج الامر ، يستدعى الى ذهنه صورة امرأة رآها فى الطريق ، أو نظرات خديجة الخمرية وما تثيره ، أو يمعن البص الى صورة ممثلة شبه عارية ، يكفى ذاته بذاته ، حتى يهدأ ويهجع .

أحيانا يطبق عليه الحال ، تنتابه رغبة فى الهجاج ، خاصة عند نزول الليل ، يخرج قبل اكتمال الغروب ، يستسلم لحركة الطريق فيمضى الى حيث لم يقصد ، عيناه مجهدتان ، وآلام تخز عنقه ، يرجعها الى طول انحناءته ، فى ميدان السيدة زينب زحام ، الناس كثر لكنه بمفرده ، كأنه لا يرى أحد ، فى المقهى سمع عن بعض ممن سافروا ، منادى السيارات الذى سافر الى دولة نفطية وعمل نقاشا ، ثم تقلب فى مهن شتى حتى عاد ميسور الحال ، يجيىء راكبا عربة ، يوقفها ، ينزل متمهلا ، يمسك حلقة المفاتيح المعدنية ، يدخن النرجيلة بهدوء ، يقال أنه أصبح من تجار العملة ، سمع عن أحدهم ، كان عاملا فى مطعم قريب ، يقلى الباذنجان والطعمية ، ادخر ما ادخر وسافر ، هناك أصبح مالكا لمطعم صـغير ، يجيىء كل سـنة محملا بالهدايا صاحب المقهى اقترب منه اكثر من مرة :

ــ « لماذا لا تجرب حظك .. »

يتطلع اليه حائرا :

ــ « أنا خطاط يا حاج .. »

مرة لوح الرجل بيده :

ــ « اعمل أى حاجة ، انا كان عندى صبى هنا وراح ، كان اذا أحدهم سأله عن عمله ، يقول له ، انت ماذا تريد ؟ ، فاذا كان المطلوب مبيضا أجاب ، واذا كانت الحاجة الى مبلط لبى . »

ثم يشير اليه الحاج :

ــ « أما انت .. فتعرف ما لا يقدر عليه غيرك .. »

ليلة من ليالى فبراير الباردة ، اقتنع بما فكر فيه ، بما لم

يتخيل انه واقع يوما ، ما يحصل عليه يكفيه بالكاد ، لو انه ادخر ما يتسلمه من المعلم لمدة عشرين سنة بدون أن ينفق مليما واحدا ، فلن يتوافر له ما يمكنه أن يدفع مقـــدما لحجرة أو خلوا لركن يمكنه أن يبدأ فيه حياته مع خديجة أو غيرها ، اذن .. فلتكن غربة قسرية ، يدخر ما يمكنه ويرجع ، استبدت به الفكرة ، احكمت الحوطة عليه ، بدأ ينظر الى عمله مع الحاج على انه مؤقت ، لم يطلع حتى الأقربين على نواياه ، ادخر ما ادخر ، واقترض ما اقترض ، وبذل الجهد المضاعف وعندما اكتملت قيمة التذكرة ، وخرج من مكتب شركة الطيران الى الطريق تطلع الى البنايات فغامت عيناه ، ومر بالنواصي فكأنه لن يراها مرة أخرى ابدا ، وعندما عبر ميدان السيدة متجها الى مسجد ابن طولون كاد ينوح ، كأن ما تبقى له من أيام هنا كل ما سيقضيه في هذه الحياة الدنيا ، كأنه يقف على شفا جرف سحيق وثمة من سيدفعه فجأة ، فى عصر هذا اليوم صارح أمه وأباه واخوته ، اصغوا واجمين ، لكن لم يبد أحـدهم اعتراضا ، حتى والده لزم الصمت ، برر ذلك لنفسه بأنه زين لهم الظروف ، فلم يقل لهم انه ماض الى مجهول ، وانه قاصد باب الكريم ، بل اكد ان عملا ينتظره وسكنا مع صحب سبقوه ، وانه سيرسل من هناك ما يحتاجون اليه ان صيفا أو شتاء ، كما انه سيجيء على الاقل مرة فى كل سنة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، ما ضاعف شجنه تطلع أمه الصامت اليه ، كأنها تتزود منه ، وتتملى من قسماته ، ولكم كان راغبا فى الاطلاع على ما يدور داخلها ، أى لحظات تسترجعها ، ما اثقله اهتمامها به ، بطعامه ، حتى انها نزلت السوق القريب واشترت سمكا ، هي تعرف أنه الطعام المحبب له ، ابدت همسة عالية فى طهيه ، وعندما جلست على مقربة منه طلب أن تشاركه ، كذا اخوته .

ـ « يعني آكل لوحدى ! »

قالت ان نفسها مسدودة ، أما الاخوة فيفضلون الطبيخ ، عندئذ تراجع .

ـ « طيب .. لن آكل .. »

اقدمت ، واقدم الأشقاء ، غير انه لاحظ تمهلهم ، حرصهم على أن يدعوا له النصيب الأوفى ، ضايقه ذلك ، لكن لم يكن بوسعه تبديل الأمر ، وفى احدى الليالي خيل اليه ان امه تبكى ، أصغى الى نهنهة مكتومة ، وعندما تقلب فى فراشه كفت ، حتى خروجه من البيت قاصدا المطار حرصت الا تبدى امامه ضيقا ، أو غما ، كان يدرك

ان ابتسامتها تلك وليدة جهد جهيد ، أما والده فلاذ بسكون ، واستجاب لالحاح ابنه الا يصحبه الى المطار ، كان يعول هم الأب ، كيف سيرجع من المكان البعيد ، حتى وصوله الى ناصية الحارة التفت مرات سبعا ، ولوح بيده ، وهم بالرجوع ، لكنه لم يعد ، وكانت امرأة عجوز كليلة البصر تقف أمام الفرن القديم تبيع أحيانا الليمون ، سمعها تقول ..

ـ « تروح وتجيء بالسلامة يا بنى .. »

اعلموا يا أفاضل ، يا كرام ، أن وداع هذه المرأة التى لا تمت اليه بصلة ، ونطقها الواهن لتلك العبارة ، نكأت عنده جرحا ، وهدمت ساترا أخفى خلفه ما انتابه ، وما اجتاحه وجهد حتى لا يبدو منه شيء على مرأى من والديه هذا ما عرفته من حال هؤلاء القوم ، أمه تدارى حتى لا تؤلمه ، وهو يخفى حتى لا يزيد حملها ، حتى اذا خلا كل بنفسه ونأى عن بصر الآخرين باح بما عنده ، واظهر ما خفى من أمره ، ولكن لذاته هو ، شفقة ومحنة على محبيه ، ظل صوت هذه المرأة العجوز يتردد عنده ، حتى اجتيازه بوابات الرحيل ، وطلب منه الشرطى ابراز جواز سفره وبطاقته ، بعد أن تفحصهما وقارن الصورة المثبتة بملامح الوجه الصامت المتطلع اليه بنظر ثابت ، كأنه يقول ، لا تدرى ما مررت به حتى وصولى هنا ، حتى وقوفى بهذه اللحظة ، حتى اقدامه على المغادرة ، حتى انخلاعه من البيت ، والحارة ، والحى ، والبلد ، ووالد وما ولد ، متى سيطأ هذه الارض مرة اخرى ؟

عندما اقترب من باب الطائرة لم يواته الفرح الذى طالما تخيله طفلا ، ثم صبيا ، يتطلع حالما الى الطائرات التى تعبر سماء المدينة ، ابدا ، بل التفت متشبثا بكل ما تقع عليه عيناه ، مبنى المطار ، العربات المتباعدة ، السماء الغمامية ، الجنود الواقفين ، العاملين بالمطار ، كل منهم سيصبح الليلة فى سريره ، فى بيته ، بين من يحب ومن يعرف ، وعندما تطلع من النافذة الدائرية الى الارض والمعالم التى راحت تتضاءل بسرعة ، بدا كأنه أودع ما مضى وما كان جوف هذا الثرى .

جال فيما حوله ، اعتصم بالحديث الى من يجاوره ، صعيدى من سوهاج ، فى البداية كان حذرا ، يومىء ، وعندما نطق اقتضب الجواب ، غير أنه سرعان ما وثق وأنس ، فحكى عن عياله ، وقيراط الارض الذى باعه ليوفر ثمن التذكرة ، مبلغ من المال قسمه ، نصفه لامرأته ، تدبر به أحوالها حتى يتيسر أمره فى الغربة ، ومقدار آخر

قليل اخذه معه يتدبر به ، قال انه سينزل على قريب له ، اخرج من طيات ملابسه ورقة مضمومة ، ملمومة ، فردها ، طلب منه أن يقرأ العنوان مرة أو مرتين ، ردده بصوت مسموع ، كأنه يستوثق من حفظه ، من يدرى .. ربما فقد الوريقة لسبب ما ، طواها وخبأها في مكمنها الامين ، ثم استفسر فجأة عن مقصده ، وعن بلدته ، ومهنته ، فقال انه يقصد البلد ذاتيا ، وانه قاهرى المولد والنشأة ، يعيش على مقربة من السيدة زينب ، وانه خطاط ، وانه على باب الله ..

قال الرجل الصعيدي ..

ـ شاء الله يا سيدة زينب ..

ثم صمت ، بدا حائرا ، لا يدرى ماذا يقول ، كأنه يتمنى تقديم مساعدة ما ، لكن ليس فى اليد حيلة ، قال أخيرا ..

ـ الله سيكرمك ..

جاوبه مستسلما ، قلقا ، آملا ..

ـ « كله على الله .. »

مع بدء هبوط الطائرة ، وثقل السمع ، قدم اليه الصعيدى استمارة الجوازات رجاه أن يكتبها له ، تبعه ثان وثالث يجلسان فى المقعد المجاور ، خيل اليه ان كلا منهم يعرف وجهته عداه ، لا يدرى كيف جرى التقارب وتم بين ثلاثة لم ينتبه الى وجودهم فى الطائرة ، هم مثله ، ينزلون البلد أول مرة ، وما من ارتباط مسبق بعمل ، الوضعية متشابهة ، لذا وقع تآلف ، وتقارب ، فكأن كلا منهم يلوذ بالآخر ، بعد انتهاء الاجراءات ، وتفتيش الحقائب ، وتقليب محتوياتها والطرق على جوانبها ، وتمرير جهاز صغير يحدث أصواتا متقطعة ، بعد فرد ملابسه ، حتى الداخلية منها ، واستبعاد رغيفين ، ودجاجة أصرت الأم على اعدادهما له زادا للطريق ، بعد التحديق فى الملامح ، التنقيب فى شرود العينين ، وسبر غور النظرات ، ومحاولة استكشاف مدى الحزن البادى وسره ، بعد التطلع بريبة ، ثم بقسوة ، ثم بعدوانية سافرة ، السؤال عما اذا كان معه رسائل ، أو شرائط تسجيل ، أو كتب ، او مجلات ، بعد تقليبه يمينا وشمالا ، قال الموظف بلهجة طرد ، اوسب ، « رح .. » .

رتب محتويات حقيبته القليلة ، مضى فى الاتجاه الذى يشير اليه سهم الخروج ، قرب البوابة ذات الجهاز ، فوجىء بجندى يرتدى غطاء رأس أحمر ، يصيح به ، يأمره ان يتوقف ، تحسس ثيابه ، مرر جهازا صغيرا مستطيلا على ظهره وبطنه ، أمره باخراج ما فى جيوبه

آن يخلع نعليه ، وجوربه ، ضغط موضع امعائه ، ودأس عليه من دبر ، ولما سأله واستفسر جاوبه بنظر خشن ، وتهديد خفي ، فيما بعد عرف أنهم يحجزون البعض ، يدخلونهم فرادى الى غرف مغلقة ، يجردونهم من ثيابهم ، يصبح الواحد عاريا كما ولدته أمه ، يأمرونه بالانحناء ، يتفحصون الاست ، والحجة أن البعض يدس أنابيبا من بلاستيك فيها ممنوعات ! ، لم يجر هذا له ، بعد لحظات قال الجندى ..

ــ « رح .. »

لحظة تأهبه للمغادرة ، لمح في الصالة الداخلية التي يفصله عنها زجاج بعض من صحبوه ، من جاءوا معه على الطائرة ، يقعدون القرفصاء في الصالة الداخلية ، ينتظرون أمرا ما ، راى جاره السوهاجي ، مضى منقبضا ، كدرا ، خرج الى الساحة الفسيحة . طالعه في الواجهة اطار هائل يتطلع منه وجه زعيم البلاد ، ملامح قاسية ، صارمة ، كأنها تتفحص القادمين ، أما الخط الذي كتب به الشعار تحت الصورة فردىء ، خلو من تناسق ، لا يتبع قاعدة وقفت بمفرده ، غريبا ، لا ينتظره أحد ، ارض يطؤها لأول مرة ، رائحة لم يعتدها ، مزيج من عناصر شتى ، برغم تعدد المصابيح ، وتناثرها على مسافات متقاربة ، فان العتمة مخيمة ، طاغية .

متى سيجىء الى القسم الآخر من المطار ليعبر بوابات العودة ! لا يدرى ..

يبدو الأمد ممتدا ، والوحشة غالبة ، يجهل ما ينتظره وكأنه يدرك لأول مرة أنه غريب ، بعيد ، ناء عن كل الف ، وانه كان مشمولا برعاية غير منظورة ، أما الآن فانه مجرد من كل ما احاطه منذ مجيئه الى العالم ، بعيد عن كل ما اعتاد عليه ، في لحظاته الاولى تلك حن الى صاحب المحل ، الخطاط ، الطيب ، قديم الهجرة ، استعاد استغراقه في اللوحات ، والحيوية المتدفقة عبر كيانه الضئيل اذ يستعيد ذكرياته القديمة ، وسمى نظرات عينيه عبر الايام المولية ، عطفه وحنوه عليه ، تذكر صمته النهائي فوق المقعد ، احتضاره الهادىء الذى شهده بعينيه .. حن الى أبيه ، وصمته المضطر اليه ، وقلة حيلته البادية في الايام التي يقضيها بطالا بدون عمل .

لم يكن يدرى كيف الوصول الى المدينة ، لم يقترب منه احد السائقين ليسأله عما اذا كان بحاجة الى عربة ، كأنهم بما لديهم من خبرة يدركون الى من يتجهون ، في مثل هذه الظروف تعمل الغربة

عملها ، انس اذ لمح هؤلاء الثلاثة الذين صحبوه فى الطائرة ، ينزلون البلد مثله أول مرة .

الأول قال انه سائق وميكانيكى ، جاء قاصدا أحد أقاربه ، لكنه لا يقيم فى العاصمة ، انما فى مدينة نائية من مدن الجنوب ، لابد من قضاء الليلة هنا ، ثم متابعة السفر فى الصباح .

الثانى مهندس زراعى ، بدا حريصا عند التعريف بنفسه أن يقرن لقب المهندس باسمه ، قرأ وسمع عن المشاريع العديدة هنا ، معه رسالة توصية الى شخصية ذات نفوذ ، لا يمكن الافصاح عنها ، تقيم فى الشمال ، لابد أن يقضى الليلة هنا ثم يسافر غدا ..

الثالث ، قال انه اسكندرانى ، جاء ليجرب حظه ، ليجمع قرشين ، ثم يسافر الى اى بلد أوروبى ، وما هذه البلدة الا أول محط فى طريقه ، معه عنوان مقهى يقصده بعض أبناء بلدته ، ضحك ، قال انه قادم وعينه أيضا على النساء هنا ، تعجب المهندس الزراعى ، التقاليد شديدة هنا ، ضحك الاسكندرانى ، هذا فى الظاهر ، ولكن خفية يحدث ما لايمكن تصوره ، والمصريون هنا مرغوبون ..

سألوه قال انه خطاط .

أبدوا شفقة .

وماذا سيعمل الخطاط هنا ؟ ، اى رزق سيجيئه من مهنة كهذه ؟ ثم كيف يجيىء ولا معارف له ؟ .

قال انه سيحاول ، فاذا فشل فى العمل كخطاط ، يمكنه العمل فى أى مهنة ، عندما كان تلميذا عمل شهور الاجازة الصيفية فى ورشة لاصلاح الاطارات ..

قال المهندس الزراعى ان هذه خطط طويلة النفس ، المهم الآن .. وصوله الى المدينة ، مشى فى أثرهم ، اقترابه منهم طمأنه ، خاصة فى اللحظات الاولى التى يصعب فيها كل أمر ، لم تكن هناك عربات عامة تربط المطار بالمدينة ، عاد الاسكندرانى ليقول انه اتفق مع سائق عربة أجرة ، وان هذا هو الحل الوحيد للوصول الى المدينة ، البقاء هنا فيه مخاطر ، بلغ نصيبه من أجرة العربة ثلث ما معه ، ما جاء به ، اى انتقاص من نقوده يدنيه من لحظة حرجة يرهبها ويخشاها لمجرد التفكير فيها ، لكن .. ما باليد حيلة ، لا مفر .

الليل غميق ، لا يتيح له رؤية العالم ، تبدو المدينة متوارية ، البيوت واطئة ، طابق أو طابقان ، يلمح حدودها الخارجية ، ما من مبان مرتفعة ، اعمدة المصابيح متباعدة ، تتلألأ القاهرة الان ، تشع

بفى راسخ ، السائق يغطى راسه بطرحة بيضاء ، لم يلفظ حرفا ، كما أن أحدهم لم يتكلم ، ربما لشعورهم بوجود غريب ، مع أن كلا منهم لا يعرف صاحبه الا منذ دقائق ، الطرقات مقفرة على المدى ، ميدان السيدة فى أوجه الان ، محلات الفطير ، والكباب ، والدخان المتصاعد ، وباعة الفاكهة عند النواصى ، ورائحة أنس لهـا لطول ما اعتادها ، عبق قادم من عصور متوالية ، لا يدرك بالوعى ، انما يحس ، لا يفسر ، ينفذ الى الوجود اللامرئى ، فما انأى المسافة ، ما أصعب الشقة ، ما اوعر الوقت ! ، لسبب ما الح عليه وجه خديجة جارته ، تطلعها المخملى اليه ، خفرها ، وسنها ، وحياؤها الشرعى ، اين هى الان ؟ ، يستعيد ما يحول بينهما ، ويعى بقسوة أنه قصى ، انه بعيد !

توقفت العربة امام الفندق ، مرة اخرى شم تلك الرائحة الثقيلة ، زخم شهوانى غامض ، فيه دهون ، وبقايا شـواء ، دم وقسوة ، مدخل الفندق مطل على بداية زقاق ضيق صاعد ، أما الشارع الرئيسى فخال ، الدكاكين مغلقة ، النوافذ لا تشى ، لا تفصح عن أى ضوء ، ما من شرفات ، الليل لم يوغل بعد ، ما من وقوف عند الناصية ، ما من مقاه عامرة ، غير ان ما لفت نظره ، ما اثار انتباهه ، ما اخذه عن القفر والوحشة ، رؤيته هـذا العدد من اللافتات ، لافتات قماشية معلقة تصل جانبى الطريق ، تتوالى على مسافات متساوية ، متقاربة ، لافتات ممتدة بعرض الواجهات ..

قال حسن هذا !

ثمة فرصة ، بل وكبيرة ، العبارات متشابهة ، تعلن الترحيب بضيوف المؤتمر الثالث للشرطة العربية .. مؤتمر كهذا تعلق من أجله هذه اللافتات كلها ، وأين ؟ فى منطقة شعبية لن يعقد فيهـا اجتماع واحد ، ولن يزورها أعضاء المؤتمر بالقطع ، ماذا عن منطقة انعقاد المؤتمر ، بل ماذا عن الاعياد والمناسبات ، غير أن ما طمأنه ليست هذه اللافتات ، بل اخرى تعلن عبارات التأييد والترحيب والتهنئة بعودة زعيم البلاد المفدى من زيارة المنطقة الجنوبية ، مجرد عودته الى العاصمة اقتضى هذا ، فكيف الحال عند عودته مـن الخارج ، أو عند احتفاله بمناسبة ما ؟ ، موجات متتـابعة من اللافتات ، انها تحمل له البشارة ، هذا باب للرزق ومجال فسيح ، ماعليه الا الاستدلال على الطريق المؤدية ، أن يقف ببابه ، يطرقه طرقا هينا ، لطيفـا ، ثم .. يقرعه بكل ما أوتيه من قدرة ومهارة .

فيما بعد استعاد الليلة الاولى ، تمدده فوق حشية مهترئة ، الى جواره رفاق سفره الثلاثة ، الحجرة بدون نوافذ ، فقط .. فتحة مربعة في الجدار المطل على الممر ، في الخارج ، امام الغرفة فرشت سجادة بالية ، تمدد فوقها رجل سوداني نحيل جـــدا ، طويل ، كان يئن طوال الليل ، ينبعث منه ضني مكتوم ، وعلامات تعب ، والم حاد .

برغم ارهاقه ، تعب السفر وتوتره في المطار ، وحنينه الممض الذي يبلغ مداه في اللحظات الاولى لبدء الاغتراب ، فيتشـــابه مع الشوق الذى ينضـــج ويكتمل بعد طول المدة وتوالي الفترة اثر الفترة ، برغم الكمد لم ينم ، ايضا بسبب شخير الصحب ، وقرص حشرات غامضة ، وحضور المكان الغامض الذى لم يالفه ، وارتفاع حوار حاد في الطابق الاول قرب الفجر ، اصغائه متفحصا لهذه اللهجة غريبة الايقاع ، الخشنة ، بسبب كتمة النفس ، لم ينم .

لن ينسى الليلة الاولى ابدا !

عند طلوع الصبح اغفى قليلا ، غسل وجهه بالماء البارد ، لم يكن لديه صابون ولا في الفندق ، عند خروجه الى الزقاق ، ثم الى الطريق ، فوجيء بكثافة الحركة ، بالزحام ، كأن الشارع نهـــارا غيره ليلا ، أما ضوء النهار فساطع ، سماء حادة ، قوية السطوع ، شديدة القرب ، بدأ سعيه مؤجلا افطاره حتى الحادية عشرة على أن يتناول غذاءه في الخامسة بعد الظهر ، هكذا يمكنه توفير وجبـــة ، أفضل الطعام في ظروف كهذه ما يثقل المعدة ويلكمها ، ما تبقى لديه ضئيل ، وهو غريب ، وحيد ، بعد تفرق من تعرف بهم ، راح كل منهم الى حاله ، دله المهندس الزراعى ، قبل سفره الى الشمال ـ على مقهى قريب يلتقى فيه المصريون ، مقصد من يبحث عن عمل ، أو وظيفة ، أو عون .. برغم قلقه وتخوفه من اقتراب المساء ، من قدوم الغد ، أو بعد الغد وهو على حاله ، الا أنه لم يكف عن قراءة اللافتات ، ورصد كثافتها ، وضح وثبت ان كل متجر صـــغر او كبر ، كل مصلحة او منشأة تعلق عدداً من اللافتات ، واحدة للترحيب عند المدخل ، واخرى بعرض الطريق لتأييد زعيم البلاد او ابراز جملة من مأثور قوله ..

لن ينسى يومه الاول أبدا ، وحشته وغربته ، فالبدايات لاتغيب عن الذهن ، وما يليها تندغم تفاصيله ، وربما يقضى الانسان حولا كاملا في مدينة ، واذ ينقضى الزمن ، لا يعلق بوعيه الا يوم الوصول ،

ويوم المغادرة ، وبدايات أهم ما مر به والنهايات ، هكـــذا عرف المقهى ، حيث يفد أبناء موطنه ، عرف الانتظار ، والقعدات الطويلة ، وشرود الفكر وتيه النظر ، والمشاركة فى حوارات لاتعنيه ، الاقتراب ممن لا يعرفهم ، الاصغاء الى وعود مبهمة ، التطلع الى ما سينطقه مجهول عنه ، البعض أبدى شــــهامة ، وتعاطف وصـــادق رغبة فى المعاونة ، فمنهم من أقرضه ، ومنهم من أسدى اليه نصـــحا لانه ســبقه المجيء الى تلك الديار وخبر أحوالهـــا ، ومنهم من اقتســم معه لقمة وغموسا هينا ، أحدهم دله ، بل توسط له عند صاحب مقهى آخر قديم ، هكذا شاء حظه أن تكون البداية من مقهى .

انه مقهى عتيق ، يقع بأرض خلاء ، مبناه على الطراز القديم ، تحيطه حديقة أشجارها قصيرة ، تتوزع فيها دكك خشبية بيضاء ، يقعد فوقها بعض الرواد صامتين ، يحملقـون الى الفراغ ، وفى الاغلب الاعم لا يتحدثون ، يشربون الشاى ، يدخنون النرجيلة ، وشـبان يلعبون الورق قرب الطريق ، وقلة من اجانب يعملون فى البلاد ، يجيئون للفرجة على أدوات الشاى التى تنقرض من سائر المقاهى الاخرى ، وفناجين القهوة العربية ، والنرجيلات ، وأثاث خشبى من بقايا بيوت اندثرت ، صاحب المقهى بدين ، يقعد فوق دكة مرتفعة ، يدخن نرجيلة نحيلة ، لايقربها الا هو ، وعلوّها زجاجى من كريستال ملون ، منمنم ، أنثوية المظهر ، تمباكها غزير ، جمرها شـديد . أما « اللى » فطويل ينتهى بمبسم عاجى لا يفارق فمه ، يظل على مقربة من شفتيه اذا نادى أو تحدث ، بين الحين والحين يزعق :

ـ « ولد .. »

لا يسبق نداءه بحرفى « يا » ، حتى اذا ما لبى احدهم أشار صامتا الى الجمر الوشك على همود ، يتابع ما حوله صامتا فاذا غربت الشمس فارق مقعده ، انتقل متمهلا الى الجهة المطلة على الحديقة المتسعة ، واستقر فى مقعد من خيزران على مقربة من الاشجار العتيقة .

كان يرقب نزول صاحب المقهى من فوق دكته ، يبدو خفيفـا فى ســـعيه ، رغم ضخامته ، وجهه خلو من أى علامات ضـــيق نتيجة قعاده الطويل وانثناء ساقيه تحته ، لم يتصور أنه قادر على اتخاذ هذا الوضع لعشر دقائق فقط ، يعجب من سهولة انتقاله من وضع الثبات الى الحركة ، بعد لحظات من استقراره فى مكانه الغروبى ،

يرتفع صوته على مهل ، غناء عميق ، بالغ الحزن ، حزن مخدوش ، أساه بعيد الاغوار ، سحيق ، يتحلق حوله بعض من رواد المقهى ، يصغون صامتين ، يبدون تأثرهم ، غير انه يبدو قصيا ، هو فى ناحية ، ومستمعوه فى ناحية أخرى ، لو انصرفوا اجمعين لا يكف ولا يتوقف ، وربما تزايد جمعهم ، وتعاظم شجوهم ، وفى غمرة الترقرق والانفعال يكف فجاة ، يميل راسه حتى تلامس ذقنه صدره، عندئذ لايمكن لالحاح او رجاء او قوة أيا كانت أن تدفعه الى استئناف الغناء ، عرف عنه هيامه بأم كلثوم ، وحفظه لادوارها واغنيـــاتها القديمة ، وجمعه لاسطوانات نادرة صار العثور عليها صعبا ، حتى ان اذاعة البلاد استعارتها منه لتسجيل ما تتضمنه ، لم يامن .. فحمل اسطواناته مضمومة الى صدره كالوليد ، وانتظر قلقا حتى انتهاء النقل والتسجيل ، أما اذا تحدث عنها فيلزم الاصغاء اليه ، وهو يصف صوتها ، وطبقاته ، ودرجاته ، وكمون نبوغه ، ويقال ان له الحانا لم يطلع عليها احد قط .

فى الثامنة ينصرف القوم ، غير مسموح بالسهر بعد الثامنة واثنتى عشرة دقيقة ، قبل الموعد تطفأ نار الركوة ، تجمع النراجيل ، تصف فوق الطاولة الرخامية ، يتابع صاحب المقهى الحركة بعينين قلقتين ، مع اقتراب الموعد يمد الخطى ، بينما تتبـــاعد ذراعاه السمينتان ، يتطلع الى الساعة المعلقة الى الجــدار ، الى ساعة معصمه ، لابد من اقفال الابواب تمام الثامنة واثنتى عشرة دقيقة .

فى المقهى خمسة عمال ، اربعة مصريون ، وخامس يمنى ، يستوثق من وجودهم ، يدخلهم المبنى ، يدفع مصراعى الباب الرئيسى يؤكد انه كان باب القصر الكبير فى الزمن العثمانى ، وانه اشتراه بدراهم معدودات عند بيع انقاض قصر أقامت فيه زمنا احـدى العائلات المتنفذة التى صالت وجالت زمنا ، ثم تفرق شمل أفرادها ، ولم يعد يقيم منهم شخص واحد فى البلاد بعد هجرتهم واحدا اثر الاخر ، يخرج من ثنايا صديريته مفتاحا كبيرا يديره ثلاث مرات ، له طرقعة وضجيج ، يدفع الباب بكتفه حتى اذا اطمأن انصرف مبتعدا ، هذا شرطه حتى ينـــاموا فى المقهى ، النــوم هنا يوفر لهم أجرة المبيت فى الفندق ، كان باستطاعته الاستحمام فى دورة المياه ، أن يطبخ مع صحبه ايضا ، أحدهم شاب قصير القامة ، كبير الراس ، تجاوز العشرين بعامين ، صعيدى ، ولد وعاش فى قرية قريبة من بنى

سويف ، أبوه فلاح أجير ، يعمل بالكراء فى أراضى الاخرين ، رزقه يوم بيوم ، غير انه جاهد وثابر ، وادخر من قليله حتى تخرج ابنه فى مدرسة الصنائع ، آثر الابن أن يعوض حرمان والديه وتعبهما وضناهما الطويل من أجله خيرا ، فسعى ، أدخر ، واقترض ، حتى اغترب ليجمع قرشين ويرجع فيريح أباه من شقائه الصعب ، كان ينوى بمجرد نزوله مصرا شراء سرير لوالديه ، ناما عمرهما كله فوق الارض ، انه صموت ، حيى ، هادىء ، لا ينطق الا اذا سئل ، وفى غير أوقات العمل يتمدد محملقا الى السقف ، يؤدى اى عمل يطلب منه ، عنده صبر ، وجلد ، برغم سكونه ، فانه اذا بدأ الحديث عن قريته ، عن والديه ، فان صوته يترقرق ، وملامحه تحن ، يكتب خطابات عديدة يشيعها الى والده ، واذ يتلقى خطابا من مصر ينفرد بنفسه ، يقراه مرات ، ثم ينتابه نشاط ، يروح ويجيء ، يقبل على خدمة الكل ، وقد يلوح بيده الى السماء مخاطبا من يقابله عرضا ..

— « الحمد لله .. الوالدان بخير ! »

انه أقربهم اليه ، كلما أصغى اليه يتحدث أو يخبر عن والديه فكأنه يردد ماعنده ، كأنه عنه يكنى ، واياه يعنى ، يناديه باسما ، « يابنى سويف .. » .

انه الامهر فى الطبخ ، يشترون الخضار خلسة ، كذا اللحم ، يخفونه داخل المقهى بعناية ، حتى اذا انصرف المعلم نشطوا ، بداوا فى اعداد طعامهم ، يدبرون نارا ، يوقدونها بطرق شتى ، يخفون وقيدها ولهيبها ، لو لمح أحد جنود الدورية ضوءا داخل المقهى لوقعت أمور لا يدرى عاقبتها أو مداها ، عند الطرف الاخر من الحديقة ، فى مواجهة المقهى يقع مقر عظيم من عظماء البلاد ، مقرب لزعيمها المفدى ، ويقال انه يجيء ليقضى بعضا من وقته فى هذا القصر ، يتخفف فيه من مسئولياته الجسام ، ويتبسط ، ويلعب رياضته المفضلة ، التنس ، أوقات تردده غير معروفة ، مجهولة ، عربات الدورية المسلحة لا تكف عن الرواح والمجيء ليلا ونهارا ، أحيانا يتطلعون الى أسواره البادية ، ماذا يجرى هناك ؟ ربما يكون موجودا الان ، لكن لا يعلق أحدهم ، ولا يلفظ تعليقا أو دعابة ، فقط عندما يغلق عليهم باب المقهى ، ينعزلون تماما عن الخارج ، حتى اذا جاء أحدهم بسيرته خفض من صوته ، وتحوطا لا يذكرونه باسمه ، بل اطلقوا عليه اسم فريد شوقى الممثل الشهير ، ان حذرهم لشديد ، فالاحوال هنا غير ماعهدوا ، وما عرفوا من قبل ، ان تآلفا

ومودة يسودانهم عند اعداد الطعام ، عند القعاد لتناوله ، اذ يوغل الليل يتمدد كل منهم على دكة خشـــبية مغطاة بالحصر ، الحصر مستطيلة ، تترك الحز اثر الحز فى الضلوع ، غير أن العادة تهون ، تخفف من كل شيء ، يطوى الواحد منهم ملابسه تحت رأســـه كوسادة ، المشكلة فى الايام الباردة ، فثمة نافذة علوية مكسورة : وما من غطاء ، انهم يقربون الدكك من بعضها ، ويوقدون الجمـر لفترة : أما ليالى الحر فمقدور عليها ، أمرها هين .

لا يبدأ العمل قبل العاشرة صباحا ، دائما يستدعى زحام المقاهى القاهرية فى شتى ساعات النهار ، تفتح أبوابها مع بدايات النهار ، تفيض انسا وحيوية ، وكثيرون ممن عرفهم لا يمضون الى اشتغالهم قبل أن يمروا بـ « الاصطباحة » يشربون الشاى ، وقد يتناولون الافطار ، بعضهم يدخن متمهلا ثم يمضون الى سعيهم ، لا .. للمقهى القاهرى ونسة والفة ، هنا رواد المقاهى قلة نهارا ، فى العصر يبلغ الزحام ذروته ، لكل منهم مهمة محدودة فى المقهى ، ما وقع على عاتقه منذ اليوم الاول ، حمل أبريق نحاسي مملوء بالماء المثلج ، وثلاثة أكواب معدنية ، يطوف الصـــالة الداخلية والســـاحة الخارجية ، ينادى :

— « مى .. مى .. »

اذ يصيح أحدهم :

— « و؟ .. »

يلبى ، يبدو النداء خشنا ، جافا ، فيه صيغة الامر واضحة ، فجة ، تعلم الا يبدى ماعنده ، أن يكتم حتى خلوته الليليه ، الوحيد الذى خيل اليه أن ثمة تقاربا نشأ عنده تجاهه ، صاحب المقهى ، ربما لصمته ، لهدوئه الكثيف ، والاهم .. ميله وحبه الغنـــاء ، وصوته الغريب الذى يختزل أحزانا بعيدة ، موغلة ، غير أن وصـــل حبل الود بينهما كان أمرا صعبا ، حوارهما يكاد يكون منعـدما والرجل متلع دائما من المكان ، استمر الامر هكذا حتى عصر ذلك اليوم الذى لم ينسه قط .. رآه يفك القفل الصغير الذى يمسـك به قرص الهاتف منعا لاستخدامه أثناء غيابه ، انه نادرا مايتحدث عبر الهاتف ، واذا تحدث فان صوته المرتفع يسمع من أركان المقهى ، لم يكن يجيب هذا العصر الا بغمغمات وايماءات ، وعندما انتهى بدا مغتما ، ثقيل الحركة ، لم يأو الى مكانه الذى اعتاد ملازمته عنـد

المدخل ، انما طاف الساحة ، واستند مرة أو مرتين الى الباب الرئيس ، تحدث بسرعة الى بعض الجالسين ، واضح انه يستفسر عن أمر ما ، وما من أحد يجيبه ، اذ كان يرتد اكثر هما ، لم يكن قادرا على متابعته ، اذ عليه أن يتحرك هنا وهناك ليلبى طلبات الظامئين ، القيظ وعر ، حر الديار شديد ، اثناء مروره بالناحية المواجهة للنهر فوجىء بزميله البنى سويفى ، الصعيدى ، الصامت يناديه ، ماذا جرى ؟ ، خشى أن يكون اضطراب المعلم ذ. صلة بأحدهم ، وانه سينعكس عليهم ، لاشيء يثبت هنا ، وكل اذى متوقع ، دائما ينتظر الضرر ، غير أن البنى سويفى مبتسم ، ن وجهه يبدو طفوليا عند انفراج ملامحه ، قال :

ــ « ابسط ياعم ، الفرصة جاءتك لغاية عندك . »

دنا منه مبتهجا ، قال هامسا ان أحدهم فيما يبدو كتب تقريرا فى صاحب المقهى ، نبه فيه الى خلو المقهى من لافتات التأييد ، لاتوجد الا لافتة بالية قديمة ، تهنىء زعيم البلاد المفدى بالعام الجديد ، اى عام ؟ هذا مثير طبعا للسخرية ، اللافتة مضى عليها ثلاثة او أربعة أعوام ، أى عام جديد هذا ، مقهى كهذا يقع فى مواجهة مكان يتردد عليه « المفدى » يجب أن يعوم فى لافتات لا حصر لها ؟ ، ربما تطلع الزعيم من الجانب الآخر للحديقة ، ماذا سيجرى اذ يلحظ خلو المقهى ، المبنى الوحيد فى الناحية خال من اية لافتة ؟ ، اما الصورة الكبيرة المعلقة عند المدخل ويبدو فيها مرتديا النياشين والاوسمة والقلائد ، والتى رسمها فنان معروف مقابل مبلغ كبير من المال فلم تشفع ولم تخفف ، باختصار .. صاحب المقهى فى موقف حرج ، اللافتات يجب أن تعلق فى أسرع وقت ، الخطاط المعروف هنا خارج المدينة ، مشغول للغاية ، ولن يفرغ من المطلوب قبل شهر ، ان المعلم فى خوف فظيع ، يخشى وصول خطاب اعتقال مفاجىء اليه .

ان اعتقال الخلق هنا لا يتم فجاة ، لا يداهم رجال الشرطة منزل المقصود فجرا ، لا يذهب اليه أحد ، انما يرسل خطاب فيه قرار القبض ، ويتم تحديد موعد بعد أسبوع ، بعد شهر ، بعد سنة ، وفى الموعد المعين لابد من الذهاب الى الجهة المحددة وتسليم النفس والا لحق الاذى بكل من يمت اليه بصلة ، حدث أن تلقى صاحب متجر فى السوق القديم خطابا ، تحدد فيه اعتقاله بعد شهر ، انتاب الرجل رعب جسيم ، ماذا فعل ، ماذا جنى ؟ انفض عنه كل قريب ، وصار اذا القى السلام لا يجاوبه أحد ، واذا سعى

فى الطرقات يبتعد عنه الناس ، يتحاشونه ، سعى الى جهات شتى ، لم يجاوبه أحد ، مضى الى المركز المحدد لتسليم نفسه قبل الموعد المقرر ، لكنهم رفضوا اعتقاله ، اخبروه بضرورة الحضور فى الموعد المحدد بالخطاب ، ألا يتخلف عنه ، تملكه كرب كمن يعرف تاريخ موته مقدما ، عاف الطعام ، وهجره المنام ، بدأ يذوى ، وقبل الموعد بيومين مال راسه على صدره ولم يعتدل قط ، لم يعرف القوم بموته الا عند مجيء الليل ، لحظة اغلاق المتاجر كلها ، حتى بعد اكتشاف أمره هاب القوم الاقتراب ، فأبلغوا ومضوا ، ان المعلم يرتعد خوفا ..

قال البنى سويفى :

ــ « فرصتك هذه .. امض اليه الان .. »

ضحك صاحب المقهى ، قال :

ــ « يارجل .. ولماذا لم تقل منذ البداية ؟ »

قال انه خاف الا يلحقه بالعمل لو أفصح عن مهنته ، أوشك المعلم أن يقول شيئا ، غير انه عبس مرة أخرى ..

ــ « ما الامر ؟ »

الاسواق ..

الاسواق اغلقت الآن ، من أين لهم بالقماش والاحبار والاقلام ، تساءل :

ــ الا يوجد فى البيت قماش ؟ ملاءات سرير بيضاء حتى ، ستائر ، القماش اهم مافى الموضوع ..

قال المعلم :

ــ هذا ممكن .. لكن الحبر ..

ــ الحبر الموجود فى البيت أسود ، يكتب به الاولاد ، هذا لون ممنوع الكتابة به .

ــ لكن الصيدليات لاتغلق مبكرا ..

تطلع ، آهة ارتياح طويلة ..

ــ « آه منكم يامصريين .. عفاريت ، والله عفاريت » .

اما الاقلام فأمرها سهل ، ما اكثر الخشب هنا ، يمكن تسويته بالمقادير المطلوبة ، هرع المعلم الى بيته ، لم يمض الى قعدته الغروبية هذا المساء ، أما هو فمضى ليخبر زملاءه ، بدوا مبتهجين ، ما سيتم سيرفع أقدارهم فى نظر صاحب المقهى ، مضى الى الخشب يبحث عن قطعة مناسبة ، الثانى مضى الى حيث خبأ السكين ، يقطعون به اللحم ليلا ، ويقشرون البطاطس ، والباذنجان ، الثالث قرب

منضدتين متساويتى الارتفاع ، ضمهما ، وضعهما عند الناحية المواجهة للمقر ، هنا يقل عدد المترددين ، لا يفضلون الجلوس على مرأى من مقر هذا العظيم ، يجلسون بعيدا ، مديرين ظهورهم له ، ربما لكراهية يضمرونها ، ربما لخوف ، لخشية ، الدوريات لا تكف عن المرور ، لو حملق أحدهم تجاه القصر ، لو شردت النظرات ، لو علقت ، وبما أسيىء تفسير الامر ، قال احدهم :

— « أين ذلك من القعاد أمام النيل ؟ » .

المصابيح القوية تضاء قبل اكتمال الغروب ، راح يبرى قطعة خشب ، يسويها ، يرفعها فى اتجاه الضوء ، عند حد معين بدا راضيا ، جاء المعلم لاهثا ، عرقه غزير ، يمسح عنقه وجبهته بمنديل كبير ، تطلع متفحصا ، كل شيء فى موضعه ، القلم ، أدوية معالجة الجروح ، حمراء ، صفراء ، بسط القماش الابيض الذى كان فى الاصل ثلاث ملاءات تفرش الاسرة .

هل يصلح القماش ؟.

طبعا .. القماش ملائم ..

عند الثامنة وعشر دقائق ، قبل موعد الاغلاق الرسمى ، تم تعليق لافتة بعرض المدخل ، الخط الابيض ، الخط الانيق ، ضخم يقرأ من مسافة بعيدة :

« مقهى الزمن القديم يحيى ويؤيد الزعيم المفدى » .

علق بصر صاحب المقهى باللافتة ، دار حولهـا ، وتأمل من جهات مختلفة ، عاد الى صمته ، الا أنه بدا راضيا ، مرتاح البال ، وان لاح انهاك خفى بين ملامحه ، وفى خطوه ، بعد أن اغلق الباب عليهم تابعوه من خلف زجاج النافذة الجانبية المستطيلة ، كأنه تقدم فى العمر فجأة ، شأن من تعرض لمازق عظيم وجاءه الفرج فى اللحظة الاخيرة .. استمر واقفا عند المدخل الخارجى ، رافعا وجهه صوب اللافتة ، ثم استدار متمهلا ، يداه وراء ظهره متماسان ، مضى تلفه الظلال والعتمة .

فى اليوم التالى لم يوزع الماء المثلج ، انما قعد فى الساحة الخلفية يرتب ما اشتراه صباح اليوم من الاسواق ، قماش اللافتـات ، الأحبار ، الاقلام ، الفرش ، الالوان ، عدد من الرواد أبدوا اعجابهم بما فوجئوا به معلقا فوق رءوسهم ، فى كل يوم يجيئون ليجدوا أن لافتة قد اضيفت ، تحمل عبارة من اقوال المفدى ، او جملة ترحيب به ، أو تأييدا ، أو دعاء بالنصر ، ما جذب الانظار وشد الانتباه ،

تنوع اللافتات ، فواحدة من قماش ابيض ، واخرى من قماش اخضر ، أما ما أوقف العابر ، واثار الاعجاب ، ما كان سببا فى قيام المسئول الثورى للناحية بزيارة المقهى فيما بعد ، ومجىء عدد من الصحفيين والمصورين ، فتلك التى امتدت بطول الباب القديم : جملة من اقوال الزعيم ، لكنها صيغت فى خطوط متداخلة : متصلة، منفرجة ، بحيث يتشكل منها وجه لا يمكن للناظر اليه أن يخطىء ملامحه ، لأيام متتالية لم يكف صاحب المقهى عن الشرح ، والاشارة الى الحروف ، وتفسير ما غمض منها ، يزهو ، يتباهى ، يمكن القول أنه راض الآن ، آمن .. وعندما جاء مسئول الناحية ، طاف به ، اشار الى اللافتات ، افاض فى الشرح ، هز المسئول راسه مرات وهو يتأمل اللوحة والحروف العربية التى تحدد ملامح الزعيم فى تشكيل جمالى بديع ، قال انه سيرفع تقريرا الى هيئة الاعلام لعمل الدعاية اللازمة ، لكن .. على وجه السرعة مطلوب عشرون لوحة اخرى مماثلة .

يمكن القول أن هذا كان بداية حظه ، وطلوع سعده ، واشراق نجمه وثباته فى الغربة .

جاء وفد اذاعى : اجرى حوارا مع صاحب المقهى ، تبعه آخر تليفزيونى ، ضرب المذيع باللوحة المثل على طاقات الحب الكامنة فى قلوب الشعب الطيب الاصيل تجاه قائده المظفر .

لم يتحدث اليه أحد ، ولم يدعه صاحب المقهى لمقابلة الزوار المعجبين ولو أن مبدع اللوحة واحد من أهل هذه الديار ، لتغير الأمر ، ومضت الاحوال الى مسار مغاير ، الا ان صيته ذاع ، وامره انتشر ، توافد عليه بعض من رواد المقهى ، واصحاب المتاجر ، وعربات النقل ، طلبوا لافتات مماثلة ، الا انه أبدع فنوع فبهر الآخرين ، تزايد حجم عمله ، واصبحت المساحة الخلفية القريبة من الحديقة تخصه تقريبا ، بدا صاحب المقهى راضيا ، متقبلا ، الا أن الأمور لا تظل كما هى ، والاحوال لا تثبت ، والظروف مهما طالت موقوتة ، لها انتهاء ، ولو لم تكن نهاية لما كانت بداية اصلا ، فبعد اتساع عمله وجريان الرزق بين يديه ، وقضائه خمس عشرة ساعة يوميا منكبا ، تزايدت حاجته الى مكان يخصه ، يريح فيه جسده ؛ أما هذا الحصير فيحدث علامات فى جلده ، وآلاما فى عظامه ، والأدهى ذلك المكان القلق : لم يعد يطيقه ، لم يعد قادرا أن يغفو فى موضع لا يقدر على فتح بابه ؛ لم يطل الوقت ، حانت اللحظة التى يفارق

فيها المقهى ، حاول المعلم ان يستبقيه ، ولما ادرك انه الفراق ، رجاه أن يزوره من حين الى حين ، بدا المعلم رقيقا ، طيبا ، مترقرق الصوت ، قال انه اعتبره كابنه ، وانه لن ينسى أبدا جميله تجاهه ، يعلم الله كم هو مدين له ، وعندما تلاقت نظراتهما فى لحظة وداعية ، أيقن أن هذا الرجل يخفى أكثر مما يظهر ، يبطن ولا يبوح ، عانق صحبه ، زملاء المقهى ، اوصاهم بالتردد عليه ، وعدم الانقطاع ، خاصة البنى سويفى !.

اتخذ مسكنا قرب الشارع الرئيسى ، فيه حمام ، حمام يخصه هو ، مسكن محكم ، خلو من تيارات الهواء الباردة التى كانت تشق فراغ المقهى مصدرها مجهول ، بيت يمكنه الدخول اليه والخروج منه عندما يشاء ، اذا أراد المشى عاريا مشى ، واذا رغب التمدد حينما شاء تمدد ، به شرفة يمكنه الوقوف بها والنظر الى الطريق اذا ما كلت عيناه ، راج أمره فى المدينة كلها ، بل جاءه نفر من مدن قريبة ، بعضهم من ذوى المكانة ، رجوه ، الحوا عليه لسرعة اتمام لافتاتهم ، عرف الطريق الى المصرف ، أصبح من المخاطرة الاحتفاظ بما يدخره فى البيت .

انه يعمل بدون انقطاع طوال أيام الاسبوع ، لكنه بعد توالى عدة أسابيع مرهقة خصص بعد ظهر الخميس لراحته ، يرتدى ملابسه ، يمضى الى قلب المدينة ، الى السوق التجارى المغطى ، حيث يمكن للنساء أن يمشين على مهل ، تثيره نظراتهن الخلسى ، الشبقة ، أحيانا يقتفى خطى احداهن ، يتلقى بحواسه الازيز الخفى ، يدخر اهتزاز القوام ، ونحولة الخصر وترجرج الارداف لخلوته الليلية ، فيستعيد متمهلا متلذذا ، مبطئا ما يراه أو متوقفا عند صدى نظرة متخمرة ، داعية له ، متخذة طريقها اليه فى الزحام ، أما اذا بلغ الزحام النادر حدا مكنه من مس جسد احداهن ، أو الاقتراب من مشارف الرائحة الخاصة .. فان ذلك يشعل لياليه ، يؤرقه ، ولا يفلح جهده فى ارواء ذاته بذاته !

يوم الخميس أيضا اعتاد المضى الى احد المطاعم ، يأكل لحما أو دجاجا ، ثم يرجع فى ساعة متأخرة ، يصغى الى المذياع ، يدير مؤشر الجهاز الصغير ، القوى :

ــ « هنا القاهرة ... »

لتكرار الاصغاء يعرف الآن أصوات المذيعات والمذيعين ، ومواعيد عملهم ، أحيانا يسمع على البعد حفيف الاوراق التى يقرأ

منها المذيع الأخبار ، تتدفق عندئذ الصور ، مبنى الاذاعة المطل على النيل ، القوارب ، والجسور ، ويمضى شارع فى اثر شارع ، وناصية بعد الاخرى ، وبيوت لم ينس واجهاتها ، حارات لم تبهت روائحها عنده ، ودكاكين لها مغزى ومعنى عنده ، حتى يتوقف عند مسجد أحمد بن طولون ، يمضى متمهلا الى الحارة ، الى البيت ، واذ تطالعه قعدة امه عند المدخل ، تتطلع الى منحنى الحارة ، مترقبة ، منتظرة ، اذ يراها ولا تراه ، يرقب هيئتها ولا تلمحه ، اذ يرصد الحزن القديم ، يقوم قاعدا فى فراشه ، يدرك بحدة انه بعيد ، قصى ، يحصى ما تبقى من شهور على التاريخ الذى حدده لعودته فى اجازة ، لن يطول به المقام فهو غريب ، لكنها الضرورة والرغبة فى تدبير الأمر .. فى مثل هذه الليالى يغفو وعنده رغبة فى هجاج ، أما كبده فينز حنينا ، انه يصحو وعنده غم ، وميل قوى لاستئناف النوم ، الا انه يتذكر ما التزم به فيفارق السرير كدرا ، عبوسا ، حتى اذا قعد الى أقلامه والوانه استغرق شيئا فشيئا ، مفكرا فى محاسن حاله ، انه لا يعمل عند أحد ، لا يضطر الى الذهاب هنا او هناك ، أما ما يتقنه فندر من يعرف مثله ، وهذا يضفى عليه قوة .

العمل كثير ، والمناسبات متوالية هنا ، محورها زعيم البلاد المفدى ، مناسبات عارضة ، واخرى ثابتة ، أما العارض فافتتاح سيادته لمشروع جديد ، أو منطقة سكنية ، أو محطة كهرباء ، أو مقر جديد لوزارة ، أو زيارة الى احدى نواحى البلاد ، أو زيارة الى دولة أخرى ، وهذه الزيارات الخارجية تقتضى عملا نشطا ، فلافتات تودعه عند رحيله الميمون ، واخرى تستقبله عند عودته المظفرة ، أما المناسبات الثابتة فمعروف تواريخها ، يجرى اعداد العدة لها مقدما ، فمنها حلول شهر رمضان المبارك وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وليلة النصف من شعبان ، وعيد رأس السنة الهجرية ، أما طول عيد ميلاده فأوسع الاحتفالات واشدها ، انه موسم العمل بلا كلل ، ويباع قماش اللافتات الابيض بأربعة اضعاف سعره فى السوق السوداء ، يحتاط له القوم ويحتاطون منه ، يحتاطون له باعداد كل منهم لافتة جميلة ، ويحتاطون منه بتدبير قماش ملابسهم الصيفية أو الشتوية قبله بوقت كاف ، لا ينسى أحد عندما شح قماش الدمور والبفتة والدبلان وسائر المنسوجات القطنية السادة والملونة ، حتى لم يبق فى المخازن متر واحد يكفى لتفصيل قميص لطفل ، كما انهم يدخرون أيضا البيض والدقيق واللبن ، خاصة

البيض ، فعند ذروة الاحتفال بالعيد تمد الكعكات وتوقد الشموع : كعكة العاصمة ، وكعكة فى كل مقاطعة ، وأخرى فى كل مدينة ، ومحلة ، والحق أن اطلاق كلمة كعكة انما من قبيل المجاز ، فكعكة العاصمة مثلا يبلغ قطرها عشرين مترا ، وارتفاعها ثمانية ، وقيل عشرة ، ويجرى اعدادها فى وسط الملعب الرياضى الكبير ، وعند اطفاء الشموع هائلة الحجم المستوردة والمصنوعة خصيصا طبقا لمواصفات معينة تجىء عربات المطافىء من فرقة العاصمة وضواحيها ، مزينة بصور سيادته ، مكللة بالزهور ، وتنصب السلالم فى اوضاع محسوبة ، وفى اللحظة المحددة يتم تسليط أجهزة خاصة ، تطفىء النيران المتصاعدة ، ويكون هذا ايذانا باطفاء الشموع فى المدن الاخرى ؛ وامام بيوت العائلات التى يخرج أفرادها كلهم حتى البنات من خدورهن ، والاطفال على آباط امهاتهن ، لا يتخلف عجوز أو صغير ، ويتحلقون أمام مداخل البيوت حول الكعكات ، وبعد اطفاء الشموع تجرى الرقصات ويبدأ الغناء فى الشوارع وتنطلق الاهازيج ولا يتوقف الامر الا بعد طواف المراقبين التابعين للهيئة السياسية واللجان الثورية ، حتى يرصدوا من تغيب ، أو من يشارك بغير حماس ، قيل بين القوم أن كعكة العاصمة وحدها تستهلك عدة آلاف من البيض ، وان القشر المتخلف بعد تطقيشه يملأ عشرات السيارات ، وينشىء جبلا صغيرا فى كيمان القمامة خارج المدينة ، وهذا من اعجب ما سمعه وعاينه .

عيد ميلاد المفدى ذروة المناسبات ، ولكن ثمة اخرى تتوالى ، عيد تسلمه السلطة ، وانتصاره على خصومه ، وعيد قيامه بالحركة التصحيحية الاولى ، ثم الانتفاضة المباركة ، وعيد اعلانه الثورة التعليمية ، والثورة الصناعية ، والثورة الزراعية ، والثورة الثقافية الثانية ، والثالثة ، وعيد ظهور أول مؤلفاته ، وعيد شفائه من المرض ، وعيد سباحته فى البركة الصناعية ، وجريه فى السهل وعيد تهديده القوى العظمى !.

أما الايام الثوابت فمرتبطة كلها بحياته ، فمن ذلك الثالث من سبتمبر الذى شهد قيادته للمظاهرة الطلابية الكبرى عندما كان تلميذا فى المرحلة الاولى ، والرابع من ابريل ، والسادس من مايو ، والتاسع من نوفمبر ، والرابع عشر من يناير — وكان الثالث عشر فى الاصل الا انه قدر يوما لتشاؤمه من الرقم — أما الرابع عشر من يونية فهو عيد اعلان المرسوم الشعبى بألا يطلق اسمه المفدى على أى

مولود ، فالبلاد كلها لم تنجب الا شخصا واحدا يحمل الاسم الذي لا يذكر مجردا ، ومثله لا يمكن أن يتكرر !.

لقد دون هذه التواريخ فى مفكرته ، واحصاها ، حتى يرتب ظروفه ، كما أنه استقصى حذرا امكانية شراء كميات هائلة من القماش وتخزينه عنده على الرغم أن هذا لا يعد مخالفا أو معوقا للهدف ، نص الشائع ، الثابت ، أن أي شخص يقدم على تخزين البيض أو السكر أو الدقيق أو القماش يعاقب باعتباره عدوا للشعب ونسيانا [illegible] هو يحتفظ بالقماش اللازم حتى يلبي طلبات الناس فى الوقت المناسب ، خاصة أن المفاجآت عديدة ، فجأة تنطلق مظاهرات تأييد أو شجب ، تأييد الزعيم ، أو شجب الخونة والعملاء والمأجورين ، أو شجب سياسة قطر مجاور ، أو بلد آخر ، هذه المظاهرات يلزمها عدد لا حصر له من اللافتات لابد من تجهيزها على وجه السرعة ، ربما ألقى سيادته خطابا مفاجئا ، أو أدلى بحديث مطول الى صحفى اجنبى ، عندئذ تغمر الشوارع لافتات تؤيد كل عبارة وردت ، أو تبرز بعض الاقوال المعينة .

كان أثناء انهماكه يحاول تخيل اولئك المجهولين الذين يؤيدهم ، او يشجبهم ، أو تلك الزمرة العميلة التى يبارك استئصالها ، يتساءل .. من أفرادها ؟ أى شجاعة دفعتهم الى التحدى ؟ ، ولأن زعيم البلاد المفدى هو المحور والركيزة ، أصبح يشعر أنه قريب منه ، وأن علاقة لها خصوصية تربطه به ، ليس الولاء ، ليس الحب ، أو الكراهية ، صلة عجيبة بمقدار ما فيها من رهبة ، بقدر احتوائها على تهكم دفين ، وادراك لخبايا الملعوب .

ستة شهور انقضت ، تعاظم خلالها حجم العمل ، حتى لم يعد قادرا على ملاحقة وتلبية الطلبات ، الثابت منها أو المتغير ، المعروف أو المجهول ، فى بداية الشهر السابع اتاه زميله القديم فى المقهى ، البنى سويفى بشابين ، أحدهما خريج زراعة ، والثانى خريج مدرسة الفنون والصنائع ، داخ كل منهما فى البحث عن عمل وحفيت قدماه ، عندهما هواية للخط ، لكن تنقصهما الدراية ، صبر عليهما أياما حتى أصبح ممكنا له الاعتماد عليهما ، فك ضائقتهما واقرضهما مالا يخصم فيما بعد من اجرهما ، وأبدى معهما أنواعا من الشهامة والجدعنة ، ومن ناحيتهما بذل كل منهما أقصى الجهد ليعطى افضل ما عنده ، بعد أسابيع انضم اليه ثلاثة آخرون ، صار من يعمل معه خمسة ، هكذا تيسر أمره للغاية ، وراج حاله جدا ،

بدت أيام المقهى نائية ، بعيدة على قربها ، يتعجب .. كيف احتمل النوم على خشب الدكك والمبيت فى مكان ضيق كالسجين ؟ ، انه يكتب الآن خطابات أقل ، ويتلقى اكثر ، تتباعد نوبات حنينه وان لم تخف حدتها ، كما أنه لم يتخلف قط عن تحويل المبلغ الذى خصصه لاسرته ، ومع أى مسافر يثق به يرسل قماشا وحلوى وبعضا مما تيسر كذا بعض الهدايا الصغيرة للجيران ، بل أرسل عباءة صوف الى صاحب المقهى الذى حن عليه يوما ، غير انه لم يذكر خديجة فى رسائله ، وتذكر أنها بنت حلال وأصيلة ، لم يخف عليه التلميح وان تجاهل الرد أو الاشارة ، تيسرت أحواله ولانت ظروفه أيضا ؛ ولرقة طبعه ودماثة خلقه ومهارته فى صنعته ، تعرف الى عدد من ذوى الحيثية والمكانة بعدد ترددهم عليه ، وطلبهم لافتات جديدة ، أو للتوصيات على لوحات ذات مواصفات خاصة ، تعلق فى السرادقات أو فى الطريق ، الذى سيسلكه الزعيم ، مكنته علاقاته تلك من التوسط لدى بعضهم لايجاد عمل لبعض من تعرف بهم أثناء تردده على المقهى القديم ، أحيانا يمد هذا أو ذاك بمبالغ صغيرة لتجهيز أنفسهم بمتطلبات الاعمال التى سيلتحقون بها ، كما كان يساهم بالنصيب الاكبر فى تكاليف شحن جثمان من يلقى حتفه هنا ، يقول لمن معه ، المصرى لا يدفن الا فى ارضه ، ومما أثر فيه هذا التسابق الذى يلقاه من عمال فقراء ، لا يدرون ماذا سيكسبون غدا ، لكنهم هم البادئون دائما بجمع ما تيسر لاغاثة من لحقته ضيقة ، أو نزلت به محنة ، أو عسرت أحواله أو وافاه اجل لا مفر منه ، كان لا يتردد أبدا ، وبالجملة فانه صار مشكور السيرة محمود الخصال ، رائع السمعة الحسنة ، بين أهل بلده ، وابناء تلك الديار ، وبمضى المدة صار هناك سبب آخر ليهدوء أحواله ، واستقرار نفسه ، وترطيب أيامه ، وتلطيف وجوده هنا وتثبيته ، ذلك أنه تعرف ببنية جميلة ، رائقة الظهر ، نارية الجوهر ، وتفصيل ذلك شائق .

ذلك أن البيت الذى يقطنه ، ويتخذ من أحد طوابقه مقرا يتكون من أربعة طوابق ، وبذلك يكون من المبانى المرتفعة بالقياس الى بقية العمار فى المدينة ، فى الدور الاول تعيش اسرة هندية ، عائلها يعمل فى المستشفى الأميرى ، وفى الثانى عجوزان بلغا من الكبر عتيا ، يقضيان جل وقتيهما فى الشرفة ، تمضى أيامهما هادئة عدا يوم الجمعة الذى يعلو فيه ضجيج الاحفاد ، واحاديث الابناء ، الثالث مقره هو وسكنه ، فى الاخير اسرة صاحب البيت ، الرجل

تاجر مصنوعات جلدية ، امرأته هادئة ، فى حالها ، لم يرها الا مرتدية العباءة السوداء ، كانت تمضى الى المستشفى الجديد بانتظام ، كثيرات يذهبن الى العيادة الخارجية ليس طلبا للعلاج ، ولكن من باب الترويح عن النفس والفرجة على الطريق ، والثرثرة أثناء الانتظار ، أبناؤهما ثلاثة ، ولد وبنتان ، كان اذ يلتقى البنتين يغض الطرف ، وإن أدركته نشوة غامضة ، يتخلله الفيض الانوثى للكبرى ، وبطئه ، رائحتها ، نظراتها الخلسى المتقدة ، فى الليل يستدعيها ، يتخيلها ـ أو ما شاء شتى ، حتى يغفو منهكا ، لم يرهما الا معا ، حتى جاء ذلك الخميس ، عند خروجه الى جولته ، امام شقة الطابق الثانى ، كانت تصعد متمهلة ، وهو ينزل متئدا ، مدغدغا ، برؤياها ، ترتدى العباءة السوداء فوق الزى المدرسى الازرق القصير الذى بدا من انفراجة اتاحتها ، أما انفاسها فيكاد يراها لسخونتها ، أما النظرات فمتدفقة فائرة ، مبهرة بعينيها الواسعتين ، تحاول اسدال خفر وحياء لكن عبثا ، توقفت حتى يمر ، تمهل .

ــ مساء الخير ..

أومأت ، مضى وجسده يولول بالرغبة ، لوقفتها الصامتة ، المترقبة فحيح ، غليان ، وعيد ، سمع كثيرا من صحبه فى المقهى عن جراة النساء فى هذه الديار اذا ما أتيحت لهن الخلوة ، وان الواحدة منهن اذا استوثقت وجودها بمفردها مع من ترغب شرعت فورا ، برغم الحكايات العديدة فانه التزم الحذر ، انه غريب ، يخشى اثارة مشاكل لايدرى مداها ، مع أن مجرد تخيلها عند انفراده يفرج ويخفف عن زمتة جسده ، ويسرى عن رغبته ، كان لديه حس خفى انه مقدم على أمر ، وان بعضا مما سمعه عن الاخرين سيمر به ، مجرد استعادته ملامحها يخفق قلبه ، يتعجل المصادفة ، تلقائية أو مدبرة !

حتى حانت تلك الظهيرة ..

كان منهمكا فى كتابة لوحات ورق مستورد خصيصا ، مطلوبة لاحدى الجهات الرسمية ، ولأهميتها لابد من اعدادها بنفسه ، عندما فتح الباب بوغت ، تقف أمامه متاججة ، نافرة ، وعندما دارت لتنظر السلم ، لتتأكد أن احدا لم يرها ، لم يلمحها ، اعلنت فى الوقت نفسه سرية قدومها ، وأنبأت ببدء مغامرتها ، ولجت داخلة ، اغلقت الباب ، اقتحمته عيناها ، كان شعرها الاسود طويلا ، مسترخيا ، شارد الخصلات ، كانت بضاضتها تتخطى الفراغ الذى يشغله جسدها

الى فراغ البيت كله ، وعلى مهل ، بعمق ، استنشق رائحة الانثى ، فأشاعت عنده دفئا ، وأنسا ، أما رغبته فتأججت قاسية ، تطلعت ، تردد بصرها بينه وبين الارض مرات ، ثم استقرت سافرة الملامح ، عالية النداء ، ملقية عنها كل خفر ، أصابع يديها متداخلة ، في وجهها ظمأ قاس ، وتوق ، ودعوة عاجلة ، واستعداد أتى القاء الحصار ، انها الجرأة الهادرة التى تندلع جارفة كل شيء اذ تحين الفرصة ، طقت خميرة الرغبة عنده ، قالت بصوت متعثر ، غير مسترسل انها تريد لوحة للمدرسة ، مجرد نطقها أوصل أمره الى مداه ، اما نظراتها فأججت أمورا كامنة طال كتمانها بتأثير جهد يمتص منه الطاقة ، ويستنفد منه جل القدرة ، تقدم ماذا يدير ، وعندما لامس أناملها حطت كلها عنده ، بركت وأتى ، لم يتصور أن الامر سيتم بهذه السرعة ، لقيها دافقة ، تنضى حرمانا وتهتك أسوارا طالما خنقتها ، تسمى اليه بقدر ما يسمى اليها ، رددت فى غمار نعاسها اليقظ ..

ــ « شبعنى .. شبعنى .. »

راى عجبا ، طرق دروبا لم يعرفها من قبل ، فى لحظات تتباعد مكوناتها ، تتراخى ، تتفكك أوصالها حتى ليخشى عليها ، وما أن ينحنى ليلمسها بشفته أو ليناديها فكأنه ينفخ فيها السر ، تتورد ، تزهر ، ولحظة بلوغها الاوج تبدو منفلتة ، خارج كل قانون ، شهيدة فى تعبيراتها ، حتى أن تمام متعته لم يكن يتم الا برؤية ملامحها ، وتقصى انتفاضاتها ، وطفراتها ، وقطعها المراحل حتى بلوغ همودها ، كان يغالب جموحه النهائى ، فالبنت عذراء ، الا أنها لم تكن تعبأ ، ما سمعه عن شبق نساء هذه الديار لشدة التضييق عليهن والحجر يتضاءل وتفضيل الرجال هوى الغلمان ، ماتردد أمامه يتضاءل بالنسبة لما عاينه ، لما رآه منها ، مع أنها لم توغل فى سنى الحياة بعد ، اعتادها ، اصبحت جزءا من وقته ، حتى أن اللحظات التى تسبق مجيئها كانت مصدرا لمتعة بذاتها ، كتب الى والديه واخوته ينبئهما بتأجيل موعد عودته ، بدا له ما انقضى من عمره مهدرا ، أما انسانيته فظلت ناقصة حتى مجيئها ، وظهورها ، وحتى يفرغ لها ، وتفرغ له ، استأجر بيتا قريبا لمن يعملون معه ، ليكون مقرا للعمل ، ويقيمون فيه أيضا ، فرحوا ، رحبوا ، واستراح هو ، اذ أقلقه وجودهم فى البيت الذى تسكنه هى ، خشى ميلها الى أحدهم يعى أنها لن تتردد ، لن تتراجع ، بل ستقدم اذا قررت ، وعندئذ

لا يقدر على التنبؤ بما سيكون منه ، قال لهم انه يود الانفراد بنفسه، الشكن سكن والعمل عمل ، طلب منهم الا يجيء أحدهم اليه مهما كانت الظروف ، اذ يتخيل انصهارها فى احدى اللحظات بين ذراعى غيره يطق غيرة وغضبا ، امتزجا ، خبر تضاريسها ، رائحتها ، شذا اقترابها ، ولسع ملحها !

لم يعد يفارق البيت كثيرا ، يمضى فى الصباح عند ذهابها الى المدرسة ، يتابع تنفيذ اللوحات ، يبدى الملاحظات ، ويخط بيده ما يرى أهميته ، أو يرسم الخطوط الخارجية للكلمات ، يدع ملء الفراغات لهم ، بعض الطلبات صار يوكل تنفيذها اليهم ، كان يردد لنفسه دائما ، انه أصبح صاحب عمل ، كما انه يثق بهم ، خاصة ذلك الشاب النحيل ، الهادىء الذى جاء يبحث عن وظيفة مناسبة لمؤهله فى علم المساحة ، اكتشف عنده قدرة على تجويد الخط واتقان فنونه ، غير أن أمره لم يطل معه ، اذ فوجىء يوما بتغيبه ، وعندما استقصى واستفسر علم أنه استقل ، وافتتح محلا فى ضاحية قريبة ، ضاق فى البداية ، وطافت الافكار القاتمة براسه ، لو اخطره ، لو افضى اليه ، ربما خفف ذلك من وقع الامر ، ضاق بالعذر ، يمكنه الحاق الاذى به عن طريق أحد المعارف المهمين الذين يطرقون بابه ، لكنه استبعد ذلك ، بل لام نفسه فيما بعد ، كيف يفكر فى الحاق الاذى بمن جاء فى ظروف كظروفه ؟ ، استوحش ذلك منه ، السوق تحتمل عشرين آخرين ، فلماذا يغضب أو يضيق ؟ ، بل انه مضى لزيارة المحل الجديد ، لو ان الخطاط العجوز الذى آنس منه مودة ومحبة مكانه لأقدم على ذلك ، احيانا يستعيد أيامه معه ، الصباحات الباكرة فى شارع محمد على ، والمبانى العتيقة ، وتداعيات الذكرى المتتابعة والادراج المكدسة بالاختام والكليشيهات ، كأن أيامه مع الرجل الطيب انقضى عليها سنوات طوال ، بل يخيل اليه أحيانا أن شخصا غيره عاشها ، مر بها ، أثناء عمله واصغائه الى مرويات الرجل وحكاياته لو أخبره أحدهم انه سيكون بعد اقل من عامين فى هذه الديار لما صدق ، ولما تخيل ابدا امكانية حدوث هذا ، أو لقائه بهذه البنية ، هل تصور يوما وهو يسعى فى حوارى السيدة ، أو قلعة الكبش ، أن بيتا كهذا سيضمه مع غريبة عنه ، وأن جسده سيلج جسدا فائرا ، هنا ، فى هذا المكان ، فما أعجب التدبير !

عاتب الشاب خريج مدرسة المساحة ، قال لو انه أخبره برغبته فى الاستقلال بعمله لساعده ومد له يد العون ، احتفظ الشاب

بصمته ، واكتفى بالايماءات الحذرة ، وعندما قام صـافحه ، وأوصاه الا يتردد فى اللجوء اليه لو اعترضه سبب ، او نزل به ضيق ، والمح الى امكانية تعاونهما ، فهما فى النهاية أبناء بلد واحد فى ديار غربة ، غير أن الشاب لم يبد حماسا مقابلا ، وانصرف عنه مرددا ، هل أخطأ فى سعيه اليه ؟ لاسابيع متتالية لم يهن اقباله على صاحبته ، طالت اوقات بقائه فى البيت ، انها تجيء عند أى سانحة ، عند خروجها لشراء شيء ما ، او الى موعد الدرس الخصوصى ، او فى الاوقات التى ترتبها باحكام مع احدى صاحباتها ، ثلاث مرات لم تتم نزول السلم فى الصباح الباكر ، تغيبت فيها عن المدرسة لتقضى نهاراتها معه ، أما ما أثار خشيته فمجيئها الليلى ، انتظارها نوم الاهل ، دخولها عليه حافية ، مرتدية قميص النوم القصير ، فى الليل تكون أشد اتقادا ، قليلة الكلام ، اذ ما رغب تبادل الحديث لقى ألفاظا قليلة وتطلعا الى البدء من جديد ، حتى أن الوهن يبدأ واذا خاطبته قالت :

ــ حبيبى .. حياتى .

وكان يلمح ايقاع الممثلات المصريات فى لهجتها ، واقترابها منه ، اعتاد زياراتها الليلية ، وصار يتأهب لها ، غير أن الامور لا تثبت على حال ، واذا استقر جانب تبدل آخر ، واذا ما استقامت ناحية ، تضعضعت جهات .

هل كان انشغاله بصاحبته تلك البداية ، وانقطاعه عن متابعة عمله ، أم تفتح رغبته عند حد معين للتعرف الى أخريات ؟ أم تنفيذه ما طلبته هذه المرأة العجوز التى جاءته باكية متوسلة ، اذ اعتقل ابنها منذ عام كامل ، وبعد أن لفت ودارت استعطفت واسترحمت ، طلب منها مسئول ذو نفوذ يمت الى قبيلتها وله برجال الزعيم صلة أن تنفذ ما طلب منها : أن تعد الف لافتة من قماش جيد ، تعلق فى منطقة سكنها تحمل الدعوات وعبارات التأييد ، سعت الى عـدة خطاطين ، الا انهم ماطلوها ، وتهربوا منها ، مع أنها عرضت مبلغا كبيرا من المال ، وذهبا من مصاغها ، لكن كل منهم زاغ بوسـيلة او طريقة مغايرة ، مع أن هذا مشروع ، وعرف جرى العمل به ، عند طلب العفو وقبوله يتقرر كتابة عدد من اللافتات يجرى تقديره من قبل المسئولين ، طبقا لدرجة الجرم ، أو العقوبة المحددة سرا ، احيانا يطلبون خمسمائة ، ومرة أخرى الفين ، وفى احدى المرات قام تاجر فى الصاغة القديمة باعداد خمسة آلاف لافتة ، وهذا أكبر عدد

عرف ، رق المرأة التي كانت تمشي بصعوبة ، وتتحدث بضعف ، وحتى يؤمن عمله ، استفسر من أحد العاملين بأمانة الناحية ، فأخبره أن هذا عادي ، معترف به ، والا لما صدر الطلب أصلا .. عندئذ شرع ، وأوصى العاملين معه ..

أي سبب كامن ، ومن أى نقطة بدأ الامر ، ربما ماجرى للفتى البنى سويفى كان نذير الشؤم ، لكم أحب هذا الشاب القصير ، الصامت ، الذى لا يتحدث بانفعال الا اذا ذكر والديه البعيدين ، والذين اغترب لتعويض بعض من كدهما ، وحرمانهما من أجله ، عندما جاءه أحد العاملين بالمقهى واخبره باحتراق المقهى ليلا ، صرخ جزعا ..

ــ « مات أحد ؟ » .

واحد فقط ، البنى سويفى ، اختنق بالدخان قبل ان يتمكنوا من كسر الزجاج العلوى والخروج ، ضناه حزن ، وقال لصحبه ..

ــ « لن يدفن الا فى مصر .. »

وتبرع بمال كثير ، وتبرع آخرون لتجهيز البنى سويفى ، شحن الجثمان فى صندوق مغلق ، لن يفتح ، هو الذى قام بهمة عالية لنقل الجثمان ، هل أثار ذلك غضب المسئولين هنا ؟ هل حنقوا عليه لسبب ما ؟

لا يدرى ، ما من سبب واضح مثل فى وعيه عصر ذلك اليوم ؟

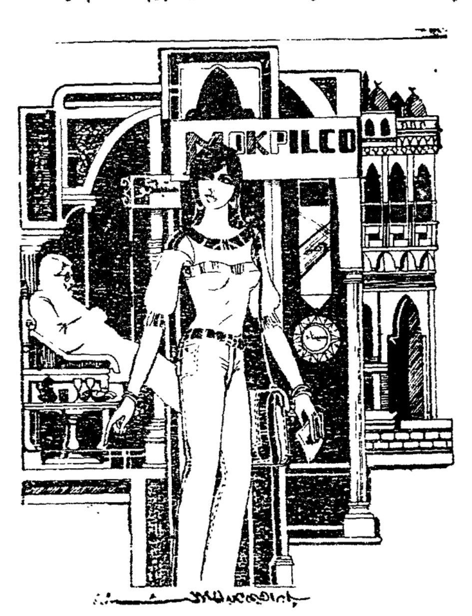
كان يجلس فى صالة البيت ، محاطا باللافتات ، والصور المعدة لاحاطتها بالاطارات ، كان يتوقع مجىء البنية أيضا ، لكثرة ترددها صارت رائحتها فى فراغ المكان ، كان يستعيد دخلاتها عليه ، غير أن رغبة قصية داخله بألا تجىء ، كان يتطلع الى فك مغاليق أخرى ، ثفته أكثر بنفسه الان ، منذ ايام لم تغب عنه هذه الصبية التى تسكن البيت المجاور ، طويلة الضفائر متينة الاساس ، مقببة الارداف ، تبادلا نظرات خلسى ، حذرة ، هل أولته اهتماما باديا ، أم لحظها عابر ، على أية حال . فليحاول ، فليدبر امر اقترابه منها ، يستعيد حضور جراتها الفتية ، وكأنه يود تبديد شعور بالذنب ، يلوح بيده ناطقا خواطره بصوت مرتفع : انها لا ترتوى ، وأنا بحاجة الى من اتكلم معه ! هم بتخيل الصبية الاخرى ، مدهشة العينين .

تردد طرق غير مألوف ، قبضات ثقيلة ، آمرة ، هذه وجوه مقتحمة ، لايعرف أحدها ، الشوارب ثقيلة ، يدفعه أحدهم جانبا ، يلج المكان متلفتا حوله ..

ـ « انت »

يتفحص المكان متمهلا ، ينتشر خمسة من الاشداء المسلحين ، يقلبون اللافتات ، اللوحات الصغيرة ، يتأملون بعض اللوحات التى خطها للعجوز كى يتم نسخ مثيلها ، يعرضون القماش للضوء ، بدا مرجوفا ، خائفا ، ما سمع عن وقوعه لاخرين يجرى له ، يمر به ، بوهن ، بحنين ، بألم ، ألحت عليه ملامح أبيه ، واهله البعـاد ، وقعدة الرجل الطيب فى دكان شارع محمد على ، كأنه يلتمس منهم مددا ، أو عونا خفيا .

أكد أنه لم يأت مخالفة ، لم يقدم على اتيان جرم ما ، اوراقه كلها مضبوطة تماما ، مد جواز سفره ، وبطاقة اقامته ، هوى قلبه عندما أمسكهما كبيرهم ، بدون النظر اليهما ، رماهما الى أحـد مساعديه الخمسة ، فوضعهما هذا فى جيبه لا مباليا ..



حاشيـــة - ٣ -

.. وانى لمطلعكم على قعدة أمومية ، اشهدتها مطلع نهـــار صيفى ، لن يتاح لكم الوقوف عليها ، حتى من يمرون بها لا يدرى معظمهم ما وراءها ، ولا خبرها ، ماعرفته من الهيئة عنـــد بدء الحاحهـا لى .

حدث أن دعانى صاحب لمرافقته الى البر الجنوبى ، كان مكلفا باستقصاء أحوال بعض ممن طلبوا المساعدة ، فاتنى ذكر انه يعمـل فى هيئة اجتماعية ، تقدم بعضا من عون لمن أعوزهم الوقت ، ونزلت بهم نوائب البغتة ، أو مال بهم الظرف .

كان النهار فى أوله عندما وصلنا الى مدخل الطريق الترابى المؤدى الى القرية الصغيرة ، لم نلق عسرا فى الاستدلال والاستفسار ، الناس فى هذه النواحى يعرفون بعضهم ، قيل لنا أن الرجل الذى نقصده يعيش فى بيت صغير قبل الوصول الى القرية ، بجوار شجرة السنط ، أجابنا واحد مرتابا ، متشككا :

ــ لماذا تسألون عنه ؟

قال صاحبى ..

ــ نقصد خيرا ..

لاح عليه اطمئنان ، اشار الى الجهة المؤدية .. قال :

ــ ترفقوا به ، الله يكرمكما ..

ثم قال :

ــ لم يعد لهما أحد .

بقدر ما لمحت حذره ، بقدر ما رصدت هذا التضامن الخفى ، والرثاء للاخرين ، والحس بالمشاركة ، هذا ميراث طويل ياصاحبى ، وغل فى قدم لا ندرى أوله ، أما الحذر فلأن القوم هنا لا يتوقعون خيرا مع الغرباء القادمين ، الآتين عبر الطرق المؤدية ..

المهم ، مضينا يا أخى حذرين ، السكة ضيقة ، والارض متربة ، وعرة ، عندما لاحت بيوت القرية المتضامة ، بدا الفراغ المؤدى فسيحا ، عند حدود الحقل لمحت القعدة ، والشجرة ، وقناة الميـاه الضحلة . وجذع النخيل ، غير ان كل ما أدركه بصرى من عناصر بدا

مؤديا لهذه القعدة ، للانحناءة ، للاطوئنة ، للنظر المستديم الى لامكان .
كانت تنكت التراب بعود قش ، هذا كل مايصدر عنها من حركة بادية ، عبر صاحبى القناة ، اهتز جذع النخيل ، لم أتقدم لتوى ، بقيت واقفا أرقبها ، فكأنى حصلت فى لمحة الادراك الشمولى ما صار اليه الامر ، كل ماوقفت عليه بعد ذلك .
هذه قعدة أمومية ياصحب ، قعدة ثكلى ، حضورها الحسى فى مكان وزمان بعينه ، أما حضورها الاشمل ، الاتم ، فيمتد عبر شعاب خفية ، ويتعلق بلحظات مولية ، قعدة لن يصلكم عنها تفصيل ، قعدة آل اليها العمر الطويل ، وحط فيها الضنى ، يوميا ، تبدأ مع طلوع الشمس ، مع رحيل الليل ، لا تفارق مكانها هذا الا بعد اكتمال الغروب ، وتردد أصداء العتمة وتوالى نباح الكلاب ، ونقيق الضفادع ، وهيام صرخات مجهولة عند المدى ، ربما تؤدى بشكل ما الى أثر من الحبيب الغارب !
قعدة منحنية ، مطوية ، مضمومة ، محورها هم ، ومقصدها ، وهدفها ، مبتغاها أثر ولو يسير ، فى اطراقتها محاولة منها وسعى لتمثل الضمة القديمة ، عندما كانت تحنو عليه ، وتهدهده حتى ينام ، أو تملس على ظهره حتى تدركه راحة ، تحاول جاهدة ضم ماتبدد ، بعد أن طاح به الوقت فأقصاه بعد قرب ، ونفاه الى أبد لن يدركه أحد ، تدرى !.
افترشت الارض فى مواجهتها ، تطلعت الى ، وعندها رجاء فى أمل خارق ، يتجاوز المستحيل ، يتخطى المعقول ، ربما نبأ بعودة ضناها الوحيد ، عيناها حال لونهما ، تداخل سوادهما ببياضهما ، فلا يمكن لى أو لكم تمييز الدائرتين اللتين كانتا يوما تنبضان ، تتابعان القاصى والدانى ، وتتعاقب عليهما الرؤى ، أما مايحيط بالعينين ، فتحاريق ، تشقق ، وجهها يا أخى كأنه قد من الارض التى تقعد فوقها ، المتربة .
لم يكن محورها الا هم ، روحها كانت فيه ، وحيدها ، فلما جرى ماجرى ، عافت الزاد ، انطوى بسطها ، ولم يعد لها الا احصاء ماتبقى ، كل من يسعى اليها بود ، بعزاء ، بشفقة ، تقول له :
ــ « خلاص .. اللقا هناك .. »
لولا يقينها أن من ينهى حياته بيده يموت كافرا ، وأن مصيره الى النار ، الحقت به منذ تيقنها النبأ ، لكنها تريد المضى اليه ، يقينا هو فى الجنة ، من يشبهه ، من يماثله ؟ من ؟ كان غضا ، تقيا

كالاطفال ، لم يأت شيئا فريا ، لم يفعل مايغضب ربه .

لو أنه لم يتغرب ، لم يبعد ، صحيح .. قدر ومكتوب ، لكنه لم يرحل الا لانه شاء رؤيتهما فى أحسن حال ، هو من خرجت به من الدنيا ، ثم فارق الكينونة قبل أن تكمل فرحتها به ، أنفاسه ماتزال فى البيت ، رائحته ، موضعه لم يقربه أحد ، ماخصه باق ، ماأرسله من خطابات فى حفظها ، لاتسمح أن يقربه أحد ، ألم يمسك بهذا الورق ؟ ألم يخط هذه الكلمات التى لاتعرف كيف تفك رموزها ؟

نصيب ، حظ عاثر ، من كان يتصور ماتخبئه الايام ؟

منذ يومها الاول فى هذه الدنيا كانت وحيدة ، لم ينجب أبوها السقاء غيرها ، لم يكن لها أخ أو أخت ، لكم ودت أن يكون لها شقيقة ، لكنها طلعت الى الدنيا بمفردها ، كثيرا ما قالت : الواحد فى الدنيا عندما يتعب يقول .. أخ .

كان رجلها فقيرا ، على باب الله ، لا وراءه ولا أمامه ، شقى من يومه ، تقلب فى مهن شتى ، لا .. ليست مهنا على وجه الدقة يا أخى ، لكنه كان يقوم بالعمل المتاح ، يلف على الاسواق ، يقضى حاجة هنا أو هناك ، ينشط فى المآتم والافراح ، لكنه لم يتسول ، لم يمد يده قط ، حياته الوعرة لم تكسر نفسه ، لم تهن أو تحط من وضعه أمام ذاته ، كان عنده عزة وأنفة ، استقر به الامر عاملا بذراعه، بالفأس ، يضرب الارض مع مطلع الشمس ، كان قصيرا ، مدكوك البدن ، تقدد جلده ، واشتدت ملامحه ، ولزمت عيناه نظرة حيرى ، بعد أن جرى ماجرى لولده ، لوحيده ، لمن خرج به من الدنيا .

شقى طوال عمره ، هكذا ردد دائما ، لم يمض الى طبيب قط ، لم يزر مستشفى أو وحدة صحية ، كان اذا شعر برجفة ، أو ألم ، يأكل الثوم الاخضر الطازج على الريق ، أو يداوى نفسه بأعشاب شتى عرف أمورها من هنا وهناك .

عندما سمح له صاحب الارض القبلية ببناء كوخ طينى عند حد الزراعة الموازى للطريق ، ليتخذ منه سكنا ومقرا يطل منه على الرائح والغادى ، أو من يبغى الحاق ضرر ما بالزرع ، ليحوش أى غريب قد يأوى خفية بين عيدان الذرة ، بمجرد أن أتم السقف بيديه ، سعى الى اتمام نصف دينه .

عندما قصد أباها ، كان على باب الله ، أرزقيا ، بسط حاله وفسر أمره ، قال لوالدها السقاء :

ـ بنتك فى رقبتى .

هذا ماتمناه السقاء ، فالعمر يتقدم به ، وظهره يميل وينحني، لم تعد الصحة مواتية ، والدنيا وحشة ؛ خاصة أن البنت وحيدة ، لا قريب أو بعيد .

بعد رحيل أبيها فجأة ، لم يعد لها الا رجلها هذا ، غير أنها لم تنجب ثلاثة أعوام ، عللت الانقطاع عن الحلقة بما جرى لأمها ، إذ قضت أربع سنوات حتى حملت ، ولأن قلقها كان بالغا ، مضت الى أحد المشايخ المشهود لهم ، كتب لها حجابا تعلقه على صدرها ؛ أوصاها بأمور معينة نفذتها بدقة ، كما استجابت لوصفة امرأة عجوز، فتحينت الفرصة حتى خطت فوق رجل ميت لم يدفن بعد ، كان غريبا يعمل فى وابور الطحين ، كان ينام فى عشة من البوص ناحية الجسر ، يبدو أنه نسى اللمبة الصغيرة مشتعلة وسقطت فوق القش الذى يغطى به الارض ، هكذا قيل ، عندما مددوا الجثة المحترقة خطت فوقه مرتين .

مع بدايات العام الجديد انتابها دوار ، وعافت نفسها اطعمة ، وتاقت الى أخرى ، الحق أن الرجل لم يقصر ، راح وجاء ، طرق باب هذا وذاك ، منعها من الخروج لحمل الأوعية ، أو ملء الماء ، كان حنونا ، كريما مع وعورة أحواله ، يضيق على نفسه باللقمة ، لا يأكل الا ما يتبقى فى البيت ، هذا حاله منذ أظلهما سقف البيت ، أما فرحته بمجيء المولود فما تزال تذكرها فى قعدتها هذه ، كأنها ترى اللحظات المولية ، النائية ، أمامها .

لن تنسى أبدا جريه حتى بيوت القرية يوم أن جاءها المخاض ، اجهاده المشبع بالفرح ، وتطلعه الصامت الى ابنه .

ـ « والله لأربيه أحسن تربية .. » .

كان يقول دائما أنه يطلب من العلى القدير أن يطيل عمره ، أن يمد فى أجله حتى يراه واقفا على قدميه ، أن يجنبه ما رآه ، ما كابده هو ، مع توالى السنين بدا واضحا أنه هو فرحتهما الوحيدة ، لم ينجبا غيره ، وضع أمام عينيه مقصدا ، أن يتلقى الولد تعليما ، ألا يعرضه للمهانة ، وبقدر فرحه بصحبته له ، بقدر ما حرص على ابقائه بعيدا عند زيارته لصاحب الارض ، أو بعض الاعيان فى الناحية ممن يعطفون عليه ، أو يهبون له المساعدة ، من زكاة المال ، أو فى الأعياد والمناسبات ، وعندما كان أحدهم يهبه بعض الملابس المستعملة التى لم يعد لأولاده حاجة بها ، كان يأخذها تأدبا ، لكنه لم يقدمها الى ولده قط ، لم يرتد ابنه الا لباسا جديدا .. كان يعمل فى الارض

طوال اليوم ؛ واذا سمع عن أحد فى حاجة الى عمل مؤقت بالقرية يمضى فورا ؛ كأن يشارك فى بناء ما ، أو تفريغ حمولة ، أو الخدمة فى عرس ، أو مأتم ؛ وفى أيام بطلان العمل فى الارض يسعى الى البندر القريب ؛ يغيب اليوم كله ، لكنه لا يقضى الليل بعيدا عن ولده وامرأته ؛ يعود ومعه طعام ، لم يكف ، لم يهدأ ، كان كالنحلة ، ويوم حصول ابنهما ، الحبيب ، الطيب ، الهادىء على أول مرتبة ، جاء الأب وقعد بجوار الأم ، ربما فى نفس المكان الذى تلزمه الآن ، طال صمتهما ، هكذا اعتادا ، فى لحظات الفرح القصوى ، فى لحظات الحزن الأشد لا يتبادلان اللفظ المسموع ، أو العبارة المصاغة ، ما عنده يصلها وما لديها يبلغه بدون محاورة .

ـ « أشعر أن الله عوض علينا .. »

الولد نبتة طيبة ، طالع لأبيه ، وفى أيام الاجازات كان يبدى لرغبة فى الحصول على عمل مؤقت يساعد به ، لكن الوالد يجيبه ..

ـ « انتبه يا ولدى لدروسك وربنا يقلونى .. »

وعندما نزل الى الغيط ، وحاول أن يخفف عن والده ، أبى لرجل واقسم ، هل كان يبذل الجهد الا ليجنبه ما شقى به هو ؟ ، لم يكن الولد مدللا ، مع أن أمه تخشى عليه من سريان الهواء ، من أولاد الحرام ، من كل ما يمكن أن يلحق به السوء .

كان الولد يعى ضنكهما ، يؤرقه انه غير قادر على المشاركة ، خاصة أن الحياة تتزايد صعوبتها ، والاحوال لم تعد تمضى كالزمن القديم ، ضنا على نفسيهما حتى بالفراش ، اشترى أبوه لوحا خشبيا ، ومرتبة ، وملاءة ، وغطاء ، أصرا على أن يكون هذا مرقده ، أما هو فاعتادا افتراش حصيرة قديمة ، يقول الوالد ضاحكا انه لا يريح جنبه الا الأرض ..

فى ليالى سهره لا تغفو أمه ، تقعد صامتة ، لا تأتى حركة حتى لا تزعجه ، تنشط اذا طلب منها شيئا ، كوب شاى ، اللمة ، لم تنم فى حضوره ، تغمض عينيها بعده ، تفتحهما قبله ، لو أقلق فى عمق الليل تصحو ، كأن ركنا خفيا من جهازها العصبى متصل به ، لم ينفصل عنه ، طوال ليالى سهره ، تمسك لمبة نمرة عشرة تحملها على مقربة منه لتضيىء له السطور والصفحات ، برغم ارهاقها اليومى كانت دائما راغبة فى بذل المجهود ، وعندما امتدت أسلاك الكهرباء فى النواحى ، وتخللت الأبراج المعدنية الحقول ، لم يكن

عسيرا مد سلك ينتهي بمصباح كهربائي ، كان مريحا لعينيه ، ساطعا في العتمة ، أثناء قعدتها يقول لها فجأة ..

ـ « بعد شغلي ، أجيب لك تليفزيون تشوف فيه الدنيا .. »

عندئذ تقول :

ـ « تجيبه لبيتك يا ولدي .. »

كانت ، وكان أبوه ، يتمنيان ، يطلبان من العلي القدير أن يصلا به الى الشهادة العالية ، لكن الزمن أصبح غير مساعد ، ظهر الأب بدأ يميل ، والطورية لم تعد تطاوع يده ، أصبحت ثقيلة على ذراعه ، والحاجات في غلاء دائم ، القرش الذي كان يكفي بالأمس صار قاصرا اليوم .

هنا أقول أنني لم أر هذا الفتى ، لم التق به قط ، لن أصغي الى صوته أبدا ، كل ما شغفته ثلاث صور تمسك بثلاث لحظات من زمن دراسته ، أطلعني الأب عليها قائلا ..

ـ « كان زينة الشباب .. »

والله كأني عرفته ، كأني عايشت بعض أيامه في هذا البيت الطيني ، المتواضع ، بل أزعم أنني اطلعت على بعض خلجاته ، ولحظات من توحده ، توارد الخواطر عليه ..

اعلموا يا صحب أن قلبي كان على ابي ، كما كان قلبه على أبيه ، كذا الرغبة في تخفيف الحمل ، لذا لم يكن عسيرا على ادراك ما كان ، الجوهر واحد وان اختلف الظرف .

كرر دائما رغبته في شيل الحمل عن أبيه ، حدثها عن سرير سوف يشتريه ودولاب ، عن ترتيب البيت ، بياض جدرانه ، عن فتح نافذة على الجدار البحري ، الطريق الى الجامعة طويل ، أما المدرسة الزراعية فثلاث سنوات لا غير ، ستمضي بسرعة ، يلتحق بعدها بالعمل ملاحظا زراعيا في المنطقة ، لن يضطر الى التغرب ، سواء في دراسته أو بعد عمله ، المدرسة قريبة .

قال الأب ان الخيرة فيما اختاره الله ، كان بوده أن يمضي معه حتى نهاية الشوط ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، وقتئذ لم يكن يرجف الأم الا احتمال بعده عنها ، لكنها لم تفصح ، لم تهن أمامه أو تضعف ، حتى لا يطرق دربا على غير هواه .

يعلم الله كيف انقضت هذه السنوات الثلاث ، أعوام ثقيلة ، طويلة ، غير أنها مرت ، انطوت بما حوته من مشقة ، وضني ، غير

ان الايام اذا كانت تذهب بالصعب ، فانها احيانا تأتى بالأصعب .
أو كما قيل :

ومن عادة الايام أن صروفها اذا سر منها جانب ساء جانب

الوظيفة لم تنتظره بعد حصوله على الشهادة ، بدأت تسمع من كثيرين سبقوه وما زالوا فى بطالة ، وان خريجى مثل هـذه المدارس يفيضون عن الحاجة ، وان الحكومة تتراجع فى تعيينهم .

مضى أبوه الى صاحب الأرض وهو رائج الحال ، له بالجهات صلة ، وعده خيرا ، ذهب ليطرق باب عضو الهيئة البرلمانية عن الناحية كلها . ولكن ما من فرج لاح ، وما من حل بدا .

كانت أمه تلحظ ضيقه ، تدرك امره ، تود لو أعانته ، لكن .. كيف ؟ : ما آلمها ، ملاحظتها حرصه ، أنه يعمل حسابا للقمة التى يأكلها ، بل انه يتحرك كضيف ، كأنه قريب ، زائد عن الحاجة ، مكسور الخاطر ، يتجنب الحديث الى والده مع أنه لم يقصر ، سعى الى هنا ، الى هناك ، لكن الدائرة واسعة ، وبصره لا يدرك الحواف ، قال يوما أن الشغل ليس عيبا ، وأنه سيقصد البندر ، سيعمل اى شىء ما دام بعيدا عن المهاوى ، ليته لم يذهب ليته بقى فى البيت ، بل .. ليته لم ينه دراسته ، فى احدى الليالى عاد مبتهجا ، تذكر أمه ملامحه المرهقة ، قال انه حصـل على عمل بالمدينة القريبة . أفضل من انتظار الوظيفة بطالا ، قال انه يقطع التذاكر فى السينما الصيفى ، الدار الوحيدة فى المدينـة ، المشـكلة أن عمله يقتضى السهر ، الطريق ينقطع فى الليل ، لا يمكنه العودة الا اذا استأجر عربة ، هذا لا يقدر عليه ، لحسن الحظ أن صاحب السينما وافق على قضاء الليل فى دار العرض ، فى الصباح يعود الى والديه ، يمضى معهما ساعات النهار ، كان يصل دائما مجهدا ، وبمجـرد تناوله اللقمة يحط رأسه ، ينام ، لا يوقظه قرع الطبل ، تطل عليه ، بحرص تبسط يدها ، تحيطه بالرقى والتعاويذ والأدعية .

لن تنسى أبدا يوم مجيئه بأول خيره ، بدا متهللا ، جاء بحلوى ومنديل جديد تعصب به رأسها ، بسط يده الى ابيه بورقة مالية ، عشرة جنيهات فيما بعد أمسكتها ، وحدقت فى رسومها ، قبلتها ودعت له بالستر وحمايته من أولاد الحرام ، لن تنسى ملامح ابيه ؛ لحظة استناده الى الجدار ، لزومه السكينة ، نزول الصمت عليه ؛ تحدنقه الى الورقة المالية أم عشرة ، كأنه لا يدرى ما يقول ، هذا

.أول خير من وحيده ، ألولد لم يحتفظ لنفسه الا بجنيهات اربعة ، مصاريف الطريق .. لكن يا ليت دام ذلك !
لسبب ما اغلقت دار العرض ، وقيل انها ستتحول الي ورشة نجارة ، لم تدم فرحة الابن ، لكنه لم يشأ العودة الى قعدة البيت ، طال غيابه فى المدينة لم يفض لوالديه ، غير انهما ألما بما كان فيما بعد من أقرانه ، وممن عرفوه ، وممن جاءوا اليهما لبث كلمات الصبر ، وابداء الشفقة ، ليته لم يفارق .
تقلب فى اعمال شتى ، خدم فى مقهى ، وحمل أجولة القمح فى مخبز بلدى ، ونادى علي سيارات أجرة في موقف المحطة ، باع علب الكبريت واربطة الأحذية والأقلام فى القطار البطىء ، وعمل عدة أسابيع فى معرض مؤقت للكتب أقامته جمعية الشبان المسلمين ، حاول الحصول على القرش الحلال لكن لم يستمر شيء من هذا ؛ بعد أن انقضى وقته ، علمت مصادفة أن بعضهم ضربه ، هددوه أن عاد للعمل مناديا على عربات الأجرة امام المحطة ، عندما أيقنت صرخت ، « ياولدى » ، رفرف قلبها فى صدرها ، كيف تلقى الالم ، أكان يعانى ما لا طاقة له به ؟ ، كيف تحمل ؟ هو ضئيل الجسد ، نحيف البنية هو الذى لم يضرب مخلوقا قط ، اشفقت ، رثت حتى بكت مع انه كان نائيا ، النأى كله ، بعيدا ، قصيا ، لا يمكنه أن يسمع ، لا يقدر أن يرى بعد انتقاله الى العدم .
ليته لم يرحل ، مر يتلوه مر ، وشقاء يتبعه شقاء ، لكنها لم تعتد التدخل أبدا فى اموره ، ولا ابداء الراى فى صحبه ، فلم يلح منه الا ما يطمئنها لم يرفع صوته فى مجادلة او مناقشة ، لكنه عندما قعد امامها ، وقال أنه لا مفر من السفر لم تدعه يكمل ..
ــ لا يا ولدى ..
لا ، البعد جفا والغربة صعبة ، لا ، انها لم تطق مجرد تصور انه فى ناحية وهى فى ناحية أثناء دراسته ، فكيف يغيب عنها فى بلد آخر ؛ بلد لا تعرف عنه شيئا ، هذا ما لم تتصوره يوما ، ولا ترجوه ابدا ، هل ضاقت السبل ؟ هل شح الطعام ؟ ، هل انعدم موضع الرقاد ؟ أبدا ، أبدا .
قال أن الحكومة توقفت عن تعيين امثاله ، ولابد من واسطة قوية لا هو ولا أبيه يعرفان الطريق اليها ، عدد من أصحابه سبقوه ، بعد شهور من سفرهم فاض خيرهم على اقاربهم ، بل ان بعضهم بدأ يبنى أو يعيد بناء بيته القديم ، أن وضعه جيد ، انه [illegible] ،

معفى من اداء الخدمة الالزامية ، لم يغب فى الجيش السنوات التى كان لابد من غيابها ، فلتعتبر مدة سفره غيبة مماثلة .

لم تلن ، لم تهن ، جادلته ، هذه بلاد بعيدة ، ظروفها غير الظروف ، وناسها غير الناس ، هناك سيكون بمفرده ، وحيدا ، ضعيفا ، حتى لو كان فى صحبة ، تفور الغربة وسنينها ، ما لديهم يكفى ولو كان قليلا ، هل حدث أن ناموا ليلة بدون طعام ؟

قال انه ما زال يفكر ، لماذا تحزن ؟ هل رأته يحزم حقائبه ؟ ، بعد أسبوع ، لا .. بل عشرة أيام جاءها متهللا ، التحق بعمل فى البندر ، كاتبا فى شركة نقل ، هدأت ، دعت بتيسر الاحوال ، لمدة سنة لم يطرق موضوع السفر ، أحيانا يخبر عن صاحب له غادر متجها الى هذا البلد أو ذاك ، فتصمت مخافة أن يتطرق الى مناقشة ، لكنها فيما بعد أدركت أنه كان يدخر بهدوء فى مكتب البريد ، وأنه يقتر على نفسه حتى يجمع ما يجب أن يدفعه لمكتب السفريات فى عاصمة المحافظة ، لم يكن ثمة مفر من دنو تلك اللحظة التى تستعيدها مرارا فى تلك القعدة ، تذكرها بأسى ، بخوف ، كأنها ستحل ، مع أنها كانت وانقضت .

لما أيقنت من وقوع القدر ، حاشت نفسها عن ابداء الدمع ، قالت لنفسها ، اذا كان ولابد ، فليسافر ومعه صورتها باسمة ، مشجعة له ، يا عالم ، متى يلتقى الحى بالحى ؟.

رتب حقيبته ، وأوصته ، وتمنت له ، وفى الليل ولت وجهها شطر الجدار ، عضت شفتها ، ونزلت دموع عينيها ، حتى الفجر لم تكف ، لكنها عندما وقفت فى بداية النهار تحمى الفرن ، وترمى الحطب داخله ، حرصت أن تمنع دموعها ، وأن تظهر البشر ، أعدت الفطير ، واللبن ، وجبنا حلوبا ، تظاهرت أنها تأكل وأنها تبلع ، وعندما ضمها اليه بقوة ، مالت لتقبل .. يده ، أليس وحيدها ؟ أليس هو حصاد العمر ؟ فوجىء ، انها المرة الاولى ، سحب يده ، قبل رأسها ، قال انه يسافر من أجلها ، تمنت لو قالت له ، اذا كان الغرض هى فانها كارهة لسفره هذا ، ليبقى ، ودت لو تقول له ، صعب عليها غياب طلاته ، رحيل حضوره من البيت ، لكن .. لم يبدها من الأمر شيىء ، كان أبوه صامتا ، كأن أيادى خفية تحركه ، لو حل بينهما الآن ، فلن يعرف والده ، تضعضع الرجل ، مال ، وزاغت عيناه ، لم يعد قادرا على حمل الطورية أو السعى الى بيت صاحب الأرض للخدمة ، صار يجول فى شوارع القرية ،

ينتظر عند باب الجامع ، يردد على مسمع من الخلق برنة باكية ، أن ضناه عمره « ماعيى » ، عمره ما اشتكى ، وانه لو عاش لكان عنده الآن كذا ، كان نفسه أن يرى أحفاده قبل رحيله ، ولكن صاحب الأمانة استرد أمانته ، فهل يعترض ؟ هل يكفر على آخر العمر ؟ ، صار أبوه يخاطب من يعرف ومن لا يعرف ، يسأل الناس ويمد يده ، وهذا ما لم يفعله قط طوال حياة الفالى ، فأخشى ما خشيه ، أن يسمعه احدهم كلمة عندما يكبر ، ولكنه الآن هائم على وجهه ، بل احيانا يغيب ولا يرجع الا بعد منتصف الليل تاركا امرأته وحدها ، لكنه لم يقض الليل بطوله بعيدا أبدا ، بعد وصول جثمان المرحوم فى صندوق ، راح الأب يكتب الى جهات شتى ، الى وزارة العمل ، الى الشئون الاجتماعية ، الى الصحف ، كان يقعد الى أحد أصدقاء ابنه ويملى شارحا حاله ، ثم يقص عن ابنه ، ثم يطلب المساعدة ، فالقوى وهنت ، ولم يعد بمقدوره ، والى الجريدة التى يعمل بها صاحبى وصل أحد خطاباته ، وعندما اقبل علينا ، بقيت الأم فى قعدتها ، وبادرنا قائلا : ان ولده كان جميل الصورة ، حلو اللسان ، لم ينطق العيب قط ، لم يخلف وراءه ضغينة ، وانه لم يذهب الى طبيب فى حياته ، لكنها ارادة الله ، ارادة من بيده الأمر ، قال الأب اننا أول من نستجيب لضراعاته ، لشكاواه ، ثم انقلب الى داخل البيت فجأة ، عاد ملوحا بخطاب ، قال ان اقامة ولده لم تدم ، وانه لم يرسل الا خطابا واحدا ، ليس له ثان ، قال فيه انه بخير ، وانه مع صحبة طيبين ، وانهم يعملون فى مقهى ، صاحبه يحب المصريين ، عاشق لصوت أم كلثوم ، ولمحمد عبد الوهاب ، وانه يسمح لهم بالنوم فى حجرة ملحقة بالمقهى ، وانه تعرف على مصريين كثيرين هنا ، وكلهم يد واحدة ان نومته مريحة ، واكله جيد ، وعما قريب سيرسل اليهما كسوة الشتاء ..



وهــذه حكايــة تزيـــف ؟؟

.. اعلموا يا صحب : يا من ستقيمون الصلة بي عبر حروف تلك ، أن عددا قليلا جدا من الناس يذكرون الآن هذا المهندس الذى تخصص فى علم طباعة الكلمات والتصاوير . قليلون اولئك الذين يذكرون شيئا ولو يسيرا عنه ، أو يرد على أفئدتهم طيف عابر منه ، أو يستعيدون جملة عابرة نطقها يوما ، أو معنى أفضى به ، يمكننى القول عن ثقة .. أن بعضا ممن انتسبوا اليه نسوه ، لم يعد يعنيهم الا صرف معاشه ، أو مكافاة من هذه الجهة أو تلك ، اذ تقلب فى اعمال شتى .. داخل مصر وخارجها ، لا أبالغ ، وانى لقاص عليكم من أخباره شيئا اذ عرفته على فترات متباعدة ، وأحيانا عن قرب . سمعت منه ، وعنه ، لذا أحطت بأموره علما . وما لم أعاينه خمنته ، واستنتجته .

اعلموا أنه يكبرنى باثنتى عشرة سنة ، ولد فى بيت من طابقين بحارة صغيرة ، سد ، لا تؤدى الى اى شارع أو درب ، تقع قرب قلعة الجبل ، يمكن للواقف عند مدخلها ان يرى مآذن مسجد محمد على . من يومه بدا هادئا ، لا يبدى أمور الشقاوة التى يعرفها الصغار ، ومما ردده أبوه عنه .. أن الولد فالح من يومه ، لم يلعب فى الشارع . لم يشط ، لم يتسبب فى مشكلة مع الجيران ، كتب اسمه على لوحة الشرف . فى المرحلة الاعدادية ، كان بارعا فى الرياضيات ، واللغة الانجليزية ، تنبأ له اساتذته بمستقبل نضر ، اما فى الطب واما فى الهندسة .

فعلا التحق بالهندسة ، وبعد تخرجه عمل فى المطبعة الأميرية ، كان ممكنا أن يمضى بها حياته ، يترقى من درجة الى درجة ، لكن حدث أن مدير أحد الأقسام استقال يوما ، وقيل أنه عمل بمطبعة صحفية كبرى ، وانه يتقاضى ضعف مرتبه ، بعد شهور من استقالته التقى به فى ميدان سليمان باشا .

كانت نزهته الأسبوعية المفضلة الى وسط المدينة ، يمشى من القلعة الى شارع محمد على ، فميدان العتبة ، يعبر ميدان الأوبرا ،

الى الشوارع المضيئة يتفرج على الواجهات ، يتابع الفتيات ، يقتفي خلواتهن واهتزاز أردافهن بنظراته لا غير ، حتى اذا أعجبه قوام ، أو حضور انثوى طاغ ، ثبت ملامحه فى الذاكرة ، عند عودته . قبل نومه يتمدد على ظهره ، يسترجع القسمات والخطوط المحددة والتأود اللين ، يضاجع الصورة المستدعاة .

أمام دار سينما التقى بزميله ، سأله عن الاحوال ، فقال انها طيبة ، قال بعد ثوان من الصمت :

ــ والله أنت ابن حلال ، هل تصدقنى اذا قلت اننى كنت انوى الاتصال بك ؟

ــ خيرا !

طبعا كل خير ، اقترح عليه أن يأتى معه ، العمل فى حاجة الى من هم مثله ، الظروف أفضل ، المرتب أحسن ، فرص الترقى مفتوحة ، امكانية السفر الى الخارج متاحة .

أصغى ، لم يقل نعم ، لم يقل لا ، اقترح صاحبه ان يفكر ، تلك مواعيده التى يمكن أن يزوره خلالها .

هذه الليلة رجع مشيا ، ذهنه خلو من اى وجه مليح ، أو قوام تثنى فى مجال ناظره ، مشغول ، مهموم بما سمعه ، من طبعه الا يتحمس فورا ، الا ينفعل للتو ، انما يأخذ مايقال له بحذر ، وعندما يحسم الامر تتدفق حماسته .

اطلع أباه ، أطرق الرجل ، طلب منه انتظار الجواب الى مابعد صلاة الجمعة ، بعد قراءة سورة الرحمن ونيل بركتها ، فكر واستخار ، ثم قال لابنه :

ــ اعزم وتوكل !

نصحه أن يحزم أمره ، المستقبل كما هو واضح .. اكثر اتساعا ..

فى هذه الليلة نام يتعجل مجىء النهار ليمضى الى زميله القديم .. سعى اليه ، لم يجده ، فى اليوم التالى كان غائبا أيضا ، قال لنفسه اذن يبدو النصيب وعرا ، اذن لينصرف بعد أن يخط له خطابا ، اذا كان فى حاجة اليه فعلا ، فليرسل اليه .

عند باب المؤسسة فوجىء به أمامه ، اعتذر ، اضطر للذهاب فجأة الى المطبعة القديمة ، صحبه الى داخل المبنى ، جال به ، أبدى راحة لما رأى ، وما سمع ، لم يمض شهر واحد الا وتسلم عمله .

بدأ سعيدا ، متفانيا ، باذلا الهمة ، توثقت صلته بزميله هذا

الذى تمت النقلة على يديه . خرجا معا فى نهاية الاسبوع . وعندما دعاه الى بيته لبى ، ولما استقر فى غرفة الاستقبال ، نفذت اليه رائحة الاستقرار . وجود أسرة الستائر المسدلة ، الهدوء ، الاثاث النظيف ، الكلمات الهادئة المتبادلة بين الزوج والزوجة ، لكن كما قيل الحلو لا يكتمل . عرف انهما لم ينجبا ، وأن أعواما عديدة مضت ، وفيما بعد لايدرى كيف علم أن العيب من الزوج .

حتى ذلك الوقت كانت الشواهد كلها تؤكد انه لم يعرف امرأة ، لم يدخل فى علاقة ، كان اذا لفتت نظره انثى يخفى اعجابه . بل يخشى ان تفلت منه ايماءة او نظرة ، أو تتلون كلمة من لفظة تشى ببعض مما يكتمه ، هذا ماعرف عنه ، وكان لزوجة زميله هذا — أو بمعنى أدق رئيسه فى العمل — شقيقة تصغرها بعامين . تخرجت فى كلية التجارة ، ولم تعمل بعد .

الحق اننى لايمكننى القطع ان كانت المصادفة مدبرة ، أم ان الامر تلقائى ، المؤكد انه لقى نفسه بمفرده مرتين فى مواجهتها أثناء تردده للزيارة ، لمدة قصيرة جدا ، لكنه ارتبك ، لم يدر ماذا يقول . خاصة عندما سألته عن عدد قطع السكر التى يفضلها فى الشاى ، وقربت منه طبق الفطائر ، بعدها لزمت الصمت ، اطرقت حيية ، غير أن نظرة مارقة ، عابرة ، كانت كافية أن يحتويها ، ويحيط بحضورها .. يتمكن منها ، هكذا قال لنفسه : انها جميلة وأهلها ناس طيبون .

بعد الزيارة الرابعة عزم أمره ، وتوكل . قال والده ان الخيرة فيما اختاره الله ، المهم .. الاخلاق .

طوال فترة الخطبة التى استمرت عاما وثلاثة أشهر ، اعتاد الذهاب كل يوم جمعة لتناول الغداء بصحبة أسرتها ، كانت تقعد الى جواره أثناء تناول الطعام ، تبدى اهتماما به . تداعبه أمها ، توصيه بابنتها خيرا . ثم تفيض فى الحديث عن خصالها ، عن سماتها ، وخجلها القديم ، تطرق الابنة ، ترجو أمها أن تكف .

لم تتح له فرصة الخلوة بها فى البيت ، لكنه عندما خرج بصحبتها أول مرة داعيا اياها الى أحد المقاهى الافرنجية على النيل ، أسلمت له يدها ، فسرى عبر شرايينه دفق جديد عليه ، وان حار فيما يجب قوله ، حتى أن اللحظات الاولى انقضت بدون ان ينطق حرفا ، ربما اجتهد فى استدعاء حوارات دارت أمامه فى الافلام ، أو ما قاله زملاء الدراسة عن مواقف كهذه ، ضرورة تشابك الايدى ،

والمرور بمهل على راحة اليد ، هذا مما يحنق الصاحبة ، اما الكلمات فلابد ان تعنى بمظهرها ، بطريقة تصفيف الشعر ، لكنه لم يطرق شيئا من هذا ، انها خطيبته ، ستصير اما لأولاده ، ليست مغامرة عابرة .

حدثها عن الطريق الذى اعتاد ان يسلكه ، عن الشقة ، عن اثاث البيت ، وما يجب اعداده وتجهيزه ، وما يمكن تأجيله الى مرحلة تالية .. مع اقتراب عقد القران والدخلة تحدثا طويلا عن المدعوين ، من يجب دعوته من اقاربهما .. من ناحيته هو قال : لن يأتى الا والده وشقيقته الصغرى ، معظم اقاربه فى الصعيد لو فتح الباب لجاء العشرات .. لضاق المكان بهم .

يبدو انه قال ماقاله ليقابل بفعل مماثل ، تكاليف الفرح سيتحملها هو ، انها ليست هينة ، كان ممكنا أن تقل لو أقيم فى دار النقابة ، غير انهم ابدوا عدم رضاء ، أختها الكبرى تزوجت فى النادى ، ان لم يكن المكان افضل فليس اقل ، الحقيقة انها لم تجهر بالرفض ، لم تقل نعم ، لم تقل لا ، لكن عدم الرضا بان عليهـا خاصة عندما حادت بنظراتها ، عندئذ يطوى كل ماقرر التصريح به ، اشتداد النفقات .

الحق انهم اثقلوا عليه ، وحملوه مالا يطيق بمقاييس هـذا الزمن ، لكنه لم يتسبب فى اى مشكلة ، لم يعترض مدفوعا برغبته فى رفع رأس البنت أمام أسرتها .. فى الظهور بما لايقلل من شأنه . كما أنه أخفى عن والديه التفاصيل ، ردد دائما أن كل شىء يمضى على مايرام ، وانهم قوم كرام ، مع انه ضاق احيانا ، حتى فكر فى فسخ الخطبة .. فى التراجع ، وهو مازال بعد فى البداية .

حدث ذلك مرات ، ولأسباب مختلفة ، منها على سبيل المثال ماجرى عند التفاهم على الشبكة ، اصرارها على أن تكون مما يليق ، الا تقل عن تلك التى قدمت الى شقيقتها ، أسورة من الذهب محلاة بجنيهات جورج الخامس ، الا يقل عدد الجنيهات عن سبعة ، وخاتم من الذهب الابيض عليه فص ماسى ، لايقل عن اثنى عشر قيراطا .. هذا ماجاء لشقيقتها . طبعا اذا أضاف من عنده فهى عروسه . وكله يعبر عن تقديره لها ..

لسنوات تالية لم ينس عصر ذلك اليوم الذى اعلنت فيه الام مطالبها ، بعد شرب الشاى تراجعت قليلا الى الوراء ، لم تتخل عن ابتسامتها المجاملة ، غير ان كلماتها بدت محددة ، حاسمة ، ايقاعها

اصولى ـ لايمكن مناقشته ، هز راسه مرات . لم ينطق ، لاحظ انسحاب خطيبته عند بدء الكلام ، اما الاب فاطرق صامتا ، راح يدحرج حبات مسبحته ، وعندما أمعنت الام فى التفاصيل ، قال الاب :

ـ ياستى .. دعيه هو يختار ..

لوحت بيدها :

ـ والنبى لتسكت .. أنا لم يعد عندى غيرها ..

هو نفسه تحدث فى جلسة أخرى ، بينما لزمت الام الصمت ، بدأ يذكر مثل شائع ، ثم اتبعه بمثل آخر « الله ، الله على الجد ، والجد الله الله عليه ، الطريق اللى أوله شرط آخره نور : انه يرى فيه ابنه ، هو الذى تمنى ولدا ذكرا ، لكنها ارادة الله سبحانه وتعالى ، الذى يعطى ويمنع ، انها الوحيدة الباقية ، ربنا أكرم شقيقتها بالزوج الصالح ، وبيتها عامر الان ، طبعا أنت زرتهم وشفت .. »

لم تخف ـ نبه الاشارة ، وعندما بدأ التصريح كتم ضيقه ، ما آله ، مانال منه ، هذه اللهجة الباردة المحددة ، التى تحمل من النذر بقدر مافيها من تفصيل . تحدث الرجل عن الشقة ، عن ضرورة أن تكون من أربع غرف ، لابد من عمل حساب المستقبل ، هناك أولاد سيجيئون باذن واحد أحد ، ثم أشار الى الاصول .. أكد انه لن يبخل بجهد على ابنته ، ليس عنده الان غيرها ، المطبخ كله من واجبات العريس ، أيضا سخان الحمام ، والنجف والسجاد ، السجاد بالذات يفضل أن يكون ست عشرة عقدة ، كذلك الستائر عليه ..

هنا قالت الام :

ـ « ودولاب الفضيات .. »

أشار الاب بيده :

ـ « بعد ، بعد ، هذا من الكماليات ، طبعا هو حر ، انه بيته .. »

أكد مرة أخرى على السجاد ، السجاد بالذات ، اليدوى أفضل ، قيمته فيه ، كلما مر عليه الزمن ازداد سعره ، تماما كالذهب ..

قال انه لابد من تكسية الجدران بورق حائط قابل للغسيل ، أما النجف فلابد أن يكون من الكريستال الحقيقى ، الصاق ، هناك

انواع من البلاستيك يظنها من لاخبرة له انها كريستال ، لكنهـا ليست كذلك ، لذا يجب الانتباه .
الوسائد .. مرتبة السرير .. تنجيد مقاعد حجرة الاستقبال .. أوانى الزهور .. من مسئولياته . أيضا فانه لا ينصـح بموقد محلى الصنع ، من الافضل أن يكون مستوردا ، يمكن شراؤه مـن السوق الحرة بالدولار ، لا يسألون عن مصدر العملة الصعبة الان ، اما الدولار فمتوافر فى السوق السوداء ، مهم الموقد جدا .
ـ « ياسلام لو أمريكي الصنع .. »
صحيح ان السعر مرتفع ، لكن الغالى ثمنه فيه .
ـ « عند شقيقتها موقد ممتاز يعمل بالبوتاجاز والكهرباء .. »
كان اصغاؤه الى هذه التفاصيل ثقيل عليه ، يومىء متمنيـا انقضاءها بسرعة ، بل انه ينكمش فى جلسته ، يلملم ذاته ، يتساءل ، لماذا يعاملونه هكذا ؟ لم يشأ اغضابهم ، لم يرد طلبا مادام فى قدرته ، لكن لماذا يضغطون ؟! لماذا تبدو كلماتهم حادة ، صارمة ؟! تفاصيل تؤدى الى تفاصيل ، والتلميح لايدوم ، انما يسفر عن تصريح حاد ، محرج ، ملزم .
كان ينصرف عند الزيارة وعنده كمد ، وثقل داخلى ، ود لو افضى اليها بعتاب يسير ، الا تدرك ظروفه ؟ الم يتعاهدا على استكمال بيتهما خطوة ، خطوة ، لايبخل ، لايشح ، لماذا يحمل بما لا يطيق ، لماذا تتوارى مبتعدة عند بدء الحديث فى الاثاث .. والستائر ، وادوات المطبخ ، ومكان اقامة الفرح ، انه يضطر الى تبديل الخطة ، يضطر الى الاقدام على ما كرهه منذ تخرجه ، أن يلتحق بعمل اضافى فى مطبعة يمتلكها رجل ثرى عنده مصنع للصابون ، وشركة لعربات النقل ، كان بحاجة الى من يثق به ليدبر له أمور المطبعة التى ورثها عن أبيه ، اضطر الى التضحية بساعات فراغه وراحته .
لسنوات طويلة ، كره النظر الى الاسورة الذهبية المحلاة بسبعة جنيهات ذهبية من عصر جورج الخامس ، كان ثمنهامرتفعا أخل بما ادخره .
أثناء خطبتهما ، كان اقارب لها فى زيارة ، بعد تناولهم الغداء ، قعد صامتا ، كان لا يرتاح فى جمع غريب عنه ، يشعر أنه يقوم بدور فرض عليه ، انه خلع عنه هويته ، أودعها فى مكان غريب ، قامت حماته ، عادت بعلبة القطيفة الحمراء مفتوحة ، ترقد الاسورة فى كفنها المخملى ، طافت على الحاضرين باسمة ، راضية ، متباهية ،

سرى عبره خجل ، ود لو توارى ، لماذا عرض الشبكة ؟ مالزوم ذلك؟ تذكر يوما بعيدا عندما صحبه أبوه الى فرح أحد الاقارب ، بعد قراءة الفاتحة ، طاف شقيق العروس يعرض الشبكة على المدعوين .. اسورة وقلادة وخاتم وحلق ، كان بعضهم يمعن النظر ، يطيل التأمل ، تفحص ، يقلب ، ثم يهز راسه ، فينتقل الشقيق الى آخـــر .

لكم ود انقضاء هذه الفترة ، معللا النفس انهما بعد انتقالهما الى بيتهما ، بعد بدء حياتهما ، ستبدأ أوضاع جديدة ، وتتغير امور ، تمنى تغييرها .

هنا لابد من الاشارة الى أن أحواله فى الشهور التالية لزواجه مباشرة لايعرف عنها الكثير ، كان يبدو صامتا فى معظم الأحيان ، على ملامحه تلك الابتسامة الهادئة ، البسيطة ، المستفسرة ، والتى كانت تبدو اذ يواجه موقفا صعبا ، وبالتحديد عند الشروع فى عدوان من الآخرين ، باللفظ كان أو الرغبة فى المضايقة ، كأنه يتساءل بدون حرف ، « لماذا .. اذا كنت لم أقدم على شر ؟ » .

لكن من الثابت .. المؤكد ، انه عرف الطريق الى المقهى ، كان المقهى مرتبطا عنده — من قبل — بتبديد الوقت ، برفقة السوء ، وكثيرا ما استعاد قول والده ، انه لم يقعد بالمقهى الا لضرورة .

كان فى مطبعة الجريدة زميل له ، مرح دائما ، خفيف الظل ، عنده قبول ، صحبه يوما بعد انصرافهما ودعاه الى تناول الشاى فى مقهى يقع بالقرب من محطة الاوتوبيس ، بعدها اعتاد أن يمضى الى هذا المقهى ، كان مطلا على شارع هادىء يؤدى الى باب اللوق المزدحم .

فى البداية طابت له الخلوة ، تعرف الى عدد ، اقترب منهم واقتربوا منه ، برغم التزامه الصمت ، فانه كثيرا ما افضى ببعض من قائقه الى صاحبه كان يمتلك متجرا للعطور ، وكان من محاسنه اجادة الاصغاء الى محدثه ، هادئا ، غير ذى ضرر .. وقد كمد عليه عندما عاد من الخارج فى احدى اجازاته بعد سنوات ، وفوجىء برحيله فجأة ، هكذا بدون مقدمات .

كان يقعد فى الموضع ذاته عندما سحب نفس الدخان ، ولم يخرجه ، مال راسه على صدره ، سبحان من استرد أمانته ، لا معقب لحكمه .

كان يدخل المقهى فلا يلقى أحدا من معارفه ، عندئذ تدركه

وحشة ، يبدو قلقا ، يسأل عن فلان ، الم يظهر ؟ وفلان . الن يأتى ؟ يبدو مهموما لغيابه ، مع أن أحدهم لو ظهر وجلس اليه ربما أمتد الصمت بينهما ولا يجدان مايقولانه .

دام أمره على هذا حتى سفره من مصر كلية ، لم ينقطع عن المقهى سنوات متصلة ، وبعد عودته كان يسرع فى أول ليلة ، أحيانا ينادى المعلم عليه فيرد على الهاتف ، على الفور يعرف ، اذ يقترب يقول المعلم :

ـ « البيت .. »

كانت تسأله عن امور بسيطة ، كأن تطلب منه الا ينسى شراء بعض الخبز ، أو الشاى عند عودته ، يدرك أنها تطمئن على وجوده ، أو تنبهه الى انها فى اثره ، لا تستغرق المكالمة احيانا الا دقيقة او نحو ذلك .

بعد زواجه واذ يطول صمتهما ، تتساءل فجأة : فى اى الامور تفكر ؟.

كان يجيب : لاشىء : تبدو غير راضية ، تتساءل :

ـ هل هذا معقول ، انت لاتريد ان تخبرنى !

ثم تقول ضجرة :

ـ « كلمنى » .

فيلتفت حائرا .. تقول :

ـ « هل تقعد ساكتا فى المقهى ؟ »

تلوح ابتسامته تلك ، تشير بيدها .

ـ لا أدرى سببا لضحكك .. هل تسخر منى ؟ »

ينفى ذلك .. يقول ان الكلام يأتى تلقائيا ، بدون قصـــد ، لكن يبدو أن رده لايعجبها ، تعرض عنه ، لا تلوح الا مقطبة ، لم يكن هذا الا عين المضايقة منها ، لكم ود مضى ايامهما بدون منغصات، يحرص الا يغضبها ، خاصة أن الاسباب المؤدية الى الكدورات لم تكن الا هينة ، شدت ان تضخمها ، أو ابداء ردود فعل لا تتناسب ؛ لم تكن تبادر بالغضب الفوار الجامح ، لكنها كانت تنسحب الى داخلها فى هدوء ممض ، أو تجيبه بحيادية ، وكلمـــا أمعن فى الاستفسار ، تنفى بما يؤكد الحال .

فى الشهور التالية لزواجه كان انتقاله من حياة الى حياة ، من بيت الى بيت .. امر له جانبه الثقيل عليه ، بقدر ما انتظر من مباهج حياته الجديدة ، قدر ما ادركه أسى ، فما كان بينه وبين

والديه وشقيقته لن يعود ، خصص يوما كل أسبوع يخرج فيه من عمله ليتناول الغذاء عند والديه وأخته .. فى المساء تلقاه امراته صامتة ، تجيبه بقدر : لا تسأله عما اذا كان يريد شيئا ، لكنها تقول له وهي تولى مسرعة الى الداخل : « سأنام .. عندك الاكل جاهز فى المطبخ .. »

أصعب أوقاته وقتئذ ـ افضى الى صاحب له ـ بقاؤه وحيدا ، تغمره وحشة ، يبقى بمفرده طوال الليل ، كيف يواتيه النوم ؟.. هى بجواره وبعيدة .

فيما تلا ذلك باعد مابين زياراته لاسرته ، أحيانا كان يخرج من عمله قبل موعده بساعتين أو ثلاث ، عندئذ يهرع الى والديه ، عند دخوله يبدى العذر بعد العذر ، يتعلل بانشغاله ، وعمله ساعات اضافية ، اذ تقوم امه لتعد له الطعام يسارع اليها ، يرجوها أن تستريح ، الا ترهق نفسها ، انما جاء ليطمئن ، فى البداية كانت تستجيب ، تقول :

ـ « البيت بيتك ياولدى .. »

لكنه أدرك انه يحول بينها وبين ماتحب ، ان تعد له الطعام ، احد واجباتها القديمة ، تعرف مايفضله ، فيما بعد كان يقول بمجرد دخوله ، « انا جائع .. »

وكانت ترجوه أن يخبرها بمجيئه مقدما ، فيضحك قائلا : انه لا يود أن يعامل كضيف فى بيته ، لكنه يعى انها تفهم ، ماعنده يصلها ، بدون حوار منطوق ، وعندما يصمت ، وتطرق هى ، عندئذ يتم الافضاء والبوح ، ولحظة انصرافه يصر على تقبيل يدها ، يودع فيها مالم يقله .

عند عودته الى البيت يبدى النهم فى تناول الطعام ، حتى لاتظن امراته انه مضى لزيارة البيت القديم كما كانت تسميه ، لكم ود الا يغضبها ، ولكم تمنى أيضا الا يسبب الما لمن أحبوه بدون غرض !

لم يسفر ، لم يظهر ، ولكن من تصريحه ذى الدلالة ، ما قاله يوما لصاحب فى المقهى ، ان النساء متشابهات ، اللواتى تلقين التعليم منهن ، الجامعى أو غيره ، كذا من لايعرفن القراءة والكتابة ، غير أن صاحبه لم يوافقه ، وضرب مثلا بالمرأة ابنة البلد ، التى تلقت أسرار الحياة من أمها ، أنظر كيف تتهيأ للقاء رجلها ، كيف تنتظره عند رجوعه ، تتطيب ، وتتزين ، وتبدى الهمة .

مال عليه صاحبه ، فى الاحياء الشعبية يعرفن أسرار النكاح عند البلوغ .. هذا مهم جدا بالنسبة للرجل ، المهم أن تعرف المرأة ما يرضى رجلها .

قال صاحبه انه يعرف أحدهم ، متزوج منذ عشر سنوات ، لكنه يخجل من مصارحة امراته بما يرضيه ، وما لا يرضيه ، بعضهن يؤدين هذا كواجب ، ثم قال صاحبه انه يعرف امراة متزوجة لا تتجرد من ثيابها تماما امام زوجها ، لا تسمح له الا بأوضاع معينة ، لا ترويه ابدا ، قال انه عرفها وكان بينه وبينها [illegible]كان .. رأى منها عجبا ، تتابعت رغباتها حتي انه لم يستطع المواصلة [illegible]نهما وغرابتها ، كانت تقول انها لاتحب رائحة زوجها ، عرقه [illegible]نيع !

كان يصغى الى ما يدور حول الجنس بين صحبه ، لا يشـ[illegible] الا بقدر ، لا يلمح ولو من بعيد الى حياته الخاصة ، قال صاحـ[illegible] له فى المقهى ، متخصص فى صنع اطارات الصور ..

ــ « تصوروا انه لم يعرف غير زوجته ! »

غضب ، انقطع عن المقهى أسبوعين ، لم يرجع الا بعد أن [illegible] به ثلاثة من المقربين ، وعدوه بالكف عن مثل هذه المداعبات ، الا فى ليلة تالية شارك فى الحديث فجأة ، قال انه يعرف شخصا [illegible] زميله فى المدرسة ، التقى به بعد سنوات من تخرجهما .. راح يشكو خيبة أمله ، أعد فى مخيلته برنامجا حافلا بالمتع ، لكنه لاقى من امرأته صدودا وعدم مجاوبة ، انه يضطر الى الاستمناء أحيانا ، لم يتصور أن ذلك سيحدث وامراة فى متناول يده .. ينام ملامسا جسدها بجسده وعنه مستعصية .

توقف [illegible] كف فجأة عندما انتبه الى النظرات ذات المعنى المحدقة به ، أنهى روايته قائلا :

ــ « عالم غريب .. »

اعلموا يا صحب أنه ردد دائما ان امراته طيبة .. مهمومة دائما بالبيت ، وحاجاته ، لم تقصر قط ، خاصة بعد مجيء أولى البنات ، بكريته ، كانت أمه تسأله عن أحواله ، عن امراته ، لم تصحبه لزيارتهم الا مرة أو مرتين فى السنة الواحدة ، وعندما تجيء تتكلم قليلا ، تأكل ببطء ، حذرة ، متمهلة ، حتى انه أحرج غير مرة ، ولم يخف عليه عتاب أمه البادى فى عينيها ، فيما بعد قالت له :

ــ « ربما لم يعجبها الاكل .. »

ثم قالت :

ـ « كل انسان بما تعود عليه .. »

بعد ذلك آثر الا يصحبها ، احيانا يقول انها تعتذر عن المجيء ، فالدنيا مشاغلها كثيرة ، وهي عندها الشغل والبيت ، واحيانا تنام لشدة ارهاقها تقول امه :

ـ « الله المعين ! »

بعد عام من زواجه ، بعد احتفاله بالعيد الاول ، لم يتبق الا ثلاثة اشهر ويصير ابا ، تأخر حملها مع انهما لم يستخدما اية موانع ، لا اقراص ولا لولب ولا عزل .. كانت تردد دائما رغبتها فى الانجاب ، ويدركها رعب ان تصبح مثل اختها . كانت شقيقتها تتردد على مستشفى خاص لطبيب مشهور ، بعد اصابتها بعقم لا ذنب لها فيه ، وتفصيل الأمر انها بعد حملها اول مرة اخبرها الطبيب المعالج ان فى الحمل خطرا ، لابد من الاجهاض .

لم يكن ثمة مفر .. لكن حدث ان الطبيب اوكل العملية الى مساعده الشاب الذى كان غير ذى خبرة كافية ، ويده لم تثبت بعد ، تسبب فى ثقب الرحم .. اثر ذلك لم يتم لها حمل قط ، رقدت على ظهرها ثلاثة اشهر كاملة كما نصحوها ، غير ان الأمر بات مؤكدا ، والنتيجة معروفة فى كل مرة ، الحق ان رجلها ابدى فيضا من رقة وحنو ، خاصة بعد تأكده انعدام الخلفة ، لكن املها هى لم ينقطع ، طافت بأطباء عديدين ، حتى استقرت مع هذا الطبيب الكبير ، اجرت تحليلات وكشوفا سببت لها آلاما ، ومعاناة ، تعلقت بأمل اكتشاف علمى يوما ما يحل المشكلة لعل وعسى .

واعود الى امراة صاحبنا ، طلبت ان تكون الولادة على يدى هذا الطبيب المعالج لشقيقتها ، انه مشهور ، يستضيفه التليفزيون ، تشير اليه الصحف ، وآخر ما ذكر .. ان امراة سفير الدانمارك ارسلت اليه خطاب شكر تشيد ببراعته ، وعنايته بها اثناء اجراء عملية جراحية .. مما دعا الصحف الى التعليق معتبرة هذا فخرا يجب الاشادة به .

اصغى اليها ، لم يقل نعم ، لم يقل لا ، لكنه اخفى ضيقا ، تكاليف المستشفى مرتفعة ، لم تكن دور العلاج الاستثمارية قد ظهرت بعد ، كان عقد السبعينيات ما زال فى بدايته ، لم تلح بعد علاماته ، برغم هذا كان ذلك المستشفى معروفا بارتفاع نفقاته ، حتى تردد انهم يحسبون سعر كوب الماء المقدم ، على اساس انها

مياه معدنية مستوردة من نبع معين فى جبال الألب السويسرية !.
لم يطلب منها الذهاب الى مستشفى آخر أقل كلفة ، الامر يتعلق بمولود قادم ، كانت تلمح الى تردد شقيقتها عليه للعلاج ؛ للعلاج من أجل ماذا ؟ ، من اجل أن تحمل ، وهما اللذان أنعم الله عليهما بالخلفة ، هل سيبخل ؟ هل سيضمن ؟ صحيح ان عديله اقدم ، انه ليس مجرد رئيسه فقط ، انما عنده اعمال أخرى تدر عليه دخلا ، اذ تستعين به شركات طباعة لحل بعض ما يواجهها من مشكلات ، خاصة فى الماكينات الالمانيــة الصنع ، سنوات خبرته اطول ، انه أيسر حالا ، لكنه لم يشأ ابداء المعارضة ، المولود القادم أول فرحتها ، بل فرحتهما معاً .
هل يثير المشاكل ؟
لا .. لا داعى .
جهد يسير منه ويتوافر المطلوب ، عاد ليعمل فترة بعد الظهر ، لكن فى مطبعة أخرى ، ساعده عديله هذه المرة ، كان يتقاضى من العمل الاضافى مبلغا يتجاوز ما يقبضه من الأصلى ، فيما يلى ذلك .. ولمــدة سنوات لم ينس قط استعداداتهما لاستقبال المولود الأول ، شراء الملابس ، والمفارش ، أحذية القماش الصوفية ، أو [illegible] الرضاعة وسائر ما يلزم .
كانت فى لحظات الصفو ، تبدو وديعة ، مستكينة ، تسند ظهرها الى بعض الوسائد ، تطلب منه أن يضع أذنه على بطنها ، كان يصغى الى حركة الجنين . تنتابه مشاعر شتى لا يدرى كيف يعبر عنها . تقول هى :
ــ يبدو أنه شقى !
ثم تتوه بنظراتها فى الفراغ ، تتحدث عما ستجىء به السنوات المقبلة ، لابد أن يبدأ البحث منذ الآن عن مدرسة لغات ، المدارس قليلة ، الزحام شديد ، والوساطة مطلوبة من الآن .
تلك أفضل ، ترق ، تشف ، حتى انها تطلب منــه زيارة والديه ، ألا يهمل السؤال عن امه بالذات ، يا سلام .. يا سلام على رضا الأم ، لماذا يمضى وقتا طويلا بعيدا عنهما ، لماذا لا يمر بهما ؟ ، لابد أن يقبل أمه ، يخبرها برغبتها ان تكون بجوارها يوم الولادة ، أمه طيبة ، بركة ، لكن .. لماذا لا يمضى اليها الآن ؟.
تبدو عيناها دامعتين تأثرا ، يؤكد لها أنه سيزورها غداً ، يود لو أخبرها بزياراته الخاطفة السريعة ، لكنه لا يفصح ، فى اليوم

التالي يمضي وقتا أطول عند والديه ، حتى أنه يبدل ثيابه ويرتدى جلبابا تحتفظه أمه له وتغسله بانتظام ، تكويه وتعلقه ، يتمدد ، يغفو ، تماما كالزمن القديم ، بعد عودته ، تسأله امرأته :

ـ « أين كنت ؟ »

الله ! ، الا تعرف انه مضى الى والديه ؟ الم تطلب ذلك منه أمس ؟ عندئذ تهز رأسها ..

ـ « آه .. لكنك تأخرت .. »

ثم تطوى ملامحها ، فلا بسمة ، ولا ايماءة ، وعلى هذه الحال تتم يومها ، يدارى ما به ، انها حامل ، والانفعال خطر على الجنين..

هنا لابد من تأكيد ، انه لم يبد لها ما عنده ، لا قبل الحمل ولا بعده ، كان يكتم ، ويزفر أنفاسا حرى ، يمضى الى ركن قصى ناعيا ميل حظه وسوء بخته .

مع اقتراب موعد الوضع صارت اكثر عصبية ، أصبح هو اكثر رقة ، كل مساء يصحبها للمشى فى الشارع ، نصحها الطبيب بذلك ، كانا يقطعان الطريق صامتين ينبهها عند نهاية الأرصفة ، أو النتوءات ، أو يمسك بذراعها تلقائيا عند اقتراب غريب .

ليلة الوضع لم تكن هناك علامات غير عادية ، لكن عندما بدأ الألم المتقطع يتردد عند منتصف الليل ، نزل ، اتصل من هاتف الصيدلية المجاورة بشقيقتها ، مرت على والديها ، جاءوا عند الفجر ، وبعد أن دخلت الحمام ، تبعتها أمها ، خرجت معلنة أن علامة الولادة نزلت .

السابعة الا الثلث صباحا خرجت الممرضة من غرفة العمليات، كانت تحمل لفافة بيضاء ، بدت مبتهجة ، توقفت ، طلبت اغلاق النافذة العريضة فى نهاية الممر ، عندما اقترب منها ، أزاحت القماش .

ياه .. لم ينس هذه اللحظة قط ، المواجهة ، بين الأصل والفرع : وجه صغير دقيق الملامح ، مغمض العينين ، مصفر الوجه ، شبه شديد لم يره فيما بعد بهذا الوضوح كما رآه فى بكورة هذا الصباح ، فيما تلا ذلك من شهور وأعوام تغيرت الملامح ، كانت تقترب أحيانا ، وتنأى ، لكنه لن ينسى ابدا لحظة المواجهة الاولى تلك .

« عروسة زى القمر .. »

غمرته حالة من التأثر الغامض ، همس عديله فى اذنه أن يعطيها

حلاوة البشارة ، دس فى يد الممرضة خمسة جنيها ، عندئذ امسكت بأنف المولودة ، وارتفعت الصرخة الحادة الثاقبة ..

امران انطبعا فى ذهنه ، استعادهما مرارا فى غربته ، ملامح المولود ، وتلك الصرخة . للأسف ، لم يقدر له فيما تلا ذلك أن يحضر اللحظات الأولى لمجيء ابنته الثانية الى العالم ، كذا ابنه .. تلقى خبر وفودهما فى غربته ، ولدت الثانية وهو فى ذلك البلد العربى ، وجاء ابنه وهو فى البلد الاوروبى ، أما لماذا سافر الى هذا ، والى ذاك .. فلهذا ايضا تفصيل لا بأس من الوقوف عليه ..

حقيقة ، لم يفكر قط فى العمل خارج مصر ، لم يخطط ولم يشرع فى ذلك ، ولو انبأه أحدهم أنه سيفارق القاهرة الى أرض غريبة أثناء شتى مراحل دراسته ، او فى سنين عمله الأولى ، سواء بالمطابع الأميرية ، أو فى تلك الجريدة لما صدق ، لأكد استحالة ذلك ، لتساءل مستنكرا ..

وكيف يتأتى ذلك ؟..

لكن ، دعونى اتساءل ، هل تتسق البدايات مع النهايات ؟ ، هل تمضى المصائر كما تمنى اصحابها ؟ وهل يتحقق ما يرجوه المرء ابدا ؟ المهم .. ان ما لم يتخيله حدث ، وما كان وهما صار واقعا ..

عبارات عديدة قيلت فى حواراتهما الليلية ، كانت فى البداية تلميحا أو ايماء ، محورها ضرورة ايجاد حل ، تكاليف الحياة فى تزايد مستمر ، ما كان يكفى امس لا يفى اليوم ، العمل الاضافى فيه ارهاق ، فيه استنزاف لجهده ، يرجع لينام وأحيانا لا يلحق تناول لقمة . والعائد لا يوازى ، حرام .. هذا فوق طاقته .

كثيرون بدأوا السفر ، فى السنوات الماضية لم تسمع الا عن سفر المدرسين لكن كثيرين الآن يمضون للعمل سنة أو سنتين ، يعودون فتتحسن الظروف ، زوج احدى زميلاتها عاد بالسيارة بعد سنة واحدة لا غير ، ليست سيارة فقط ، انما تليفزيون ملون ، وجهاز فيديو ، وثلاجة ياباني ، وهما الآن يبحثان عن سكنة أوسع .

هذا البيت الذى يعيشون فيه ، ما أضيقه ؛ هل يصلح لهم فى المستقبل ؟ كيف سيتحركون فيه ؟ . هل سيظل الاثاث على حاله ؟ اليس من الأفضل أن يحسن الانسان ظروفه ، اختها ورق الحائط كل سنة مرة ، التغيير ضرورى ، والبنت ..

عن البنت ؟ ومن سيجيء بعد البنت ؟ أليس من الواجب تكوين رصيد ، أو وديعة فى البنك ، الم يفكر فى ذلك ؟

مع توالى الايام صار خطابها مباشرا ، فى كل يوم تردد المعنى وان اختلفت العبارة ، من الضرورى ان يسافر ، فى السفر حل للمشاكل الآتية ، وتأمين لما قد يستجد ، عليه أن يلحق ، الفرص لا تدوم ، وما يتاح اليوم ربما لن يجده غدا .

الحق انه بدا كارها للسفر ، لم يتقبل فكرة اغترابه ، بل لم يتخيل سفره الى بلاد لا يعرفها ، ولا يعرف ناسها ، وأهلها ، فكر فى امكانية عمله فى أحد المشروعات الاستثمارية الجديدة ، ولكن من أين له تلمس الطريق ، وكيف الوسيلة ؟..

أصحاب المؤسسات الجديدة والمشروعات الانفتاحية لا يقدمون الا على تشغيل الأقارب ، أو من ينتمون الى أصحاب النفوذ بصلة ، أقاربه هو فى حاجة الى مساعدة منه ، ولا يعرف شخصا من ذوى النفوذ ؛ صحيح أن سمعته حسنة فى مجال عمله ، عرف عنه الدقة ، وبذل المجهود الأتم ، والقيام بالمهم الأكمل ، لكن هذا كله لم يعد مبررا ، لا يشفع الى وسيلة او غاية ، ثمة تغيير يسرى ، يدركه فى مجمله ، مما يصل اليه ، فيما يقراه ، أن ما يجرى غريب عنه ، أو هو فى غربة عما يحدث ، لكن السفر للعمل شيء آخر ، تغيير عمله هنا يتم داخل الدائرة ، فى اطار مالوفه ، لكن سفره .. هذا كون مغاير لما عهده ، حتى لو كان الخلق لهم نفس اللسان ، لا يتصور انقطاعه عن المقهى ، وصحبه ، معقول هذا ؟.

هل تتوالى الايام بدون السعى فى شارع محمد على الى بيت والديه ؟..

هل سينقطع عن تجواله ، عن التطلع الى صمت النهر ، الى السماء الشتوية والغيمات الشفقية ، وهبوب النسيمات فى الليالى الصيفية ، لا يتصور هذا ابدا .

هل يتحول وجوده المعاش الى مادة للحنين القاسى ؟ صعب .. والله صعب !.

قال لأمراته وهو يحاول .. ان الحصول على عقد ليس بالامر السهل ، قالت فليبذل جهدا من ناحيته ، وهى لن تقصر . تساءل متعجبا ، واى جهة ستطرقها هى ؟ ، قالت انها تحدثت بالفعل الى زوج شقيقتها ، وان الرجل وعدها خيرا ، أشارت باصبعها — الغريب انه لم ينس هذه الاشارة لسنوات — قالت :

ـ سنة واحدة تتغير بعدها اوضاعنا ..
في هذه الفترة لاحظ أصحاب المقهى صدوده ، وابن اده ، يقعد بينهم لكنه بعيد ، يذكر احدهم قوله له بدون مقدمات ، بدون أن يؤدي مجرى الحديث الى مضمون نطقه ..
ـ « يظهر انني ساغيب عنكم ! »
لم ينبيء بخبر ، لم يفسر ، لم يشرح .
في تلك الأيام مضى عبر الطرق التي اعتاد المشي فيها ، والنواحي التي ارتبطت عنده بأيام ولت .. يرى العالم بعيني المودع .. أطال المكث في بيت والديه ، وقعد فترات الى شقيقته ، ربما أدرك ، نتئذ ان حياته تفترق عنهم ، كخطوط السكك الحديدية التي تتجاور ، وعندما تتقاطع وتتفرع تتباعد فجاة ، بنفس سرعة القاطرة التي تدرج فوقها ، فلا يحيط بها النظر الا اللمحة ، سرعان ماتندثر .
حقا ، ما اسرع مضي ايامه ، انه ممعن في البعد ، مولي صوب جهة مغايرة لتلك التي ضمته واياهم ، ما بقي بينه وبينهم جوهر الصلة ، ولب المودة الذي لا يرصد ، لا يرى ، من لم يعد هناك لحمة الحياة وسداها ، دقائقها وتفاصيلها ، مصادفة يعرف ان أمه زارت الطبيب ، قديما كان مجرد تفكيرها في التردد على احدى العيادات يثير لديه اضطرابا ، وخوفا من المجهول ، مرة أخرى لمح أباه مصادفة ينتظر عبور الطريق عند ميدان باب اللوق ، كان يركب سيارة عامة ، ولم يهم بالنزول . انما ادرك من لمحة خاطفة ما لم يلدركه بالقربى .. الهرم الذي لحق بوالده ، كأنه وعى فجاة ، تكم تقدم في العمر ، كيف غاب عنه الامر ؟.
في تلك الايام جال في الطرقات طويلا ، اوى الى المقهى كثيرا ، أصغى ولم يتكلم الا نادرا ، حتى اذا حانت اللحظة التي خشيها وحاول تجنبها ، انطوى بعيدا عن الخلق في صالة المطار .
اعلموا يا صحب ، انه خرج وحيدا ، أصر الا يصحبه أحد للوداع ، لا الزوجة ولا والداه ، شقيقته فاجأته بقدومها ، قالت ان أمها أصرت ، وانها تبلغه برضائها عنه ، وصفاء قلب أبيه له ، ودعواتهما من أجله ، اعطته مصحفا صغيرا ، قالت ان أمهما تتمنى لو احتفظ به دائما على مقربة ، حاش دمعة قسرا ، وعندما ارتفعت مقدمة الطائرة ، فارقت عجلاتها الأرض ، عندما مال لخط الأبيض الذي يحدد الممر ، ثم تلاشى ، رجف قلبه وهوى ، تابع البيوت

التي تحولت الى خطوط ، والشوارع التي تلاشت ملامحها ، وسرعان ما غطاها ضباب خفيف .

لطالما قرأ عن السحب التي تبدو تحت الطائرات ، كان يمكنه اطالة النظر ، التأمل ، لكنه نظر ولم ينظر . راى ولم ير ، ود لو ان سفره الأول هذا كان موقوتا .. اسبوعا ، اسبوعين فى مهمة ويعود محملا بالهدايا ، يفيض فى رواية ما شاهده لأصدقاء المقهى .

هل من المعقول ان يقضى سنة كاملة قبل أول أجازة ؟ هذا ما نص عليه العقد .

فى الليلة الأولى لوصوله كتب خطابين .. الأول شرع يسطره قبل أن يقلع هدومه ، فور دخوله الحجرة فى فندق حجزوا فيه أربعة أيام له حتى يدبر أموره ، خاطب والديه ، أوصى امه بتناول دواء الضغط فى مواعيده ، الانتباه الى طعامها ، رجا اباه الانتباه عند عبور الطرق ، فالشبان الصغار يقودون السيارات الحديثة بسرعة ، لا يعبأون بزحام المدينة ، الح على شقيقته الا تتأخر عند عودتها من الجامعة ، بعد أن كتب العنوان على المظروف ، قام ليتأمل الحجرة ، نظيفة ، فسيحة ، فيها تليفزيون ، وراديو الى جـــوار السرير وثلاجة صغيرة فى الجدار ، داخلها قطع حلوى ، وعلب مياه غازية ، مستديرة ، أنيقة ، بدأ دخول انواع منها الى مصر .

الحق .. ان الجماعة لم يقصروا ، استقبلوه فى المطار ، أوصلوه بالعربة ، الفندق فاخر ، قريب من البحر ، لم يخرج محتويات حقيبته كلها ، بعد ايام قليلة سيفارق ، قبل نزوله الى المطعم ، كتب الخطاب الثانى الى امراته ، قال ان ارادة الله والظروف شاءت أن يكون بعيدا عنها وعن ابنته ، لكنه سيعمل ما بوسعه كي يسعدهما ، قال انه بخير واقامته مريحة ، ولا ينقصه الا رؤياهم ثم أوصى بالانتباه الى جدول تطعيم البنت ، وعدم تعريضها للهواء ، واذا اضطرت للنزول الى الطبيب فلابد ان تصحب شقيقتها أو زوجها . كتب فى الرسالتين انه سيرسل عنوان سكنه الدائم بمجرد استقراره .

فيما بعد استعاد مرارا ، وفى ظروف مختلفة تناوله العشاء بمفرده أول ليلة ، كان القوم جمعا . جمعا ، تلتقى نظراته بعيونهم فى لحظات عابرة ، وسرعان ما يولون بعيدا ، لا يعرفه احد ، لا يدرى شيئا عنهم ، حرص على ان يتناول طبقا واحدا ، حتى لا يبدو مسرفا عندما يتأمل مضيفه قائمة حسابه بل انه قرر أن يتناول طعامه فى الخارج اذا سنحت الفرصة .

فى اليوم التالى مضى الى المطبعة ، المطبعة فى الضاحية الجنوبية ، اما الجريدة فتحتل طابقين فى وسط المدينة التجارى ، استاجر شقة صغيرة من حجرة وصالة ، فى بيت يقع على ناصية طريق متدرج فى الارتفاع ، كان يمكنه منه رؤية الجبل والبحر ، بدا له الجبل غريبا ، لم ير من قبل ارتفاعا صخريا كهذا ، تكسوه الخضرة ، لم ير من قبل الا جبل المقطم ، اما المدينة الحديثة المشيدة فوقه فلم يطلع ليجول فى شوارعها ، لم ير منها الا انوارها المضيئة عندما كان يسلك طريق صلاح سالم ليلا ، لم تكن ادارة الجريدة ومطابعها فى مبنى واحد مثل الصحيفة التى عمل بها فى القاهرة .

كان يتعرف على ما يبعد عنه ، بحذر ، حتى المدينة أوربية الطابع ، لم يتغلغل داخلها الا متمهلا ، وعلى خشية ، فى القاهرة كانت الشرايين والأوردة تؤدى الى القلب ، ولكن هنا بدا له التكوين كجسد أنيق من بعيد ، لكن لا رأس له ولا رجلين ، لا ملامح .

جل وقته كان يقضيه فى المطبعة ، حتى بعد انتهاء الزمن المحدد له ؛ لم يعتد مكانا محددا ، يمضى اليه ، لم يرتبط بمقهى ، أو مكان معين ، كأنه يخشى اقامة صلة ، وجوده هنا مؤقت مهما طال ، انه عابر وليس مقيما ، مع أن مكثه فى هذه المدينة دام عامين ونصفا ، تبدلت فيهما الأحوال المحيطة به .

فى البداية كانت المدينة مبهرة ، عندما عرف شوارعها كان يمضى الى الرئيسى منها ، يتطلع الى الاضواء ، المتاجر ، المقاهى الحديثة ، مقاعدها الملونة ، الحلوى ، الجيلاتى المكسو بالفستق ، الوجوه الجميلة ، جنسيات شتى ، الى مكاتب السياحة ، اعلانات السفر الى اوروبا ، الى افريقيا ، الى أقصى آسيا ؛ يلمح شذرات من العالم البعيد ، كان يمر بواجهات الفنادق الضخمة ، لا يتمهل ، انما يمضى بسرعة ، لم يدخل احداها ، يتابع حركة الشوارع المتدفقة فى أيام الأجازات ، المحلات الصغيرة ، النوادى الليلية ، لكنه لم يوغل .

كان ينظر بخوف الى المسلحين ، الى ثيابهم العسكرية المموهة ، شبان صغار تبدو عليهم الشراسة ، والتأهب لخوض القتال فورا ، كان يخشى دخول مناطق معينة ، ويحيد بعيدا ، عن شوارع حذره معارفه منها ، فى المنطقة الفقيرة عرف مقهى متخصصا فى النرجيلة وداخله ركن لتناول اقراص الفلافل ، والفول المدمس ، صاحبه من الاسكندرية ، لذا يقصده مصريون ، بعضهم يقيم هنا وآخرون

جاءوا الى المدينة كمحط عبور الى أوروبا ، عدد منهم يعملون فى التهريب ، لا يخفون ذلك ، تذكر ما سمعه فى مصر عن تجار الشنطة ؛ لكن ما خفى كان أعظم .

قال له أحدهم ذات مساء انه يعمل فى تهريب الماس ، وان أحد معارفنا على صلة بكبار تجار المخدرات الذين يقيمون فى قصور هنا ، ولا يتحركون الا محاطين بحرس خاص ، الأفيون والحشيش يزرع علنا فى هذا البلد ، ويعد من الصادرات التى تدر دخلا .

لم يدر ، لماذا أفضى اليه محدثه بهذه المعلومات ، أهو استهتار او غرض آخر ؟.

شاب جامعى ، قال انه ينوى السفر الى تركيا ، سيتاجر هناك فى السيارات اصبح يصغى الى محدثيه فى المقهى اكثر مما يتحدث ، معظم من لقيهم يقفون على حدود المغامرة ، وخوض أدوار لم يعدوا لها ، ومن أجلهم ادركه رثاء وحزن .

كان بعضهم قد انضم الى الفرق التى تعج بها المدينة ، الى هذه الطائفة ، او ذاك الحزب ، ايقن ان هذا البريق لن يدوم ابدا . آثر البقاء معظم لياليه فى مسكنه ، يجلس متابعا التليفزيون ، كان بامكانه فى الليالى الصافية ان يرى التليفزيون المصرى ، كان يتابع الأفلام الملتقطة فى الطرق ، يحدق فى اطياف الوجوه ، هل ثمة من يعرفهم ؟.

اعلموا باصحب انه قضى عامين يحاول جاهدا تجنب المشاكل ، كان صاحب الجريدة يرتاح اليه ، يدعوه أحيانا لتناول العشاء فى مطاعم لم يفكر قط فى الدخول اليها ، كان رجلا ضخم الجسم ، محبا للحياة ، نهما أكولا ، عاشقا للنساء ، يشرب فى اليوم الواحد زجاجة ويسكى كاملة ، فى الصباح بعد الافطار يحتسى الفودكا ، التى لا يظهر أثر رائحتها ، خاصة عند حديثه الى المترددين عليه ، هو أيضا لاعب ماهر ، مدمن للقمار ، ويقال انه خسر فى ليلة واحدة عشرين ألف جنيه استرلينى .

كانت الجريدة والمطبعة ، ودار النشر ، والفندق ، مجرد واجهات لامور أخرى ، الجريدة تمول من احدى الدول العربية المجاورة ، اذا تأخر المخصص الشهرى تعطل صرف الرواتب .

يقال انه على علاقة بجهاز مخابرات أوروبى ، لم يحدده أحد بالضبط ، اما جل ثروته فيؤكد المقربون انها من المضاربة على الذهب ، والاسهم ، ويؤكدون انه من خبراء سوق المال ، حتى ان

اكبر بنوك أمريكا منحه بطاقة خاصة لا يحملها الا غشرة من عتـاة المضاربين فى العالم .

عامان باكملهما قضاهما فى هذه المؤسسـة ، يصغى الى كل ما يقال ، لا يعلق ، يقول انه ليس طرفا على أية حال ، وان كان ما سمعه حوى اخطارا تزايدت بعد ظهور رجال أشداء مسلحين ؛ عرف أنهم حرس خاص ، استعان به الرجل لحماية المطبعة .

كان وضع المؤسسة غريبا ، الادارة ومكاتب التحرير فى منطقة تسكنها أغلبية من طائفة ينتمى اليها الرجل ، أما المطبعة فمقرها تلك الضاحية التى تقطنها أغلبية مناهضة ، الجريدة التى تطبع هنا ضدهم ، وان اضطرت بسبب هذا الاعتبار بالذات الى تخفيف اللهجة خاصة بعد بدء الاضطرابات التى تمت فيما بعد ، وان لم ينفع ذلك .

خلال هذين العامين زار القاهرة مرة واحدة ، بعد غيبة سنة كاملة ، أمضى شهرا قضى منه أسبوعين بصحبة امرأته وابنته فى فندق فلسطين بالاسكندرية ، لكن من رآه فى هذه الزيارة يذكر حزنه البادى ، وصمته ، والبياض الذى طق فى شعره .

اعلموا أن لذلك أسبابا ..

أولها ما رآه من ابنته الصغيرة ، لحظـة دخوله البيت ولت هاربة ، لاذت بأمها ، عندما ظهر عديله ، جرت اليه ، مرحبة ، معـانقة ..

« بابا .. »

نزل به كمد عند سماعه نداءها ، فى نفس الليلة أصـغى الى امرأته ، تحذر ابنتها :

ـ « .. لا .. ابوكى هذا .. »

لكن ، هل يقدر على لوم طفلة ؟

السبب الثانى سلسلة أمه فى المرض ، قعدت لم تعد تدخل او تخرج ، حتى الطبيب المعالج لا تقدر على الذهاب اليه ، تلقته متهللة ، مقبلة ، قالت انها ظنت الفراق ، وان ليالى عديدة مضت تود تنسم رائحته لاغير ، لم تقل له لاتسـافر .. اعتادت منذ الصغر الا تلح عليه ، الا تكرهه على فعل شىء ، لكنها قالت له :

ـ « ماتقعد يابنى جنب ابنتك وامراتك .. »

حدثها عن عقد موقع ، وعن التزامات لم ينبهها ؛ وعن العام الاول الذى لم يتمكن الانسان فيه من ادخار ماذهب من اجله .

انصرف من البيت مغموما ، كابيا عنده هم . ولوم لنفسه ، لانه اشترى قماشا من السوق المحلية قبل زيارته لوالديه ، وتقديمه على أنه اتى به من هناك ، لماذا ذلك ؟ حتى لا تطلع امرأته على ما يأتي به اليهم ؟ اليس فى ذلك ضعف منه ؟ انه يعى ذلك .

لماذا ضمته أمه بهذه القوة ؟ لماذا اطالت النظر اليه وكأنها لن تراه ثانية ؟ ، لماذا ابقت رأسه على صدرها لحظات ؟ هذا لم يحدث من قبل ، اما والده فخطاه اقرب الى الزحف ، شقيقته كانت غائبة فى زيارته الاولى ، لم يتبادل معها الا كلمات معدودات ، فى الزيارة الثانية بدت مهمومة بدراستها الجامعية ، عندما خرج الى الطريق ، التفت الى النافذة المستطيلة العتيقة ، كانت أمه تنظر منها ، تتطلع اليه ، تتبعه بنظراتها ، وكان واثقا انها تبكى !

قبل ان يتم عامه الثانى فى هذا البلد بشهرين ، تلقى خطابا بقدوم ابنته الثانية ، فى الخطاب ايضا انبأته امرأته انهم اسموها « عفاف » ، ود لو حملت اسم أمه ، لكنهم لم ينتظروا رأيه ، كأنه غير موجود ، صعبت عليه نفسه ، لكن لم الحزن ؟ لم الغضب ؟ انه ليس موجودا بالفعل ، الم يبدو فى بعض الاحيان خلال اجازته كالضيف ؟ حتى مظاهر العناية به عمقت احساسه بذلك .

لام امرأته ، لام شقيقتها ، واقاربهما ، لكنه عاد يلتمس لهم العذر ، الخطاب يستغرق عشرة أيام ، هل كانت البنت ستبقى عشرين يوما بدون اسم ، وماذا عن شهادة الميلاد ، والتطعيم ، ترى .. هل دعوا امه بعد مجيء المولودة ؟ لم يطلعه احد على ذلك ، شقيقته لم تلمح للأمر فى آخر خطاباتها ، كانت تطلب منه أدوية معينة لوالدتهما وتنقل اليه وصاياها ، بدءا من ضرورة حرصه على صحته ، وحتى الاهتمام بطعامه ، ودعواتها ان يقصى الله عنه اولاد الحرام .

كان يقرأ خطابات شقيقته ولا يعنيه منها الا الاطمئنان على امه ، وان مكروها لم يصبها ، لكنه فيما بعد طلب من شقيقته أن تحدد بدقة التاريخ الذى بدات فيه الكذب عليه ، اكثر من سبعة شهور تمعن فى التفاصيل حتى توحى اليه بغير ماجرى وما كان .

فى آخر خطاب منها قبل الحادث الذى تسبب فى عودته ، طلبت منه قماشا من القطيفة ، حددت اللون ، البني ، ابتهج لذلك ، حتي انه اشترى القماش فى يوم تسلمه الرسالة ، وقد رأى امه فى المنام ليلة سفره النهائى الى القاهرة ، كانت ترتدى ثوبا قاتما من

نسيج غريب ، ليس مما عهده فى العالم المحسوس ، تحيط رأسها بعصابة سوداء ، حولها نساء عجائز يتحلقن فى شبه دائرة ، يحملقن اليها صامتات ، رانيات ، كلهن فى صالة فسيحة مجهول مصدر ضوئها ، كانت تنظر اليه عاتبة ، وعندها آهات حرى ، فلما سألها عن احوالها قالت :

ـ سافرت بحسرتك !

صحا منقبضا ، ولما تمت عودته ، وعرف ماعرف ، وايقن انه لن يراها ، كمد واخفى حتى أن شقيقته رجته ان يبكى ، أن يذرف دمعة .

لم يتسلم عمله مباشرة ، ايام طويلة قضاها بمفرده ، يلوذ بالتيه فى الطرقات عند اكتمال الغروب ، وبدء نزول الليل ، لم يفارقه ادراكه انه غريب ، انه انخلع من العائلة ، لم يعد دعامتها الرئيسية ، بل ان أياما عديدة انقضت قبل أن تناديه ابنتيه « بابا » .

بعد تسلمه عمله ، قالت امراته ان الاسعار ارتفعت ، وأنها تطلب منه ان يتولى هو الانفاق ، لا يمكنها تدبير الامور بالمبلغ الذى كان يدفعه قبل سفره ، بدت له الفكرة صائبة ، يسترد بعضا مما راح منه ، لكن المطالب توالت ، لم يكن مصرا ، او راغبا فى التدقيق ، لكنه فوجىء بفجوة بين مرتبه وما يجب أن ينفقه ، اضطر الى السحب من المدخر ، ولم يكن فى حاجة لحسبة يكتشف بعدها أن ما ادخره خلال العامين سينفد بسرعة ، كانه لم يتغرب ، ولم يتعرض لخطر ، ولم يعان الوحدة .

هنا أرجع بكم قليلاً لذكر السبب الذى عاد بعده الى دياره ، ذلك انه لم يتم المدة ، ولم يرتكب خطأ ما ، بل ان صاحب الدار أشاد به دائما ، ولكم ذكره بالخير فى حضوره ، وغيابه ، ولكن ما حدث لم يكن له فيه يد ، ذلك أن الاحوال بدأت تتغير ، اقتتل القوم فيما بينهم ، بدأ تقسيم المناطق ، وهجرة الخلق من منطقة الى أخرى ، تحددت المعالم بقسوة ، ثم أصبح السعى فى الطرقات محفوفا بالمكاره ، خاصة للغريب ، لمن لا ينتمى الى فريق .

حتى كان هذا اليوم ، عندما اتجه من بيته الى المطبعة ، لكنه فوجىء بالسكك المؤدية مغلقة ، وأناس يروحون ويجيئون .. ولما لاح له المبنى فوجىء .. دخان أبيض سائل يتخلله لهب ، منذ أن وقع الهجوم والمبنى يذوى جزءا بعد آخر ، تتصاعد منه هبات

وانفجارات ، طالت النيران مخزن الحبر ، والمواد الطباعية الكيمائية، وجم ودنا من حافة البكاء غيظا ، وقهرا ، هذا مكان أودعه ما يقرب من عامين . لم يعد له مقام هنا ، وبقى عليه انتظار اللحظة المناسبة ليصل الى المطار الذى صار مغلقا معظم الوقت .

فيما بعد ، اعتاد أن يقرأ أخبار المعارك فى المدينة ، كان يتخيل الشوارع والمتاجر ، والنواصى التى تتفجر عندها العربات الملغومة ، يفكر .. لو وقع الهجوم على المطبعة نهارا لما أفلت ، لاختنق ، أو احترق ، انه يعرف جيدا ماذا يعنى حريق مطبعة .

حقا ، قدر ولطف ..

لكن بقدر ما بدت له الغربة منذرة بالمخاطر ، فانه أيقن باضطراره الى الخروج مرة أخرى ، لكن .. الى أين ؟

حاد به شىء لا يعيه تماما عن السياق القديم .

اعلموا أنه لم يتم سنة واحدة بعد عودته ، من تلك المدينة ، الا كان يستعيد الروائح الخاصة بصالة المطار ، الهواء المكيف ، وعطور غامضة ، ومشروبات ، وبقايا عابرين ، قعد منتظرا الاقلاع شطر بلد آخر ، لكنه فى هذه المرة لم يكن ذاهبا للعمل فى مؤسسة خاصة ، عديله ساعده بما لديه من صلات فى الحصول على هذا العقد ، بلد أكثر استقرارا ، أموره ممسوكة بحزم ، انه يمضى كخبير ، هذا ما نص عليه العقد ، سيعمل مشرفا على مطبعة وزارة الاعلام فى المطار انتظره موظف رسمى ، أبدى ودا وترحيبا ، كان هناك أيضا سيارة وسائق مرح ، قال أنه لا يعترف فى دنيا الغناء الا بصوتين ، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، اتجها به الى بيت من طابق واحد ، تحيطه حديقة ، مؤثث ، مطبخ فسيح توازى مساحته صالة بيته فى مصر ، لو أن الاسرة معه ، كانوا سيمرحون فى هذه الحديقة الصغيرة الانيقة ، رحابة البيت ، بساطة أثاثه ، سطوع الضوء ، بعث عنده راحة وحسن قبول ، كان هناك هاتف أيضا .

عند عودته فى اجازة ، سيبدأ اجراءات تركيب جهاز فى البيت ، يمكنه الاتصال بابنتيه ، سماع صوتيهما ، لكن أهم ما شغله ترتيب وسيلة تحويل مبلغ فى بداية كل شهر .

فى غربته الاولى ، كان يحول مبلغا الى زوجته عن طريق البنك كل شهرين أو ثلاثة ، لولا ادخاره قدرا من المال لعاد خاويا تماما ، علمته التجربة إن كل ما يصل الى يديها تنفقه ، لم يسألها ، لم يسترجع الأمر ، لكنه عندما لح فى احدى ليالى الصفاء سرعان

ما تكدرت ، قالت انها لا تنفق على نفسها ، لم تشتر من الصاغة ذهبا ولا فضة ، مع أن زميلاتها يكسين معاصمهن بالاساور ، ويحطن اعناقهن بالقلادات ، لكن كل قرش انفقته فى البيت ، البيت لم يستكمل بعد ، هل يرضيه منظر الحمام ؟ لابد من توسيعه وكسوة جدرانه بالخزف ، ومع ذلك لم تفعل ، لانها تراعي الأولويات ، ماذا يقول الناس عندما يرون الصالون الصغير البدائى الذى اشتراه . لم توافقه عليه ، لكنها لم تصرح وقتها حتى لا ترهقه ، الصالون لابد أن يتغير ، لابد !

اعلموا يا صحب ان مسافة بقيت غير منقوصة بينه وبين البلد الذى نزله ، تماما كما جرى له فى البلد الأول ، وان اختلفت الأسباب ، ليست اللهجة ، أو الأزياء ، او ملامح العتاقة ، لكنه النظام عينه ، هناك كانت المدينة تبدو مفتوحة ، تعرض مكنونها جهارا ، بما فيه من قوى حرب ، ودمار ، لكن المدينة هنا تبدو مضمومة ، ملموسة ، بعيدة ، قصية عنه وهو يسعى فى قلبها ، غير مبسوطة للغريب ، المتاجر تغلق بعد الغروب مباشرة ، تخلو الطرقات تماما الا من عربات مارقة ، يبعث كل شيء خوفا غامضا لم يكن يدركه هناك ، حيث الرصاص يمكن أن ينطلق فى اى لحظة ، هنا تنتشر طوال الليل عربات مسلحة ، بينما يقف على النواصى شبان يرتدون الملابس المدنية ، لكنهم يشهرون المدافع الرشاشة والبنادق سريعة الطلقات ، يدققون فى الهويات ، يطيلون النظر الى الملامح ، الاخطار هنا خفية ، لكنها مبثوثة ، لا تبين .

كان يواجه وحدة من نوع غريب ، انهم يبدون له احتراما جما ، لا ينادونه الا « سيادة الخبير » ، لحظة دخوله المبنى الحديث الضخم يقوم موظف الاستعلامات محييا ، لكن ، لم يقترب من أحدهم ، ولم يسمع شخص منهم اليه ، لم يتلق دعوة لزيارة بيت ، لم يرافقه صاحب الى مقهى فى المدينة ، ولم يسأله زميل عن حاجة له ، ولو قابل واحدا منهم فى الطريق بعد انتهاء العمل ، فكأنه لا يعرفه حتى ان تلاقت نظراتهما ، مسافة تفصله عنهم ، لم يدن منهم ، اى محاولة كانت ستقابل بصد ، اما معلن واما خفى ، هذا ما أيقن منه ، لذا لم يسرع !.

فى القاهرة اذا ضاق به الحال ، يلقى متسعا هنا أو هناك ، اقامة الجسور بين الخلق ميسورة ، سهلة ، لكن هنا تبدو الوجوه جهمة ، لكل شيء ظاهر وباطن ، هدوء المدينة مريب يخفى عنفا ،

صمت الملامح يطوى غضبا ، أو حنقا ، لا يدرى ، لكن ما يراه عبر الملامح مخالف لما يدور فى الاعماق القصية .

كان يخشى عطلة نهاية الاسبوع ، يعول همها قبل حلولها ، ما بين انتهاء الدوام ظهر الخميس ، وحتى بدئه صباح السبت أثقل الاوقات وأوحشها ، بيته بعيد ، محاط بالفراغ من كل جانب ، المنطقة كلها ما تزال تحت الانشاء ، الحشائش تغطى مساحات واسعة ، وثمة شيء ما يتربص ، متحفز على وشك الانقضاض .

بعد انتهاء برامج التليفزيون يطن الفراغ فى راسه ، يدير مؤشر المذياع ، يصغى الى القاهرة ، الى عواصم بعيدة ، الى لغات لن يفك رموزها ، عصى فهمها ، وعندما تحين لحظة ايوائه الى الفراش ، يتكوم ، يفرد الغطاء حتى يخفى رأسه ، كأن هذه البطانية فى الشتاء أو تلك الملاءة فى الصيف ستموه وجوده فى مواجهة خطر يحدق به .

نهار الجمعة تبـدو الساعات ثقيلة ، ملولة ، يعيـد ترتيب الاشياء ، أو بعد طعامه فيتأنى ويتمهل ، احيانا يكتب الخطابات الى امرأته ، الى والده .

الغريب انه لم يكن يخشى وفاة والده كثيرا ، كأن رحيل أمه وهو فى غربة اوجد عنده ألفة مع العدم ، اعتياد لبدء الفراق ، كان يفكر فى شقيقته ، وظروفها بعد رحيل والده ، أكثر مما يفكر فى الرحيل ذاته ، اعتاد الخطابات المطولة اليها ، ينبئها باحواله ، لكنه يتحاشى اى اشارة الى البلد ، كل الظاريف تفتح ، وصف ايامه ، وتوالى الليالى ، وشوقه الى ابنتيه ، واسترجع اياما نائيات ، فمن ذلك جلوسهما فى الزمن القديم الى مائدة الغداء ، وعدم تناول اى منهم لقمة واحدة مهما بلغ الجوع مداه قبل رجوع الاب ، انه يذكر ترتيب القعدة ، ومذاق طعام أمه ، والفطائر التى كانت تقليها يوم الجمعة ، وخروجه عند العصر .

الغريب .. انه كان نادر الاشارة الى امرأته وبنتيه ، وابنه الذكر الذى رزق به بعد شهور تسعة من أول اجازة يزور فيها مصر بعد عمله هنا ، أمضى شهرا كاملا ، وقبل سفره أوصى لو جاءت بنتا فليكن اسمها صفية ، لو ولدا فليكن اسمه محمد ، وهذا ما كان .

فى خطاباته الى والده لم يذكرهم الا فى السطور الاخيرة ، لكنه فى خطاباته الى امرأته كان يكرر وصاياه ، الا تدع البنتين تنزلان الى الشارع بمفردهما ، أن تقف فى الشرفة عند ركوبهما حافلة المدرسة

ان تشدد عليهما فى عدم شراء الحلوى من المدرسة ، أن يحذرا عند تلقيهما قطعة شيكولاتة أو حلوى ، من احدى العاملات ، أو حتى من زميلاتهن يؤكد ان أحدهم أخبره بمعلومات غير مشكوك فيها ، وثيقة المصدر ، بوجود عصابات تدس المخدر فى الحلوى ، يقوم عملاؤها بتوزيعها مجانا على الصغار حتى اذا ما اعتادوا وأدمنوا فرضوا عليهم الاسعار التى يريدونها ، حذرها حتى من المدرسات ، ارسل اليها قصاصة من مجلة وقعت فى يده مصادفة وجدها مع أحد المصريين العاملين هنا بالمقهى القديم ، فى القصاصة خبر عن احدى المدرسات ، عملت فى الخليج لمدة عشر سنوات ، جمعت مالا وادخرت ثروة ، الا أن احدهم أقنعها بحمل كيلو واحد لا غير من الهيروين لتسلمه الى شخص ما ، فى مقابل هذا تحصل على أضعاف ما ادخرت طوال عشر سنوات من الكد المتصل .

كان يؤكد دائما أن الزمن لم يعد كما عهدوه ، وأن المخاطر جمة وما يسمع به غريب ..

فى خطاباتها اليه عبارات متشابهة ، تطمئنه ، وتؤكد له أن كل شىء على مايرام ، وانه لاينقصهم غير وجوده بينهم ..

وجوده بينهم ؟!

اعلموا انه توقف طويلا عند هذه العبارة ، وأمثالها ، اذن .. لماذا يشغله هذا الخاطر ، البطىء المزعج ، لماذا تفاجئه تلك اللحظات الحادة عند استيقاظه صباحا ، انه غريب ، وانهم غرباء ، يحاول الدنو منهم ، وبقدر ما يبذل من جهد خلال اقاماته القصار فانهم يوغلون بعيدا ، بل فى لحظات أمكنه تحديدها ، خيل اليه انه زائد عن الحاجة ، انه لايعرف شيئا عمن هو من صلبه .

فى البيت ، يرن الهاتف ..

أنا منال ..

ـ منال من ؟

ـ زميلة عفاف .

فى المساء يسال ابنته الكبرى عن المدرسة ، عن زميلاتها : تجيبه باقتضاب ، احيانا بتفصيل ، هل تبدو معجبة لانه يستفسر ؟ ربما ، مرة اخرى فوجىء بوجود قائمة ادوية ، يقرأ التاريخ ..

ـ « لماذا لم تخبريني بمرض الوالد ؟ » .

ـ « لم أشأ أن أزعجك .. »

ـ « لكن .. الم أوصيك بكتابة كل شىء الى .. »

تصمت .. مرة قالت ان مايجب الكتابة عنه كثير ، هل ترهقه وهو فى غربته ، يكفيه ما هو فيه ..

لم يفته تعبها ، وارهاقها البادى ، مضيها الى النوم مبكرا ، كان فى بيته وبين اولاده يلقى نفسه فجأة غريبا ، ينوء بثقل غير مرئى ، لم يكن معهم عند ذهابهم وعودتهم الى مدارسهم ، الى الطبيب ، الى مركز التطعيم ، فى أمسيات الخميس ، فى مرات خروجهم لقضاء حاجاتهم ، للترويح او للتسوق ، او لزيارة الخالة .

ما حاول اقصاءه عن وعيه ، عن الصور المستعادة التى يطيل التأمل فيها بعد عودته تلك اللحظات التى يرى فيها الاطفال زوج خالتهم ، تبسط ملامحهم ، يندفعون اليه ، يحيطون به ، حتى الولد ! أما البنت الكبيرة فموقعها خاص ، لم يعلم الا فى الاجازة الثالثة انها تقضى معظم أيامها فى بيت خالتها ، أن لها حجرة تخصها هناك ، ولاحظ فجأة أن ما ترتديه مختلف عن ملابس شقيقتها الصغرى ، وأن زوج خالتها توسط لالحاقها بمدرسة أجنبية بعد أن أمضت مرحلة الحضانة فى مدرسة سعى هو أثناء اجازته الماضية لتنتظم فيها البنت ، ولما أبدى ملاحظة عن الاوضاع ، وقال ان السنين الاولى تؤثر فى شخصية البنت .

أبدت امرأته ودا ، ولينا . قالت ان شقيقتها حرمها الله من الخلفة و « عفاف » تؤنس وحدتهما ، هما يعتبرانها كابنتهما ، لم يرتح ، لكنه لم يعلق ، اذ كان عليه أن يرجع الى هذا البلد بعد يومين .

فى أيام وحدته القصية كان يتساءل عما يفعلون الان ؟ فى هذه اللحظة بالذات ؟ ، يستعيد وجوههم ، يتأمل ملامحهم فى الصور ، يلمح أطياف شبه من امه وابيه وقسماته هو ، البنت الكبرى فى طفولتها أقرب شبها الى امه ، ليتها حملت اسمها ، يطيل النظر ، ثم ينطق بصوت مسموع ..

« أولادى ! »

يشير بأصبعه ..

« اسمعى ياعفاف .. »

يتوقف لحظات ، يصغى الى رجع الصدى فى البيت الفسيح النائى ، لاسباب شتى يوقن ان ابنته تدرك فى نفس اللحظة ما يقول برغم بعد المسافة .

فى صغره كان اذ يتحشرج صوته فجأة ، أو يبدأ اضطراب ماق

حلقه ، تقول أمه ان بعضهم يخوضون فى سيرته ، ثم تتلو اسم الله مرات ، وآيات من القرآن الكريم ، انه ينظر الى الصور ، يوجه بعض الملاحظات ، يسدى نصائح وربما أبدى غضبا ، غير انه بعد وقت يسير ينثنى مبديا اللطف ، « خلاص .. سامحتك .. »

وقبل مضيه الى النوم ، يومىء للصور المطلة عليه :

« تصبحون على خير ياأولاد .. »

فى ليالى عزلته القصية ، خاصة ايام الاجازات ، والعطلات الرسمية ، أصعب الاوقات وأوحشها عليه ، فى الليالى تلك وفدت اليه أعراض لم يعهدها من قبل ، كان يستيقظ فجأة ، مكروش النفس ، تعدو دقات قلبه بعضها فى اثر بعض ، ماذا لو وافته المنية فجأة ؟ كم من الوقت سيمضى قبل اكتشافهم غيابه ، أم أن ماسينبعث من جثمانه سيدل عليه ؟ لكن البيت بعيد عن الطريق .

يمعن متخيلا ردود الافعال ، لحظة تلقى امرأته للنبأ ، والده الذى لم يعد يبصر ، شقيقته الوحيدة ، أيهم سيبلغ حزنه المدى ؟ ، ايهم سيذكره لمدى اطول ؟ ، الولد مرتبط به ، سيحزن ، ولكنه سيلهو بعد حين ، لكنه سيصبح يتيما ، كذا شقيقتان ، لن يكفى الا لفترة محدودة ، لهذا اضطر الى تجديد العقد أربع سنوات أخرى ، لم يكن له خيار ، من يدرى ماذا سيجىء به الغد ؟ ، فى تلك الليالى تأخذه الخواطر السود ، حتى صاغ أحيانا نعيه ورتب الاسماء التى ستنشر ، وشرع فى كتابة خطاب الى ابنه يحكى فيه ماجرى له فى اقامته ، وفى غربته ، وكان دافعه ان يعرفه ابنه ميتا ، مادام لم يعرفه حيا ، بدأ فعلا ، لكنه لم يتم الخطاب ، تشاءم ، ان ذلك يعجل بالقدر .

فى النهار يلوح لمن يعرفه هادئا ، صامتا ، لا يعرف أحد شيئا عن دخائله ولا يعرف شيئا عمن يحيطون به .

فى بداية كل شهر يمضى الى المصرف لتحويل المبلغ الذى يحق له تحويله الى مصر ، نسبة معينة ينص عليها العقد الرسمى ، يوقع العديد من الاستمارات ، يتنقل من نافذة ضيقة الى اخرى ، ملامحه محايدة مهما تلقى من مضايقات الحراس ، والموظفين الذين كان معظمهم غليظ العبارة .

فيما بعد قال لشقيقته ، هذا ماانحصرت فيه العلاقة ، أزعجها ذلك ، جاء رد فعلها مشابها لما كان ممكنا لوالدته أن تقوله ..

« حرام عليك .. من لهم غيرك ؟ »

حقا ، ليس لهم غيره ، لكن .. هل يدرك وعيهم ذلك ؟ ، لماذا

لا يبدون نحوه قدرا من الحنية ؟ ، لكن البنت الصغيرة تسرع عند ظهوره ، سمعها مرة تتكلم مع زميلتها ، تخبرها أن والدها وصل بالسلامة ، فى اليوم نفسه طلبت منه أن يزورها فى المدرسة ، لم يتأخر ، صباح اليوم التالى ، بدت مزهوة به وعندما لمحت احدى الطالبات صاحت بها :

ـ « بابا أهه ياستى .. بابا أهه » ..

لسنوات تالية لم ينس فرحة ابنته بزيارته لمدرستها ، وتعلقها بيده ، وتوقفها المفاجىء ، واشارتها الى أحدى زميلاتها :

ـ « ثريا .. دى اللى بتضربنى .. »

والى أخرى :

ـ « صفاء .. بتقولى فين أبوكي » ..

لكم رق ، وشف حزنه فى غربته عندما استعاد زيارته تلك ، علل البعاد بأنه من أجلهم ، يتمنى لو أتم ادخار حاجة لكل من الثلاثة حتى اذا حان تخرجهم فى الجامعة .. لقوا مايمكنهم الاستناد اليه فى بدء حياتهم هذا أقوى مادفعه الى تجديد العقد ..

لكن ..

حدث ما لم يخطر له على بال ، مالم يعد له العدة ، ولذلك تفصيل :

فمنذ نزوله هذه الديار ، لزم جانب الحرص ، لم يتحدث أمام زملائه عن شأن يخص بلادهم ، لم يخض فى أمور عامة ، لم يذكر لا بالشر ولا بالخير حاكم البلاد الذى تطالع صورته البصر أينما اتجه ، لم تخل منها حتى العربات العامة والخاصة ، وفى نهاية الاسبوع عندما ينتظر القوم السهرة اذ يتوقعون فيلما مصريا ، أو مسرحية ، أو عروضا غنائية ، يطل عليهم مفترشا الارض ، ممسكا بعصا الماريشالية ، مرتديا عباءة عربية ، يبدأ حديثه البسيط ، أو العائلى كما أطلق عليه اعلام البلاد ، حتى فى هذه الليالى لم يعتد اغلاق الجهاز ، انما يتركه مفتوحا ، مسموع الصوت .. فالبعض يؤكد أن الشباب الموالى يمر بالبيوت متصنتا ، راصدا من أغلقوا ، أو بدلوا قنوات التليفزيون بقناة بلد مجاور يصل ارسالها واضحا ، تخلو عادة من الاغانى الحماسية ، والشعارات المتتالية ، والاعلان المستمر عن نبأ هام سيذاع بعد قليل .

فى الايام الاولى هنا كان ينتظر بقلب واجف ، حابسا انفاسه ، متوقعا الاذى ، هل وقع انقلاب ؟ ، هل قامت الحرب ؟ هل هى كارثة

طبيعية ؟ لكنه اعتاد مايلي ذلك ، ان سيادته ـ مثلا ـ تلقى رسالة خطية هامة من احد اخوانه أصحاب الجلالة ، او الفخامة ، أو افتتاح وحدة كهربائية جديدة ، او حضور مناورة بالذخيرة الحية قرب الحدود الشمالية حيث مصدر التوترات الدائمة أو اعادة العلاقات او قطعها مع بلد ما ، أو قيام سيادته بممارسة رياضة المشى لمدة ثلاث ساعات فى منطقة القبائل الجبلية ، لم يعد يتوتر ، وان بقى ترقبه الى حد ما ، فربما وقع حادث جلل فجأة .

كان اذا وجد فى جمع ، وفوجىء بسيادته فى التليفزيون ، يشخص وينصت لا يسمح لاى خاطرة داخلية تمر به أن تبدو ظلالها على ملامحه ، كان يبقى جامدا ، فان صفق القوم شاركهم ، واذا ابتسموا تبعهم ، ليس له من الامر شىء ، غريب مهما طالت مدته ، ليس بذى علاقة مهما أبدوا له ودا أو ترحيبا .

لم يتردد الا على هذا المقهى القديم المطل على الحديقة ، لم يتبادل الحوار الا مع العمال المصريين الشبان الذين يفدون اليه من أجل الكسب المحدود ، والمأوى الذي يقدمه اليهم صاحب المقهى البدين ، حواره معهم عام ، عابر ، شاركهم مرتين ، الاولى بعد الحريق الذى شب ، رجاه أحدهم أن يتبرع باليسير ، لانهم سينقلون الجثمان الى مصر ، توقف الشاب عن الحديث ، كان ميكانيكيا من الجمالية ، قال انهم أقسموا فيما بينهم اذا لحق بأحدهم مكروه أن يعيدوه ، فى اى وقت اذا حلت المنية ، فلن يدفن هنا ابدا . قال له ان الولد وحيد والديه ، وان أباه فقير جدا ، والامر كارثة ، كارثة ، لم يتردد .. لم يبخل قط .

فى المرة الثانية جاءه أحدهم ، استفسر منه ، أيعرف مسئولا كبيرا فى هذا البلد ، نظر متسائلا ، حذرا ؟؟

قال الشاب ان صاحب هذا الخط ، واشار الى اللافتات المعلقة ، صاحب الخط الجميل هذا معتقل منذ ستة شهور ، قيل انهم أطلقوا عليه الرصاص ، وسمعوا أنهم دسوا له السم فى اللبن كما جرت العادة عند قتل الخصوم هنا ، أبوه حفى فى القاهرة ، دار على وزارة الخارجية وسفارة هذه البلاد قبل قطع العلاقات ، ونشر التماسا فى صحيفة مصرية رفعه الى الزعيم ، لكن .. ما من مجيب !

أصغى حذرا ، من لايعرفه جيدا لن يثق به ، يعلم ان عددا من الذين جاءوا للعمل هنا انضموا الى الفيالق الثورية ، البعض طواعية ، والاخرون تحت ضغوط شتى .

قال انه مجرد موظف فنى ، خبير طباعة ، ولا يعرف احدهم ؛ او بمن يمكنه مجرد الافادة ، اعتذر ، ولكنه لم ينقطع عن المقهى ، كان يمضى اليه بعض الوقت فى العصر ، يقعد فوق احدى الدكك متاملا الاشجار القديمة ، المتقاربة ، وعندما ساله بعض من اهل البلاد عن زيارة السادات الى القدس ، قال ان ماجرى خطأ ، ولم يزد حرفا .

الحقيقة أن ما شعر به فى تلك الايام أكثر من محدودية تلك العبارة ، عندما رأى رئيس البلاد يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد ، ويتلفت حوله ، لم يصدق عينيه ، كان بمفرده فى البيت القصى ، اهتـــز باكيا ، وترددت فى وعيه فكرة موجزة : انتهى دهر ، انتهى عصر ، راح عهد وجاء عهد ، مازال محتفظا بكراساته التى رسم على صفحاتها أبطال الجيش المصرى أثناء حربهم فى فلسطين ، ومما لا ينساه ، أيام الف وتسعمائة وستة وخمسين ، تطوعه فى المقـــاومة ، ايام الخريف هذه الرمادية ، الانفجارات ، الغارات الليلية ، الاغانى وما اثارته من مشاعر بقيت حية ، ومن قبل ومن بعد ابن شقيقته ، مازال مفقودا حتى الان ، لا يدرى أحد أحى هو ام ميت ، كان يعمل فى منجم الفحم بسيناء ، قال زملاؤه انه هبج على وجهه فى الصحراء عندما وصل الغزاة ، آخر مرة شاهده عامل صعيدى يمشى متجها الى الشرق ، وضاع ، وقال آخرون انه كان بين مجمـــوعة من الشاردين ، صفهم الجنود ورموهم فى هجير الصحراء ، لا احـد يعلم ..

أهكذا .. اهكذا ببساطة ؟

فيما بعد ، لم ينس خرجة السادات من بطن الطائرة ، تلفته مضطربا حوله ، تمنى فى هذه اللحظة أن يجرى شىء ما ، أمر خارق ، فيختفى أو يتلاشى ، لكن كل التفاصيل علقت بذاكرته ، حتى هذا الضابط الاسرائيلى ، كان يشمر كمى سترته ، ويمشى مزهوا مختالا وراء الرئيس !!

ما مر به كتمه ، فى اليوم التالى مضى لمقابلة المسئول السياسى عن الوزارة ، وكان الرجل قد سلمه جائزتين فى حفل اقيم بالديوان العام بعد الظهر تعبيرا من تقديرهم لتفانيه فى العمل ، قال انه يمكنه العودة الى مصر اذا كان وجوده يثير حساسية ما ، غير أن الرجل قام واقفا ، قال :

— « بل اننا نرجوك الاستمرار .. مالك انت وما جرى ؟ »

ثم قال : ان التوجيهات العليا للقائد المنتصر صدرت بمعاملة / المصريين افضل معاملة ، واذا كانت العلاقات قد قطعت فان العلاقات الحقيقية ستظل قائمة ، وان هذا البلد سيتسلم زمام القيـــادة لتعويض النقص الاستراتيجى بخروج مصر ..

هذا ماقاله القائد ، وهذا ماسيكون ..

الا ان ماقيل علنا ، وما رددته الصحف ، واجهزة الاعـــلام المسموعة والمرئية ، غير ماجرى فى المعاملات اليوميـــة ، فلم يخل الامر فى احسن الاحوال من تعريض خفى ، وفى أسوئه من تهكم علنى ، بقى يتغاضى ، ولكن ماجرى فى المقهى لم يستطع عليه صبرا .

ذلك انه آوى عصر يوم خريفى رمادى الى المقهى ، شرب شايا ، ودخن انفاسا من النرجيلة ، وراح فى سرحة طويلة ، لم ينتبه الا عندما فوجىء برجل أصلع ، غليظ الرقبـــة ، بأنفه أثر من ندبة قديمة ..

ـ « انت مصرى ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « زين والله زين .. عندى منكم اثنين .. خدم .. والله انتم ماتنفعوا غير خدم .. »

وسقطت النرجيلة فوق الأرض ، تناثرت الجمرات ، والتمباك ، كأن قيدا شده دهرا انفلت ، انقطع فجأة ، أطبق على عنق الرجل ، اقترب الرواد ، تحفز العمال المصريون ، وعندما تمكنوا من ابعاده الى الخلف ، كانت يداه ترتعشان ، وشفتاه ترتجفان ، وعروق رقبته نافرة ، والفاظه متقطعة .

أحد الشبان العاملين ، بدا منفعلا ، صاح : ان هذا الرجل إهان المصريين ، سمعه بأذنيه ، هذا يتناقض مع توجيهات القائد ، مع ما يتردد صباح مساء ، كان صاحب المقهى البدين قد وصل ، قال :

ـ « لا تضخم الموضوع .. هذا عجوز خرف .. »

ثم التفت الى العمال الذين تحلقوا ..

ـ « اسالهم عن حبنا لمصر .. مصر أم العرب .. »

فوجىء الكل بالرجل ينظر هلعا ، يردد :

ـ « ما تخربوا بيتى .. »

ثم اتجه اليه ..

ـ « يا أخى ما تخـــرب بيتى .. كنت اداعبــك ، والله اداعبك .. »

ثم صاح هاتفا بصوت متحشرج :

ـ « عاش الرئيس .. عاش الزعيم .. »

أصر صاحب المقهى على دعوته الى مجلسه ، الى شاى ، الى نرجيلة ، قال كلاما كثيرا عن الخواطر الغاضبة ، عن الذين لا يحسنون التعبير ، عن الحمقى أيضا ، عندما تأهب للانصراف قبل اكتمال الغروب ، كان عنده شجى ، لماذا فقد أعصابه هـكذا ، ما الذى جرى ؟ ، فى لحظة ـ وقد عاودته فيما بعد ـ رق للرجل اذ استعاد خوفه ، وهتافه المذعور .

فى البيت ، عندما خلا الى نفسه ، وأحاطته الوحدة ، ايقن أن ما كان لن يكون ، وأن المقام لن يطيب بعد الآن ، وبدأ عنده اليقين أن ثمة أمرا سيقع ، توقع غيلة ، أذى .. لكن ماطبيعته ، ماحجمه ؟ لم يدر .

عندما طلعت الشمس لم يشـعر هل أغفى أم لا ؟ ، شرب فنجانين من القهوة المركزة ، اقترب من المرآة ، لكم هو فى حاجة الى النوم .

على حاله هذا مضى الى المسئول السياسى الذى استدعاه على على عجـل ، استقبله غير مبتسم كعـادته ، بل انه لم يدعه الى الجلوس ، بدت الجفوة واضحة ، والرغبة فى الايلام .

قال باختصار : انه سبب له احراجا شخصيا ، فهو المسئول عنه هنا ، وما جرى منه فى المقهى عصر أمس لم يكن له داع ، هل يعلم أنه شرع فى قتل ؟ انه يمكن تقديمه الى المحاكمة .. ثم لماذا يزج باسم القائد فى شجار عابر . هذا خطير ، خطير جدا ، انه يتعجب .. بل انه لم يصدق عندما أطلعوه على ما جرى .. اذن .. هل يخفى هدوءه هذا وعزلته ما هو أخطر ؟

بعد خروجه من مكتب المسئول السـياسى كان فى حال ، وعنده حاجة الى الانفراد ، لم يجد الا دورة المياه ، دخلها لا ليقضى حاجته ، وانما ليغمض عينيه ليحاول تبين عند اى نقطة يقف ؟ ، ما علق بذاكرته ، ما قاله لبعض من معارفه فيما بعد ، شعوره بانه بعيد ، وحيد ، وما من ناصر ، أو معين ، أن مكروها يمكن ان يصيبه فجأة ، سمع عن كثيرين راحوا ضحية حوادث مفاجئة اثناء عبور الطريق ، أو يفقدون بعض اطرافهم فى حوادث تبدو عابرة ، لكنها مدبرة ،

اما دس السم فى اللبن فشائع ، لم يدر ، لماذا اللبن بالذات ؟.
كف عن شرائه ، عن شربه ، قرر الا يتردد على المطاعم العامة ؛ أن يتوقف عن نزهة نهاية الاسبوع ، أن يشترى طعامه من أماكن مختلفة ، أن يغير ما يقدمه له البائع فى اللحظة الاخيرة ، حتى النرجيلة كف عن تدخينها ، بل انقطع عن المقهى تماما .
ما أثقله ، لحظة بدء انفراده ، عندما يصل الى البيت ، ويغلق الرتاج . ويصبح منقطعا ، معدوما من كل عون ، يائسا من المساعد ، احكم اغلاق النوافذ والأبواب ، غير موضع نومه ، يضىء الصالة طوال الليل ، مع أنه لم يعتد النوم ، الا فى عتمة ، كان يستحم بسرعة ، ولحظة اغلاقه عينيه بسبب تدفق المياه ، يفتحهما بسرعة ، متوقعا ظهور أحدهم فجأة أثناء عريه .
كان فى البيت نائيا ، ضعيفا ، وفى الحمام ، أو أثناء نومه أشد ضعفا ، لم يوقن ، هل تبدو نظرات المحيطين به طبيعية ، أم انها تبدلت ؟ ؛ لكن الذى لم يشك فيه أن النساء يطلن التحديق اليه ، حتى اذا انتبه ولوا بنظراتهن ، أما موظفو الاستعلامات فبان فى تحيتهم فتور ..
كم مضى على حادث المقهى ؟
كم انقضى على استدعاء الوكيل له ؟ ، وحتى وصول هذا الاستدعاء ؟.
فيما بعد لم يستطع تحديد الأيام بدقة ، وربما سبعة ، ربما عشرة ؛ لكن ما مر به ، ما اثقله خلال هذه الأويقات جعل مرورها بطيئا ، ثقيلا ، حتى خشى استعادة بعض من تفاصيلها ، مما جرى فيها لمدة .
عند ذلك الغروب كان يتأهب لقلى بيضتين ، واعداد كوب من الشاى ، وبالمناسبة ، فان ما يثير حزنه ، جلوسه وحيدا عند تناول طعامه ، فالأكل يحب اللمة ، وكثيرا ما استعاد أياما من سيرته الاولى .. انتظارهم وصول الأب لا يمد أحدهم يده الى لقمة مهما بلغ الجوع ، كان الشبع لا يكتمل الا بالونسة .
من ينتظره الآن ؟.
فجأة ، رن الجرس ، مرة نادرة ، لا يتوقع أى زائر ، من ؟ ، عندما فتح الباب رأى أحدهم ، يمسك اوراقا ، يردد اسمه ، متطلعا اليه ، تحدد يوم الاربعاء صباحا ، الساعة الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة لمقابلة رئيس مكتب الامن الخاص ، استفسر عن السبب ،

لكن معالم الرجل بدت صماء ، حدد عنوانا ، واسما تسبقه رتبة عسكرية ، شدد على الحضور .

لماذا ؟ لماذا الاستدعاء ؟ ، فى حياته لم يدخل قسم شرطة أو محكمة ، ولا كشاهد حتى ، لماذا يوم الاربعاء وليس غدا ؟.

يعلم الله وحده كيف مرت عليه الايام الثلاثة ، شحب نومه ، وغض مضجعه ، هوى قلبه مرات ، كدره تساؤل ممض ، هل سيرى الأولاد مرة اخرى ؟

الي من يتجه ؟ ، ممن يطلب العون ؟ الى من يبوح ؟ ، خطاه مرصودة حركاته محسوبة .

كانت الايام الثلاثة قاسية .. لكن الساعات الاربع التى انتظرها فى الصالة الرمادية أقسى ، بدت لهجتهم غريبة ، كأنه لم يصغ اليها لسنوات ..

نودى عليه فقام ، الى الجدار علقت ساعة قديمة ، ذات بندول يهتز برتابة ، الواحدة والنصف .. طلب منه الرجل ان يتبعه ، الى الباب الضيق فى نهاية القاعة ، لابد من احناء الرأس للمرور منه ، للوصول الى الفناء الفسيح ، عدد من شباب الثورة ، مسلحين بمدافع رشاشة قصيرة ، يرتدون الأزياء المدنية ملامحهم متقاربة ، عليهم تأهب وعندهم قسوة ، تطلع بعضهم اليه .

اثناء صعوده السلم الضيق ، الرطب الى الطابق الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، كان اكثر هدوءا ، وقراره أهدأ من الايام المنقضية ، وقوع البلاء ولا انتظاره كما يقولون ! ، مع انه لم يوقن من خروجه من المبنى الذى بدا كل ما فيه محاطا بغموض ، أبوابه مغلقة ، لا تسفر ، لا تشى ، أما الطرقات فمتداخلة ..

عند احد المنحنيات فوجىء برجل معصوب العينين ، يقوده اثنان منهم ، تساءل .. لماذا يبدو رأسه مرفوعا الى أعلى ؟ ، تذكر أن العميان يمشون هكذا ، الفرق أن كتفى الرجل مرفوعتان وكأنه يتوقع ضربة مفاجئة فآثر ان يتحفز . هل سيخرج هكذا ؟ الى أين سيمضون به ؟

داخل الحجرة الرمادية طلب مرافقه المكث لحظات ، انصرف ، بقى وحيداً ، معزولا تماما ، بعيدا الى أقصى حد ، ايقن انه مرئى ، مراقب ، وأن ما يعبر ملامحه مرصود ، رب حركة بلا معنى يحاسب عليها ، فليشغل نفسه بتأمل ما حوله ، بالنظر الى الموجودات ، مكتب قديم ، فوقه أوراق متناثرة وزجاجة حبر ، قلم ، دفتر صغير ،

عليه دبابيس دائرية ، فتاحة خطابات حادة ، ثلاثة أجهزة للاتصال ، هاتف احمر ، تتدلى الأسلاك المتصلة بها تتشابك ، تمضى الى حيث لا يستطيع متابعتها ، خزانة حديدية ، مقبضها دائرى ، ماذا تحوى ؟ صندوق مغلق ، ماذا به ؟ . البساط قديم ، نقوشه هندسية ، مثلثات ، داخلها مربعات ، تتوسطها صلبان صغيرة ، رائحة قدم تثقل الفراغ ..

ـ « اهلا .. »

من اين دخل الرجل ؟ ، هل استغرقه الامر حتى انه لم يلحظ ؟ ، الغريب ان أولاده توافدوا عليه فى هذه اللحظات ، حن حتى كاد يبكى ، انه اب ، متغرب عنهم ، ليؤمن لهم أوضاعا احسن ، الا يستحق هذا رفقا بحاله ؟ ، لم يأت شيئا ، لم يخالف ، لماذا دخوله المبنى مجبرا ؟

الرجل قدم نفسه .. الرائد علاء ، علاء وفقط ، اسمه حقا ؟ ، بدا مصرا على ابداء هذا التهذيب المبالغ فيه ، لا يخفى ما يستتر وراءه من عنف وربما تفجر فى اى لحظة .

فى مواجهته تداخل فى بعضه ، لو راى نفسه لادهشه تضاؤل حجمه انها المرة الاولى فى حياته التى يواجه فيها شخصا فى مثل هذا الموقع ، بدأ يتحدث مباشرة ، فقال كلاما كثيرا عن عظمة مصر ، عن دور المصريين فى هذا البلد ، عن مساهماتهم فى خطط التنمية العظمى ، عن التوجيهات الحاسمة فى توفير ظروف العمل لمن يجىء منهم ، طبعا هذه تعليمات سيادة القائد ..

ـ « طبعا .. طبعا .. »

هذا لا يمنع وقوع بعض التجاوزات الصغيرة ، خاصة من الجيل القديم الذى لم يترب على الافكار القومية ، الثورية ، الوحدوية ، وابرز مثال .. ما حدث فى المقهى ..

ـ « ياه .. سيادتك تعرف .. »

استدار الرائد مبتسما ، الحق انه تساءل منبهرا ، ليمد غروره بزاد من عنده ..

ـ « نحن هنا نعرف كل شىء .. »

دنا منه فجأة ، مال عليه ..

ـ « اننا عيون الزعيم وآذانه .. ما علينا .. »

عاد مرة أخرى فأفاض ، ذكر الكفاح المشترك ، ونبل الشعب وقدرته على التضحيات ، واذا كانت الظروف التاريخية ادت الى

انسحاب مصر من المواجهة فان الثقل القيادي انتقل هنا بفضل حنكة الزعيم والقائد ..

ضرب المكتب بقبضته ..

ـ « انه قيادة تاريخية ، استثنائية .. »

لم يعلق ، لم يبد حركة ، لم يجاوب ، لا بالنظر .. ولا بالايماء، انما سرى عنده حزن واسى ، استمر الرائد متحدثا عن الامة الواحدة ، عن ضرورة بث افكار القائد ، فى كافة أنحاء العالم العربى ، خاصة مصر .. مصر الأم ، مصر مركز الثقل ..

هنا لابد من وقفة ، اذ بدات تلوح علامات فى الحديث المستمر ، المتدفق ، تلميحات لم تخف عليه ، أنه مقبل على لحظة حادة ، مدببة ، لايمكن له التزام الصمت عندها والا عنى ذلك الموافقة .

اعلموا أنه منذ وصوله الى هذا البلد ، ومنذ نزول السادات فى مطار العدو ، منذ الاعلان عن قطع العلاقات ، وهو يخشى ان يلقى نفسه عند نقطة لا يمكنه بعدها العودة الى القاهرة ، أن ينقطع تماما عن عياله ، عن شقيقته ، لم يفصح لأحد عن دمعه اذ رأى الرجل يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد ، لم يبح ، لم ينطق ، لو انه فى القاهرة ، لمضى الى المقهى ، لفض مغاليق قلبه لصحبه ، لأبدى وجاهر ، لكنه هنا لم يشأ ان يسفر حتى لا يجد روحه عند هذه النقطة التى يخشاها ، أن يكون هو فى بلد ، وأسرته فى بلد آخر ، صحيح انه لن يراهم قبل تسعة شهور ، لكن كل يوم ينقضى يقربه منهم ، وعند لحظة بعينها سيجد نفسه فى الطريق الى المطار ، متجها اليهم ، لا يوقفه حاجز ، ولا تخترقه عينان متفحصتان كعينى هذا الرائد ..بل ان وجوده فى هذا المكان يؤذيه داخليا ، انه مضطر لاخفاء مجيئه الى هنا ، هذا اذا اتيح له الخروج .

المهم ..

كم طال به المقام ؟

أربع ساعات كاملة ، رق فيها الضابط وتصلب ، ابدى واخفى ، صرح ولمح ، تقدم وانثنى ، بعدها لم يطل مقامه ، بمجرد خروجه عبر الطريق بسرعة ، أوغل مبتعدا فى الطرقات الخالية ، مجتازا البيوت التي لا تلوح منها حركة ، كان يود التوحد بذاته ، النأى ، استعادة دقائق اللقاء ، فى البيت قعد مكمودا ، لا يدرى المراد به ، هل سيطلع عليه صباح اليوم التالى هنا أو فى مكان آخر ؟. كان

راضيا لوضوحه مع الرجل ، غير أنه كان يعى تماما .. لم يعد له مقام هنا !.

لم يعرف انسان ما جرى له خلال هذه الاسابيع الثلاثة ، الممتدة بين المقابلة ولحظة اقلاع الطائرة به .

فيما بعد قال لشقيقته :

ـ لو تعرفين اى ايام سود ؟

كانت شقيقته تحملق اليه صامتة ، لا تدرى ، لا تستفسر ، لا تعرف التفاصيل ، غير أنها كانت تحسه ، تماما كالمرحومة أمه ، لكنه فيما بعد أفصح ، ليس فى جلسة ، انما عبر قعدات شتى ؛ فى معظمها كان يبدأ وكأنه يناجى نفسه .

فى البيت لم يغف الا مضطرا ، ولم يعرف من النوم الا ما يشبه الاغماء ، أما الزاد فعافه حتى أوشك على هلاك ، تردد بين الوزارة ، والبنك ، ولما قالوا له ان تحويل مدخراته يقتضى موافقة أربع جهات، اثنتان أمنيتان ، واثنتان سياسيتان ، لم يعبأ ، ما شغله سرعة مفارقة البلد ، تحمل نظرات المحيطين به ، وتحرشات العاملين ، بازدراء الموظفات البادى ، وسخف اللجنة التى جاءت تسلم البيت قبل موعد سفره ـ الذى تحدد ـ بستة أيام ، كان عليه قضاء هذه المدة فى الفندق ، ولأنه يعلم بوجود مفاتيح أخرى للغرف ؛ كان يزيح المقعد والمنضدة الى ما وراء الباب ، ثم يستلقى باكيا حظه ، متشوقا الى أولاده ..

لكن هذا كله فى ناحية ، وما جرى له بالمطار فى ناحية أخرى ، عندما تخطى الحاجز المؤدى الى مكتب الجوازات ، مازحه الرجل فى البداية ، سأله عن سعاد حسنى ، هل هى متزوجة الآن أم لا ؟ ، ثم أطال النظر الى جواز السفر ، تطلع اليه ، بدا عليه تجهم مفاجىء، قام مفارقا المكتب الضيق ، أشار اليه ..

ـ « اتبعنى .. »

الى حجرة مجردة من كل اثاث ، مغطاة بلون رمادى ذى مستوى واحد ، لا ظل ولا نتوء ، رائحة مطهر قوى ، كفراغ المستشفيات.

هل أخبر بما جرى له ؟

نعم .. لشقيقته ، وقبل سفره الاخير بأسبوع واحد ، قال لها باختصار انهم لعبوا فيه ، قال ما قال وادركه خزى ، أطرق ، لكنه منذ حدوث ذلك وهو يود ان يفضى ببعض من حمله الثقيل الى آخر يحسه ، لم يكن له الا أخته ، التى تقعد أمامه متوحدة ، بها ظل من

ملامح امه القصية ، بها ود ، وعندها تحسر ، وتمن ، لم تمض امورها كما تمضى امور سائر البنات ، انه سوء الحظ ، والبخت المائل .

حدثها عن تجريدهم ثيابه ، عن ابدائهم الغلظة ، دفعه الى الصدر ، وخزه فى الجنب ، حتى بقائه بالقطعة الأخيرة ، اصرارهم ، تجرده منها ، وعدم مجاوبتهم لما طلبوه ، دخول ثلاثة ، حفاة ، غلاظ الأكباد ، فشخه قسرا ، تمرير آلات كهربائية ، التنقيب داخله عن نقود يمكن ان يكون قد أخفاها فى أنابيب من البلاستيك ..

عندما فرغوا اقعى عاريا تماما ، ومرارة داخله ، وتقبل لفكرة الموت لو استمر تطاولهم ، لو الحوا ، أن يطبق على عنق احدهم ، لكنهم لم يواصلوا وعندما دخل واحد منهم ، لم يره من قبل صاح ونهر ، أسف واعتذر ، كان فى مواجهته ضعيفا ، مجردا من كل عون ، غير إنه لم يجب ، لم ينطل هذا عليه ، كل شيء مدبر ، كل خطوة مدبرة ، حتى ابداء الشفقة .

عندما تسلم جوازه مختوما ، مدون به كافة التأشيرات ، عبر الحاجز الحديدى الى داخل الصالة حيث انتظار الاقلاع ، هنا الخطر ، فمن الناحية القانونية غادر البلد ، لكنه فى الواقع ما زال فى قلب النظام ! فى المتناول ، لو اختفى هنا ، فما من دليل ، هذا اذا وجد من باستطاعته الوصول الى من يمكن الاستفبار عندهم هنا .

كان يخشى استعادة لحظات عريه المهينة ، لكنه فى مواجهتها ياتى بلحظات مقابلته للرائد ، اصراره على عدم ابداء التراجع ولو خطوة ، اى تهاون يتبعه آخر ، لم يلن ، لم يخش نفيه عن العالم ، هذه المقابلة لم يفض بها لأحد ، حتى اخته ، ان مجرد تصريحه بذهابه الى هذا المكان لما يخجله أكثر من عريه فى المطار ، وهذا عجيب !.

قبل سفره الى أوروبا — وسيرد تفصيله — اعتاد التردد على شقيقته ، وبقاءه عندها ساعات ، يحكى وتحكى ، يستعيدان ايام طفولتهما ، وامانيهما الولى ، تذكره بمن بهتت ملامحهم فى ذاكرتهم ، المراة المهيضة التى كانت تسكن فى مواجهتهم ، والموظف المتعالى الذى كان لا يلقى التحية على من يلتقى به ، واذا ذكر اسمه يتبعه فورا بقوله : ليسانس حقوق بدرجة جيد جدا .

ضحكان ، تذكره بزواجه المفاجيء من صاحبة الفرن الافرنجى

عند الناصية أما الشيخ الملتحى تاجر العطور فلم يكن يظهر الا ليلا ، ثم تبتسم وتذكره بابنته ، ألم يكن يهتم بها ؟.

ويفاجأ .. بعد مضى هذا العمر كله يكتشف أن امه واخته كانتا منتبهتين الى ما ظنه خفيا ، مستورا ، يعرف هذا .. لكن ليس فى حينه . انما بعد غياب أمه ، واكتمال وحدة شقيقته ، واقترابه منها ، والافضاء بما يثقله اليها ، وهذا جديد عليه ، مستحدث ..

قبل زواجه كانوا معا ، ينمو كل منهم قرب الآخر ، يظلهم سقف ، لكن الدخائل بقيت أسيرة الصدور ، كان ما بينهم كليات ، وليس جزئيات ، احب أمه واباه ، غير أنه لم يفض اليهما بعذابات مراهقته ، او دقائقها .

أمه لم تصارحه بادراكها ، لبعض مما عنده ، بقيت خارج دائرة المكاشفة ، اما شقيقته فظلت حتى زواجه .. تلك الطفلة التى كانت تدرج على مقربة حتى بعد تخطيها العشرين .

فيما بعد بدأ يلحظ اهتمام أمه الخاص بابنتها ، كانت تخرج خفية الى سوق الموسكى القريب وتعود بقماش او زجاجة عطر أو علبة بودرة ، لم تكن شقيقته دميمة ، ملامحها هادئة ، مريحة كظلال الطرق التى يسعى عبرها الى بيت والديه ، ليست قصيرة ، ولا طويلة ، لم تكن نحيلة ولا بدينة .

فى الأعوام الاخيرة طالت فترات صمتها ، احيانا يلقاها محمرة العينين من بكاء ، تصر أنه ما من سبب ، لم تكن تزور صاحباتها ، ولا تزار منهن ، وأن تحدثت مرة عن صديقة لها فى ضاحية حلوان ، كانت تعود من الجامعة فتمكث حتى اليوم التالى ، حتى بعد عملها فى هذا البنك ، واذا استرجعا ذكرياتهما عن الأم فلا تحوش نفسها عن البكاء .

« لم يكن لى غيرها .. ولم يكن لها غيرى .. »

ما يحزنه ، حتى فى غربته ، ان الوالدة رحلت مبكرة وحسرتها باقية ، ودت أن تفرح بها ، أن تراها مستورة ، لكن الحظ مال عنها ، فى آخر حوار جرى مع أمه ، قالت :

ـ « البركة فيك ، لم يعد لها غيرك .. »

لم يغب عنه ذلك ، كان يقتصد مبلغا ، لا يخبر به امرأته ، لا يذكر عنه شيئا ، يعطيه لشقيقته عند زيارته السنوية .. يطلب منها الاحتفاظ به فى دفتر التوفير الذى فتحه لها فى مكتب البريد القريب عند ناصية الشارع الثانى الى اليمين .

عندما رجع فى اجازة منذ عامين ، هاله وحدتها ، البيت الذى ضمهما معا صار قبرا للذكريات ومثوى ، كل جزء منه يوحى بلحظة مندثرة ، عندما ولجه انقبض مع أنه عابر ، فما البال وهى المقيمة . لاحظ القفلين الجديدين فى الباب ، واغلاق حجرة والديه .

عندما فارقها عائدا الى بيته كان مثقلا ، كيف يتركها هكذا ، بمفردها ؟ عند انصرافه بدا حرجا ، حاول مداراة ذلك بالتأكيد على ضرورة اغلاقها الباب ، التأكد من شخصية محصل الكهرباء ، ابقاء ضوء الصالة ليلا ، قال لامرأته ان شقيقته وحيدة تماما ، من الطبيعى مجيئها للاقامة ، وحدتها مبعث قلق له ، لم ترفض ، لم توافق ايضا بوضوح ، انما قالت : « البيت بيتها » . ثم تساءلت عن مدى الخطر المصاحب لترك الشقة هناك بدون ساكن ، الا يغرى هذا أولاد الحرام بسرقتها ؟.

لم تقبل اخته فورا ، ابدت ممانعة ، ألح واقسم ، أبدت امرأته ترحيبا ، قالت لها ، انها فى بيتها ، انها ليست ضيفة ، حرص خلال المدة المتبقية من اجازته ان يقرب بين ابنائه وشقيقته ، غير ان ما آله ان العلاقة لم تتوطد ، وعندما شرع فى السفر لم يكن مرتاحا ، فثمة مسافة بين الاولاد وعمتهم ، لا يجلسون اليها ، ولا يتحدثون الا نادرا ، اما ما أزعجه فزوجته ، اذ تطلب منها اداء بعض الأعمال ، الحقيقة ان البنية لم تقصر ، بل سعت من تلقاء نفسها ، لكن يبقى فرق ضئيل بين تأدية ما يجب كأنها من أهل البيت ، وبين طلب زوجته منها بلهجة شبه آمرة ، وكأنها .. هل بالغ ؟ ربما ، لكنه عندما سافر لم يكن راضيا : كتب فى اول خطاب يوصى امرأته وعياله ، ويذكر ما يرقق قلوبهم ، فأخته لم يعد لها أحد ما من قريب او بعيد ، لكنه بعد شهرين تلقى خطابا فيه الحزن الخفى ، قالت انها لم تشأ ان تكون مزعجة لأهل بيته ، وأنها تفضل الاقامة فى المكان الذى سعى فيه والدها حتى آخر ايامهما ، كل ما رغبته ، الا يغضب منها ، وهى تثق انه يقدر ويفهم !.

فى أجازته التالية لم يطرق الموضوع ، لا مع أمرأته ، ولا مع شقيقته ، لا من قريب ولا من بعيد ، ما بقى مصدر ألم له ، معيشتها بمفردها ، غروب أيامها يوما اثر يوم ، وشهرا بعد شهر ، سنة بعد سنة ، الطفلة التى عرفها ، التى ما تزال صورتها بالضفائر مهيمنة عليه ، هذه الصغيرة التى سكنت نفس الرحم الذى تكون فيه وآواه ،

تدرج نحو العنوسه ، لتغير ملامحها ، وتنزل ببطء عتمة فى عينيها ؛ وتلوح بوادر استكانة فى مصيرها .

ماذا بوسعه أن يفعل ؟

بعد عودته النهائية اثر ما جرى له ، أكثر من تردده عليها ؛ لا ليطمئن فحسب ، انما ليتحدث ، ليفضى اليها بدقائق الشئون ، وعندما كانا يستسلمان لنزول الغروب ، وتبقى النافذة مفتوحة قليلا لخروج الذباب ، بينما الليل يكتمل فى الخارج ، وضجيج الطريق الذى اعتاده فى الزمن الآفل ، يتغير ايقاعه ، كان يصمت أحيانا .. يلقى نفسه وحيدا ، تماما كوحدتها هى ، وان حظه عاثر مثلها ، وان الزمان مال عليه كميله عليها ، كان يطيل القعاد بدون لفظ ، تنتابه رغبة فى البكاء ، لكنه يكتم ، عندما يتهيأ للذهاب ، يفتح الثلاجة ، يطمئن الى وجود طعام كاف ، عند الباب ينطق الوصايا ذاتها ، أحكام الاغلاق ، عدم فتح الباب لغريب ، ترك ضوء الصالة ، تودعه مبتسمة ..

ـ طيب .. طيب ..

ينزل الدرج حزينا ، يمضى الى المقهى ، يؤجل عودته الى البيت ، لماذا ؟ ، هذا ما يلزم توضيحه !.

اعلموا أنه منذ عودته ، وبعد انقضاء الأيام الأولى ، أدرك انه غريب ، انه زائد على الحاجة ، ان ما كان يعنيهم التحويل الشهرى ؛ اما شئونهم فليست شئونه ، وأمورهم لم تعد تمضى مقترنة بأموره .

البنت الكبيرة مقيمة عند خالتها ، أحيانا تجىء ، لكن مكانها هناك ، ملابسها كتبها ، حجرتها ، بل ان ثمة فارقا بينها وبين شقيقتها ، ابنته ؟ نعم ، لكنها تنتسب اليه بالاسم ، جوهرها لم يتابع نموه ، انها انأى ذريته عنه ، لم يلحظ نموها يوما بعد يوم ، تطور اهتماماتها ، لايعرف من أمر علاقاتها شيئا ، زميلاتها ؛ صديقاتها ، يفاجأ أحيانا عند النظر اليها ، أهذه ابنته ؟.

ما أزعجه ، ما بلبل خواطره ، ما أخجله حتى خشى استعادته ، انها كانت تتحرك فى البيت ، فى أحد العصارى ، كانت ترتدى قميصا ضيقا يبرز صدرها المتمكن وبنطلونا يلتصق بجسدها ، عندما انحنت فوجىء بنفسه محدقا بردفيها ، المكتملين ، المستديرين ، المتصلين ، المفترقين فى تضام ، سرى عنده ما يسرى عند الذكر تجاه الأنثى !!

عذبه هذا ، خجل من استعادته ، وان توافدت عليه اللحظة من حين الى آخر ، حاول نفيها واقصاءها ، لم يذكر هذا لأحد ، غير انه دونها على قصاصة ورق اثناء المرحلة الأخيرة من تغربه فى

أوروبا ؛ كان يعرف [illegible] احتجاجه على بقائها عند خالتها قد مضى ، ان سنوات غيبته سلبته امورا ، حتى ابنته الوسطى ، وابنه . كانا نائيين بعد عودته كان يطيل البقاء فى البيت ، لكنه يفاجأ بحياته تمضى عبر شعب عدة ؛ دروسهما لا يعرف عنها شيئا ، أصحابهما ؛ كان يجد نفسه وحيدا ؛ امرأته اما مشغولة بأمور البيت ، وأما تجلس الى احدهما لمراجعة الدروس ، دائما مرهقة ، مهمومة ، العبء ثقيل ، المدارس ؛ الأسعار التى تتزايد باستمرار ، اذ يبدى تعجبه ودهشته ؛ تطلب منه الذهاب بنفسه الى السوق ، بعد هجوع البنت والولد . يطل نعاس من عينيها ، يسألها ان تقوم لتنام ؛ تستفسر عما اذا كان يريد شيئا ، يهز راسه نفيا ، تشير باصبعها ، « العشاء جاهز » . تبتسم فى اعياء ..

ـ « تصبح على خير .. »

بدأ يعتاد الخروج بعد الظهر ، زمان .. كانت تسأل وتدقق مبدية الغيرة ، أو ملمحة بها ، الآن ، لا تنتظر عودته ..

فى الصباح يبدو الولد والبنت متعجلين حتى انهما لا يتناولان افطارهما ، أنه يمضى الى المقهى ، لكنه لا يلقى احدا من معارف الزمن القديم ؛ الوجوه تغيرت ، أصحاب السنين البعيدة رحل بعضهم ، انقطع عدد منهم ، أصبح المقهى مقرا لعدد من المقاولين الذين بدأوا نشاطهم فى السنوات الأخيرة ، أحدهم كان حارسا للسيارات فى الشارع الضيق القريب ، كان يحمل فوق صدره لوحة معدنية ، الآن يجىء فى سيارة حديثة ، ينزل أمام المقهى تماما ، تاركا بابها مفتوحا ، ومحركها دائرا فى عرض الطريق ، وسرعان ما يقودها المنادى الذى خلفه فى المنطقة ليركنها بجوار الرصيف ، اما صاحب المقهى فدائم الشكوى ، بعد ان توفى أخوه صار الحمل كله عليه ؛ كما أن التكاليف فى تصاعد ؛ الشاى ، القهوة ، السكر .. صار يجد صعوبة فى توفير السكر ، الزمن لم يعد هو الزمن .

ثمة عروض عديدة عليه لشراء المقهى ، من بنك ، من تاجر سيارات ، من صيدلى كبير ، من سيدة ثرية تريد افتتاح معرض للأزياء .. انه يفكر ولم يقرر بعد .

لم يعد يطول به المقام ، تضنيه الوحدة ، يفتقد الدروب الموصلة الى من يحيطون به ، يقوم منصرفا الى متاهة الطرق .

اما امرأته فعادت الى التلميح ، ما سيحتاج اليه الأولاد ، صحيح ان أحوالهما أفضل من غيرهما ، عندهما رصيد فى البنك ،

لكنه يجب الأ ينسى أبدا انه اب لابنتين ، كلتاهما ستتزوج بعد قليل ، ويجب أن يعد العدة من الآن .

من ناحيتها هي اقتصدت ، وادخرت ، واشترت طوال السنوات الماضية بعضا مما يلزم ، اطقم صينى ، سجاد ، اسعار الأمس غير اليوم ، ولا يدرى أحد شيئا عن الغد ، ثم تصمت ، لكنها مرة قالت بوضوح انه لو اتم المدة لأصبح عندهم الآن مبلغ اكبر .

قال لها ان من حقه مبلغا كبيرا هناك ، لم يحولوا مكافاته عن المدة ، كتب عدة شكاوى ، ارسل الى الصحف ، فيما تلا ذلك استفسرت منه ، وحتى تستوثق اطلعها على الأوراق ، وايصالات البرقيات التى رفعها سواء هنا أو هناك ، كان يائسا من حصوله على حقوقه ، لكنه لم يستكن ، ماذا كان باستطاعته ان يفعل الا ارسال التظلمات وتشييع الشكاوى ؟

خلال هذه الايام التى تكاثفت فيها غربته بين من يحب ، وقع امر ، وتفصيل ذلك .. ان عديله كان مسافرا الى اوروبا منذ عامين، وذلك لعمله فى احدى المطابع العربية التى انشئت هناك خلال السبعينيات ، كان يخبر فى رسائله عن احواله الميسورة ، ويرسل الهدايا ، كثيرا ما حسده ، فالحياة هناك تعج بمباهج شتى ، وحتى هذا العمر لم ير شبرا من الشاطىء الآخر للبحر .

فى شهور الاجازات الصيفية كان بعض العاملين يقترحون عليه السفر اسبوعا او اسبوعين الى فارنا ، أو الى قبرص ، لتغيير الجو كما يقولون ، لكنه يومىء برأسه بما لا يعنى الموافقة او الرفض . اذا ذهب بصحبة الأولاد فسينفق مبلغا كبيرا .. اذا ذهب بمفرده ، فلن يطاوعه قلبه ، يتفسح هو وهم لا ؟ ، أصعب عليه تقبل هذا ، كثيرا ما كان يفكر فى عديله الذى سافر ليعمل لأول مرة فى الخارج هناك ، كان يتساءل خفية ، ألم يحاول ايجاد فرصة له ؟.

رغم خواطره تلك لم يكتب اليه ، لكنه فوجىء بامراته متهللة يوما :

ــ يا الله ياسيدى ، ستسافر الى أوروبا ..

ــ كيف ؟.

أرسل زوج اختها عقدا ، سيعمل فى نفس المطبعة ، والسفر .. بعد اسبوعين لا غير ، لم يدر .. هل ارسلت امرأته اليه ، أم أن الأمر تم تلقائيا ، لم يدر ولم يعنه هذا ، انما أقدم على انجاز اجراءاته بسرعة ، وتجهيز حاجاته ، شراء ملابس داخلية من الصوف ، وجوارب طويلة ، الشتاء هناك قاس ، وبرغم تطلعه للفرجة على عالم مغاير ،

. يره الا فى السينما . فان اسى تحرك عليه ، لم يتم سنة واحدة
منذ عودته : أوشك على الاندماج فى البيت ، لكنه عليه الآن ان يغادر ،
لى تحويل المبلغ الشهرى ، الى الاطلاع على أحوالهم عبر الرسائل .
هذه المرة بكت اخته ، وعندما صافحها عانقته ، فخفق قلبه ؛
عاتبها ..

« تبكين عند سفرى ، اريد أن اتذكرك باسمة .. »

ولما غالبت دموعها ، قال :

« يا بنت أمى وابى ، سأرسل اليك بعد استقرار أمورى ،
وتجيئين الى أوروبا .. »

عند مدخل المطار فوجىء بها ، لماذا الحت فى وداعه ؟ لماذا
ضمته الى صدرها ؟ لماذا أتت الى المطار الذى اعتاد الرحيل منه
بدون مودعين ؟ لكم يكره اللحظات الأخيرة .. غير أنه فى هذه المرة
ارتاح لظهورها ؛ ظل يلوح لها حتى تواريه وايغاله فى الممر المؤدى
الى مكتب الجوازات .

فيما بعد قالت انها كانت تشعر ، وان رفة مشئومة مرت
بعينيها ؛ وان حلما كئيبا الح عليها ، لم تشهده الا قبل رحيل أمها ،
اذ رأت نفسها فى أرض خلاء تماما ، ترتعد بردا ، ومن فمها تسقط
سن ؛ لم تخبره بذلك ، انما كتمت ..

المهم ..

انه سافر .

فى أيامه الاولى .. بدا مرحا ، مبسوطا ، لا يعود من عمله
الا وينزل ليمشى فى الشارع ، يلف هنا وهناك .. يتجه الى مناطق
السهر ، الا أن عديله حذره ، فالمدينة مليئة بالعاطلين ، والأغراب ،
وهؤلاء يستخدمون العنف للحصول على اى نقود كف عن السهر ،
ليس بسبب الخوف ، انما الارهاق ايضا ، اذ يبدأ العمل فى ساعة
مبكرة ، وينتهى فى الخامسة ، أقام مع عديله فى نفس الشقة ، اتخذ
مرقدا له فى حجرة صغيرة ، تواجه بيتا قديما ، نوافذه مستطيلة ،
المبانى كلها خالية من الشرفات هنا ، ضباب ، برد ، مطر يستمر
اياما متصلة ، الستائر مسدلة تماما ، لكنه يلمح ظلالا باهتة ،
تتحرك ، تروح ، تجىء ، احتكاك اللاعق بالاطباق ، لحظات تناول
العشاء ، يقلع حنينه الى البيت ، الى اللمة القديمة ، وتقوى حاجته
الى القرب .

مع تتابع الأيام بدت وحدته قاسية مع انه يعيش مع عديله في بيت واحد ، بعد وصوله قال عديله ضاحكا ، انه ذو خبرة في الغربة ، لذلك عليه تدبير امورهما معا ، قال انه لم يتقن في حياته حتى سلق البيض .. اشاد بالطعام الذى أعده لهما ، قال ان الاكل في البيت أوفر من المطاعم بكثير ..

أصبح هو الذى يشترى اللحم والخضار والبيض واللبن وسائر ما يلزم ، ليس هذا فقط ، بل انه يرتب البيت كله ، حتى فراش عديله الذى يتركه على حاله ويمضى ، كان ما بينهما شاحب ، فلم تكن ثمة علاقة قوية ، على الرغم أن الرجل كان سببا في زواجه . وبالرغم من نمو ابنته الكبرى وتربيتها في كنفه .

عندما دخل غرفة عديله فوجىء بصورتها بجوار السرير . وصورة خالتها كان يعدها كابنته كأن هذه الحقيقة تواجهه لأول مرة .

كثيرا ما كظم ضيقه ، خاصة في البداية ، بل فكر أحيانا في زوج خالتها باعتباره غريبا عنها ، صحيح أنها ذهبت اليهما طفلة ، ولكن ماذا بعد أن تصير انثى مكتملة ، ولكنه كان يقصى هذه الخواطر بعيدا . لا يصح ..

منذ سفره الأول صار نائيا عن الكل ، وان ظلت المسافة بينه وبين ابنته الكبرى ابعد ، عديله امكانياته اكثر ، الحقها بمدرسة اجنبية ، وكفل نفقاتها ، أما الحلى التى تزين معصمها وجيدها فأكثر مما لدى امها ، كذلك الثياب التى تبدو متميزة ، والعطور التى تفوح منها ، آخر ما عرفه قبل مجيئه هنا . انها أصبحت عضوا في نادى الجزيرة . وانها تذهب اليه ، تلعب التنس وتركب الخيل ، سمعها تتحدث عن الحصان الذى تلقمه السكر ، عندما يراها مقبلة يهمهم ويتحرك فرحا ، قال لامرأته ، ان هذه النوادى لا يعرف أحد ما يجرى فيها ، اجابته باقتضاب « انها ابنتى .. وانا أعرفها .. هى تحكى لى كل شىء .. »

لكم لزم الصمت ، ربما لأنه لم يكن الا عابرا ، مجرد زائر في اجازة ، يجىء طوال هذه السنوات لفترة مهما طالت فلم تزد على شهر ، ثم يرحل ، على اية حال تقاطعت خطوطه بخطوط عديله ، كانت تمضى أيام عديدة فلا يلتقيان . لا يجلسان للحديث في البيت ، يمضى الى عمله مبكرا ، ويستيقظ عديله بعده ، اذ أن عمله يختلف ، كان يعود متأخرا ، علم مصادفة انه يشارك في نشاط احدى

الجمعيات ، لم يخبره ، ومن ناحيته هو لم يسأل ، كان دائما متجها الى دعوة للعشاء أو ما شابه ، أو الى قاعة سماع موسيقى ، او للفرجة على مسرحية ، كما اعتاد الذهاب الى أصحاب له فى ضاحية نائية ، لم يدعه قط لصاحبته ، لمح مرة الى تقاليد البلاد وظروفها المختلفة .

كان يعد الطعام قبل نومه ، يغطى الأطباق ، ويتركهـا فوق المائدة المستديرة فى الصالة ، مع ورقة تحتوى سطورا منه ، يتمنى له شهية طيبة . فى الصباح يجد الأطباق وفيها بقايا طعام ، لم يكن يغسل حتى كوب الشاى ، ينتابه غضب ، كأنه لم يأت الا ليعد له الطعام ويرتب الفراش ، ويدبر أمور البيت ، لكم بدا مختلفا عندما عاش بقربه تحت سقف واحد ، يقرر أن يصارحه الليلة ، لكنه مع نهاية النهار يكتم ، انه أكبر سنا ، لم يبد منه ما يسيء اليه ، كأن عديله يدرك ما يمكن أن يجول بذهنه ، أحيانا ، أثناء لقائهما العابر يسأله عن احواله ، ثم يذكر بمناسبة وبدون مناسبة ، الجهود التى بذلها حتى أمكنه الحصول على عقد عمل له ، مثل هذا صعب جدا هنا ، الا يقرأ عن نسبة البطالة المرتفعة ؟ ، ولولا أن أصحاب المطبعة من العرب لما جاءا الى هنا .

كان يصغى ولا يعلق .

غير أنه تساءل مرارا فى خطاباته التى شيعها الى أخته ، لماذا تسعى الظروف الى مخالفته فى الحدود الدنيا ؟ . لماذا لم تمض به فى مساراتها العادية لماذا يجد المخالفة عند كل سعى مشروع ؟ . بدأ يشكو الأيام الرمادية المتتالية ، المطر المستمر ، الوحدة فى قلب الزحام .

هل تصدق ؟ انه يمضى أحيانا الى بعض المقاهى الخاصة بهم ، مقاه بلا أرصفة ، ابوابها لا توحى بما تؤدى اليه ، ضيقة ، معتمة الواجهات ، اذ يجتاز المدخل ، يسلم المظلة والمعطف ، يجد الفراغ ممتلئا بالدخان ينتظم القوم حول المناضد ، معظمهم يشربون البيرة . تصورى .. يشربون وانظارهم محملقة الى الأمام . لا ينظر الواحد منهم الى الآخر ، يطلب طعاما خاليا من الخنزير ، عندما يحمل طبقه ويمضى الى مكان خال ، يومىء محييا الجالسين ، غير أنهم لا يقابلونه الا بوجوه جامدة ، وعيون زجاجية ، مهما قضى معهم من وقت لا يتبادل مع أحدهم كلمة ، أحيانا يجاور عاشقين ، يصغى الى حوارهما الهامس .. الى تبادل القبلات ، كأنه غير موجود ، كل فى محيطه ،

ملاصق مركز دائرته . اين ذلك من المقهى القديم ؟ ، وهذا المقهى العتيق ، الفسيح . في ذلك البلد العربي .. من يصدق أن يوما آت ، يحن فيه اليه ، واين .. وهو هنا في أوروبا ، كان يتحدث الى من يجاوره ، تمتد الوشائج الانسانية ، اما وحدته هنا فصعبة ، كأن ستاراً خفيا ضرب حوله ، انه بعيد جداً حتى عن نفسه ، القوم فيهم انفة ، وصلافة زائدة ، وبغض للغريب . لن ينسى أول مرة جرى فيها ما جرى .. اذ قعد في المترو بجوار امرأة عجوز تطلعت اليه بنظرات جانبية حادة ، حتى ظن انه اتى شيئا فريا ، ثم قامت غاضبة ، آثرت الوقوف بعيداً ..

في المساء قال عديله ان البعض هنا يكرهون الملونين ، ويحرضون ضدهم ، هو بالنسبة اليهم ملون ، بعضهم يسمونه التركي ، البقال لا يسميه الا التركي ، لكم مرت به لحظات باردة ، عند عودته متأخرا : تحدق به الشوارع الفسيحة ، شبه الخالية ، بينما تبدو المباني الرمادية مصمتة ، لا تسفر ، لا تنبيء بأى حركة ، حتى الأضواء تبدو مختنقة ، كأنها ظلال لأضواء أخرى ، يمد الخطى وثمة خوف غامض يدركه ، اذ يغلق الباب خلفه يلقى انفاسه لاهثة .

لكم كتب الى شقيقته ، تمنى المشي ، مجرد الخطو في الطريق العامرة المؤدية الى البيت ، لا تنقطع الحركة منه ليلا او نهارا ، في أي ساعة يمكنه النزول وشراء ما يحتاج اليه .

لكم يود القاء التحية على من يعرفهم ويعرفونهم ، الى سماع الردود الحميمة ، يود النظر الى الدكاكين المتجاورة ، المرور بالبقال الذى لا يفتح أبوابه الا بعد التاسعة مساء ويستمر حتى الصباح .

لكم تمنى الدخول الى دكانه العبق برائحة الجبن الرومي ، والزيتون الأسود والصابون . تساءل مرارا .. لماذا تبدو الأيام بعيدة ؟ لماذا يبدو قبس منها مستحيلا ؟ نعم .. البلاد هنا جميلة ، لكنها جميلة لأهلها ، لمن يجيئها عابرا في أجازة ، أما الاقامة لمن هو مثله فصعبة ومرة !.

لم يتلق من شقيقته اجوبة ، انما تلقى ادعية ، وتساؤلات : ماذا به ؟ ان لهجته غير مطمئنة ، ان كلماته تعكس ضيقا والما ، لماذا لا يرجع ؟ لماذا لا ينهي غربته ؟ تفور الفلوس وما يجيء بعدها .

لكم قرأ كلماتها ، وادركه خجل ، الا يحملها ما لا تطيق ؟ الا تكفيها وحدتها ، هي من تجتاز خريفها بدون انيس ، بدون رفقة بعد ميل بختها ، انها مقطوعة عن كل قريب ، لماذا يثقل عليها ؟ ، هو

.. عنده امرأته وعياله لكنه لا يقدر على مكاشفة امرأته بما يصارحها به ، أو بمعنى آخر .. لا يرغب .

لكم يروعه ادراكه لنأيه عن أولاده ، أحيانا يقول لنفسه : ما ابعد الفرع عن الأصل ، ما يصلهم به ذلك التحويل الذى لم ينقطع عنه بداية كل شهر ، لم تكن غربته الأولى فى ذلك البلد الذى كاد يلقى حتفه فيه الا لتكوين رصيد يمكنهما من مسايرة ظروف الحياة ؛ لم يكن بمفرده ، انما تغرب كثيرون ممن لا يعرفهم ، وممن يعرفهم ؛ اما غربته الثانية التى لقى فيها ما لقى ، وهـذه الثالثة فلضمان استمرار حياتهم كما هى ، صحيح انهم يكتبون اليه الكلمات الرقيقة . ولكنها كلمات متشابهة ، جملها متكررة .

سنوات انقضت ، هو فى ناحية وهم فى ناحية ؛ عندما نطق كل منهم حروفه الأولى ، عندما حبا أولى خطواته ؛ لم يكن قريبا يسمع ويرى ، ليبتهج ، ليتلقى أول السعى بين ذراعيه ؛ فلماذا يلوم ؟ غير أن وحدته وعرة هنا ، تحدق به أوقات خلو من كل عزيز ؛ سعى احيانا الى افتعال مشاجرة مع عديله ، لكم رتب ظروف تحرشه به ، ضرورة تنبيهه الى المشاركة فى أمور البيت . لم يأت به من مصر ليعد له الطعام ، آه .. ليفهم ذلك ؛ ثم .. لا داعى للتلويح دائما بجهوده التى بذلها من اجل اتمام هذا التعاقد ؛ انه يقدم جهدا ويتقاضى مقابله أقل مما ينبغى ، ثم ليفهم جيدا .. انه ليس سعيدا بالمرة ، البلاد باردة ، موحشة .

عندما كان فى هذا البلد العربى ، كان يمكنه الحديث الى هذا . أو زيارة ذلك ، لكن الكل هنا أسير جلده ، لم يسأله يوما اذا كان مريضا أو مرتاحا ، بل تمضى أيام لا يرى كل منهما الآخر ؛ لكم جهز وأعد ما سيقوله ، وعندما يتواجهان يحل الصمت ؛ فيؤجل ؛ بل أحيانا ينقلب ليلوم ذاته ، لماذا يريد فصم ما بينهما وهما فى غربة ؟ ؛ يلتمس العذر تلو العذر ، غضبه وضيقه بسبب وحـدته ؛ وربما حاجته الى سماع كلمة حلوة من الآخرين ؛ انه البعد الطويل عن أولاده ، واذ يفكر فيهم تتطلع عيناه الى بعيد ، اولاده ؟ ؛ يوشك على لومهم ، مع ذلك لكم مر بلحظات خف وشف بعد تلقيه خطابا من ابنتيه ، تطلب كل منهما اشياء محددة ، قمصانا بألوان معينة ، وطرزا محددة . يهرع الى المتاجر ، يتأمل ، يتوقف ، يرى المعروضات بعيونهم ، يطيل الاستفسار .. الا يوجد شىء أفضل ؟ مرة أخرى ابرز

صورة ابنته الوسطى واطلع عليها البائعة : ابدت اعجابها ، قالت : ما أجمل عينيها !.

كأنه ينتبه الى عينى ابنته أول مرة ، هنا تذكر ابنته الكبرى . لحظة انحنائها ، وخجله ، لكم رتب ، واعاد ترتيب الحاجات التى سيرسلها الى اولاده ، لكم أطال النظر ، وتخيل لحظات الاستلام ، واستعراضهم لما ارسل !.

فى هذه الليلة بالذات ، فرغ من ثلاثة اشياء قبل ان يأوى .. الأول .. كتابة رسالة الى شقيقته ، يطلب منها ألا تصغى الى الاحلام ، الا تصدقها ، كان هذا ردا على قلقها لرؤيتها حلما بغيضا لم تفسره له .

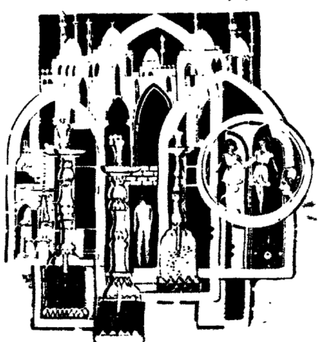
الثانى .. قراءة نص رسالة من ابنه يطلب فيها نوعا معينا من مضارب التنس ، فوجىء .. هذه اول مرة يعلم ان ابنه يمارس هذه الرياضة ، هو لم يمارس الرياضة فى حياته ، لم يعرف الا المشى . ابنه كبر ، أصبح لاعبا للتنس ، قرر قبل اغماض عينيه الذهاب غدا الى أكبر متاجر الأدوات الرياضية .

أما الثالث .. فهو تجهيز العشاء لعديله ولفه بورق معدنى حتى لا يفقد حرارته .

لم يع لحظة انتقاله من اليقظة الى النوم ..

لم يدر الساعة التى استيقظ عندها ، به جفاف فى الريق . وثقل راس وهبوط مستمر الى لا قرار .

بصعوبة انتبه الى شىء لزج يفرق فيه ، وسائل ينزف من فمه ، لم يعهده ، لم يمر به ذلك من قبل ، ولم يكن بوسعه ايقاف الدم الذى انسال مبقبقا من فوق ومن تحت ..



طبق الأصل

ما شاء الله كان ..

له الامر ، من قبل ، ومن بعد ، منه العون ، واليه المصير .

والله ياالخوان كلما استعدت هذا الرجل الذى اكتملت معرفتى به بعد غيابه . ترقرق اساى ، واستنفرت خواطرى ، أستعيد اطراقته : اقباله مبتسما ، مسالما ، وادبار كينونته ، اندماجه الهادىء فى زحام الخلق ، ودهشة ملامحه ، اذ يحيق به أذى أو ضيق .

أرى اطيافا منه فاقف على خلاصة سيرة ، ومصير اكتمل ، وكان ممكنا الا يدرى به أحد ، أو لا يقف على اخباره انسان .. لعل الله طروفا أدت بمن كان مثله الى فراق الاهل والاوطان : مثل هذا كان مستقبحا مستنكرا عند قومى ، حتى اذا تبدل الظرف وتغير الحال ، هج من هج ، وطفش من طفش .

استعيده ، لكنه فى كل مرة يزداد بعدا ، فكانى واقف على شاطىء لجة واسعة ، تضطرم حينا وتنبسط حينا ، وما بين ذلك وذاك تلوح وجوه فتدنو منى حتى أوشك ان امسكها بنظرى ويدى ؛ لكنها تفلت ، نائية ، ومبتعدة ، لايمكن لى ادراكها أبدا !

راح من راح ، وانى لاحق بهم ، فماشاء الله كان .

وحتى زمن لا أدرى مقداره سيحيرنى ماجرى لهذا الغارب : الذى قضى بعيدا ، حار الاطباء فيما لقوه عنده ، عندما أحدقوا به ظنوا النزف لامر داخله ، فشقوا ، واعملوا المباضع ، وأحاطوا الاوردة بالاربطة : لكن ماكان يفلت منه لم يكن بوسع مخلوق ايقافه .

قال كبيرهم بعد حيرة : الامر معنوى . وكان الامر قد تم !

فى المحصلة راح . بقى منه راتب تقاعدى ، ومقدار من المال بقى معلقا حبيسا فى البلد العربى الذى فارقه عنوة ، سعت امراته ، وسطت قوما ذوى علاقة ، لكن لم ينفع شىء ..

والمقام هنا يستدعى الى ما لم أذكره من قبل ، فبعد ان احترق هذا الشاب وحيد والديه فى الغربة ، وعاد اليهما فى صندوق معدنى مغلق ، لزمت أمه قعدتها امام الدار ، محملقة الى ما كان ، لعل

وعسى .. أما الاب العجوز الذى كلت قواه ، وما عاد قادرا على الخروج الى الغيط ، ورفع الفأس وعزق التربة ، فبدأ يفعل مالم يقم به فى حياته قط ، مالم يفعله حتى لا يعاير انسان ولده ، بدأ يمد يده ، ويسأل الخلق أن يعطوه مازاد عن حاجتهم ، بقى عنده الخسران الفادح .

كان ولده رهان عمره ، من أجله شقي ، واحتمل ما احتمل ، وحرم نفسه من اللقمة ، دائما كان يمني النفس بالوصول الى يوم يقف فيه الولد على رجليه ، يسنده ، ولما حان هذا اليوم غرب الابن فجأة ، لم ير خيره ، أملى على أحد أبناء القرية رسالة الى وزارة الشئون الاجتماعية ، والى ادارة المعونة ، والى البنك المختص بتفريق اموال الزكاة . والى المشروع الخيرى الذى بذاته تلك الصحيفة التى يعمل بها صاحبى ، شرح حاله ، وما جرى لابنه ، وطلب المساعدة ، والحق أن أحدهم اقنعه بذلك ، غير ان الرسائل راحت ، وكأنه ألقاها فى جب ، عدا واحدة ، تلك التى وصلت الى الصحيفة ، وكانت بداية الرحلة اليه ، وهكذا وقفت على ماجرى له .

عند مثولنا أمامه كان وقت طويل قد انقضى ، وكان هو قد كف عن ارسال المكاتيب ، وبدأ يأوى الى القعدة التى لزمتها امرأته ، عند حافة الطريق ، يتطلعان الى القادمين والذاهبين ، وقد ذكرت من أحوالهما ما يشفى وما يكفى ، أما الان فهذا نص خطاب أرسله كاتبه الى جهات شتى ، واتيح لى أن أطلع على صورة منه عند واحد من ذوى العلاقة ، وانى مورده كما كتبه صاحبه ، لم اغير ، لم ابدل ، فلعل فيه فائدة قبل أن اذكر شيئا عن المدرسة التى عملت فى الغربة لسنوات ، واتمت المدة ..

- يقول صاحب الرسالة بعد الديباجة :

« .. أنا المقيم بميلانو ، شارع تورشيالى رقم عشرة ، كنت اعمل فى وظيفة عامل زراعى باحدى القرى الايطالية التابعة لمحافظة بارما ، بدات فى العاشر من نوفمبر ، عام الف وتسعمائة وسبعة وسبعين ، بعقد عمل ، معتمد رسميا ، بمرتب قدره مليون ومائتا الف ليرة ايطالية ، وظللت اتقاضى راتبى هذا لمدة عامين ، ولم اتسلم أى أجر اضافى عن أيام العطلات الرسمية ، او ساعات العمل الاضافية ، أو شهور المنح المعترف بها قانونا فى ايطاليا ، حتى الاجازة الصيفية حرمت منها ، وكنت قانعا على أساس انه عمل دائم ، ولى سكن

يأوينى ، كنت اعمل طوال السنة ، لم اقم بيوم واحد أجازة ، لانى مسئول عن رعاية المواشى بدءا من الاكل والشرب ، حتى نظافة الحظائر ، كانت زوجتى تساعدنى ، بدون اى مقابل .

كنت اقود الجرارات ايضا ، والالات الزراعية ، وقص وتجفيف وتخزين الحشائش الزراعية ـ البرسيم ، كان المسئول عن المزرعة رجلا ايطاليا يأتى بعد الثانية ظهرا ، لانه مدرس فى احدى المدارس الصناعية . أما صاحب المزرعة نفسه فلم يكن يأتى الا مرة ، نهاية الاسبوع . كان يسكن فى مدينة ميلانو القريبة .

فى احد الايام سألت صاحب المزرعة عن كشف حسابى الشهرى مثل كل الناس ، فأخبرنى ان المزارعين ليس لهم كشوف حسابات ، تسمى هنا فى ايطاليا « البوستة باجا » ، طبعا هذا كلام لا اساس له من الصحة ، ولكن ماذا افعل ؟

فى يوم من الايام أرسل لى أهلى يطلبون من زوجتى العودة لتسلم عملها فى وزارة التربية والتعليم .

اخبرت صاحب المزرعة فقال : ليس مهما سفرك ، كما ان زوجتك تساعدك وانتما باقيان هنا .. ثم ان عمل المزرعة يحتاج الى رجل متزوج ، لانه مرهق وساعاته طويلة ..

اقترحت عليه ان نسافر ، انا وزوجتى حتى تحصل على اجازة ـ ولو مرضية ـ والا فقدت وظيفتها ، وافق ، واشترط العودة السريعة .

فعلا .. سافرت ، وزوجتى وابنى ، وعدنا بعد أن قدمت اجازة مرضية ، واغلب ظنى انها فصلت من عملها حيث أن الاجازات المرضية لم يوافق عليها الاطباء .

قلت لزوجتى ان هذا ليس مهما ، يكفى عملنا هنا ، لقد انقضى وقت طويل علينا هنا ، انه عمل دائم ، وثابت ..

فى شهر مارس عام الف وتسعمائة واحد وثمانين ، فوجئت برسالة مسجلة من صاحب المزرعة ، يخطرنى بانتهاء عملى ، وبضرورة تسليم المنزل ايضا . ولما ذهبت اليه ، متسائلا : لماذا ؟ زوجتى فصلت من عملها : الاهم .. الى اين نذهب الان ؟

قال : هذا كله لايهم ، عليك بالرحيل من هنا فورا ، سألته عن مرتبى ، قال انه سيعطينى شهرى مارس وابريل ، عندما تترك البيت ، وعندما فارقنا تسلمت مرتب مارس ، أما ابريل فلم يدفعه حتى الان .

ذهبت الى ميلانو بصحبة امراتى وابنى ، وصلنا فى منتصف الليل ، بدات البحث عن مأوى ، وعن عمل ، لجأت الى محام ، ابرق اليه مطالبا بعودتى الى العمل ، ليس قانونيا فصلى على هذا النحو ، ثم اين مايحق له ؟

قال فى رده على المحامى : ان الاجانب ليس لهم حقوق عندى ، ارسل اليه المحامى قائمة بساعات عملى الاضافية ، بحقوقى المشروعة اصلا ، وقدرها اربعة وعشرون مليونا من الليرات الايطالية . ويوازى هذا اربعين الف جنيه مصرى .

اتفق صاحب المزرعة مع المحامى على مهلة يفكر خلالها قبل الذهاب الى المحكمة ، بعد اسبوع اتصل بى المحامى ، وعرفنى أن الرجل يطالبنى بتسعة ملايين ليرة كتعويض عن الخسائر التى لحقت بالمنزل الذى كنت اقيم فيه لان ماسورة الميـــاه انفجرت واتلفت البيت .

قلت للمحامى انها حيلة قذرة ..

عرفت أنهم دخلوا من الباب الخلفى ، وكسروا ماسورة المياه الموجودة بدورة المياه ، ثم اتصلوا بالبوليس الموجود فى القرية ، بحجة انهم لايعرفون مكان اقامتى فى ميلانو ، وللعلم فانهم على اتصـــال دائم بالمحامى ، وهو يعرف عنوانى ، ورقم تليفونى .

عرفت الطريق الى المحكمة ، حضر شهود لا أعرفهم ، كمـــا حضر مدير مكتب العمل بالقرية ، ولكن كشاهد ضدى !

تأجلت القضية ، مرة لغياب بعض الشهود ، ومرة لمعـــاينة البيت ، ومرة لسبب لم أعرفه ، جرى هذا على امتداد عام كامل ، ولم أصل الى اى نتيجة .

يوم المعاينة ذهبت بصحبة محامية (تحت التمرين) ، فالمحامى الكبير لايحضر بنفسه القضايا خارج مدينة ميلانو ، هكذا أخبرونى .

جاء القاضى حوالى الثانية عشرة ظهرا ، معه محامى صاحب المزرعة ، والسيد المسئول عنها ــ الذى يعمل مدرسا ــ وبدأت المعاينة .

قال القاضى : من اين دخلوا الشقة ؟

قلت : من هنا ياسيدى .

لكن مالاحظته ان الباب به ترميم جديد واضح للعيان ، سأل القاضى عن هذا الاسمنت الجديد ، فقال المدرس انه منـــذ ثلاث

سنوات ، قلت : لا ياسيادة القاضي ، لم يحدث شيء من هذا أثناء اقامتي .

قال صاحب المزرعة :

ـ لاترفع صوتك هنا .

قال القاضي :

ـ اذا رفعت صوتك مرة اخرى ، فسوف ادخلك السجن .

قال محامي صاحب المزرعة :

ـ « ونحن شهود » .

أما المحامية التي بصحبتي فلم تنطق كلمة ، وسجل السيد القاضي أن الترميم حدث منذ ثلاث سنوات ، مع العلم أن هذا ليس من اختصاصه انما من مهمات لجنة فنية في هذا المجال .

المهم .. عرض صاحب المزرعة مبلغ ثلاثة ملايين ليرة ، لتسوية الامر . قلت للقاضي : انني أصبت في قدمي أثناء تقديمي البرسيم للمواشي ، شوكة كبيرة جرحتني ، احتجزت في المستشفى ، واصبحت ساقي مهددة بالبتر ، كانت الشوكة ملوثة ، اشرف على علاجي طبيب عربي الاصل من سوريا ، وبقيت اثنين وأربعين يوما مصابا ، كانت زوجتي تقوم بالعمل ، لانه لايوجد غيري .. ولم نسمع حتى كلمة شكر ..

سألت القاضي عن رأيه في هذا ، وعندي تقارير المستشفى ، قال سيادته :

ـ ان هذا موضوع آخر .

قرر تأجيل الجلسة حتى العاشر من ديسمبر ، حتى أقبل المعروض من صاحب العمل ، اي على قبول هذا المبلغ بالاكراه ، أو لن اتقاضى ليرة واحدة وانتهت الجلسة بعد أن عملوا من شقة صاحب المزرعة محكمة .. في النهاية قدم لهم النبيذ الابيض الطبيعي ، والفستق ، واللوز .

جرى هذا وأنا بينهم ، أجلس الى المائدة المستطيلة ، لكنني كنت أشرب كئوسا اخرى ، كئوسا لايراها أحد ، لها مذاق المر والعلقم . مذاق الذل والهوان .

ظللت منكس الرأس ، وهم منصرفون الى احاديث بعيدة تماما عن القضية ، لكم ضقت بنفسي ، لكم احتقرت ذاتي وأنا كالذبيحة المسلوخة بينهم ، ليس لي سند أو نصير .

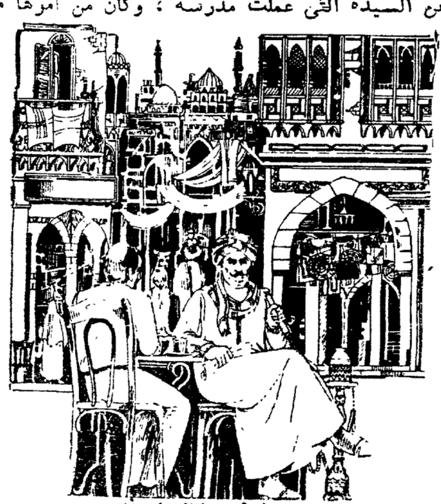
وعندما وقف صاحب المزرعة وتحدث ، اسودت الدنيا فى عينى ، قال مانصه :

« ان زوجتى كريمة ، وانا مثلها ، ونحن نعطف على الفقراء القادمين من الشعوب المحتاجة مثل السنيور ـ وأشار الى ـ اننا نعطيهم التبرعات ، وأنا أعرض عليه لاخر مرة المبلغ ، لننهى الموضوع كله .. انها الفرصة الاخيرة له ، وان لم يقبل فلن يجد شيئا ، اننى افعل هذا لاننى أعطف عليه .. »

شعرت انه مسح بى وبكل ما انتمى اليه الارض ، وبرغم اعتام الدنيا فى وجهى ، واحاطتهم بى ، فقد اقسمت بينى وبين نفسى ، الا اخضع ، وان اسعى وراء حقى ، حقى انا ، وان لم ينصفنى قانونهم فلى شأن ..

هكذا تنتهى الرسالة التى وجهها كاتبها الى جهات شتى يطلب المؤازرة والمعونة ، ولم أعرف أخباره ، ولم يقف صاحبى ، الذى كانت الرسالة بحوزته على اى معلومات .

فيما تلا ذلك من مدة : لم نسمع عن صاحبها ولم نقرأ ، كما قرأنا عن السيدة التى عملت مدرسة ؛ وكان من أمرها ما كان ..



.. هذا ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة ..

سبع سنوات ، وستة شهور ، وأحد عشر يوما ..

تمام المدة ومجمل الفترة ، قضتها هنا فى تلك الدويلة الصغيرة ـ النائية ، منقطعة ، متوحدة ، لم تزر مصر الا مرات ثلاثا ، مرة بعد ثلاث سنوات ، والثانية فى بدء العام الرابع لتغربها ، والاخيرة قبل عام من تاريخ عودتها النهائية .

بعد الاجازة الاولى انزعجت مما تكلفته ، مما انفقته ، كل من يمت اليها بصلة ، أو علاقة ، ينتظر هدية ، بعضهم لايمكنها الدخول عليهم ويداها خاليتان ، خاصة ذوى القربى ، هنـاك من يتطلعون اليها ، يتفحصون ثيابها وحليها ، ينتظرون أيضا ، تقول عيونهم بما لم تصرح به ألسنتهم ، أما الذين حملت اليهم قطعة قماش ، أو زجاجة عطر ، أو لعبة لطفل ، فلا تدرى ماذا يقولون عنها بعد انصرافهم ؟

ليت الامر اقتصر على الهدايا ، انما تنفتح المطالب .. فبياض البيت مشروع مؤجل حتى عودتها ، وان تستبدل بالموقد الغـازى القديم فرن بوتاجاز .. فأمران لا مفر منهما .

صحيح أن أمها لم تطلب ، لكنها لمحت ، أشارت الى عمـرها المنقضى بصحبة هذا الموقد العتيق ، لا يمر اسبوع الا تضـطر الى اصلاحه .

فى الزيارة الثانية أشارت الى التليفزيون الملون ، بيت فلان اشترى ، وبيت فلان غير التليفزيون القديم بواحد حديث ، لا يخلو منه بيت فى البلدة .

جاء طفل صغير ، حافى القدمين ، ذابل العينين ، فتح الباب اثناء خلوتها ، رأى يبتسم ، كان ينتظر ، الا انها واجهته بملامح جامدة ، جاءت أمها ، قالت انه ابن سعدية .. الا تذكرها ؟

ابوه سافر منذ سنتين وغابت أخباره ، لم يترك ولم يرسل

أبيض أو أسود ، بل انهم لايعرفون شيئا عنه ، قالت أمها : اعطيه حاجة .

قالت ان كل من يجيء هنا يحن على الولد .

أبدت تأففا ، قالت ان الناس يظنون العائد من هناك بنكا متحركا .

تطلعت اليها الام صامتة ، ثم قالت :

« ربنا مايحكم عليكي يابنتي .. »

أخرجت من كيس نقودها خمسة جنيهات ، لكنها نصحت أمها الا تعودهم على ذلك ، انها لاتعرف شقاءها ، انها لاتجد النقود ملقاة فى الطريق ، لكنه الشقاء ، والغربة .

فى الزيارة الثالثة لم تطل اقامتها ، جاءت مضطرة ، اذ كان لابد من دفع مقدم الشقة التى اشترتها فى المدينة القريبة ، لم تشأ توكيل شقيقتها ، بل قررت ، اتمام كل الاجراءات بنفسها .

هكذا .. أمضت معظم المدة وحيدة فى هذا البلد البعيد ، حتى أيام اجازتها لم تكف خلالها عن التدريس لعدد من الفتيات اللواتى يعانين تخلفا دراسيا ، كان هذا يسرها ويريحها ، فالى جانب الدخل الاضافى تتلقى هدايا لا بأس بها ، وعندما ترجع الى غرفتها فى بيت المعلمات تمسك قلما ، تحسب قيمتها ، تعتبر هـذا مضافا الى رصيدها فى البنك .

خلال انقطاعها اكتفت بتحويل مبلغ الى أمها ، بداية كل شهر تمضى الى البنك لارسال الحوالة ، كانت تنقص المبلغ شهرا ، وتزيده شهرا آخر ، نقص ملحوظ ، وزيادة طفيفة ، حتى لا تتوقع أمهـا مبلغا متساويا يكون تجاهه الزام ، حتى لا يتخذ شكل المرتب .

قبل ارسالها الحوالة بيومين أو ثلاثة تنتابها لحظات اشفاق تجاه أمها ، قبل النوم تلوم نفسها ، بل توبخها ، ان ما ترسله قليل لا يفى ، كيف تبخل على أمها ؟ كيف لم تراع تكاليف مرض السكر الذى لحقها ، مرض يحتاج الى نظام غذائى ، وهذا مكلف ، اضافة الى الدواء الذى يجب الا تنقطع عنه .

فى خطاباتها تشدد وتنبه الى ضرورة اتباع تعليمات الطبيب ، الا أنها تعلم صعوبة التزام أمها بالخضار وقطعة اللحم اليوميـة المسلوقة ، أو كوب الزبادى .. تعرف أنها لاتشبع الا من الخبز .. لا .. يجب أن تضاعف المبلغ .

تغفو ، تنام راضية ، مرضية ، حتى اذا طلعت الشمس وبقيت

دقائق فى الفراش ، ترثى لنفسها ، أصعب حالات وحدتها تلك ، فما من شخص قريب ، ما من تحية صباح تصغى اليها ، وما من احد يحنو أو يسمعها كلمة حلوة .

مع خروجها الى الطريق تبدأ مراجعة ماقربها ليلة أمس ، الم تبالغ فى تقدير النقود ؟ عندما ترجع الى مصر ستخصص قدرا من المال تشترى به مايحتاج اليه البيت ، بل لحظة وصولها ستضع فى يد امها مبلغا كبيرا ، أما الان .. فانها فى حاجة الى زيادة الرصيد ، كلما ارتفع تضاعفت الفائدة .

عند وصولها الى البنك واجتيازها الباب تكون خفضت ماقررته قبل النوم ، حتى اذا ما أمسكت القلم لتكتب الحوالة ، لا تتخطى المبلغ الذى أرسلته الشهر الماضى الا بمقدار يسير ، وربما تقلله .

هدفها الذى لم يغب عنها طوال السنوات الماضية ، الوصول بالرصيد الى حد معين . لم تنفق الا الحد الادنى ، بل قترت على نفسها ، لم يخرج من يدها الا الضرورى .

الغريب انها قبل قدومها الى هذه البلاد ، عندما كان مرتبها فى بداية عملها بضعة جنيهات ، لم تدبر ، ولم تعرف ماتعرفه الان من حذر ، على اية حال ، الحمد لله ، فان مارمت اليه تحقق ، وما ارادته تم . وصلت الى الحد الذى قررته ، صحيح انها ودت تضاعف الرصيد ، لكن .. هذا أقصى ما أمكنها تدبيره ، من مرتبها ، من مكافآتها ، من الدروس الخاصة ، عبر سبع سنوات ، وستة شهور ، واحد عشر يوما ..

الان ، تضمن الشقة ، ورصيدا يمكنها أن تحجز منه عربة ، أن تدفع قيمتها بالدولار ، أن تشترى ماتريد ، من ملابس ، ومطبخ يريحها ، يضم ثلاجة ضخمة ذات بابين . وفرنا كهربائيا ، وغسالة حديثة ، وخلاطا كبيرا ، بمجرد نزولها مصر ستشترى هذا كله بالدولار من السوق الحرة ، أما الاثاث فمن مسئولية العريس الذى ستختاره من بين المتقدمين اليها ، ستختار وهى مستندة الى رصيد مالى يقوى مركزها ، انها ليست دميمة ، ابدا .. ملامحها مريحة ، مقبولة ،وتعرف تماما أن لعينيها وضعا خاصا ، انهما جميلتان ، عميقتان ، وعندها لحظ !

لو قبلت الزواج ممن تقدموا خلال السنوات السبع الماضية ، لاصبحت أما الآن لطفلين ، لكنها شاءت أن تبنى مستقبلها بيدها ،

ان تقرر هى .. ان لها شروطا أيضا ، لن ترضى بأحد خريجى الكليات النظرية ، لا آداب ، ولا حقوق ، ولا كلية العلوم حتى .. لن تقبل اقل من مهندس او طبيب ، انها تنوى حجز سيارة نصر بمجرد عودتها ، ستدفع بالدولار حتى تتسلمها بسرعة ، اذن .. لابد أن يكون لديه عربة أيضا ، يستحسن من طراز مختلف ، عليها باليقظة ، الانتباه الى أولئك الذين يمكن أن يطمعوا فيها ، أو يحوموا حول رصيدها ، لتحذر ، أنها تكاد تشم رائحة الرجل الذى يضمر غير مايظهر .

لكنها غير مشغولة بالزواج ، حتى تمام عودتها ، واستقرارها ، وبدء تدبير أمرها ، انها تراجع بدقة أوراقها ، مايستحق لها من مكافأة نهاية الخدمة .

فى كل ليلة تحصى مالديها ، تقارن بأسعار الدولار فى مصر ، خاصة فى السوق السوداء ، تطرب لكل قرش زيادة ، هذا يعنى زيادة الرصيد عند التبديل الى الجنيه المصرى .

قبل نومها تحكم اغلاق غرفتها ، تخرج ملفا يضم كشوف حساباتها التى يرسلها البنك بدقة ، فى موعد لا يتغير ، ترتدى ملابسها الداخلية الشفافة ، تقعد فى مواجهة المرآة ، أحيانا تتخذ وضعا جانبيا ، ترمق صورتها بنظرة جانبية .. تلفظ بصوت عال :

« حلوة يابنت والله .. »

أحيانا تقترب حتى تلامس بجبهتها سطح المرآة ، تتثنى ، أو تفرد طولها ، أو ترفع نهديها بيديها ، لو أن لها القدرة على معرفة من يسعى اليها فى هذا العالم الان ؟ من سيلمس ، ويمرر أنامله ، ويقبل ، ويضم .

لم تكن تفكر فى شخص معين ، فى ملامح بذاتها ، بقدر ماتردد الرقم ، ثلاثون الفا وستمائة دولار ، تفرد أصابعها ، تثنيها ، تنغم صوتها ، تتمدد فوق الفراش والى جوارها كشف الحساب ، السحب ، الايداع ، المدين ، الدائن ، فكأنها خصصت الليلة لمضاجعة رصيدها !

ياسلام ، لو أنه ضعف هذا المقدار ؟ ولكنه نتاج أقصى الطاقة ، عليها انهاء ماتبقى من أمورها ، اعداد أوراق ، شهادة خبرة ، تحويل مالديها هنا الى حسابها فى مصر الذى افتتحته منذ سنوات فى أحد البنوك الاجنبية ، شراء بعض ماتتصور انها لن تجده فى السوق هناك ، ياعالم .. متى ستسافر مرة أخرى ؟ يجب أيضا تدبير بعض

الهدايا ، لا بأس من ارضاء الاقارب ، أعدت كشفا بالاسماء حتى لا تنسى ، فى كل يوم تعد له ، اما بشطب بعض الاسماء .. واما بانقاص ما تنوى اهداءه لهم ، أو شراءه من مصر بدلا من زيادة وزن الحقائب مما يؤدى الى دفع مبلغ وقدره ، المهم .. الدخول عليهم ببعض الحاجات البسيطة ، فلا يمكن لأحدهم القول انها لم تفكر فيهم ، وفى نفس الوقت لا تكبد نفسها غرما .

اهى حزينة ؟ أهى مسرورة ؟

لم يبدعليها مايوحى بهذا أو ذاك ، بدت مشغولة دائما ، تروح وتجىء تشترى بعضا مما ستحتاج اليه هى ، ماتعرف انه رخيص هنا ، مرتفع السعر هناك ، زيارة هذه أو تلك ممن عرفتهن ، كن يقلن لها ان فى الوقت بقية ، لكنها تجيبهن برفع يدها ، وبسـط أصابعها .

« لا .. هذا يكفى .. هو العمر فيه كم سنة ؟ »

ثم تفيض فى الحديث عن أمها العجوز ، المريضة ، التى يجب ان تلازمها ، وان ترعاها ، الحق أنها كانت تبالغ أو تحاول أن تبدو كابنة بارة ، من يسألنها البقاء يعرفن انها استنفدت المدة ، وهى تدرك انهن يعلمن ، لكنهن يتظاهرن بالاقتراح عليها ، وتبدى هى الممانعة ، والحجة بواجبها تجاه أمها .

مرة كانت تتحدث الى احداهن ، وفوجئت بنفسها تقسم برحمة أمها ، صمتت ، هذا شؤم ، ولكنها فيما بعد قالت انها كثيرا ما كانت تتخيل لحظة تلقيها نبأ رحيل أمها فى الغربة ، فى البداية ينتابها جزع ، وأسى ، تسارع الى ارسال خطاب ، تشدد على ضرورة الرد فورا ، ثم تفيض وتفصل فى نصائحها ، كان هذا فى البداية ، لكنها فى السنة الثانية كانت أقل اهتماما ، كثيرا ما وعت ذلك فتعلله بالبعاد . تقول ان الغربة تلهى الانسان عن نفسه ، لكنها لم تستطع تبرير تفكيرها المفاجىء ذات يوم قائظ ، عندما فوجئت بتخيلها لأدق التفاصيل المتعلقة برحيل أمها ، بل وحالتها عند تلقى النبأ اذا كانت فى البلدة . أو اذا كانت هنا ، فى غربتها ، بل .. صاغت فى مخيلتها صيغة النعى اللذى سوف تنشره فى الصحف ،نعى من عدة سطور ، بل ربما تكتب سطرين أو ثلاثة تناجى روحها كما يفعل البعض .

يؤكد بعض من عرفها عن قرب انها كانت دائمة الحديث عن تخوفها ذلك ، وتتبع ماتقول بذكر ماتحوله اليها ، لهذا يقولون انها كانت تنتظر الموت حتى تتوقف ، وتضيف ماترسله الى رصيدها ، كما أن علاقتها بالاقارب ستنقطع ، لها عديدون تجوز عليهم الحسنة ،

أو زكاة المال ، لكن هذا باب لو فتح فلن تقدر على اغلاقه أبدا ، مالها ومالهم ، هل كانت غربتها ، وتحملها العديد من المواقف التى لم يكن ممكنا أن تقبل أقل منها فى مصر .. صلف الناظرة ، مضايقات الزملاء ، خاصة من الجنسيات الاخرى ، هل كان تحملها هذا كى تغدق على هذا او ذاك ؟.

هذا ما أشاعه البعض عنها ، ولكن لا يمكننا الاخذ به لانه غير مؤكد ، وان كانت بعض الشواهد تشير الى ذلك .

فى هذا اليوم بقيت فى البيت .

كانت تحصى ما انفقته خلال الاسابيع الاخيرة ، ازعجها معدل ما اشترته ، بعد أن فرغت من حساباتها على الالة الصغيرة ، لماذا لا تمضى ثلاثة او اربعة ايام بمفردها فى أحد الفنادق الكبيرة ، فى القاهرة او الاسكندرية لماذا لا تمتع نفسها ؟ هذه الفنادق التى لم ترها الا فى الحلقات التليفزيونية ، وافلام السينما .

لكن سيكلفها هذا كثيرا ، ثم ان القوم سينظرون اليها بريبة ، آنسة بمفردها ..

ياه ! اشياء عديدة تود القيام بها ، لكن الناس ، وكلام الناس ، اقاويلهم ، على اية حال ، عندما تتزوج سيكون من شروطها قضاء اجازة من حين الى آخر فى أحد هذه الفنادق ، أما لو اسعدها الحظ ، وكان العريس هو من تتمنى ، فسوف يسافران الى أوروبا ..

هنا رن الجرس !

فوجئت ، لم تعتد استقبال أحد من معارفها ، انقطعت عن زميلاتها حتى لا يباذلنها الزيارة ، اعتبرت ترتيب اثاث حجرتها ومفروشاتها سرا يخصها . فوجئت حقا برؤية زميلتها ، مدرسة التربية الرياضية ، تركية الاصل ، زوجة لطبيب يعمل هنا منذ عشرين عاما ، اى بعد الاستقلال .. مدة مكنتهما من جمع ثروة ، ياسلام .. ماكان أحوجها الى مدة كهذه !

بقدر دهشتها ، بقدر ما أبدت من ترحيب ، كانت التركية طويلة ، راسخة الخطى ، حركاتها محسوبة ، شعرها طويل ، أما وجهها فجميل الملامح ، وعيناها واسعتان ، فمها مضموم كالحق .

لم تتقابلا الا فى المدرسة ، تعرفها باضطرارها للحديث بالتركية عند الانفعال ، أحيانا تقول « تشكرات » بدلا من « شكرا » ، ثم تتظاهر بانها نطقت الكلمة عفوا ..

طبعا ، بدا واضحا أنها جاءت لغرض محدد ، صحيح أنهـــا ابدت أسفها لان أحسن الزميلات يرحلن ، انها نادمة بســـبب قلة لقاءاتهما ، لها نظرة فى الناس لاتخيب ، ولانها تدرك جوهرها جيدا ، وتثق بها رغم قلة المدة لهذا جاءت تعرض أمرا محددا !

لم تتوقف التركية ، لم تغير لهجتها ، لم تبدل ايقاع كلماتها ، لم تزخرف ، ولم توار أيضا ، انما استمرت ، وكأنها لا يعنيها أن تقاطع ، أو أن تتلقى ردا .

قالت باختصار حازم ، باتر : انها تعرض عليها المشاركة فى عمل ستربح من ورائه خمسين الف دولار غير منقوصة ، خمسين ألفا أى ضعف ما ادخرته طوال سبع سنوات ، وستة شـهور .. ثم قالت متمهلة : وأحد عشر يوما ..

توقفت لحظات ، ثم استمرت ..

طبعا السؤال المنطقى هنا ، اى عملية لن تكلف جهدا ، وستعود بهذا الربح كله .. ماطبيعة العمل الذى ستصبح بعده من الاثرياء ؟ حقا ، انها فرصة ، والفرصة لاتجىء الا مرة واحدة فى العمر كله .. هـا .. مارأيك ؟

اصغت مأخوذة ، عندها فضول ، وخوف غامض .. قالت :

« انت سالت ، ولم تجيبى ..

تراجعت قليلا ، الحق أنها لم تمـــوه ولم تزوق قط ، بدت صريحة ، واضحة ، وفى بعض اللحظات كأنها تملى ولا تقترح ..

قالت ان كل المطلوب منها ، أن تحمل كيلو بودرة ..

ـ بودرة ؟

ـ نعم .. بودرة بيضاء .. هيروين يعنى ..

مخدرات ؟! . .ماذا قالوا لك عنى ؟

قامت واقفة ، غير مبالية برد الفعل .

سمها كما شئت ، ولكن اعلمى انك لسـت الاولى ولن تكونى الاخيرة ..

لاول مرة تلحظ اصبعها الحاد القاسى ، الذى لم ينثن طوال الحديث .

قالت بلهجة عامية مصرية :

فكرى كويس ، واحب اطمئنك ، وصولك البيت مضمون ، انا منتظرة الرد الساعة خمسة وربع ـ بكره .. باى !

.. لم تقم من مطرحها . بقيت شاخصة ، حولها رائحة العطر العالق بالفراغ بعد ذهابها ، الصمت البارد ، بدت الزيارة الغريبة كأنها لم تحدث وان المرأة لم تأت ، كذا الثقة الزائدة ، والصراحة الحادة كالنصل .. لكنها استعادت ماقيل ، وخطوط حضورها المادى ، امتلاءها غير المفرط ، الراحة فى ثنايا جسدها ، ملامح وجهها المشبع الثراء .

عشرون سنة مضت على زوجها فى البلد ، تنشر الصحف صورته ، انه لايعمل فقط كطبيب ، لكنه صاحب مستشفى خاص مشهور ، الليلة فيه تكلف نصف راتبها الشهرى ، يقال انها شريكة فى دار للازياء الجاهزة لاتبيع الا المستورد من باريس ، ولندن ، وعواصم اخرى لاتعرف عنها شيئا ، وفى بدايات الفصول الاربعة تقيم عروضها ، تشهدها سيدات المجتمع ، وزوجات السفراء ، يبثها التليفزيون ، اما المجلات التى تصدر فى طباعة ملونة ، نسائية وغير نسائية ، فانها تنشر صور العارضات ، تفيض فى الشروح الخاصة بالخطوط الجديدة للفساتين ، أدوات الزينة ، العطور ، انها ثرية جدا ويقال ان عملها كمدرسة للتربية الرياضية ماهو الا لشغل أوقات الفراغ التى تطول فى تلك البلاد ..

لكن .. تبدو التركية وكانها تعرف أمورا شتى عنها ، لكن .. ماذا ستعرف ؟ ليس فى حياتها مايشينها ، مايعيبها ، سبع سنوات وستة شهور وأحد عشر يوما ، كانت تخطو فوق صراط مستقيم ، لا تحيد ولا تميل ، فكيف تجىء هذه المرأة فى اللحظات الاخيرة لتقدم هذا العرض الغريب .. المريب ؟

ان خوفا يدركها وخشية ، هل بدا على ملامحها مايوحى بقبولها ، هل تضمنت نبراتها مايومىء الى الموافقة ، تستعيد انفعالاتها ، تحاول استعادة الفاظها ، تعدتها ..

ابدا ، لم يبد منها شىء قط .

لكن مالم تستطع قبوله ، أو اقناع نفسها به ، صمتها ، لماذا لزمت السكينة ؟ لماذا أصغت الى النهاية ؟

وماذا كانت ستبدى ازاء المرأة التى تنشر الصحف صورتها أحيانا ؟

ماذا كانت ستفعل ؟

كان المفروض بمجرد سماعها العرض الصريح ، الوقح ، أن تقف ، أن تشير الى الباب ، أن تصيح :

اخرجي بره ..

لكنها لم تفعل ، ثم .. أى رد فعل كانت ستبديه المرأة ؟ ربما تدبر لها أمرا يؤدى بها الى مخاطر لا تعلمها .. الى عدم خروجها من البلاد نهائيا ، الى فضيحة ، فضيحة ؟ أى فضيحة ، انها لم ترتكب ذنبا ، لم تأت فعلا فريا ، لكن .. من أين لها بالضمانات فى واقع تسود فيه مثل هذه المرأة ، ان مجيئها اليها أمر ليس سهلا ، أى بلاء يبرز ؟ يطل برأسه فى اللحظات الاخيرة ، أين كان مختبأ لها هذا كله ؟

أحكمت اغلاق الباب ، بينما خوف يدركها متمهلا ، ثمة أشخاص يتربصون بها فى مكان ما ، هذا مؤكد ، أشخاص لم تعرفهم قط ، لم يخطر ببالها يوما ان أى صلة ستقوم بينها وبينهم ، احد هؤلاء — ربما لاتعرف ملامحه — ربما ألحق بها الضرر الاقصى ، بل .. ربما أجهز عليها .

هل من المعقول أن تتركها المرأة هكذا ؟ .. معقول انه عرض يقتضى القبول أو الرفض ، أم يستتبعه ماتجهل ؟

انها مرهقة ، عندها خشية ، وترقب ، وتفكير فى مفارقة البلاد كلها ، أى ثقة كانت تتكلم بها ؟ أى راحة ؟ ترى .. كم ثروتها ؟ كم ؟ قالت ان حمل كيلو واحد من البودرة سيؤدى الى ربحها خمسين ألف دولار ، مجرد حمله ، فكم ستكسب هى ؟ أليس فى هذا ما يدعو الى الجنون ؟ ان شقاءها ، وحدتها ، وقمعها لرغباتها ، شحها ، تقتيرها على نفسها ، وعلى أقرب الاقربين محصلة هذا كله مايقارب نصف المبلغ المعروض .

خمسون ألف دولار ، لو أودعت فى بنك لو ان متوسط الفائدة عشرة فى المائة ، خمسة الاف دولار فى السنة ، بسعر السوق . مهما انفقت فى مصر ، هل ستنفق مثل هذا الدخل ؟

أضف الى ذلك ما أدخرته هى ، أن رصيدا كهذا سيمكنها من البناء ، تصبح صاحبة ملك ، تحسن فرص الزواج ، من الممكن التفكير فى استاذ جامعى ، طبيب كبير عنده عيادة .

خبطة واحدة ، نقلة واحدة ، مجرد كيلو بودرة ..

لكن المخاطر ؟

طبعا عديدة ، لكن مثل هذه المرأة ، اللامعة ، الوجيهة ، القوية ، هل تعمل بمفردها ؟ لابد أن هناك آخرين مثلها ، هل من المعقول أن تدبر أمرا لم تتوافر له ضمانات كافية ؟

لكن ‥ ماذا يعني وصولها الى هذه النقطة من التفكير ؟ هل تميل بها الظروف الى هذه الدرجة ؟ هل تسعى بارادتها الى الحافة ؟!

الحق انها لم تغف طوال تلك الليلة التى لن تنساها ابدا ، تارة تجيء هنا ، وتارة هناك ، لحظة تأخذها ، ولحظة تأتي بهــا ، حتى اذا اطلعت شمس النهار الجديد ، لقيت نفسها قصية عن كل ما انقضى ، أيامها كلها التى انقضت هنا في جانب ، وهذا اليوم في جانب آخر ، كانت في رهبة وخشية ، وفضول غير انها رددت ‥ وضعها الآن تحسد عليه ، لابد أن هذه المرأة تتابعها ، ترصد حركاتها ، تدبر لها ، فهى بين خطرين ، كلاهما مر ، الاول أن تعرض عنها تماما ، تمضى فى اجراءات رحيلها ، تنفد بجلدها لكن ‥ من يضمن ؟ من يدرى أنها لم تدبر لها أمرا في المطار هنا أو هناك لها ناس ، هل ستتركها هكذا بعد أن صرحت أمامها ، بعد أن كشفت نفسها ، معقول ؟ يمـكن أن ترتب لها مالاتقـدر عليه ، عندئذ تضيع مقابل لا شيء ، وأما أن تقبـــل ، عندئذ تتحمـل المخاطر ، واذا تمت الامور كما ينبغي ، فستأتى في انتظارها خمسين ألف دولار ‥

عند الساعة الثالثة كانت تدنو مما توشك الاستقرار عليه ، أن تلتقى بها أن تصغي اليها ، هكذا ‥ لن تسفر عن عداء بين ، فاذا بدا الامر نائيا عن المخاطر الجمة كان بها ، واذا رأت العكس اعتذرت وأبدت لها رقة خلاف ما جرى عند مجيئها اليها ، ستحاول أيضا الوقوف ولو من بعد عما تنويه لها ، أما انقطاعها تماما فخطأ مبين .

الثالثة أو الثالثة والربع ‥ لاتذكر ‥ أدارت قرص الهاتف ، رن الجرس لفترة ، انقضى وقت بدا طـــويلا ، عاودت التطلع الى الرقم لتستوثق ، فوجئت بصوت التركية يجيء من الطرف الآخر .

« أهلا ياحبيبتى ‥‥ »

كأنها تنتظرها ، كأنها تعرف أنها على الطـرف الآخر من الخط ، أو تراها . عجيب ‥ قالت انها تريد أن تراها ، انها تنتظرها .

قالت المرأة بثقة :

« لا ياروحي ‥ هذه المرة ستجيئين انت ، أنا في انتظارك ، بعد عشر دقائق سيكون السائق عندك ‥ »

لم تدع لها فرصة ، لا أخذ ولا رد ، نطقها أمر ، وارسال السيارة قرار غير قابل للنقاش .

فى البيت الفسيح القائم على أعمدة ، نصفها فى البر ، ونصفـها

في البحر مغروسة في أمواج الشاطيء ، في صالة ازدحمت ، مزدانا بالنباتات الاستوائية جرت المقابلة .

في اللحظات الاولى أثقلها تعب وضجت بأعوام الوحدة الطويلة بينما تردد عندها تساؤل ، اذا كانت التركية تعيش في هذا البذخ ، فلماذا تجهد نفسها للعمل كمدرسة للتربية الرياضية ، ترى .. أي نوع من الهموم عند هذه المرأة ؟

للحظات تمادى داخلها وهن ، لو تبعد ، لو تجد نفسها في مكان قصي ، بقدميها جاءت ، فهل تنكص في اللحظات الاولى ؟ لتنتظر وسترى .

كانت المرأة تتطلع اليها ، تتقدمها ابتسامة غامضة ، في عينيها معنى يقول صراحة « كنت أعرف انك ستجيئين » ، بعد دخول خادمة آسيوية الملامح ، تحمل صينية من الفضة عليها براد الشاي وأكواب الزجاج التي يستقر كل منها في وعاء من الفضة المنقوشة .

طبق خزفي به بسكويت مختلف الاحجام ، مستدير ، مستطيل ، لكل مذاق ورائحة مختلفة ، صبت الشاي ، تساءلت عن عدد قطع السكر .. قالت دون أن تعني شيئا محددا :

« واحدة » .

تساءلت التركية عما اذا كانت تلتزم نظاما خاصا لتنقص وزنها هزت رأسها نفيا ، عندئذ قالت التركية مومئة اليها ، ان قوامها ملفوف جميل ، وأن طولها مناسب .

لم ترتح للهجتها البطيئة ، المتخثرة ، ونظرات عينيها ، غير أن نبراتها تغيرت بعد الرشفة الاولى من فنجان الشاي .

قالت انها عندما رأتها المرة الاولى لفتت نظرها بطيبة ملامحها ، وهدوئها ، وحبها الكتمان ، وبعدها عن ثرثرة الزميلات .

قالت انها تعرف كل شيء عنها الآن ، ليس عن حياتها وأقاربها فحسب ، انما مقدار ما أدخرته طوال سنوات شقائها ، ما اشترته من هدايا لاسرتها ، يمكنها أن تصف لها محتويات حقيبتها الكبيرة ، بل وزنها أيضا ، الم تعاينها عدة مرات حتى تتأكد أنها لن تتجاوز الوزن المسموح به في الطائرة ، هل تطلعها أكثر ؟ يكفي أن تنبهها الى خطئها عندما وضعت العروسة التي تتكلم وتبكي وتبول في الحقيبة ، صحيح انها في علبتها ، لكن هذا الوضع يعرضها للتحطيم . مثل هذه العروسة يجب حملها في اليد ، صحيح أن وزنها خفيف ، لكنها تشغل حيزا لا داعي له ، هذه العروسة ستوفر العديد من المشاق ، ولهذا شرح ،

وتفصيل ، لكن فى وقته ، كل شىء فى وقته ..

ما أن توقفت التركية فجأة ، احدى مباغتاتها التى تتبعها بتحديق مركز مباشر ، نفاذ ، حتى شعرت أنها عارية تماما أمامها .. اذن ، فحدسها صحيح .. لو انها لم تأت لدبرت لها أمرا ..

استأنفت حديثها ، بدت غير عابئة بتلقى ردود ، كأنها تتكلم أمام جهاز أصم ، ولا تخاطب آدمية من لحم ودم .

قالت ان ملامحها الهادئة ، وحبها الانزواء ، واخلاصها فى عملها وبعدها عما يشين أو يعيب ، هذا كله جعلها تقدم على اختيارها ، لكن .. قبل الشرح والتفصيل ، لابد من العلم أنها ليست الاولى التى ستقوم بذلك ، وان أخريات ـ لو علمت بمراكزهن الاجتماعية ـ سيغمى عليها ، فى مصر سوق كبيرة الآن لما ستحمله ، ستحمل كنزا حقيقيا ، ليس ممثلا فى قيمته وحسب ، لكن فيما يعنيه بالنسبة لمن اعتاد عليه ، تعرف تماما أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد بهذه الامور انها لا تدخن حتى ، وهذا أفضل ، بل انه من أحد الاسباب القوية لاختيارها ، فكل من تقرأ أخبارا عن وقوعهم فى المحظور ، انما يكون أمرهم قد انكشف لامر أو لآخر ، وفى الاغلب لتكرار نشاطهم . أو لخطأ يرتكبونه ، أو لوشاية مقصودة ، هذا كله لا محل له ، دهى ستقوم بالعملية مرة واحدة ، لم ولن يتكرر الامر ، كل الظروف فى جانبها ، فهى عائدة بعد غيبة ، بعد غربة سنوات من العمل المضنى هذا واضح ، بين ، ما من أثر لها ، أو حاضر ، لا مكتوب ، أو شفاهى صفحتها بيضاء تماما ، لا أحد يعرفها ، انها خارج الدائرة تماما ، المهم .. ان كل خطوة ستكون محسوبة ، معدة ، تحوطها الترتيبات ، سيكون هناك من يعنى بها ، ليساعدها عند أى مأزق ربما تتعرض له ، أما لو أخطأت .. أى خطأ ولو تافها ، عندئذ تتحمل هى العاقبة كلها .

صمتت فجأة .

لم تكف عن النظر اليها ، تتحدث كأنها تلقى تعليمات ولا تفصل عرضا ، شربها الشاى أنيق ، ترشفه بدقة ، أما ما يحيطها من عز وأبهة ، فلم تر مثله ولا فى الافلام ..

ظنت أنها ستواصل الحديث ، لكنها قامت ، قالت انها ستنتظرها بعد غد ، سيذهب السائق اليها ، عليه أن يجدها فى نفس المكان أمام البيت ، وبالمناسبة .. اذا سألها البعض عن السيارة التى تجىء اليها ، فلتقل انها تمضى لتعليم بعض الخادمات الفلبينيات جملا عربية ، ولتذكر اسم زوجها الطبيب ، وعنوان المستشفى ، ان عرباته معروفة

في البلد ، ولتقل أيضا أنها تعمل حتى اللحظة قبل الاخيرة لسفرها .
واضح .. ؟
الحق أن أمورا اتضحت ، لكن أمورا أكثر لم تنجل بعد .
عند الثالثة والربع دخلت القاعة ، جاءت الخادمة الآسيوية ، صينية الشاي ، أطباق البسكويت طيب المذاق ، غير أن الذى اختلف، كذلك تصفيفة الشعر ، والحلى حول العنق والمعصمين ، والاصابع ، أما اللهجة فأصبحت أشد حدة . لم تبدأ مباشرة ، انما سألت عن خططها بعد العودة ، هل تنوى الاقامة في المدينة أو القرية ؟ هل يمكن أن تقيم في شقة بمفردها ؟ الاهم .. كيف ستثتثمر الخمسين ألف دولار ؟ .
همت بالرد ، ودت لو قالت انها لم تحدد بعد غير أن التركية مالت الى الامام قليلا . قالت :
اسمعيني . واحفظي كل كلمة !
.. خططها تتغير ، مسارها يتبدل ، لن تسافر الى القاهرة مباشرة تركب الطائرة ، تسافر الى كراتشي ، بطاقة الطائرة منفصلة ، لديها عدة بطاقات ، أخرى من كراتشي الى أثينا ، ثم .. الى القاهرة ، لماذا هي قادمة من أوروبا ؟ لانها كانت تشترى ملابس وحاجات لها ، نادرا ما تراجع الاختام ، التي تحملها الجوازات ، الا عند الشك ، مع ذلك، لكل موقف طارئ تدبير ، المهم .. الا تنسى ، الا تهفو ، أن أعصابها قوية ، متينة ، وفي الاغلب الاعم ، لا يفضح المرء الا نفسه ..
في كراتشي ينتظرها أحدهم في المطار بصحبة زوجته ، تركب سيارتهما ، تنزل ضيفة عليهما ، لها أن تأمن ، ألا تخشى ، كل خطوة معدة ، درست بعناية .
لماذا كراتشي ؟
اذا كان ولابد أن تجيب على مثل هذا السؤال ، فالمبرر واضح ، احدى تلميذاتها واسمها « طفلة » . دعتها الى رحلة مكافأة على ما بذلته من جهد لانجاحها في المدرسة ، أيضا بمناسبة انتهاء عملها ، « طفلة » والدها تاجر سجاد ، له مصالح ، وتجارة ، وبيت هناك ، ثلاثة أيام مدة اقامتها ، في كل يوم تصحبها زوجة الرجل الى مكان مغاير للنزهة للفرجة ، لشراء الحرير الطبيعى اذا شاءت ، عند دنو الاقامة من نهايتها تسلمها الزوجة العروس ، نفس العروس التي تلهو بها .
لكن ..
لكن يجب الوعى أن عروسها تلك لم تعد قيمتها خمسة وعشرين

دولارا ، انما .. ثلاثة ارباع المليون ، نعم .. اعتادت عند سفرها الا تفارقها ، تحملها معها ، تصعد بها الى الطائرة ، اذا تصادف خلو المقعد المجاور تقعدها ، اذا جاورها أحد تضمها ، تسندها الى حجرها ، عادى هذا .. مألوف ، ربما أثار هذا فضول البعض ، لكنها لن تأبه ، العروس بالنسبة لها نبوءة بطفلة جميلة ، تصحبها فى سفرها ، فى حلها وترحالها بعد زواجها .

من كراتشى الى أثينا ، الطيران مباشر ..

الانتظار فى أثينا لمدة أربع ساعات ، حتى موعد اقلاع الطائرة المصرية ، كل التفاصيل معدة ، من كان مثلها يفضل طبعا السفر على الطيران المصرى ، مع أن مصريين كثيرين يفضلون الشركات الاجنبية ، لكن هى .. تكره الطيران الاجنبى ، حيث تتعامل مع مضيفات لاتعرف لغتهن ، انها لا تتقن الانجليزية أو غيرها .

فى مطار أثينا ينتظرها أحدهم ، يعمل فى المطار ، يدلها على المخارج ، والقاعات .. وصالة السوق الحرة ان شاءت ، لن تخرج من مبنى المطار ، من قاعة العابرين ، تبقى محتضنة العروسة ، ممسكة أيضا حقيبة يدها ، لا تبدى قلقا ، أو توترا . حقيبة أخرى ستنضم الى حقائبها ، تحمل اسمها ، تحوى ما ستقول عند الضرورة انها اشترته من ثياب ، وتحف صغيرة ، وعطور ، وأشياء أنثوية .

تجيل البصر حولها ، تنظر أمامها ، يجب أن تكون طبيعية ، لتعلم أن ثمة من يراقبها عن كثب ، يتبعها ، اما لتقديم العون عند الضرورة ، واما حرصا وتحوطا ، حتى لا تفلت ، ثلاثة أرباع المليون دولار ، من يصدق ؟ هكذا أكدت التركية ، بل انها فاجأتها أثناء جلوسهما باسماعها صوتها وهى تجيب عن استفساراتها ، فكأنها لم تسألها عن أحوالها ، وأقاربها وخططها بعد العودة الا بقصد تسجيل نبراتها ، حتى تعلمها أن دليل الاتهام بين يديها ان هى راوغت أو حاولت .

أبواب كثيرة وعديدة أمامها يجب اجتيازها ، أبواب تفتح تلقائيا أخرى تفتح بعد تلقى علامة ، وأبواب ينبعث منها صوت اذا كانت تحمل سلاحا ، أو جسما معدنيا .

ضباط وجنود يجب أن تمر أمامهم ، بعضهم يرتدى ملابس رسمية ، آخرون لا تلحظهم الا العيون المدربة .

أحقا .. يراقبها أحدهم ، أحقا يصحبها طوال الرحيل عن

لا تعرفه لو صح هذا ، فمن هو ؟ فى أى مقعد يجلس ؟ عـربى هو أو أجنبى ؟

هل تعنى التركية ما قالت ؟ أم انه ايحاء حتى لا تجرؤ على التفكير والتصرف بمفردها ، أو الاختفاء بهذا الكيلو من البودرة ؟ ، بالمبـلغ المهول ؟ ليس لديها القدرة على تخيله ، ستة أرقام ، خمسة أصفار ، كم يبلغ عائده السنوى ؟ ، أرقام لا تصدق ، لا تقدر على استيعابها ، أو تخيل مجرد التصرف فيها ..

لكن ..

لكنها ليست مشبوهة ، انها مدرسة عائدة بعد غياب سنوات فى الغربة ، ليس فى ماضيها ما يـريب ، والاهم .. يجب الا يكـون فى مشيتها فى خطوها ما يبعث ذرة شك فى العيون الخفية المترصدة .

أما اذا اكتشف الامر ونبشوا داخل الدمية ..

« احدى صـديقاتى أعطتها لى ، طلبت توصيلها الى شـخص سيجيئنى ويتسلمها .. »

ستذكر اسم التركية .. اسم هذه الشركة المشهورة فى القاهرة والتى لمحت التركية اليها ، بل صرحت باسمها مرة ، واحدة لا غير ، لكنها أدركت .

يتطلع اليها ضابط شـاب ، يفصلها عنه حاجز زجاجى تتخلله فتحة مستديرة ، يختم استمارة الوصول ، يقدم اليها الجواز مبتسما :

« حمدا لله على السلامة ، غيبة طويلة .. »

تومىء مبتسمة ..

« والله مافى أحسن من بلادنا »

تردد عبارة سمعتها منذ ثلاثة أعوام ، قالتها امرأة بدينة ،قصيرة كانت تحمل طفلة ويتبعها صبى ، لفظتها بنفس الايقاع .

تعبر الحاجز الحديدى الى صالة وصول الحقـائب ، تنتبه الى ضغطها العروسة أكثر مما يجب ، خطأ ، خطأ ، لتكن خطواتها متمهلة ، عندما دفعت العربة الصغيرة وأوشكت على التعثر ، تقدم أحدهم . ساعدها نصح بوضع العروسة فوق الامتعة حتى تدفعها بكلتا يديها .

شكرا ..

تبدو العروسة كطفلة صغيرة ترفع يدا ، وتخفض الأخرى ..

ـ هل معك فيديو ؟

ـ لا ..

ـ اى أجهزة كهربائية ؟

ـ تفضل شوف ..

بيد مدربة ، خبيرة ، يجس الحقيبة الكبرى ، الحمد لله ‥ لم يلمس العروسة ، يتطلع الى جواز السفر ..

ـ حمدا لله على السلامة ‥

ـ الله يسلمك ٠

يرفع الجندى يده محييا ، كأنها لم تنتبه ٠

اجتازت آخر الابواب ، تقف في الساحة الفسيحة ، تفكر بسرعة لا ‥ لن تتجه الى هذا الفندق الذى أشارت التركية عليها بالنزول فيه كيف أطاعتها ؟ كيف وافقتها عندما اقترحت عليها ذلك ؟ ، هل المعتاد هنا نزول فتاة بمفردها فى مثل هذا الفندق ؟ ستتجه الى البلدة مباشرة ، مفاجأة لامها التى لا تتوقع وصولها ، لكل الاقارب ، هنـــاك ستخفى العروسة بما تحوى ٠

زاد عمرها مقدارا ليس بالهين خلال هذه الرحلة الطويلة ، لو انها ضبطت في كراتشى ، أو فى أثينا هذه ، كم من الســـنوات كانت ستمضيها فى سجن غريب ، بأرض غريبة ، كم .. مجرد تخيلها ذلك يلحق بها الرعب ، هذه المخاطر كلها .. الا تجعلها تعيد النظر ؟.



طرح التساؤلات

فاتني القول يا كرام ، انني حرصت على جمع كل ما قدرت من صحف الفترة ، كما دونت ما عن لى ، وما لفت نظرى عند المطالعة ، خاصة تلك السطور البعيدة عن العناوين الرئيسية والصفحة الاولى وما فيها ، رب خبر من سطرين يثير مخيلتى ، وتساؤلاتى ، ويأتى الى بتداعيات شتى ، أو يدفعنى الى تقصى أسباب أو جلاء أمر .

ربما سمعت من متحدث ، صاحب لى ، أو غريب عنى ، اشارة عابرة ، أو رواية مفصلة ، تقض مضجعى ، فلا أهدأ الا اذا عرفت أبعاد ولا انثنى الا اذا وقفت على تفاصيلها ، والعنصر الذى لا أوفق فى الوصول اليه ، أخمنه وأحدثه ، واستند فى ذلك الى ما كان قبله وما جرى بعده ، ربما أوفق ، وربما لا ، غير أن هذا طبع جبلت عليه .

حدث أن قرأت يوما ، ثلاثة سطور لاغير ، خمس عشرة كلمة ، تخبر أن مصريا لقى حتفه ، فى حريق شب والتهم سجن مدينة ميسينا الايطالية ، لم يذكر اسما .. ولم يرد أكثر من ذلك ، ومثل هذا باعث للحيرة ، يجتاحنى التساؤل تلو الآخر ..

من هو ؟ أى ظروف أودت به الى البلدة النائية التى لم أسمع عنها من قبل ، متى ترك الديار ؟ متى ودع وسلم ؟ وماذا تبقى له من صلات ومودة ؟ ، كيف وصل الى ميسينا هذه ؟ وأين كان يعمل ؟ ولم سجنوه ؟

حدث أن نزلت يوما بلدا قريبا من المحيط ، جلت بها ، وزرت مدنا مختلفة حتى وصلت الى مدينة نائية ، لم يكن فيها الا فندق قديم مرتفعة جدرانه ، تحيطه شرفات فسيحة تظلها سقوف من خشب متكئة على أعمدة مستديرة ، والى جانبه يمتد مدرج مطار صغير تستخدمه احدى شركات النفط ، تقريبا .. الفندق والمطار مبنى واحد برج المراقبة الصغير يقوم عند الركن الايمن للبناء ، بارز منه . نزلت احدى غرفه الفسيحة ، السرير من طراز قديم ، يمت الى القرن التاسع عشر ، عريض ، فسيح ، فراش تمددت فوقه - قبلى - أجساد شتى ،

أرق من أجهلهن ، وقلق من لم ألتق بهم ، وملذات تلاشت •
ترى من هم ؟ •• من عبر هذا الفراش المشاع ؟ ، الى أى جهات ولوا ؟ من بقي ومن رحل ، ومن يذكره ما زال ؟ ومن رحل الى الابد ؟ للغرفة رائحة القدم والاندثار •
فى الليل نزلت صالة الطعام ، قعدت بمفـردى ، أتأمل المحيطين بى ، كلهم لا اعرفهم ، كلهم ذكور ، لم آر امرأة واحدة ، وعندما وضـع أمامى طبق الطعام تطلعت اليه مؤتنسا ، لا يمكن أن أخطىء ملامح أبناء ديارى •• سألت مباشرة ••
ـ أنت من أين ؟
قال على الفور :
ـ من العباسية ••
بعد تكرار سفرى ، •كنت أردد دائما ، اننى لو لمحت مصريا يمشى في زحام لعرفته ، حتى لو فى بلد عربى ، حيث تتشابه السمات ••
هو فى العشرينيات ، وسيم ، غزير الشعر ، يثير عندى مشاعر البنوة ، فى عينية حزن غريب ، لم يكن يخـاطبنى الا أثناء وقوفه ، لا يمكنه الجلوس معى ، هذا عمله ، وعليه تلبية طلب هـذا وذاك ، ثم يرجع الى ، يتظاهر أنه يبدل طبقا ، أو يأتى بملعقة وشوكة ، أو ينظف المفرش •
قال انه خرج قاصدا أوروبا ، لكنه جاء الى هذا البلد لادخار بعض المال يمكنه من مواجهة أيامه الاولى عندما يتجه غربا •
لم يكن السفر قد بدأ على نطاق واسـع خلال تلك الايام ، كانت السبعينيات ماتزال فى بدايتها ، والحرب لم يمض على انتهائهـا الا شهور قليلة ، وفيما بعد جئت هذه المدينة مرة ثانية ، ولقيت فيها عددا كبيرا من المصريين ولكن لهذا حديث آخر ، يكفى القول ان هذا الفندق الذى قابلت فيه هذا الشـاب بمفرده ، وجدت فيه عددا من المصريين ، تقريبا يديرون مجمل العمل فيه ، كما قابلت عددا من العمـال فى الساحة الرئيسية ، حيث اعتاد المقاولون ، وطلاب العمالة المجىء بحثا عمن يحتاجون اليه ، فى أعمال البناء ، أو النقل ، أو ماشابه ذلك •
فى زيارتى الثانية كانت المدينة قد اتسعت ، قامت فيهـا مبان عديدة ، ومهدت اليها طرق فسـيحة ، ونزلها غرباء كثيرون ، مع أن الفاصل الزمنى لايتجاوز الاعوام الستة •
لن أطيل •

أعود الى هذا الشاب فأقول انه مال على ..
ـ انني خائف !
ـ لماذا ؟
قال ان معظم الجالسين هنا في المطعم انما قدموا من أجله هو .
تعجبت .. انتبهت . بدأت أرصد نظراتهم .
انهم يغازلونه !
قال ان الحظ العاثر أوقعه في مدينة لوطيــة ! لم يدرك ذلك الا بعد انقضاء الأسابيع الاولى ، ومما حكاه له طباخ هندى عجوز يعمـــل باســتراحة شركة النفط المحلية التي تبعد كيلو مترا واحدا ، ثم بدء النظرات ، والغمزات ، وترديد العبارات على مسمع منه ، بعد أن يقـدم طبق الطعام ، واذ يولى ظهره يسمع قائلا منهم ..
قوام جميل والله ..
قال ان بعضهم جاء خصيصا ليراه ، يقدم اليه بقشيشــا سخيا ، وعندما يستدير ليمضى هنا أو هناك ، يسمع همسهم ، وغزلهم الفاضح الصريح ، انه يخشى الخروج من الفندق ، بل يخاف عند نومه في القسم المخصص للعاملين أن يقتحم بعضهم حجرته ، ســمع عن حكايات جرت لغرباء نزلوا المدينة ، وجرى لهم ماجرى ، بعضـــهم ردد على مســمعه تفاصيل .
المدينة أمرها معروف ، شائع ، حتى لترى نساءها مكتئبات ، يطل من عيونهن التي لا يبرز ماعداها من وجوههن ، جوع قادح ، هذا أمر شائع ، معروف ، وللاسف لم يكتشـــف هذا الا بعد اقامته ، انه حائر لايدرى مايفعل ؟ .
قلت محتدا :
ـ أخرج منها ، ارحل ، كيف تقول انك لاتدرى ماذا تفعل ؟
قال ان ذلك مستحيل قبل ثلاثة شهور ، هكذا يقضى العقد .
أى عقد ؟ هل تفسخ العقد أم تخسر نفسك ؟
قال ان فسخ العقد ، أو الاخلال به ، خاصة من جانبه هو يؤدى الى السجن ، والسجن هنا هلاك مبين ، من سيحميه هناك ؟ هنا ربما استطاع المراوغة ، أو الافـلات ، لـــكن بين أربعة جدران وخلف باب مغلق ، أين المفر ؟
كنت في حيرة ، غير قادر على تقديم عون ، أستعيد وقت كتابتى هذا تحديق القوم في الشاب ، وتغــــامزهم ، ونظراتهم ، لم أقض الا

ليلتين ، بعدهما أقلعت عائدا من حيث أتيت ، وعندما حلقت الطائرة ، وتداغمت البيوت ، وتقاربت العالم ، ودنت الفواصل ، كنت أفكر في الشاب ، وانه موجود عند نقطة ممـــا أرى ، لم أعرف ماجرى له ، ولم يصلني منه شيء ، مع انني قدمت اليه عنواني ·

برغم تعاقب المدد وطول المدى ، فان حيرته تعاودني ، وما آل اليه أمره يقلقني ·· هل اغتالت المدينة فتوته ؟ هل أفلت ، عندما زرتها مرة ثانية لم أجد له أثرا ، ولم يذكره مخلوق ، ولا أدرى لماذا انبعثت ملامحه من عدم ذاكرتي ومجهولها عندما طالعني نبأ احتراق هذا الشـــاب في سجن ميسينا الايطالي البعيد ؟.

أم انه صاحب الرسالة التي أتيح لي الاطلاع عليها ؟ كان يعيش في ميلانو ، هل انتقل الى ميســـينا ؟ هل المدينة قريبة أو بعيــدة من عنوانه الذي حدده تفصيلا ؟

والله لا أدرى ، لا أجزم ، مثلي كهؤلاء الذين لايعـــرفون ما جرى للمدرسة التي أتمت المدة ، عندما طالعوا خبرا صغيرا يقول انه قبض على مدرسة عائدة من الخليج بناحية القناطر الخيرية ، أثناء محاولتها بيع كيلو من الهيروين الخام ·

أي تفاصيل كان ممكنا لي الوقوف عليها ، لو أحطت بظروف هذا الشاب المصري الذي لم تذكر الانباء حتى اسمه ، فالاحتراق هو الاهم ، أما صاحب الكينونة ذاتها ، فلا محل له ، ولا مقام !

عندي اختلف الامر ، اذ أقضني أمره مع اني لا أعرف عنه شيئا ، وحتى لا أطيل أو أفصل ، فانني مطلعكم على ماجرى لواحد ممن عرفتهم ، ومن الذين رحلوا سعيا وراء بسطة من العيش ، وقد هالني ما انتهى اليه أمره ، لكنني لن أتعجل الرواية ، ولن أقحم ذاتي عند مواضع كان لابد أن أدلي فيها بأمور ، اذ ينبغي القول ياكرام ، ان هذا الانسان كان قريبا مني ، عرفته منذ زمن بعيد ، كنا نقترب أحيانا ، وتباعد مابيننا الاحوال والظروف فترات ، ولكن ان في قرب أو في بعد لم تغب أخبـاره عني حتى كان منها ماكان ·

وأني مخبركم بما جرى من كفيلـــه ..

وأبدأ عند يوم أعتبره فاصلا بين حدين ..

هو قبله ، غير ما هو عليه الآن ، انها لحظة مغايرة لكل ما مر به ، ما أدبر من زمنه ذوى واندثر ، انه موغل بعده في الاغتراب ، وما سيقبل بعد هذا النهار ، تلك الساعة ، هذه اللحظة التى أصـــغى فيها الى ما أصغى ، انه غموض ، محير ، مضبب ، مبهم .

لو انه بمفرده لهان الامر ، لكن ثلاثة كيـانات متعلقة به ، ثلاثة مصائر : امرأته ، ابنته ، ولده ، أولئك هم الاقربون ، المحيطـون به ، أما الأقاصى عنه .. المنتظرون زيارته السنوية الى القاهرة فما أكثرهم .

أولهم والده الذى ولد ونشأ فى هذه الديار ثم هج منبا منذ ستين عاما أو أكثر ، تلطم في البلاد ، نزل الشام ، قضى زمنا فى فلسـطين ، ثم عبر سيناء ممتطيا ظهر هجين ، استقر مقـــامه فى بر مصر ، أصبح واحدا من ابنـــائها ، له مالهم وعليه ماعليهم ، ولهذا شرح قد يحيـــد بالخطة .

هناك أيضا خالته التى تعهدته طفلا ، رضـــيعا بعد وفاة أمه اثر ولادته ، حمى نفاس لم تمهلها ، لا يعى من أمرها شـــيئا ، لم تخلف صورة واحدة تمكنه من التعرف الى ملامحها ، خالته عجوز ، وحيـدة ، قال والده ان شبها قويا يجمعها بالمرحومة ، مع أن عشر سنوات تفصل بينهما على الاقل ، أما شـــقيقاته فـــكل منهن تنتظر هداياه ، خاصة أصغرهن ، زوجها المبيض يعمل يوما ويتـــوقف عشرة ، يدمن تدخين الحشيش ، ويتباهى بقدرته على شرب عشر زجاجات بيرة دفعة واحدة ، عندما تتوافر لديه النقود تنفلت يده ، اذا جلس بمقهى ينفق على من يعرفه ، ومن يجهله ، اذا دخل سينما دعا من يجـــاوره الى مشروب ، كذا من يجلس أمامه وخلفه ، يغضب اذا رد أحدهم دعوته ، خاصة اذا كان يجاوره فى الصف ، ثم يخرج الى الطريق خاويا ، ما من قرش معه وأمره بين الخلق مستقر عادى ، لمح له بقدر ماتسمح مداركه ، بدءا من

ليدفع تذكرة الترام .

هؤلاء أهله ، أما أسرة امرأته فينتظرونه في المطار .. حماته وشقيقات امرأته السبع ، أحيانا بعض الجيران ، وشاب أو شابان غريبان ، يعرف فيما بعد أنهما ينويان الخطبة ، وقد يتم الامر أو لايتم . ما بينه وبينهم الآن يباب .

لا أحد منهم يدري ماحل به ، ولو نما الى علمهم فأي عون يمكن تقديمه ، أي مساعدة أي ؟

لم يلق نفسه بعيدا ، سحيق النأي كما هو الآن ، منقطعاً عن زمنه ، عن موطنه ، عن مألوفاته ، عن ديار يمكنه أن يجوس خلالها بدون صد أو رد ، أينما ولى وجهه فيها يمكنه طلب العون ، أو تلمس المدد .

هناك بعض معه يستند اليهم ، ونفر عليه يمكنه القصاص منهم ، لكنه هنا منقطع عن أى مساعد ، فمن يؤازره من ؟

المؤكد ، المقطوع به ، انه لم تكن ثمة بوادر ، أو نذر ، مضى عليه سنوات ست منذ استقرار أمره في هذه الشركة ، ثابر ، تفانى ، بذل المجهود الأتم ، نال رضاء مديرها ، حتى انه كفله بنفسه عند السلطات ، وكان القوم يداعبونه قائلين :

« يابخت من كان المدير كفيله وضامنه .. »

وثق الرجل به ، كان يستدعيه ، يملى مضمون مايريد ابلاغه الى الشركات البعيدة ، لم يقتصر الأمر على ما أسند اليه من صياغة خطابات الدعاية ، والكتيبات الصغيرة ، بل ومتابعة تنفيذها وارسالها .

بعد عام واحد أرسل الى امرأته ، الى ابنته وولده ، عندما جاءوا اول مرة كانت الكبرى في السادسة ، والصغير في الثالثة ، الآن ، اجتاز الولد التاسعة ، وقتها سمع من البعض ، لماذا لاتبقيهم في مصر ؟ مجيئهم مكلف ، لو بقيت بمفردك يمكنك أن تدخر أكثر ، غير انه أبى ، قال انه عاهد نفسه ، اذا ما اعتدلت الاحوال لايبقى هو في ناحية وهم في ناحية ، أسكنهم بيتا فسيحا زوده ، وأثثه بما يحتاجون اليه ، كأنهم باقون في تلك الديار أبدا .

صباح كل يوم يصحب البنت الى المدرسة والولد ، مدرسة ابنه مجاورة للبيت الا انه يخشى عليه ، يحتاط لامره حوطة عظيمة ، الولد مليح ، أبيض البشرة ناعم الشعر ، أخذ من أمه رقة التقاسيم ، واتساع العينين ، أشد مايشغله الحفاظ على ولده هذا ، اللواط عنا شائع ، شرح له أن الخلق من ذكر وأنثى ، وأن الانثى تكمل الذكر ، والذكر متمم لها وان اختلفا ، حتى التأكيد عليه الا يركع عند اللعب ، وألا يسمح

لصحبه أو زملائه بالركوب فوق ظهره ، أو القفز أثناء اللعب ، والا يخلع ملابسه أمام مخلوق البتة ، بل كان يعلن غضبه عندما يلمح باب دورة المياه غير محكم الاغلاق بعد دخوله ، طلب من أمه أن يعتاد الاستحمام بمفرده ، وشدد عليه ألا يقبل هدايا أيا كانت من شخص يكبره سنا ، أو يصدق أى انسان غريب اذا ما اقترب منه يوما وطلب صحبته ليوصله الى أبيه ٠

قالت امرأته انه ينبه الولد الى مالا يجب التنبيه اليه ٠

قال : اسكتى أنت لا تعرفين هذه البلاد وأهلها ٠

قالت : لا ٠٠ أعرفها مثلك وخوفك على البنت يجب ألا يقل عن الولد ٠

قال : عليك بالبنت وعلى أنا الولد ٠

عند خروجه من مقر الشركة ظهر هذا اليوم ، رأى القوم يسعون ، لا يدرون مالحقه ، مانزل به ، عند ناصية الطريق هفا قلبه ، لم يتبق على خروج الولد الا ساعة ، عليه أن يقضيها فى السيارة ، طوال الشهور المنقضية كان يضبط موعد انصرافه من الشركة بحيث لا يفصله عن المدرسة الا قطعه مسافة الطريق ، عليه أن يقطع الشوارع مرات ، انه مازال مبهوتا ، مكتظا بمالقيه ، عليه خمدة فى السيارة ، يتحرك بحذر ، يتمهل عند النواصى، الحرص الشديد عند الاشارات الضوئية، افساح الطريق للعربات الفارهة الفاخرة بغض النظر عمن فيها ، اذا نهره سائق من أهل البلاد لايرد ولا يجادل ، مصيبا كان أو مخطئا ، يجب عليه تفادى المجادلة ، مازال يذكر هذا النحيل ، مفرط الطول ، نزل من السيارة غاضبا ، راح يضرب العربة الاخرى بقبضته ، مرددا : أرانى أوراقك ٠٠ أرنى أوراقك !

سائقها يبدو غريبا ، تداخل فى بعضه مرددا ، مبهوتا ، وانتابته رجفة ، عندما نزل مصر أول مرة بعد بدء اغترابه ٠٠ ود لو قال لسائق عربة الاجرة انه يحسده على تلويحات يده ، وذلك الحوار المبتور ، الذى يتبادله مع السائقين الاخرين ، وحتى مايتفوه به من شتائم ٠ ومايظهره من لا مبالاة ، هل يقدر هنا على ايماءة غاضبة حتى ؟ لايمكنه ذلك أبدا ٠ انه يقترب بحرص من الرصيف ، ما ينوء بحمله اليوم يجب الا يلهيه عن الطريق ومخاطره ، غير انه عندما لمح ولده واقفا وراء الباب حاملا حقيبته ، كاد ينوح ، وهوى داخله ثقل بغيض خلف عنده فراغا أجوف يشع وهنا وبرودة ، نزل ليصحبه ، ضغط يده الصغيرة ، وعندما جاوره ضمه اليه ومال ملامسا رأس صغيرة حتى دهش الولد ،

وتساءل : فيه حاجة يا بابا ؟ هز رأسه ، حاش ماعنده قسرا ، في وهج الظهيرة عظمت وحدته ، وثقلت غربته ، واشتدت وجيعته ، وعندما خطا داخل البيت ، تساءلت امرأته : « فيه حاجة ؟ » .

مرتجف صوتها ، يحاول تخمين ماجعله يبدو غامقا ، قاتما ، كأن ما يجرى فى عروقه قار وليس دما ، قعد عند حافة السرير منحنيا : كررت .. « فيه حاجة .. خير .. »

عندها فضول ، وتساؤل ، أن يخيب ظنها ، أن تحيد أفكارها ، قال بصوت محايد . غريب ، تصغى اليه أول مرة :

« اقفلى الباب » .

وعندما عادت يلفها شؤم ، وينهكها ضنى ، بدا كلاهما منفردين . والعالم كله ناء ، تطلع اليها ، كأنها تراه أول مرة ، وعلى غير ماتعهده ، على غير ماتعرفه ، فوجئت به ينشج ، يبكى ، يجاهد كى يكظم جعيرا يحوى هزيمة رجولية مروعة ..

ـ « فيه حاجة في مصر ؟ » .

يهز رأسه نافيا .

اذن .. ماذا جرى ؟ .

أشار بأصبعه الى بعيد ، الى حيث لاجهة بادية ، وعندما أوشك استفسارها أن ينقلب نواحا ، قال متحشرجا :

« يجب أن نخرج من البلد خلال ثمان وأربعين ساعة ! » .

لماذا ؟ ماذا جرى ؟ غير أن كل الاصـــوات تنأى ، تطوف بكيان زجلها المتداعى ، لم تعهده هكذا قط ، هو الصامت دائما فى مواجهـــة أعتى الظروف وقد عرف منها الكثير ، حتى وصفته يوما ، بينهـــا وبين نفسها بالبرود ،

ماذا وقع ؟

حدة بكائه لم تقدر على اللفظ ، أو بذل المحاولة لتهدئته ، يجب مفارقة البلد ، لكن .. لماذا ؟ أى جرم ، أى خطـــأ ، انهم فى حالهم .. بعيدون تماما عن الكدورات ، معتصم كل منهم بالآخر ، فماذا حدث ؟ تمد يديها ، تلامس كتفيه كأنها على وشك احتضانه ، كأنها تحتمى به من انهيار ، فى وقت يتداعى هو فيه ، يرغم الباب المغلق ، فان ما يجرى نفذ الى البنت ، الى الولد ، يجىء صوتها حذرا ، قلقـا ، على مشــــارف البكاء .

ـ « بابا جرى له حاجة ياماما ؟ » .

تجيب بصوت مرتفع ..

— « روحي وساجيء .. روحي الآن » .
يصلهما صوت الولد .
« أنا خائف يا ماما .. »
ترجوه أن يهدأ ، أن يكف من أجل الاولاد ، فى هذه اللحظة يتوقف ، تحاول مسح دموعه ، غير انه حاش يدها ، يستمر محملقـا الى البعيد ، الى نقطة غير مرئية ، تتجاوزها بكثير ، تبدو رقبته المائلة رخوة ، الآن يتجسد المعنى الذى لم تكن قادرة على تحديده ، ان زوجها ، والد طفليها ، رجلها انكسر ، أن قاصمة حلت به !.
لحظتان لم يفارقاها فيما تلا ذلك من مدة : عندما حط وبدأ جعيره المكتوم ، ولحظة أن كف وبدء نظره الى بعيد ، الى اللاشيء ، تهمس محاذرة ، ترجوه أن ينبئها ، أن يفضى اليهـا ، أن يفـكر فى الولدين المروعين ماذا جرى ؟ ، فى اللحظات التالية طرقت الابنة الكبرى مرتين ، غير انها ردتها ، المرة الاولى برقة ، والمرة الثانية بخشـونة ، زعقت مستنكرة .. « يعنى لا أعرف أقعد مع أبوكم ؟! »
فى صوت محايد ، غريب ، لا اثر فيه لأنفعال ، كأنه بمفرده ، عليهم المغادرة خلال ثمان وأربعين ساعة ، بعدها يصبح موقفهم حرجا ، يقبض عليهم رجال الشرطة ، يتولون ترحيلهم عنوة ، لماذا ؟ لأن صاحب الشركة سحب كفالته له ، بين لحظة واخرى سيجيء من ينذرهم بضرورة المغادرة ، تم الامر بغتة ، بلا مقـدمات ، بلا نذر حتى يبلغ الأذى مداه ، ويكون الوقع اثقل وافظع ..
لكن .. لماذا ؟ ما جرى ، ماذا بدل الأحوال وغيرها ؟
يقول لامراته المصغية ، ان للشركة مديرين ، أو شريكين فى ادارتها ، الأول عجوز من أهالى المدينة القدامى ، من معارف الوالد قبل نزوحه الى مصر ، وهذا رجل طيب ، أتاح له الفرصة وثبت أقدامه ، وثق به ، وأوصى معارفه ، عندما لاقاه اول مرة قال له : أنت ابن الحاج حمودى ؟ ، اجابه مومئا ، نعم . قال : الخالق الناطق ابيك ، سبحان الله ، كأنه امامى ، انقطع عهدى به وهو فى سنك .. اهلا ، أهلا يابن الحبيب الغائب ، سأل عن احواله ، دقق فى معرفة أموره ، كيف يعيش ، كم انجب غيره ؟ ، لماذا لا يبدأ السعى محاولا العودة ؟.
حكى له ما كان من أمر والده ، ما رواه له ، عن هجاجه فى البلدان ، الى الشام ، الى فلسطين ، نزوله مصر وتقلبه فى أعمـال شتى ، زواجه المرة الاولى انه ثمرة هذه الزيجة ، وثلاث شقيقات

اخريات . وعن زواجه الثاني بعد رحيل أمه ، امراته الاولى ، حدثه عن استقراره هناك ، وحنينه الى أيام صباه ؛ ولـكنه لم يخبره بكراهيته لمن تولوا تدبير الأمور هنا ، وتفضيله البعاد ، حتى بعـد ظهور الخير فى البلاد التى كانت مسقط راسه ، بعد أن اصبح مقصدا لكل راغب فى الثراء .

لم يفكر فى العودة ، أو بدء المسعى ، لم يقل للرجل ان اباه لا يطيق سيرة من تولوا الزمام ، وانه لم يسترح قط لسفر ابنه : لم يهدأ ، ولم يبد الرضا الا بعد سماعه التأكيد تلو الآخر ، بأن الغيبة لن تطول ، وأن الرحيل لغرض ، وانما هى سنوات معدودات يتيسر فيها الأمر مع الراتب الكبير ثم يعود .

مما أدهشه بغض أبيه لقومه ، وتحذيره اياه منهم ، والتنبيه عليه ألا يفكر فى الاستقرار هناك ابدا ، الا يسعى الى استرداد جنسية والده ، اذ ينصرف عن أبيه يفكر ، لابد انه لاقى ما لا يمكن وصـــفه ، الحقه الشيخ بشركته وكفله بنفسه ، كان زملاؤه يحسدونه على تعدد مرات لقائه بالشيخ ، صاحب المال ، من تحمل اللافتات اسمه ، كانوا يتطلعون اليه بعد انقضاء الأوقات الطويلة التى يمضيها بصحبته : اعتاد تلقى بعض المطالب منهم ، يحملها الى الشيخ ليقضى فيها وينهى : والحقيقة انه لم يقصر ، لم يبخل قط فى قضاء الحوائج ، كان عالما وعنده دراية باللحظات التى يقدم فيها اليه ، كان زملاؤه ، بعضهم من مصر ، وآخرون من أقطار شتى يداعبونه مبتسمين ، يا بخت من كان الشيخ كفيله ! ، يصغى مبتسما ، لا يبدون ما يشى أنه يحـــاول الحصول على وضع أفضل لانفراده بتلك الحظوة .

كان هادئا يمضى ليؤدى ما يوكل اليه فى صمت ، وفى البيت يسير مدبجا كتيبات الدعاية ، كان الشيخ يقول له : انت فصيح : تعرف لماذا ؟ لأن فى عروقك دماء بدوية ، ابوك بدوى أصيل ، على الله ألا تكون المدينة الكبيرة قد أفسدته ، عندئذ يسارع بالرد : باطويل العمر .. ان والدى لم يغير لهجته حتى الآن ، يقول الشيخ : مصر كبيرة .. مصر أم الدنيا . ثم يقول انه نظم الشعر فى مطلع شبابه ، كان ممكنا لو تفرغ ان يصير شاعرا مرموقا ، لكنه امتهن التجارة بدلا من الأدب ، ثم يقول انه بدوى ابن بدوى ، لا يرتاح الا فى البادية : أسعد لحظاته عندما يمضى اليها ، ينام فى الخيمة ويشرب حليب النوق فائرا ، ثم يشير الى المكتب الفسيـــح ، والاثاث الفـــاخر ، والستائر المسدلة ، واجهزة التكييف ، يقول ملوحا باصبعه ، والله

مجبور يا اخي على هذا ، والله مجبور !.

الشيخ ذو هيبة وافرة ، وحضور صارم ، له حرمة وتنفذ عند الحكام ، انه الخل الوفى لأمير مسن تجاوز المائة ، ممن شهدوا المعارك الأولى التى سبقت قيام الدولة ، كثيرا ما يصحبه الى البادية ، ينقطعان اياما ، يتحدث الشيخ كثيرا عما جرى فى الزمن القديم . عما لاقاه من فقر وضنك ، يردد أنه عندما جاء من الصحراء كان يرتدى ثوبا مرقعا ، بلا حذاء أو مداس ، نحيف لقلة الأكل وشح الزاد ، وعندما صحب هذا الأمير المسن ، قال له : أريدك معى .. لكن لا تكذب ، ولا تسرق ، أجابه ، اما عن الكذب فلن اكذب ابدا عليك أو معك ، اما السرقة فان لم تكفنى – وكفايتى فى القليل الميسور – فلا تحاسبنى ان سرقت ، صار موثوقا به ، وعندما بدأ ظهور النفط والثروة يسر له الأمير سبل قيام هذه الشركة ، فجاء بشقيقه ، واقاربه ، وأصهاره ، شقيقه هو المدير الفعلى والمدير لشئون الادارة ، انه شريك أيضا ، منه بدأت الواقعة ، وعنده لب ما جرى ! ، اما الأقارب فيتولون الفروع المنتشرة هنا وهناك ، شركة ضخمة ، يشمل نشاطها أموراً شتى ، التجارة فى العربات ، وأجهزة الراديو ، ومستحضرات التجميل ، والمجوهرات ، ولعب الأطفال ، وقطع غيار ماكينات الرى ، والأقمشة بأنواعها ، وعسل النحل ، والجبن ، والأسماك المحفوظة ، واستصلاح الأراضى وتعبئة التمور ، وعلاج آفات النخل ، كما تدير عدة فنادق متوسطة ، يشير الشيخ دائما الى معرض يتباهى به ، متخصص فى الخضراوات الطازجة والفاكهة ، يمكن لمن يرغب ان يجد فيه حبة أناناس قطفت بالامس من شجرة أسيوية ، وثمرة موز طازجة مستوردة بالطائرة من كولومبيا ، وطماطم طازجة لم توضع فى ثلاجة جىء بها من استراليا ، وتفاح فرنسى ، وكمثرى سويسرية ، يبسط يديه قائلا ، كذا خير ، والله خير .

كان الشيخ اذا بدأ الحديث لا يتوقف ، انما يمضى من درب الى آخر ، من حاضر الى ماض ، ومن ماض الى ماض أبعد ، كان يجيد الاصغاء اليه . عند جلوسه الى الشيخ تتوجه كل ملامحه اليه ، تتركز نظراته ، يبدى الانفعال ، التعجب ، الحسرة .

يمضى الوقت وتعدد الجلسات كان يصغى الى تفاصيل مكرورة ، معادة ، الا انه يحرص على ابداء دهشة بكر ، خالصة ، أن تبدو

ملامحه وردود أفعاله وكأنه يتعرف على كل تفصيلة لأول مرة ، وعندما يتعلق الأمر بفعل أتاه الشيخ ، أو موقف له فيه خبرة على من لا يمكن الوقوف بوجهه ، أو براعة حققها أثناء صفقة ، أو نبوءة ابداها : وتحققت ، كان يبدى الدهشة ويستفسر مستوثقا ، عندئذ يعيد الشيخ ما بدأ روايته ، يتمهل ، يلوح بيده ، يكثر من القسم بالمقدسات ، عندئذ يمد يده ملامسا أطراف عباءته ، يرجوه الا يحلف أنه مصدقه .

اذ يكف عن الحديث ، تكتسي ملامحه قسوة مفاجئة ، وتحل فى عينيه نظرات غير محددة الهدف ، يدرك ان انصرافه وجب ، وان صمت الرجل سيطول ، وانه نسى وجوده على مقربة .

على مهل يخرج ، يتراجع ، لا يولى ظهره للرجل الا عند الباب ، بمجرد خطوة الى الخارج ، يومىء لمدير المكتب ، السكرتيرة الانجليزية ، لكل من يلقاه أمامه ، بينما يخف عنه عبء ثقيل ، غير أنه لا يفرغ من دور الا ليتقمص دورا ، انه يبدى التودد فى التواضع الجم للمسئولين من أقارب الشيخ ، يومىء لهذا ، ويحيى ذاك بدون مناسبة ، يعى ضرورة محو أى مشاعر معادية كامنة ، أو حسد ، أو تنافس خفى بسبب انفراده هذا الوقت كله بالشيخ ، ومما أعد له العدة ، وخشى جانبه .. الرجل الثانى ، الشقيق الاصغر من بيده الحل والعقد .

انه الشقيق الذكر الوحيد للشيخ ، يصغره باثنين وعشرين عاما ، وما بينهما سبع أناث ، لكل منهن مخصصات ثابتة ، تصلها فى وقت معلوم ، وهدايا ، وسفرة فى شهور الصيف الى بلد بعيد .

الشيخ دائم الاطلاع على أحوالهن ، فى نهاية كل أسبوع ، ظهر الجمعة يلتقين فى قصره يصحبهن بأزواجهن وصغارهن ، كثيرا ما يتغيب الشقيق الأصغر عن هذا اللقاء ، انه فى حركة دائمة ، واجتماعات حتى فى أيام عطلته ، عابس دائما هو ، لا يبتسم الا نادرا ، هو من يلتقى بالعملاء والخبراء ، خاصة الأجانب ، لا يمكن صرف أى مبلغ قليلا كان أو كثيرا الا بصك أو اذن ممهور بتوقيعه ، انه كثير الأسفار ، خاصة الى فرنسا ، وهولندة ، وايطاليا ، ومصر ، وتايلاند ، أما فسحته فيمضيها فى النمسا ، له فى كل عاصمة مسكن ، وأشخاص على أهبة لتلبية ما يرغب ، والسعى من أجله ، وفى المطار الخاص بطائرات علية القوم تقف طائرة معدة لتنقله حيثما شاء .

كان بينه وبين العاملين كلهم فاصلة ، لا يقرب أحد ، ولا يدنو منه شخص الا بعد اذن ، يكثر من ابداء الملاحظات القاسية ، دائم المفاجأة لاقسام الشركة واداراتها ، لهذا خشية دائما . وحرص على

ابداء الاحترام الزائد فى حضوره ، وخلال السنوات الخمس الماضية اسمعه الكلام القاسى ، وكثيرا ما رد اليه بعض ما صاغه من مواد دعاية . طالبا اعادة كتابتها من جديد ، مرة بحجة غلظة الأسلوب ، ومرة لضرورة الاختصار ، أو مراعاة الجهة الموجه اليها الخطاب ، المطلوب منه ، بالضبط حتى ينفذه تماما ، بل كثيرا ما يجاهر بانتقاد وفى كل الأحوال لم يجادله قط ، كان يتمثل ، ويجتهد فى تلمس نفسه ويؤكد ان ملاحظات سعادته نبهته الى ما كان غائبا عنه ، واطلعته على ما جهل ، وان لمساته اضافت الى النصوص عمقا وجمالا ، لم يكتف بالتصريح على مسمع منه ، وانما أيضا عند حضوره مجلسا يضم بعضا ممن ينقلون اليه ويحصون الكلمات والأنفاس .

خمس سنوات أتقن فيها مداراة مشاعره ، واقصاء ما يتردد داخله عن ملامحه ، أو معالم وجهه ، واذ ينتهى يومه ، يخرج الى الطريق ، يولج مفتاح عربته ، يصغى الى المحرك ، يدركه انحناء كأنه يتقيأ ، تعب غامض ، كربه يعتريه ، واذ يلمح ولده قادما نحوه يود لو طرح كل ما مر به ، ألا يستعيده حتى ، يتطلع الى ابنه ، قبل أن يصعد الى المقعد الخلفى يقبل راسه ، غير مسموح له بالجلوس الى جواره ، يشم شعره . قالت أمه منذ شهور ان رائحة ابنه هى رائحته ، وانها عندما تستند براسها الى وسادته الصغيرة فكأنهـا تستنشق رائحته هو التى تعرفها جيدا ، تردد دهشة ، ما أعجب الخلقة ! لا يشعر بالراحة ، الا عند لمة الغداء ، عندما يغلق باب البيت ، ويصفو تماما الى أسرته ، الى عالمه هذا الآمن ، دائما اذ يعيد هناك ، يعى أن مدته هنا محدودة ، ومهما توالت السنون ، فحتما وقته المنقضى فى الشركة يدركه انهاك ، نزف ما لا يمكن استعادته مغادرها يوما .

عند نزوله أول مرة ظن انه لو اثبت ان والده من أهالى تلك الديار فسوف يكتسب حقوقا تنأى به كغريب ، تكون له الحرية المتاحة لناس البلد ، يمكنه افتتاح مشروع صغير ، أو يمارس تجارة ، لكم حز فى نفسه أول زمنه هنا أن كفيله كان رجلا أصله من سنغافورة ، لم يحصل على الجنسية الا منذ سنوات قريبة ، غير أن فتح الحديث عن ماضى والده وأصله قد يثير متاعب جمة ، أبسط ما سيواجه به ، لماذا غاب أبوه هذه المدة ؟ لماذا لم يعد ؟ وقد يثير هذا أمورا بليت ، وطال عمرها ، كان مقتنعا ان المدة منقضية حتما ، وانه عند حد معين يتم فيه ادخار ما يؤمن أيام البنت والولد سيعود الى مصر ،

الى أيامه التي تبدو له أحيانا واعدة ان تخيلها قادمة ، ومعزية ان استعادها ، ألم يفض فى غياهب الليل الى امرأته بضيقه ان يكون له كفيل ، حنقه ألا يمكنه مغادرة المدينة الا باذنه ، حرصه الا يرتكب أقل خطأ ، أن يتحمل أى افتراء يتعرض له من الصغير أو الكبير هنا ، يقول لها انه يعذر الحلبى ، تحيطه عندئذ تهدهده كأنه وليدها ، تقول له : فات الكثير ، لم يتبق الا القليل ، عندئذ يرحل الى هذه اللحظات المرتقبة ، عندما يدخل على الشيخ الكبير ، سيرتدى حلة جديدة ، سيبدو فى هيئة مختلفة ، سيجلس أمامه ، يصغى اليه ، سيلحظ الشيخ بفطرته ، بفراسته أن ثمة شيئا يخفيه عنه ، يسأله ، مالك اليوم ؟ ، لن يخبره مباشرة ، انما سيبدأ بشكره ، اذ اتاح له الرجل الكريم فرصة العمل ، واسبغ عليه من فيضه ، وقربه منه حتى ليشعر تجاهه وكأنه ابن يواجه أباه ، لكن .. هنا سيتغير صوته ، يتبدل ايقاعه .. الزمن له ضرورات وأحكام ، ابنته الكبرى حصلت على الاعدادية ، لابد أن تلتحق باحدى مدارس مصر الثانوية ، تمهيدا للجامعة ، طال عمره ، كما أن والده بلغ من العمر عتيا ، ولابد أن يكون بجواره ، رتب أموره فى مصر ، اذ ادخر مبلغا مناسبا ، سيفتتح مشروعا صغيرا ، مكتبا لنسخ الرسائل والخطابات ، وتصوير المستندات بالطبع ، هذا المبلغ المدخر نتيجة لفيضه ، لكرمه ..

سيتوقف عند هذا الحد ، لأول مرة سينظر الى الشيخ من خلال حدقتين مفتوحتين ، غير هيابتين ، ربما صمت الرجل ، ربما حاول اقناعه بالبقاء ، ربما طلب منه السعى لاقناع والده بالعودة ، عندئذ يحصل على الجنسية ، يمكنه العيش مع أولاده . ستكون لهم كافة الحقوق ، السفر دون مساءلة الانتقال من مدينة الى مدينة ، يمكنه أن يبدأ أى نشاط تجارى لحسابه ، والخروج بما يريده من نقود ، ولن يمشى فى الطريق حريصا على الا يثير مشكلة أو يتحرش به أحد ، أو ينأى عن الشرطة .

سيقول للشيخ انه بذل المحاولة مع ابيه ، لكنه أبى العودة ، طبعا لن يفصح عن الاسباب الكامنة عند والده ، سيقتنع الشيخ ، سيقربه منه يصافحه ، وربما قبل جبينه ، يستدعى مدير مكتبه ، يطلب تسليم جواز السفر اليه ، ربما يأمر له بمكافأة شخصية ، وتسهيل اجراءات سفره ..

كثيرا ما تخيل هذا الموقف النهائى ، رتب لحظاته فى مخيلته ، وثبت بعض تفاصيله ، فى لحظات ما قبل النوم ، او عند جلوسه ،

وحيدا الى مكتبه اثر ملاحظة قاسية وجهها اليه الشقيق الاصغر ، أو تصرف بدا منه فيه اقلال من شأنه ، وحط منه ، او اعانة مباشرة او غير علنية له ، احيانا يعدل فى الحوار أو يغير من طريقة دخوله على الشيخ ، أو نبرة صوته اذ يصرح بعزمه ، ومرارا تخيل الطائرة اذ تولى مقدمتها تجاه ممر الاقلاع ، لحظة مفارقة العجلات تلك اليابسة بالذات ، تتوالى المرئيات تباعا ، توغل الطائرة ، ينظر من النافذة المستديرة الى الارض التى تنأى ، أقصى ما رغبه ان يحدد بنفسه ساعة المغادرة ، أوانها ، لا أن يرغم عليها كما جرى !.

طوال العام الاخير كان يردد ، ان ما فات اطول مما تبقى ، ما سيأتى قريب ، وما مضى بعيد ، يكفى ان ما انقضى ذهب على خير ، بعد شهور سيتسلم شقته التى دفع مقدمها منذ عامين ، سيكون لهم بيت ، بدلا من نزوله عند أم زوجته ، اضطراره الى مسايرة زوجها الذى لا يطاق ، غتت ، فضولى ، لا يكف عن التلصص والنظر خفية ، قالت امرأته انها كانت تسد ثقب الباب خشية منه ، وعندما تخرج من الحمام مبلولة تجده واقفا بمقرده فى الممر ، وعيناه تفحان رغبة ، كانت تخشاه ! دائما صوته مرتفع ، يمكن للماشى فى الطريق ان يسمعه ، يتحدث عن مهاراته وتصرفاته المعيبة دائما يخوض احيانا فى السياسة يتوقف بين جملة وأخرى يستفسر عن ثمن قميص ، او نظارة ، اذ يراه متأهبا للخروج ، يهز رأسه ، مبروك يا عم ! يؤكد له أن القميص قديم ، عندئذ يضحك غامزا بعينيه ، فيه حاجة قديمة هناك ؟.

عندما يأوى الى الغرفة التى تفردها لهم حماته ، لا يكف عن الذهاب والمجىء فى الممر ، والحديث بصوت أجش ، فى الصباح يقترح الذهاب ليلا الى أحد الفنادق للعشاء ، ثم يشير الى صدره ، انا الداعى !.

لم يتبق زمن طويل على تسلمه الشقة ، سيكون بيتهم ، بابه مغلق عليهم ، أما الاولاد فسينتقلون الى المدارس المصرية ، فى نهاية العام القادم تنهى ابنته المرحلة الاعدادية ، فى السنة ذاتها سيتم ابنه الدراسة الابتدائية ، هذا مما ييسر الأمر ، انتقالهما معا الى المدارس المصرية هذا ما خطط له ، ما عمل على تحقيقه ، مراعيا امرأته ، البنت والولد .. لكن ما يدبره المرء شىء ، وما يخفيه القدر شىء ، وما يعمل له الانسان قد تأتى بعكسه الايام ..

اليوم ، فوجىء بالشقيق الأصغر يستدعيه ، كثيرا ما استدعاه لمقابلته ، وفى كل مرة يتوجس ، يتأهل لسماع ملاحظة قاسية ، الرجل

لا يقربه . يضيق بتلك الدرجة من الخصوصية بينه وبين معالى الشيخ ، دائما يبدى الجفوة ، فى المصعد فكر ، انها المرة الاولى التى يستدعيه صباحا ، اللهم ما اجعله خيرا !.

عندما دخل المكتب رآه واقفا ، على مقربة منه مدير مكتبه الامريكى ، او مستشاره ، صفاته عديدة هنا ، أيقن أن شرا يلوح ، وأن أمرا كريها يوشك على الوقوع ، بادره مستنكرا :

« ايش ما فعلته ؟ »

لهجة باترة ، متوعدة ، لفظ ضامر ، لم يتح له فرصة التلقى ، للنطق .. « ترسل مطبوعاتنا الى دول كافرة ؟ »

اضطراب جلل بدأ ..

« أنا ؟ »

لم ير الا الاصبع النحيلة متوعدا ، منذرا .

« لا تكذب »

تابع ..

« أمران حذرك منهما معالى الشيخ عند مجيئك ، الكذب والسرقة » ..

قال ان ما فعله يعرض الشركة للخطر ، والأدهى اذا تكشف وجود جهة أجنبية ، أو منظمة تخريبية ، على اى حال التحقيق سيتم ، كل شىء سيتضح .

يضغط زرا مستديرا ، يدخل اثنان من رجال أمن الشركة ، يتطلعان ناحيته مباشرة ، كل شىء معد ، مرتب ، يفتح فمه ليتكلم ، لكن الشقيق الأصغر يمد يده ..

« ما عندك قله للشركة .. »

يتطلع الأمريكى صامتا ، ملامحه صارمة ، دون شيئا ما فى الدفتر الذى يحمله ، أحاطه الحارسان يعرفهما ، أحدهما تونسى ، الآخر تايلاندى بادلهما التحية مرارا ، لكن أصابعهما قاسية حول ذراعيه ، كأنهما لم يطالعا وجهه من قبلُ .

عند اقترابه من الباب صاح :

« والله العظيم لم أرسلْ » .

يلكزه أحد الحارسين ..

« هيا .. هيا » .

حجرة ضيقة ، بدون منافذ ، مليئة بصناديق من الورق المقوى ، لم يستطع معرفة محتوياتها ، تطبق عليه ، لا تتيح الا فراغا يسيرا تتحرك فيه ، غير أن هوة مظلمة داخله تتسع شيئا فشيئا ،

بوقت ، ما من فرصة للحوار ، للايضاح ، للتوسل حتى •

في تلك الغرفة بدأ أصعب زمنه ، وأمر وقتـه ، ماذا جرى ؟ لم يشغله هذا بقدر ما أوجعه ، وهمه أمر قد يبدو غريبا ، يتعلق باللحظات القريبة باليوم نفسه •• من سيذهب الى الولد ليرجع به الى البيت ؟ منذ سنوات لم يختل النظام ، لم يتخلف عنه يوما ، لم يطل عبر اسوار المدرسة الا رآه في انتظاره ، من سيصحبه اليوم ، من ؟ سيقف الولد ، سينظر عبر السور ، لن يرى أباه ، لن يلمحه قادما ، سينصرف الاولاد ، كل الى العربة التي جيء بها اليه ، الى عربات المدرسـة ، لـكنه غير مشترك فيها ، لايعرف الطـريق الى البيت مع انه قريب ، سينصرف الاولاد كلهم ، سيصبح فناء المدرسة خاويا ، لن يتبقى الا هو ! •

الى من سيلجأ ؟ الى البواب الهندى ؟ مسكين ، سـيهدئه البواب ، سيربت عليه ، ربما راق له ، عندئذ •• ان قشعريرة تجتاحه ، تزداد الهوة اتساعا ، يستعيد سـطورا قرأها عن اعتداء عمال أجانب على صبية صغار ، القبض عليهم ، اعترافاتهم ، اذا كان الطفل من أهل البلاد تقطع عنق المغتصب ، واذا كان من أبناء الوافدين ، أو الاجانب مثله ، فربما لاتقبل الشرطة مجرد الابلاغ عن الواقعة ، يجز على أسـنانه ، يتخيل الامسـاك بالولد عنوة ، التغييرات الفزعة ، ما سيتركه ذلك من آثار لا تمحى اذا بقي حيا يسعى اذا تركه البواب ولم يخفه الى الابد ، ان حالة من الرثاء تنتابه ، كأن النبأ بلغه فعلا ، كأن مايتخيله تحقق •

وهنا وقع أمر غريب ، لم يسمع به ، ولم يسبق له ، اذ غزر عرقه مع تعاظم خوفه ، وتتابع دقات قلبه ، ازداد تداخله في بعضه ، كأن قوة غامضة تدك مابداخله دكا ، مويجات غريبة تسرى عبر ظهره على حوافها قشعريرة ، وفي البؤرة منها ألم ولذة مرغم عليها ، لم يسع اليها ، لا الى استثارتها أو بعثها ، قذف كما يقذف عند الجماع ، بقي منهولا ، منهكا ، مرتبكا ، مدركا ان خللا عنده وقع ، وان شيئا مستعصيا على التلف خسر !

انه وحيد ، منقطع ، لسبب ما فكر في صديقي دراسته ، من بقي على صحبتهما في مصر ، كأنه يستغيث بهما ، اذ يستدعيهما بالمخيلة ، كأنه يناديهما ، الاول ضابط خاض الحروب حتى وصل الى رتبة العقيد ، وآخر ما عرفه عنه انه تقاعد ، سيرته حسنة كـأسـتاذ في فنه ، أما الثاني فطبيب لا يرد اسمه الا بالخير ، والثنـاء الجميـل من أهالى الجمالية ، والباطنية وكفر الطماعين والزغارى ، ذلك انه نشأ في اسرة فقيرة ، أتم دراسته بكلية الطب بعد جهد جهيد ، باعت أمه ماورثته من

مصاغ قليل ، ونحـــاس البيت ، وأثاثه ، وعملت في البيوت غاسـلة للثياب ، وقضت الحوائج ، وضينت باللقمة على نفســـها ، كانت تغسل جلبابها وتنتظره حتى يجف لترتديه ، ذاقت المر الا انهـا لم تقصر في حاجة ابنها حتى أنهى تعليمه وتخرج طبيبـــا ، كان من أوائل زملائه ، وعندما التحق بعمله في مستشفى القصر العيني طلب من أمه أن تبقى في البيت ، ألا تخرج الى الاسواق ، آن الاوان لتستريح ، وعندما تسلم أول راتب مضى الى سوق القماش فاشترى لامه مايسـترها ، هذا نذر قطعه على نفسه خلال ليالي الضنك والكد ٠

بعد سنة من تخرجه افتتح عيادة في احدى الحـوارى القديمة ، حدد الكشف أجرا زهيدا وكثيرا مارده عند اتضـــاح أحوال المريض العسرة ، بل يقدم الدواء مجانا مما يصله من عينات مجانية ترســلها اليه شركات الادوية ٠

تيسر أمره ، وراجت أحواله ، واشترى أثاثا جديدا ، وغســالة كهربائية وفرنا يعمل بالغاز بدلا من الموقد العتيق ، لم يفارق الحى ، انما انتقل مع أمه للسكنى في بيت فسيح مجاور ، عن الحى القـديم ، واعتذر عن السفر ، وكثر الثناء عليه ، وطابت سـيرته ، لم ينقطع عن كتابة الخطابات اليه ، وارسال البطـــاقات في الأعياد ، انهما أقرب صحبه في هذا العالم ، لكن ما أقصاهما ، ما أبعدهما عنه ، لايقدر حتى على اسماعهما شكواه ، على أن يخبرهما بما جرى وكان ! حتى اذا لقى الطبيب صاحبه ، اذا تجسد أمامه واقفا ، كيف سيفضى اليه بما حيره ، كيف سيقول له انه ساب على نفسه ؟ تساءل بصوت مرتفع ٠٠

ماذا جرى لي ؟

وبرغم غرابة مامر به ، ماسمعه ، ماعبره ، فلم يشـغله ذلك عن ولده ، عن أسرته التي سيختل نظامها ، كيف سيدبرون الامر وما من مساعد أو معين ؟ حتى الحساب في المصرف باسمه ، تابعين له في جواز السفر ، لايمكنهم الرحيل الا بصحبته ، الى من ستلجأ امرأته ، ربما الى هذه المرأة ، زوجها مسئول في مقر الادارة ، متزوج من ثلاث ، احداهن مصرية ، ثرى ، عنده مصنع لتعبئة الالبان ، وآخر لاكياس البلاستيك وثيق الصلة بالامراء ، بالنبلاء ، بأصحاب المعالي من شـيوخ الناحية ، لم يره ، لم يلتق به ، لكنه سمع عنه من امرأته بعد زيارتهـا لزوجته المصرية ، أخبرته بما عندها من مصـــاغ ، من مجـــوهرات ، من أزياء بلا حصر ، تصور ٠٠ تشترى فساتين ولا تلبسها تصور !

انها ذات صلة بامرأتيه الأخريين ، هل يمكن لهذا الرجل التدخل ،

هل يقبل ؟ لكن ·· مقابل ماذا ؟ ما الذى يدفعه الى خصومة محتملة ، هل يكفى ضغط زوجته عليه .

واذا رضى ، وتحدى ، وأصبح كفيلا له ولاسرته ، ماذا سيجرى بعد ذلك ؟ يخشى أن يجرى له ماجرى للحلبى !

قام واقفا ، ان خدرا لايمكنه من فرد قدميه ، يضطر الى الوقوف منحنيا · بقعة البلل لم تجف فى سرواله بعد ·

الى متى سيبقى هنا ؟ أى أمر سيحل به ؟ فى اى مكان سيقضى ليلته ؟ هنا ·· أم فى دار التحقيق ؟ أم فى السجن ؟ السجون هنا تضم من لاحصر لهم ، يلقون بهم بدون محاكمة فى انتظار عفو محتمل ، ربما يصدر أو لا ·

كم مضى حتى فتح الباب ؟ لم يدر بالضبط ، نظر فى الساعة ، دهش ، أهذا الوقت كله ساعتان ونصف لاغير ؟ باق ساعة على انصراف الولد ، لو يتركونه ليمضى اليه ، لو برفقة حرس ، انه فى قرار سحيق ، متأهب للارتماء أمام الشقيق الاصغر ، فقط ليصحب ابنه من المدرسة الى البيت ، ثم يمضون به الى أى جهة ، الى أى مكان ، حتى لو طلبوا منه أن يلزم بيته ، الى أين المفر ؟ مثله لايمكنه الانتقال من مكان الى مكان الا باذن من كفيله ، بتصريح ··

اقتاده الحارسان ، اتجها به الى غرفة الشقيق الاصغر مباشرة ، رآه يقرأ أوراقا ، مرتديا نظارة طبية للقراءة ، بدا مستغرقا ، أو هكذا حاول ان يبدو ، دقائق جهمة ، ولسانه معقود فى فمه ··

« آه ·· جئتم به ؟ » ·

تراجع الى الوراء قليلا ، لمس أطراف أنامله بفتاحة خطابات ، أومأ ، مدركا ، متوعدا ، فى هذه اللحظة ، فى خضم ضيقه ، وخوفه ، وارتباكه ، فاض قلبه بكره ، وحنين معا ، رنا من مشارف البكاء عندما تذكر الناحية المؤدية الى بيت صاحبه الطبيب فى تلك الحارة النائية ، التى لا يدرى ، هل سيراها أم لا ؟ لكم بدت بعيدة ، عزيزة المنال ، فى هذا ا المكتب الفسيح العبق بعطور خفية ، هبت عليه كل الروائح التى يمكن أن يستنشقها عند مروره المؤدى ، تذكر العجوز المتقدم فى العمر ، المتكئ على عصاه أثناء قعاده أمام دكانه الصغير الذى لايبيع فيه الا السجائر والحلوى ، تذكر أقراصها الصغيرة وسنواته المولية فكاد ينوح ··

« تعرف مافعلت ؟ »

« يا ··· »

« اسكت ، جرمك كبير ، خطير .. »

قال : ان ما أقدم عليه عقابه الوحيد الردع ، السجن .. هذا يمس أمن البلاد ومقدساتها ، يعرض الرجل الذى أحسن اليه للخطر ، لابد أنه مدفوع من أحد الحاقدين ، لكن ليفهم جيدا هو ومن يقف وراءه أن المؤسسة أقوى ، وأقوى .. هل يذكر ما قاله معالى الشيخ عند مجيئك لترتزق ؟ ألم يقل ، لاتسرق ولا تكذب ، وأنت بما فعلت ارتكبت ما هو أشنع ، الخيانة .

تعال هنا ..

خطا الى الأمام ، يحيطه رجلا الامن ، لوح بفتاحة الورق ، ابتعدا عنه ، قال انه من الممكن ارساله الآن الى حيث لايمكن لقوة فى الدنيا أن تعرف مكانه ، ولكن ..

مع لكن هذه استنفرت حواسه ، عند ولوجه الغرفة يتساءل عما ينتظره وعندما بدأ يتكلم خيل اليه أن هذه التهديدات لن تتوقف ، انه لم يتوقع قط هذه الكلمة « لـكن » ، ان دقات قلبه تهرع كل منها فى اثر الاخرى ، كله مستنفر ، باله يقظ ، متهيأ لما سيقال ، لن ينسى أبدا اللهجة التى قيلت بها « لكن » هذه ، انها حد ، فاصلة .. نهاية وبداية .

قال ان معالى الشيخ عندما علم بالامر غضب ، أشد مايثيره خيانة الأمانة وتبديد الوديعة ، فما البال وقد أولاه أكثر من غيره ثقة ، ومجالسة كادت أن تكون صحبة ، لولا لطف الله .

قال انه طالما حذر معالى الشيخ من الغرباء ، لكن الرجل طيب القلب هذا القلب الكبير ، الطيب ، تدخل منذ لحظات ، قال : اطردوه فقط .

قال مختتما كلامه :

- معالى الشيخ أنقذك من السجن ، ربما مما هو أخطر ، لكن كفالتك انتهت .

تعال ..

وقع كافة ماقدم اليه من أوراق ، لم يتح له التأنى للقراءة ، لمح بسرعة سطورا تفيد انه تسلم كافة مستحقاته ، لم يدر ماذا تحوى الاوراق الاخرى ؟

مضى به رجلا الامن ليتسلما ما فى مكتبه من أوراق ، قلبا جيوب سترته ، تحسسا جسده ، وعندما تركاه بمفرده أمام مدخل المبنى تلفت حوله غير مصدق غير واثق ، الا انه هرع الى عربته موزعا ، متفرقا ، به فرح غريب لم يعهد مثله ، لانه أفلت ، لان ذروة الغمة لم

تمتد ، لانه ماض الى ابنه ، لم يتأخر عن موعده اليومي ، عنده أيضا مهانة بالغة لم يتعرض لها من قبل ، لايقدر على ردها ، خجـــل لتخيله ابنته الـــكبرى واقفة على ما مر به ، خوف غامض ممـــا ينتظره ، حيرة ، اضطراب ..

كيف سيرتب أمور أولاده ؟ والمدارس ، يتضاءل فرحه ، الوضـــع المحدق انتهى ليواجه المتاعب الممتدة ، يستقر به انكســــار بغيض ، وشعور بقلة الحيلة ، وضعف القدرة .

اذ يستعيد ما جرى له عندما ساب على نفسه ، وكأنه فقد عنصرا من صميم تكوينه ، انفرط شيء من عقده ، عكارة ثقيلة عنده حتى انه لم يدر كيف وصل الى المدرسة ، عندما رأى البواب اجتاحه كره ، كأنه أتى بالفعل الذى تخيله ، انه فى حاجة الى أعوام لكى يفهم ، حتى يستوعب ماجرى له ، لايدرى ماذا يجب أن يقوم به ، أى اجراءات ســتطبق عليه غدا ؟ الغد فقط متاح أمامه ، بعده يمكن رميه فى السجن ، والسجن هنا رهيب مفزع .

هو بعد هذا اليوم غير قبله ..

تقــــوم امرأته ، انه وحيد ، خرجت لتهـدىء الاولاد ، ان فزعا يدركهما ، يطبق عليه صمت ماقبـــل المغيب ، أصوات باهتة قادمة من بعيد ، انه غريب ، فى سجن وان تبـــاعدت جدرانه ، بمنـــأى عن أى مساعدة ، مقطوع ، مجتث ، انه مظلوم ، ربما تدارك معالى الشيخ الامر ، وربما يرق قلبه ، يرسل اليه ، يفاجأ بمن يجهله ، يطـــرق باب بيته ، يطلب منه أن يصحبه ، يمضى معه بعد تردد ، تقطع العربة طريقا طويلا ، تتوقف أمام بيت فى أقصى الضاحية محاط بسور ، لأول مرة يدخله ، يبقى مدة منتظرا ، وعندما يجيئه الاذن يعبر البـــاب الى غرفة فسيحة رصت الحشايا بمحاذاة الجدران ، فى المواجهة يجلس معالى الشـــيخ ، يبدو أقل حجما بدون عباءة ، يشير اليه ، يطلب منه أن يقعد ، يتردد ، الا أن معاليه يقـــول مباشرة بدون لف ، بصراحة بدوية : يابنى نحـــن غلطنا فى حقك . ثم يقول ، فى الأمر دسيسة ، يصيح مناديا شــــقيقه الأصغر ، يجىء متباطئـــا .. يأمره بالاعتذار ، اذ يلمح تردده ينهره ، لكنه يقوم واقفا ، يتقدم من الأخ الاصغر ، لايريده أن يصل الى لحظـــة الاعتذار ، حتى لايتسرب اليه أى شعور بالمهـــانة ، حتى لاينقلب عليه عند أول سانحة ، يصافحه ، بينما تذرف عيناه دموعا ذات معنى ،

أخيرا ، تثبت براءته ، ومعالى الشـــيخ يعتذر له ، بل يدعوه ليتناول لقمة معه .

غير انه يفاجأ بامرأته تقف أمامه ، متأهبة ، ترتدى ثوبا حريريا اشتراه عندما حصل على اذن ورحل الى العاصـــمة منذ ستة شهور ، ملامحها صارمة ، تتناول العباءة السوداء ، فى هذه اللحظة لم يفته رغم أنهاكه وحزنه ملاحظة أمرين وان تباعدا ، ذلك انه فوجئ بتألق جمالها ، فكأنه يراها بعد غيبة . أما الثانى فبداية أمر لم يبد مضـــمونه بعد ، يعنى أن المبادرة تنتقل بدرجة ما اليها ، استوثق ذلك عندما أصغى الى ايقاع صوتها شبه الآمر ..

« قم معى .. »

تقترب ، تقعد عند حافة السرير محاذرة أن يتكرمش ثوبهـــا ، تقول انها فكرت فيما جرى ، مهلة أربع وعشرين ساعة ظلم ، يجب ألا يستسلما ، ألا يعنى هذا تقصيرهما فى حق البنت والولد .. واذا وجد من يمكن اللجوء اليه ويتقاعسان عن ذلك فذنبهمـــا هنا أعظم ، لاحظ يديها المبسوطتين ، تشيران فى هيئة محددة ، تعرف ماتقول ، قولهـــا فصل ، هنا أيقن بما انتابه عند ظهورها المفـــاجئ ، تقدمها لتمسك بالزمام ، حام داخله خوف مم يعهده غير انه تساءل عما يمكن عمله ؟

قالت انها ستذهب الى امرأة هذا الرجـــل ، انه موظف كبير فى الهيئة التى تدير شئون المدينة ، لكن المقصـــود ليس هو ، انه وثيق الصلة ، بل انه النـــديم الحقيقى لأمير الناحية ، وينوب عنه فى تدبير عديد من المصارف والشركات ، تقول :

لحسن الحظ لم أقطع معها ، أودها من حين الى حين ..

ثم تقول :

لاتنس اننا قفلنا على انفسنا ، لم نسع الى معرفة أحد ..

لم يصحبها عندما مضت بمفردها الى داخل البيت مرتفع السور ، قبع خلف مقود العربة ، ليل ثقيـــل ، تباعد البيـــوت وترامى الخلاء الصحراوى الممتد ماوراء المدينة يزيده وحشة ، هل لاح فى صوت امرأته احتجـــاج خفى ، أو نقد ما ؟ لا يدرى ماتقوله الآن ، لكنه قلق عليها ، نسيت انه نصحها بالابتعاد عن زوجة الرجل خشية وحذرا .

منذ عام أسرت اليه أمرا ، احداهن شـــابة من هنا تعرفت بها ، زارتها مرارا فى البيت ، فى كل مرة تجيئهـــا بهدية منتقاة ، حقيبة جلدية ، عطر باريسى ، خاتم من ماس ، لم تدخل عليهـــا خالية اليدين قط ، حتى حارت ، كيف ترد على هداياها تلك .

في أحد الايام فوجئت بها تحمل صندوقا يحوى ملابس داخلية حريرية ، راحت تستعرض مافيه على مهل ، تقلب القطع متمهلة ، لمحت في عينيها لعابا من نظرات ارجفها ، أما شفتاها فانفرجتا ، قالت بصوت تتحفز فيه الرغبة ، أنها عندما رأت هذا الطقم في السوق أدركت انه صنع من أجلها ، تخيلته على جسدها ، فأصرت أن تهديه لها ، ثم قالت :
ممكن أشوفه عليك ؟
تطلعت اليها صامتة ، لا تدرى اى رد يمكنها النطق به ؟ سمعت عن ذلك ، عن انتشار مثل هذه العلاقات ، لكن لم تتخيل دنو الامر منها يوما ، كررت المرأة :
ممكن أتفرج ؟
قامت واقفة ، على شفتيها المتباعدتين المتمددتين ، ابتسامة تشجيع ، توسطت الحجرة ، اقتربت منها ، فجأة شلحت ثوبها الى أعلى ، بان فخذاها ، كانا نحيلين ، سمراوين ، قالت انها ترتدى مثله ، ثم قالت بلهجة مصرية ، أتقنتها من فرجتها على الافلام :
« قومي وريني .. بتتقلى على حبيبتك ؟ »
خافت ، لم يمر بها مثل ذلك ، قالت يومها ان ماتدعوه اليها حرام ، ثم قامت ، خرجت من الغرفة ، مضت الى صوان حاجاتها ، ردت اليها هداياها ، وقعدت صامتة لاتنظر اليها ، لاتلفظ كلمة ، حتى بدا ارتباكها .
قبل اجتيازها الباب ، قالت كلمة واحدة ، أودعتها حنقها ورغبتها المحبطة :
« غبية ! »
أهي تلك التي تجلس اليها امرأته الآن ؟ مثلها ؟ على أية حال هن نساء ، تلك امرأة وهذه امرأة ، يتوقف لحظة ، أليس فيما خطر له لا مبالاة ، لايعرف الى من تجلس امرأته الآن ؟ بأى لهجة تقص ما جرى ، وبأى لهجة سترجو ؟
الليل يوغل ، والفراغ حوله سحيق ، هل سترجع لتخبره بكفيل جديد ؟
هل ستأتي وتجلس بجواره صامتة شأنها عندما تنجز أمرا ما ، تؤجل الاخبار به دقائق .
هل سيأتي الاسبوع القادم وهم هنا ، أم مبعدون ، أم هو في ناحية وأهله في ناحية .
هل تنجح ، ويكفله سيد جديد ، رجل لايعرفه ، يحيط به وبأموره ، عندئذ ، ربما يجزى له ماجرى للحلبي ! الحلبي الذى لن ينسى نظرة عينيه أبدا .

وفيما يلى ماجرى للحلبى

.. وامره ذائع ، معروف فى تلك المدينة ، جاء من حلب ، وكان هادئا ، لا يختلط بالخلق ، فى حاله ، منطو على أمره ، عرف بمهارته الفائقة في صنع صنفين : البقلاوة ، والكنافة بالجبن .

عمل عند رجل من اهل البلاد ، موظف فى دائرة الأوقاف ، الا انه يستثمر ماله فى أمور شتى ، فمن ذلك مصنع لتعليب التمر وحشوه باللوز ، ومتجر لبيع الأدوات الكهربائية ودكان لبيع الحقائب بكافة انواعها ، وآخر لبيع الملابس النسائية ، ومصنع صغير يتبعه معرض للحلوى ، وفى هذا عمل الحلبى ، ومنه خرجت الحلوى التى راج امرها ، حتى قيل ان الرجل اذا أراد التقرب من امرأته حمل اليها صينية كنافة أو بقلاوة من صنع الحلبى !

وذات عصر ارسل امير الناحية فى طلبه ، ليعد الصنفين ، يومها اظهر الحلبى مكنون براعته ، وخلاصة قدرته ، حتى تساءل الضيوف عن مصدر الحلويات الشهية ، طبيعة الرائحة ، وصانعها ، وقيل انهم مسحوا ما تبقى فى الصوانى ، ولحسوا أصابعهم حتى لم تعد بحاجة الى تجفيف أو غسيل ، فلما علم صاحب المصنع ذلك قلق واضطرب أمره ، اذ خشى ان يرسل الأمير فى طلب الحلبى بمطبخه ، أو يقدم احد المقربين منه على افتتاح مصنع يتولى ادارته فينافسه ويطغى عليه ، ويقال انه كره اقتراب عامل عنده ، تابع له ، من الأمير .

المهم .. استدعاه ، وطلب منه تسليم ما عنده ، وارجاع ماقى أمانته ، طلب منه مغادرة البلاد كلها خلال ثلاثة ايام ، لا تزيد بساعة واحدة ، والا تعرض للمطاردة والملاحقة والسجن ، ابلغ الشرطة بانهاء كفالته له .

فوجىء الحلبى ، وكان قد رتب أموره ، اذ استأجر بيتا من ثلاث حجرات واشترى بالدين فرشا وأدوات مطبخ ، وجهاز تليفزيون ملون بعد قدوم عائلته ، كانت امرأته حلبية ، بيضاء ، جميلة ، ساعمة الحضور ، عذبة الصوت ، فى عينيها ألق ومعنى ، أما ابنته فتنبىء

محها بسعى انثى مكتملة على الرغم من عمرها الذى لم يتجاوز
رة اعوام ، العجيب ان شقيقها الذى يصغرها بعامين كان ينافسها
جمال ملامحها ، ونعومة شعرها ، كذا غزارته ، وانس القسمات ،
ن رشيقا ، اطول ممن يماثلونه عمرا ، وقاد البديهة ، سريع الحفظ ،
يل التأمل ، مشهود له بالفطانة ، والتفوق على أقرانه فى المدرسة ،
عظمهم من اهل هذه البلاد .

كان الحلبى يردد دائما أن روحه فى هذا الولد ، كان يحمله
يديه عندما كان طفلا ، يغير لفائفه ، ويطعمه ، ويصبر عليه حتى
رضاعته من زجاجة اللبن .

كان يقول انه عاش هجاجا ، ينتقل من موضع الى موضع ، ومن
ـ الى ديار ، وانه لم يخل بنفسه الا بعد مجىء ابنه . حتى كف
السهر فى المقاهى ، صار أحلى زمنه عندما يغلق باب بيته ويخلو
أهله ، حتى أنه كان يحبو على أربع ويحملهم أوقاتا فوق ظهره ،
ـبهم ويناغيهم .

كان أشد ما يعول همه ، ويقض طمأنينته ، أن يموت فجأة ..
ـ يصلى ويردد دائما انه يرجو خالقه اطالة عمره حتى اليوم الذى
خل جيب ولده أول قرش من عرقه ، عندئذ يمكنه اغماض عينيه
مئنا ، لكن صغر البنت والولد ، وطول السنوات المرتقبة ، وبعد
ـافة ، وعسر الأحوال ، واعتماده واتكاله على مهارة يديه ، وحسن
نعته ، مع انعدام الضمان ، وانتفاء الأمان ، لو أصابه وهن ،
كف يوما واحدا عن العمل لما تقاضى أجرا ، هذا كله جعله يفكر فى
ين حاجة للزمن . مبلغ يقى عائلته شر الحاجة اذا قضى نحبه
ءة ، يمكنه من افتتاح محل ولو صغيرا ، دكانا يقف فيه ليبيع
نافة المحشوة بالجبن ، تخصصه الأول ، يمكن لامرأته او ابنه
قوف فيه بعده ، مثل هذا يحتاج قدرا من المال . عمله باليومية
يمكنه من ادخاره ، لهذا بذل الجهد والسعاية حتى جاء هذه
يار .

هنا كف عن بعض عاداته التى لزمها فى بر الشام ، من ذلك
حبة ابنه فى أوقات فراغه ، عرف عنه ذلك ، لم يكن يرى فى شوارع
ـام الا ويده ممسكة بيد ولده .

كف عن ذلك هنا بعد أن سمع ما يتردد ان همسا أو علنا خاصة
. صلاة الجمعة عندما يبث المذياع انباء تنفيذ أحكام الاعدام ، فى

رجالٌ اغتصبوا فتيانا أو سرقوا ، كان يتحاشى المرور أمام الحجر المستطيل عند الركن الايمن خارج المسجد الكبير ، هنا كان يتم تنفيذ احكام الاعدام جهارا ، علنـا ، وبالسيف ، كان معظم المتهمين من الغرباء ، آسيويين ، أو عربا من أقطار اخرى ، وقلة نادرة من اهل البلد .

كان اذ يكتشف أن الضرورة قادته الى هذا الموضع يولي مسرعا ، او يفسح الخطى ، مرة لمح الحجر الذى تسقط فوقه رأس الضحية ، وخيل له انه رأى آثار دماء ، فهل جال عنده ، أو خطر له انه يوما سيمثل هنا ؟.

لا أدرى ، ولا يمكنني الجزم ، ولكنه تجنب الكافة ، ولم يخالط الخلق ، وحرص على مصاحبة ابنه حتى باب المدرسة ، وخـلال مشيهما معا يصره وصرح له بما يمكن أن يلقاه اذ يتعرض له ، كان لا يهدأ الا بعد عودته فى نهاية يوم عمله ، واغلاقه الباب وانفراده بأسرته ، كان لا يجد انسانيته الا عند اجتماعه بهم ، وانسهم به .

وعندما فوجىء بصاحب المصنع يرفع عنه كفالته له ، ويطلب منه تسليم أمره ، وانهاء حاله ، والرحيل ، أصابته مسغبة أوشك أن يلطم ، أن ينوح كالنساء .

جرى هنا ، وهرع الى هناك ، سعى الى دار الامارة ، قابله عجوز ممن يدبرون شئون الأمير ، يصحبونه فى روحاته أو غدواته ، ويقفون صامتين عندما يتناول طعامه ، ويشخصون اليه عندما يبدأ اللقاء بضيوفه ، تذكره الرجل برغم تقدمه فى السن ، أشار باصـبعه مقطبا عينيه :

« أنت الحلبى «حق» الكنافة ؟ »

أومأ مجيبا ، هو .. نعم ، هو بعينه .

أشار العجوز بيده ، هذا يعنى الأمر بالكف ، مع انه فى حاجة الى النطق ، الى الشرح بعد ان لحقه حال صعب ، الا أن العجوز قال ما طمأنه ، لم يخاطبه مباشرة ، انما صاح مناديا أحد الحراس :

« اذهب مع هذا ، منذ الآن هو فى كفالتى ... »

صحبه من له شأن عند الناس هنا ، وعنـدما وقف صاحب المصنع على الأمر ، بدا اضطرابه ، مع انه منيع الرتبة ، رفيع الوظيفة ، الا انه ليس مقربا ، ورسول الامارة لا يمثل نفسه ، انما ينوب عمن يمشى فى ركابه ، ويتقدم صفوفه ، الأمير نفسه ، نهة : بدا صوته

آمرا ، عندما طلب تسليمه جواز السفر ، واوراق الكفالة ، والتوقيع على ما يفيد ويوضح ..

منذ هذه اللحظة صار الحلبى الى كفالة العجوز ، كان رجلا نحيلا ذا لحية مدببة ، متوسط الطول ، يقول انه تجاوز الثمانين ، لكنه قادر على اشباع امرأة شابة مجربة .. والسر فى البصل .. انه يفطر يوميا على الريق رطلا من البصل المشوى ، فقط لا غير .. كان المقربون منه يؤكدون ذلك ، مع أن علامات الشيخوخة جلية فى ملامحه ، اذ يمسك فنجان القهوة المرة ترتعش يده فى الطريق الى فمه حتى تكاد القهوة تنسكب ، لكنه اذ يمشى يدب ساعيا ، واذا غضب يسمع صوته من بعيد .

غير أنه لم يكن مثل الكفيل الاول ، بدا أشد صرامة ، شديد الفضـول ، ثقيل الوطأة ، طلب من الحلبى الا يلبى أى طلب ـ ولو خاصا ـ لصنع الكنافة أو البقلاوة ، وان يخبره مقدما بأى منطقة يتوجه اليها للمكث اطول من ست ساعات حتى لو داخل المدينة ، وان يوضح له الأماكن التى يرتادها ، وتلك التى اعتاد المضى اليها ، والا يغادر المكان المخصص له داخل مطبخ القصر ، وان يسلمه هو شخصيا صوانى الكنافة والبقلاوة ، ليس الى أى انسان غيره ، مفهوم ؟ ، لو نما اليه أنه أهدى مجرد قطعة صغيرة الى أى شخص ولو كان الأمير نفسه سيلحق به أذى لا يمكن لمخلوق تصوره ..

اضطر الحلبى أن يقسم مرات مؤكدا أنه لا يسهر الا مع أسرته ، ولا ينادم الا ابنه وابنته وامرأته .

أبدى العجوز اهتماما ، متى تزوج ؟ هنـا أو فى حلب ؟ من اكبر ؟ الابن أو البنت ؟ فى أى مدرسة ؟ ، هل أمهما شامية أو من بلد آخر ؟.

اذن .. لابد أن الاولاد فى جمال القمر !

الحق ان الحلبى تحرك فى نفسه كره للرجل ، وقلق ليس بالهين ، خاصة بعد تكرار الأسئلة عن الأهل ، الى أن حل يوم قال فيه العجوز انه سيجىء الى البيت للتأكد بنفسه من كل كلمة قالها ، سيمر عليه فى الغد ليشرب عنده قهوة .

وجد الحلبى وجدا شديدا ، وصار لا يدرى ما يفعل ، فهو لا يقدر على رد طلب الرجل الذى يبسط عليه حمايته ، ويمسك بمقدراته ، كما أنه لم يسمع بمثل ذلك ، فكلمات العجوز بقدر ما تبدو

حاسمة ، موجزة ، آمرة ، بقدر ما تخفى معانى لم يستطع الوقوف عليها ، وجلاء غموضها .

على أى حال .. كظم ولم يظهر ، وبذل الجهد فى الاعداد لاستقبال العجوز ، لم يخبر انسانا بالزيارة ، لا من زملائه ولا من الجيران ، وعندما حانت اللحظة التى أعد لها العدة ، تمنى لو ولت وانتهت بسرعة ، دخلت امراته حيية ، خجولة ، سافرة ، تغطى راسها طرحة بيضاء لا غير ، تطلع اليها العجوز متفحصا ، وعندما توارت الابنة الصغيرة وراء أمها ، مد يده بجنيه ذهبى ، ولما لم تلح بادرة تطلع الى الأب ، فامر بدوره ابنته :

« خذى .. خذى من سيدك .. »

فأخذت البنت الجنيه وعضته بين شفتيها ، وعندما دخل الولد وتقدم مادا يده ، مصافحا ، مبديا الجراة ، وكأنه يؤكد تقدمه فى العمر ، وتجاوزه طور الطفولة ، ردد العجوز :

« ما شاء الله .. ما شاء الله .. كم عمره ..؟ »

فقال الحلبى :

ــ « .. عشر سنوات .. »

ردد الرجل :

ــ « ما شاء الله ، ما شاء الله .. »

أعطاه جنيها آخر من الذهب ، وعندما انصرف بعد مقدار ساعة ، قعد الحلبى ورأسه بين يديه ، لم يكن طوال الزيارة مطمئنا ، من طرف خفي كان يرصد نظرات العجوز ، كلماته الثقيلة ، البغيضة ، الا أن الزيارة لم تكن الأخيرة اذ قال الرجل انه آنس راحة عنده ، وأنه منذ سنوات لم يرتح كما ارتاح فى هذا البيت ، لأن الناس لم تعد أحوالها كما كانت فى الزمن القديم .

صار يتردد بدون ان يخبر الحلبى مقدما ، يدخل ويقعد ، ويطلب قهوة مرة ، ضغط الحلبى اموره ، ثم اتى الرجل بهدية الى امراته ، علبة قطيفة زرقاء على هيئة قلب ، تحوى قلادة من الذهب المطعم بالفيروز ، والمرجان ، وقرطا وخاتما وسوارا ، قال العجوز :

« يا ابنتى انا مثل والدك .. زوجك رجل طيب .. »

وبرغم ضيق الحلبى وكتمانه الغيظ خوف الأذى ، الا انه ارتاح لكلمات الرجل ، وعلل النفس انه يلقى فى بيته راحة ، ربما لروح الأسرة ، وحسن سمعتهم ، وبعدهم عن المشاكل ، ونقاء صفحته ،

بل انه تغاضى عن مجىء امراته وقعادها سافرة بدون غطاء للراس حتى ، مرتدية الروب الحريرى الخفيف ، الذى كان يكشف بوضوح قاطع حواف سروالها ، واستدارات ردفيها الممتلئين عند القيام ، وعند القعود ، لم يعد يتعجل انصرافها ، خاصة ان العجوز لم يبد منه تجاهها ما يشين ، كان يتصدر الحجرة متكئا على الحشـــية ، بعد أن يخلع عباءته ، وغترته .

ويبدو أن الحلبى استكان الى حد ما ، اذا كانت تلك هى الحدود فلا ضير ولا بأس .. وان كانت مكروهة .

هل لاحظ الحلبى شيئا غير عادى فى تلك الآونة ؟.

لا يمكننى الجزم ، ولكن تذكر امراته أن توترا مضاعفا حط عليه عندما صافح العجوز ابنه أول مرة ، واحتفاظه بعض الوقت بيد الغلام بين يديه ، النحيلتين ، بارزتى العروق ، المقدودتين ، كذلك عندما أصر العجوز على القاء بعض الأسئلة عليه لاختبار ذكاء الولد ، وطلبه سماع بعض الآيات القرآنية التى يحفظها عن ظهر قلبه ، واستحسانه للنطق والتلاوة ، حتى أنه لم يكتف بالطبطبة على كتف الغلام ، انما قبله ودعا له ..

صحيح أن الحلبى كان يخشى على امراته .. ولكن خوفه على الولد بدا أكثر . والحق أننى لا أقدر على جلاء هذه النقطة ، فربما شعر من أول لحظة لكنه أضمر .. وكتم ، ولم يسفر الى أن حل هذا اليوم وكان فيه ما كان ..

اذ رجع الحلبى من السوق ، ليجد العجوز .. سأل :

كم مضى عليه وهو قاعد مع الولد ؟

قالت امراته : ساعة أو أكثر . عندما دخل وجده يســــلم على ابنه وابتسامة تقطر رغبة ولزوجة ، بينما يطرق الصغير مضطربا ، محاولا الابتعاد بجسده عن الملامسة .

قال العجوز للحلبى انه لم ير تلميذا فى مثل ذكائه ، من الخسارة الا يتلقى قدرا من التعليم الراقى المخصوص ، فى داره فرصة ، لماذا لا يجىء ويقيم عنده ، سيكفل أموره تماما ، لن يعول هما له ، سيعيش مع أحفاده لا ينقصه شيىء ، سيرعاه بنفسه ..

لم يكن للعجوز يقترح ، انما بدا كمن قرر أمرا ، أو يقضى بحسم وضع ، مد يده مداعبا الغلام الذى نفر فجأة متواريا وراء أبيه ، خرجا معا ، بكى ، وتحت الحاح أبيه أفضى اليه بما جرى وكان ،

أخبر عن يد الرجل التي ملست عليه ، واندست بين فخذيه ، عن الذعر الذى انتابه عندما طلب منه العجوز أن يبرز كل منهما عضوه ، حتى يرى أيهما اطول ؟ أصغى الحلبي مذعورا ، ومن داخله طلع الى دماغه غلب زمن طويل ، حتى انه اعتم فجاة .

لم يدم الأمر طويلا ، من المطبخ جاء بالسكين الحـامية ، الى الغرفة دخل ، ثم تقلبت الحكاية في البلاد ، برغم أن تفاصيلها لم تنشر قط ، وقيل بين ما قيل انهم نوعوا العذاب للحلبي ، وان شرطيا أسود اغتصب الغلام على مرأى من أبيه ، وانه سمع بأذنيه ابنه ، يصرخ من ألم اللواط به ، وهذا أصعب عليه من اقتياده موثقا الى الميدان الكبير عقب صلاة الجمعة ، وتمزيق ياقته ، وبسط عنقه قبل ان ينخسه الجلاد بالسيف في ضلوعه .

في هذه اللحظة بالذات التقت عيناه بعيني الشاب الذى قصصنا جانبا مما جرى له في الحكاية السابقة .

عينا الحلبي في آخر لحظاته الحتا عليه أثناء انتظاره لامرأته في السيارة وعيشة المساء تغمره ، عينان مزرورتان ، شاخصتان ، جامدتان او مرعوبتان .. لا يدرى ، ما شغله يومها ، وحتى ما تردد أثناء وقفته هذه ، كيف رآه الحلبي ؟ وبقدر ما خشى هذه النظرة ، بقدر محاولته استرجاعها .

على اى حال ، الامر يطول شرحه ، ولكن المؤكد ، المقطوع به ، أن الحلبي لم يعد قط الى بلده ، قضى غريبا ، أما الشاب هذا فلم أقف على أحواله فيما تلا ذلك .

كان ممكنا ان تمضى أحوالهما بخلاف ما جرى لو أن حادثا تقدم عن موعده ، لو أن ترتيبا بسيطا لم يختلف ، وقبل ذلك .. لو أن الظروف لم تكن تلك الظروف .

ولكن .. ما وقع .. وقع ، وما سيجرى ، سيجرى ، وما شاء الله كان ، وقد كان ممكنا لى أن أمضى في ذكـر ما جرى لكثيرين ، عرفتهم .. اما قبل واما أثناء واما بعد هذا العقد الغريب ، المضطرب ، أقصد زمن السبعينيات ، لكنني اخاف الاطالة ، وأخشى الاملال .

لهذا رأيت الوقوف عند هذا الحد ، والاكتفاء بذلك القدر من رسالتي التي اوجهها الى من اجهل ، الى من لن التقى به ، الى من لم يعش زمني ، الى من لم يلقه حظه الطيب في وقتي .

ولكن في البدء ليس لنا خيار ، كذا في الانتهاء .

فما شاء الله كان ، منه نستمد العون ، فسبحان من لا يدركه تبديل ، العليم بأحوال العباد ، هو حسبنا ونعم الوكيل ...

كان الفراغ من التحرير ليلة الثلاثاء أول أيام شوال ، عيد الفطر المبارك ، عام الف واربعمائة وثمانية للهجرة . الموافق الفا وتسعمائة وثمانية وثمانين للميلاد ..

والسلام

تمت

رقم الايداع ٨٩/١٩١١
الترقيم الدولى ٤ - ٤٦٣ - ١٠٣ - ISBN٩٧٧

اقرأ من إصدارات مكتبة مدبولى للغيطانى .

- أوراق شاب .
- الزينى بركات .
- وقائع حارة الزعفرانى .
- ذكر ما جرى .
- قاهريات .
- الزويل .
- رسالة البصائر فى المصائر .
- خطط الغيطانى .



مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel 756421

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢